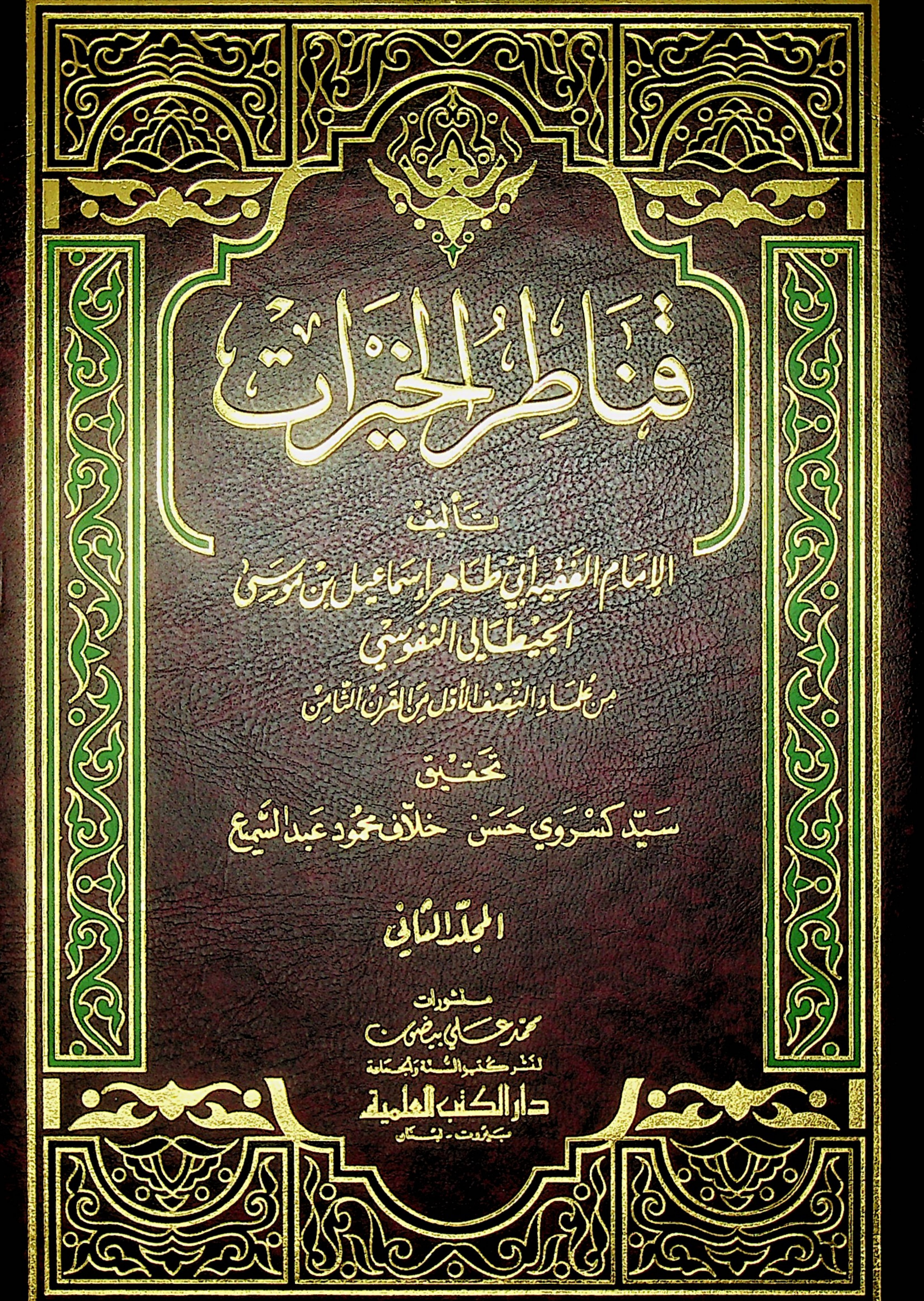

قناطر الخيرات
تأليف
الإمام الفقيه أبي طاهر إسماعيل بن موسى
الجيطالي النفوسي
من علماء النصف الأول من القرن الثامن
تحقيق
سيد كسروي حسن خلاف محمود عبد السميع
المجلد الثاني
منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



تأليف

الإمام الفقيه أبي طاهر إسماعيل بن موسى
الجيطالي النفوسي
من علماء النصف الأول من القرن الثامن

تحقيق

سيد كسروي حسن   خلاف محمود عبد السميع

الجزء الثاني

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م

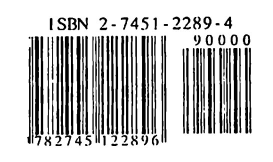
دار الكتب العلميـة
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شـارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ـ١١ بيروت ـ لبنـان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-2289-4



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com



القنطرة الخامسة
في الزكاة المشروعة في الأموال(1)

/ الحمد لله الغني الحميد، الواسع المجيد، المبدىء المعيد ذي البطش الشديد، الفعال [٢/أ] لما يريد، احْمَدُهُ حمداً استوجب به من نعمه المزيد، وأصلي على رسوله صلاة أرجو بها من الله العون والتأييد، والعصمة والتسديد.

أما بعد: فإن الله تعالى شرّع الزكاة في الأموال بعد فروض الأبدان، وجعلها حقاً واجباً للفقراء في أموال الأغنياء، حكمة ألّف بها بين قلوبهم لتبعثها على التعاون في إدراك مطلوبهم ونيل محبوبهم؛ لأن الراجي لغيره هائب له وصول، والمرجو ما لديه مهيب موصول، إذ لو انقطعت رغبة الفقراء من ذوي الأموال لسقطت بذلك من قلوبهم هيبة الإجلال، فيفضي ذلك إلى التقاطع والتدابر / والتباغض والتنافر، فيؤول ذلك إلى خراب الدنيا، وانقطاع سكانها، [٣/أ] فكان في إيجاب الله تعالى الزكاة مواساة للفقراء، ومعونة لذوي الحاجات والضعفاء، تكفهم عن البغضاء، والتقاطع، وتبعثهم على التواصل والتراجع، مع ما في أدائها من تمرين النفس على السماحة والبذل، ومجانبة الشُّح والبخل، لأن السماحة تبعث على أداء الحقوق، والشُّح يصدّ عنها، ويهيج بين الناس القطيعة والعقوق، فامتحن الله تعالى عباده حين آمنوا به وصدقوه، وادعوا محبته، وعبدوه، فأمرهم أن ينفقوا أموالهم المحبوبة عندهم، فيكون ذلك تصديقاً لدعواهم محبته وإيثاراً منهم له على ما سواه لأنه إنما تمتحن درجة الحب بمفارقة المحبوب والأموال محبوبة عند الخلق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبها يأنسون إليها وينفرون من الموت لأجلها وإن كان في الموت لقاء محبوبهم. فقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا

---

(1) منقول من كتاب الغزالي وغيره.

تُحِبُّونَ﴾[١]. فاستنزلهم عن المال الذي هو معشوقهم، وعن النفس التي هي غاية محبوبهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[٢]. وذلك بالجهاد، وهو مسامحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله تعالى، والمسامحة بالمال أهون إذ فيه ذريعة إلى تواصل الخلق، واتصاف للإنسان بالسخاء الذي هو أكرم أوصاف النفس، وتطهير القلوب من درن الذنوب ومثراة للمال، وحصن حصين من الأحوال.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٣] الآية.

[٤/ب] / فأنزل الله تعالى فرض الزكاة في المدينة مجملاً فبين النبي عليه الصلاة والسلام حدودها وأنواعها، ورسم أسباب وجوبها وأجناسها، ونحن إن شاء الله تعالى نكشف عن أسرارها الخفية، وشروطها الجلية، مع الاقتصار على ما لا يستغني عن معرفتها مؤدي الزكاة، وقابضها، وينحصر ذلك في خمسة أبواب:

الأول: في فضل الزكاة ووعيد تاركها.

الثاني: في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها.

الثالث: في أدائها وشروطها الباطنة والظاهرة.

الرابع: في قابضها وشروط استحقاقه وآداب قبضه.

الخامس: في صدقة التطوع وآداب أخذها وإعطائها.

ونحن نشرح هذه الأبواب إن شاء الله تعالى على الترتيب.

الباب الأول
في فضل الزكاة ووعيدها

اعلم أن الزكاة قنطرة الإسلام وطهارة للعبد من الآثام، قرن الله سبحانه وتعالى فرضها بالصلاة، وأفردهما بالذكر عن سائر الخيرات، تنبيهاً على أنهما من أعظم القربات، فقال تعالى مخبراً عن فضله بالرسل عليهم من الله الصلوات: ﴿أَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾[٤] الآية.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٩٢.
(٢) سورة التوبة الآية: ١١١.
(٣) سورة التوبة الآية: ١٠٣.
(٤) سورة المزمل الآية: ٢٠

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة، واستدفعوا أنواع البلايا بالدعاء».

وعنه ﷺ أنه قال: «ما نقص مال من صدقة، ما تواضع عبد إلاّ رفعه الله تعالى، وما عفا عبد عن أخيه مظلمة إلاّ زاده الله تعالى بها عزاً».

وعنه عليه الصلاة والسلام / أنه قال: «الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، [٥/أ] والقرآن حجة لك أو عليك».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من أدى زكاة ماله، وأقرى الضيف وأدى الأمانة فقد وقى شح نفسه».

وقال عليه السلام في بعض خطبه: «أيها الناس لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، فاعبدوا الله ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاتكم طيبة بها أنفسكم وحجوا بيت ربكم وأطيعوا ولات أموركم تدخلوا جنة ربكم».

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن الله تعالى لم يفرض الزكاة إلاّ ليطيب بها ما بقي من أموالكم».

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ما قصر أحد في الزكاة والحج إلاّ سأل الله تعالى الكثرة قال تعالى: ﴿وَانفِقُوا مِنْ ما رَزَقْنَاكُمْ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتَ فَيَقُول رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾[1]. فقيل لابن عباس: اتق الله فإنا نرى هذا في الكافر يعني المشرك. فاحتج ابن عباس بأول الآية، ثم قال: هذه الآية أشد شيء على أهل التوحيد، لأنه لا يتمنى الرجوع إلى الدنيا، والتأخير فيها أحد له عند الله خير في الآخرة.

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: مانع الزكاة يقتل. قال الربيع: قال أبو عبيدة: ذلك إذا منعها من إمام يستحق أخذها.

وقال الله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوا ٱلزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾[2].

وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال: لما قالت العرب: أما الصلاة

(١) سورة المنافقون الآية: ١٠.
(٢) سورة التوبة الآية: ٥.

فنصلي، وأما الزكاة فلا نجعل في أموالنا شركاء، فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده لأقاتلن من [٦/ب] فرق / بين الصلاة والزكاة، ولو منعوا مني عقالاً كانوا يؤدنه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه حتى ألحق بالله.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا صلاة لمانع الزكاة». قالها ثلاثاً، والمعتدي فيها كمانعها.

ومن طريق أنس عنه عليه السلام أنه قال: «مانع الزكاة في النار».

ومن طريق عائشة عنه عليه السلام أنه قال: «لا تخالط الصدقة مالاً إلا أهلكته». وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾(٢). قيل: إنه الزكاة في بعض الأقوال.

ولذلك توجه الوعيد على من منعه، وقال بعض العلماء: الزكاة مال يؤدي إلى النار، قيل معناه في ذلك من أخذها كما لا تحل له، ومن أعطاها لمن لا يستحقها، ومن منعها من المستحقين لها فهم جميعاً في النار.

وعنه ﷺ أنه قال: «ما نقض قوم العهد إلاّ ابتلاهم الله تعالى بالقتل، ولا منع قوم الزكاة إلا منع الله عنهم القطر، ولا ظهرت فاحشة الزنا في قوم إلا سلط الله عليهم الطاعون».

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾(٣). إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(٤) قال أهل التفسير: هذه الآية أنزلت في مانع الزكاة من أهل القبلة.

روي هذا عن ابن عمر وقال: كل مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وكل مال لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض.

وروي عن ابن عباس والضحاك والسدي مثله. وعن سعيد / بن المسيب: أن رجلاً باع

---

(١) سورة فصلت الآيتان: ٦، ٧.
(٢) سورة الماعون الآية: ٧.
(٣) سورة التوبة الآية: ٣٤.
(٤) سورة التوبة الآية: ٣٥.

أرضاً له، فقال له عمر رضي الله عنه: أحرز مالك الذي أخذت، احفر له تحت فراش امرأتك، فقال: يا أمير المؤمنين أليس بكنز؟ فقال: ما أديت زكاته فليس بكنز.

وعن جابر بن عبد الله أنه قال: إذا أخرجت الصدقة من مالك فقد أذهبت عنه شره وليس بكنز.

وقال بعضهم: كل ما فضل عن حاجتك فهو كنز. روي هذا عن عبد الواحد بن زيد.

واستدل أصحاب هذا القول بما روي عن ثوبان أنه قال: لما أنزلت هذه الآية قال النبي عليه السلام: «تباً للذهب، تباً للفضة». يقولها ثلاثاً، فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ. فقال المهاجرون: فأي المال نتخذ. فسأل عمر رحمه الله النبي عن ذلك فقال: «لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه».

وعن أبي ذر رحمه الله أنه قال: أتيت النبي عليه السلام وهو في ظل الكعبة مرتين، قال: فلما رآني قد أقبلت قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة» مرتين. قال: قلت: من هم فداك أبي وأمي؟ قال: «الأكثرون، إلاّ من قال به في عباد الله هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله وخلفه وقليل ما هم»[١].

وعن أبي هريرة أنه قال: من ترك عشرة آلاف درهم جعلت صفائح يعذب بها صاحبها يوم القيامة قبل القضاء.

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها».

وعن أبي أمامة قال: مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار، فقال النبي ﷺ: «كَيَّةٌ». ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال النبي عليه السلام: «كيّتان».

وعن علي بن / أبي طالب قال: كل ما زاد على أربعة الآف درهم فهو كنز أديت زكاته أو [٨/أ] لم تؤد، وما دونها نفقة.

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: والله الذي لا إلٰه إلا هو ما من رجل يكوى بكنز فيوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدة.

وعن الأحنف بن قيس قال: قدمت المدينة، فبينما أنا في حلقة من ملأ قريش إذ جاء

---

(١) بنحوه ذكره العراقي في المغني (٢٠٩/١، ٢١٠) وقال: أخرجاه: مسلم، والبخاري.

رجل أخشن[١] الثياب أحسن[٢] الوجه فقال: بَشِّر الكنازين برضيف يحمى عليه في نار جهنم، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نقض كتفيه، ويوضع على نقض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه، ويقال له: ذق كنزك فتكوى الجباه والجنوب والظهور حتى يلتقي الحر في أجوافهم، قال: فوضع القوم رؤوسهم، فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً، ثم أدبر فاتبعته حتى بلغ إلى سارية. فقلت: هؤلاء إلاّ كرهوا ما قلت لهم. فقال: إن هؤلاء لا يعقلون شيئاً. فإذا هو أبو ذر رحمه الله.

وأولى الأقاويل بالصواب إن شاء الله القول الأول لأن الوعيد وارد في منع الزكاة لا في جمع المال الحلال، يدل عليه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أدى زكاة ماله فقد أدى الحق الذي عليه ومن زاد فهو خير له». وقال: «نعماً بالمال الصالح للرجل الصالح».

وقد اختلف العلماء في حكم الآية وفيمن نزلت. فروي عن ابن عمر أنه قال: إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله تعالى طهارة للأموال.

وعن ابن عباس رحمه الله أنه قال: لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ...﴾[٣] الآية. [٩/ب] /كَبُر ذلك على المسلمين فقالوا: ما ندع لأولادنا؟ قال عمر: أنا أفرج عنكم. فقال: يا نبي الله إنه كبر على أصحابك هذه الآية. فقال: «إن الله تعالى لم يفرض الزكاة إلاّ ليطيب بها ما تبقى من أموالكم، وإنما فرض المواريث في أموال من يبقى بعدكم». ثم قال: «ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة. إذا نظر إليها سرته، واذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته».

وقال بعض الصحابة: هي في أهل الكتاب وفي المسلمين من كسب مالاً حلالاً فلم يعط حق الله منه كان كنز وإن قل كان على وجه الأرض أو في بطنها، وما أعطى حق الله منه لم يكن كنز ولو كان كثيراً مدفوناً في الأرض.

وعن أبي ذر رحمه الله تعالى قال: اختلفت أنا ومعاوية بالشام. فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب. فقلت: نزلت فينا وفيهم.

وقال بعضهم: نزلت في مانع الزكاة خاصة، وهو أولى الأقاويل لما روي عن أبي هريرة

---

(١) كذا بالأصل.
(٢) كذا بالأصل.
(٣) سورة التوبة الآية: ٣٤.

قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلاّ حمى عليه في نار جهنم فتجعل صفائح فيكوى بها جبينه وجنباه حتى يحكم الله بين عباده في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها يوم القيامة بقاع قرقر أوفر ما كانت تسير عليه كلما مضت عليه آخرها ردت عليه أولاها حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها إلاّ بطح لها بقاع قرقرٍ أوفر ما كانت [تسير] فتطأه بأظلافها وتنطحه / بقرونها ليس فيها عقصاء ولا جلحاء كلما مضت عليه [١٠/أ] آخراها ردت عليه أولاها حتى يقضي الله تعالى بين خلقه في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ممَّا تَعُدُّونَ» قال الراوي: فلا أدري أذكر البقر أم لا[١].

وعنه ﷺ أنه كان يقول: «من ترك بعده مالاً ولم يزكه مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يتبعه يقول له: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركت بعدك فلا يزال يتبعه حتى يلتقم يده فيقضمها، ثم يلتمس سائر جسده»[٢] والله تعالى أعلم.

الباب الثاني
في أنواع الزكاة وأسباب الوجوب

اعلم أن الزكاة باعتبار متعلقاتها ستة أنواع زكاة النعم والنقدين والتجارة، وزكاة الركاز والمعادن وزكاة المعشرات، وزكاة الفطر.

النوع الأول: زكاة النعم: اعلم أن الزكاة لا تجب إلاّ على الموحدين بلغاء كانوا أو أطفالاً، عقلاء أو مجانين لقول النبي عليه السلام: «أمرت أن آخذها من أغنيائكم وأردها في فقرائكم».

فعمَّ بالكاف والميم جميع أغنياء المسلمين، ولا تؤخذ من أغنياء المشركين كما لا تدفع إلى فقرائهم، لأن الزكاة لا تطهرهم ما داموا على شركهم وإنما تؤخذ من المسلمين الذين تكون الزكاة طهارة لهم كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ.....﴾[٣] الآية. وهذا شرط من عليه الزكاة.

---

(١) ذكر البيهقي نحوه في السنن الكبرى كتاب الزكاة، باب: ما ورد من الوعيد فيمن كنز مال زكاة ولم يؤد زكاته (٤/ ٨١).

(٢) راجع المصدر السابق.

(٣) سورة التوبة الآية: ١٠٣.

وأما المال فشروطه أربعة وهي أن يكون المال نعماً باقياً حولاً ونصاباً كاملاً مملوكاً على الكمال.

الأول كونه نعماً: فلا زكاة إلاّ في الأنعام وهي: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز.

[١١/ب] وأما: الخيل، والبغال / والحمير، والمتولد من الظباء بالغنم فلا زكاة فيها، واختلف في السوم هل هو شرط في الزكاة أو لا؟ فقال قوم: لا زكاة إلاّ في السائمة دون المعلوفة، وقال قوم: بل هي في الجميع.

الثاني الحول: لقول النبي عليه السلام: «لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول»[١].

ويستثنى من هذا إنتاج المال فإنه ينسحب عليها حكم المال فتجب الزكاة فيها بحلول الأصول ومهما[٢] باع المال قبل حلول الحول أو وهبه انقطع الحول.

الثالث كمال الملك والتصرف: فتجب الزكاة في الماشية المرهونة لأنه هو الذي حجر على نفسه فيها التصرف، ولا تجب في المال الضال والمغصوب إلاّ إذا عاد إليه فتجب زكاة ما مضى عوده والله تعالى أعلم.

الرابع كمال النصاب: أما الإبل فلا شيء فيها حتى تبلغ خمساً ففيها جذعة من الضان: وهي التي تكون في السنة الثانية أو ثنية من المعز؛ وهي التي تكون في السنة الثالثة، وفي عشر شاتان، وفي خمسة عشر ثلاث شياه، وفي عشرين أربع، وفي خمس وعشرين بنت مخاض من الإبل؛ وهي الداخلة في السنة الثانية فإن لم تكن في المال فابن لبون ذكر؛ وهو الداخل في السنة الثالثة يدفعه في الزكاة وإن كان قادراً على شراء بنت مخاض، وفي ست وثلاثين بنت لبون، ثم إذا بلغت ستاً وأربعين ففيها حقة؛ وهي التي في السنة الرابعة، ثم في إحدى وستين جذعة؛ وهي التي في السنة الخامسة ثم في تمام ست وسبعين بنتا لبون، ثم في إحدى وتسعين حقتان، فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون فإذا صارت مائة وثلاثين فقد [١٢/ب] استقر الحساب ففي كل خمسين حقة وفي كل / أربعين بنت لبون والله تعالى أعلم.

وأما البقر فهي عند أصحابنا كالإبل حذو النعل بالنعل في الأربع والعشرين من البقر وما دونها في كل خمس شاة من المعز، وفي خمس وعشرين حولية نظيرة بنت مخاض، والثنية من

---

(١) رواه أبو داود من حديث علي بإسناد جيد، وابن ماجه، من حديث عائشة بإسناد ضعيف (العراقي في المغني ١/ ٢١٠).

(٢) كذا في الأصل وفي الإحياء، وأرى أن الأولى أن يقول: فإن باع المال. . . .

البقر مكان بنت لبون من الإبل والرباعية مكان الحقة والسدسة من البقر مكان الجذعة من الإبل فإذا زادت على مائة وعشرين ففي كل خمسين رباعية وفي كل أربعين ثنية.

هذا عند أصحابنا في البقر وإما غيرهم من أهل الخلاف فلا شيء في البقر حتى تبلغ ثلاثين، ثم فيها تبيع؛ وهو الذي في السنة الثالثة ثم في أربعين مسنة؛ وهي التي بعد السنة الثالثة ثم في الستين تبيعان واستقر الحساب عندهم بعد ذلك ففي كل أربعين مسنة وفي كل ثلاثين تبيع والله تعالى أعلم.

وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز، ثم لا شيء فيها حتى تبلغ مائة وإحدى وعشرين ففيها شاتان، حتى تبلغ إحدى ومائتين ففيها ثلاثة شياه، إلى أربع مائة ففيها أربع شياه، ثم استقر الحساب في كل مائة شاة.

وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد في النصاب فإذا كان بين رجلين أربعين من الغنم ففيها شاة وإن كان بين ثلاثة نفر مائة وعشرون شاة ففيها شاة واحدة على جميعهم حتى تكمل إحدى وعشرين ومائة ففيها شاتان على قدر حصصهم، وكذلك غير الغنم من الإبل والبقر يستتم الشريك فيها بنصيب شريكه في الأصل والنصاب ويحمل الضان على المعز والبقر على الجواميس والإبل على البخت.

وتؤخذ الزكاة من أوسط المال ويتم بالسخال والعجلان والفصلان ولا يؤخذ منهم، ولا تؤخذ مريضة ولا هرمة، ولا ذات عوار / ولا تؤخذ كرائم الأموال ولا الأكولة؛ وهي [١٣/أ] المعلوفة، ولا المخاض؛ وهي الحامل، ولا الربى؛ وهي التي تربي ولدها، ولا غراء المال؛ وهو الرديء السيء الغراء منه، بل تؤخذ من الكرائم كريمة، ومن اللئام ليمة والله تعالى أعلم[١].

النوع الثاني: زكاة المعشرات: فيجب العشر في البُر والشعير والذرة والسلت والتمر والزبيب إذا كان مما سقته السماء والعيون، وإن كان مما سقي بالدوالي والنواضح فنصف العشر، وتجب الزكاة فيها بالإدراك وكمال النصاب فهو كمال خمسة أو ساق، وهي ثلاثة مائة صاع بصاع النبي ﷺ، ويعتبر أن تكون الأوسق تمراً أو زبيباً أو حباً يابساً لا رطباً ولا عنباً ولا فريكاً، فإن نقصت عن الثلاثمائة فليس فيها زكاة ويحمل البر على الشعير والسلت وهو جنس من الشعير وتؤخذ الزكاة من الجملة.

---

(١) راجع الإحياء للغزالي فقد ذكر نحوه فيه (١/ ٢١٠، ٢١١).

وأما التمر والزبيب والذرة: فتخرج من كل واحد على حدة لأنها أجناس مختلفة ويستتم الشريك في جميع الحبوب والثمار بنصيب شريكه وتؤخذ الزكاة من كل واحد على قدر حصته بعد اليبوسة والتنقية لا رطباً ولا عنباً إلاّ إن حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة في قطعها قبل تمام الإدراك فقد أجاز بعض العلماء أن تؤخذ الزكاة من الرطب فتكال تسعة للمالك وواحد للفقير. قال: ولا يمنع من هذه القسمة قولهم: إن القسمة بيع. بل يرخص في مثل هذه للحاجة، ووقت الأداء بعد الجفاف والله أعلم(١).

[١٤/ب] النوع الثالث: زكاة النقدين: وهما الذهب والفضة فتجب الزكاة في الذهب / المسكك إذا تم عشرون ديناراً خالصاً في ملك إنسان واحد وحال عليها الحول، وكذلك غير المسكك من التبر وغيره ـ أعني المصوغ حلياً ـ تجب الزكاة فيه بتمام عشرين مثقالاً ذهباً خالصاً فيخرج من العشرين ديناراً نصب دينار ومن العشرين مثقالاً نصف مثقال، ثم لا شيء في الزيادة حتى تبلغ أربع دنانير أو أربع مثاقيل، ثم فيها عشر دينار أو عشر مثقال.

وأما الفضة: فإذا تم الحول على مائتي درهم أوزنها بالوزن الشرعي؛ ويقال أنه وزن مكة وهي نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم وهي ربع العشر، وما زاد ففي كل أربعين درهماً درهم، وإن نقص من نصاب الذهب أو الفضة حبة فلا زكاة، وتجب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها مقدار النصاب من النقرة الخالصة ويضم الذهب إلى الفضة وتخرج الزكاة منها، ولا يستتم الشريك فيها بنصيب شريكه بل حتى يتم النصاب في حصته وتجب في الحلي ومراكب الذهب وأواني الفضة إذا تم فيه النصاب.

وتجب في الدين الذي هو على مليء إذا كان حالاً وإن كان مؤجلاً فحتى يحل، ويسقط المزكى ما عليه من دين الذهب أو الفضة خاصة عند إخراج الزكاة منهما خاصة دون ما سواهما من أنواع الزكاة.

والدرهم: قيراطان، والقيراط: ثلاثون حبة، هذا في كتب أصحابنا، وقد وجدت في أثار قومنا أن الدينار الشرعي فيه اثنتان وسبعون حبة من حب الشعير، وأن الدرهم الشرعي [١٥/ب] / فيه من حب الشعير خمسون حبة وخمساً حبة والله تعالى أعلم(٢).

النوع الرابع: زكاة التجارة: وهي زكاة الذهب والفضة وإنما ينعقد الحول من وقت ملكه

---

(١) راجع المصدر السابق (١/ ٢١١).
(٢) نفس المصدر.

للنقد الذي به اشترى البضاعة إن كان النقد نصاباً وإن كان ناقصاً فتقّوم البضاعة عند رأس الحول فإن كان في قيمتها مقدار النصاب أخرجت الزكاة منه، وإلاّ فلا ويقوّم التاجر كل ما معه من الأمتعة والعروض والحب وغير ذلك من جميع ما أشترى للتجارة قيمة وسطاً، وقيل تقوّم بسعر البلد، فإن كان ما اشترى به نقداً وكان نصاباً كاملاً، فلتقوم البضاعة المشتراة، فإن ازدات القيمة على النصاب أخرج زكاة القيمة، وإن نقصت على النصاب فليخرج زكاة النصاب المجعول فيها، ومن نوى التجارة في مالٍ قنيةً، فلا ينعقد الحول بمجرد نيته حتى يشتري به شيئاً، ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول فليؤد زكاة تلك السنة، وما كان من ربح في السلعة في آخر الحول وجبت الزكاة فيها بحول رأس المال، ولم يستأنف له حول كما في التتاج، وأموال الصيارفة لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهما كسائر التجارات، وزكاة ربح مال القراض على العامل وإن كان قبل القسمة إذا تم النصاب في حصة والله تعالى أعلم[١].

النوع الخامس: في الركاز والمعادن: فالركاز دفين الجاهلية، وقد أوجب النبي ﷺ فيه الخمس، ويجوز أخذه في كل زمان وسبيله سبيل الغنيمة، فكل من لا يأخذ الغنيمة فلا يجوز له أخذه / كالمشرك، والمرأة، والعبد، والطفل، ولا يجوز أخذه إلاّ بعلامة تبين أنه للمشركين [١٦/أ] كالصليب، والتمثال ونحوه، وإن وجد فيه علامة أهل التوحيد أو لم يوجد فيه علامة أصلاً فلا يأخذه، وإن وجد كنزاً جاهلياً أُخرج خمسه، ودفعه إلى الإمام وإن لم يكن الإمام فليدفعه لمن تدفع له الزكاة من الفقراء الأولياء.

وأما معادن الذهب والفضة فعلى من أخرج منها شيئاً زكاته، وقد قيل في المعادن الخمس والله أعلم[٢].

النوع السادس: في صدقة الفطر: وهي فضيلة عند أصحابنا من أهل الجبل دون غيرهم من أهل المشرق، وقد ثبت: أن النبي عليه السلام فرض زكاة الفطر على كل نفس من المسلمين: صاع من تمر أو صاع من شعير، حراً كان أو عبداً ذكراً أو أنثى. فظاهر هذا الخبر يقتضي الوجوب.

وثبت عنه أيضاً في حديث الأعرابي المشهور وذكر الزكاة فقال هل [عليّ][٣] غيرها؟ فقال: «لا إلاّ أن تطوع». فذهب من قال أنها فرض إلى أنها داخلة تحت الزكاة، وذهب الغير

(١) المصدر السابق.
(٢) ذكر الغزالي في كتابه الإحياء شيئاً على هذا النحو والمعنى فراجعه (١/٢١٢).
(٣) ما بين المعقوفين سقط من الأصل.

إلى أنها غير داخلة ـ والله تعالى أعلم ـ وهي صاع بصاع النبي عليه الصلاة والسلام وهي زكاة الأبدان يخرجها المرء عن من يمونه[١] من أولاده الأطفال، ومماليكه، وزوجته، ولا تلزم من يتحمل من أجلها ديناً، ولكن يعطها من عنده فضل عن قوته هو وجميع من تلزمه نفقته يوم الفطر وليلته، ويخرجها من جنس قوته أو من أفضل منه، فإن اقتات من الحنطة فلا يخرج من الشعير، وإن اقتات من حبوب مختلفة فليخرج من إيها أحب، ولا يخرج فطرة نفس واحدة / من جنسين، وإن كان يقتات من الثمار أو اللحوم أو البقول أو الألبان فليخرج منها صاعاً. [١٧/ب]

وأفضل أوقاتها قبل صلاة العيد يوم الفطر وإن لم يخرجها في ذلك فهي فطرة إلى يوم الأضحى، ويخرجها عن جميع من زاد عنه من عياله ما لم تطلع الشمس يوم الفطر فليس عليه منه شيء، وكل من جازه من أولاده البلغ لا يجب عليه إخراجها عنه، وكذلك المغضوب أو الأبق من عبيده إذا لم يرجع ولم يُرج رجوعه، وقيل في المغصوب أنه يؤدي عنه إذا طمع في رجوعه إليه، وعبيد التجارة ليس عليه من فطرتهم شيء، وكذلك الزوجات ما لم يخليهن، ويخرج فطرة العبد المشترك كل من اشترك فيه على حصصهم، وإن تبرعت الزوجة بالإخراج على نفسها أجزأ ذلك زوجها، وللزوج الإخراج عنها دون إذنها، وإن كان عنده ما يؤدي عن بعض عياله دون بعض فليقدم في الإخراج من كانت نفقته عليه آكد.

ويقال: إن النبي عليه السلام قدم نفقة الولد على نفقة الزوجة، ونفقتها على نفقة الخادم، والله تعالى أعلم. فهذا المقدار من المسائل الفقهية لا بد للمسترشد من معرفتها وقد تعرض له نوازل خارجة عن هذا المقدار فليستفت عنها من يثق بعلمه وورعه من العلماء عند نزولها والله تعالى أعلم[٢].

الباب الثالث
في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

اعلم أنه يجب على مؤدي الزكاة مراعاة عشر وظائف:

الأولى: اعتقاد النية؛ وهو أن ينوي عند الدفع إخراج زكاة الفريضة طاعة لله ولرسوله

(١) في إحياء علوم الدين: «يقوته».
(٢) أورد نحو هذا الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين (١/ ٢١٢).

عليه السلام، وليس عليه تعيين الأموال في قول بعضهم / فإن كان له مال غائب فقال: هذا عن [١٨/أ] مالي الغائب إن كان سالماً وإلاّ فهو نافلة، فقد قيل: أنه جائز لأنه لم يصرح به، فكذلك يكون عند اطلاقه، ونية الوليّ والخليفة تقوم مقام نية المجنون والصبي في إخراج زكاتهما، وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل فقد أجزأه وقد أجاز بعضهم أن وكّل وكيله بعقد النية فأقام توكيله بالنية مقام نيته والله أعلم.

وقد وجدت في كتاب تنسب فيه المسائل إلى أبي عبيدة مسلم رحمه الله تعالى ذكر فيه فقال: وإذا حضر إخراج زكاة مالك من الذهب والفضة أو التجارة أو الحرث أو الماشية فاركع ركعتين وقل: اللهم قني شح نفسي، واجعلني من المفلحين، تردد هذا مرات، وأخرج أطيب مالك وأجوده، فإن الرب أحق بأطيب مال العبد، قال: وإذا أردت تفريقها بنفسك فقل: اللهم إنك فرضت الزكاة وأمرت بأدائها، وجعلتها مقرونة بالصلاة، اللهم ارزقني إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن أضعها مواضعها وسددني وأرشدني، وأهدني وسلمني من كل جبّار فاسق وماكر مخادع، وأهد قلبي وبدني لمواضعها كما ألهمتني إخراجها، اللهم إن أصبت مواضعها تقبل ذلك مني وبارك لي فيه واجعله لي طهارة وزكاة ووسيلة، اللهم وإن أخطأت مواضعها فلا تمتني حتى ترزقني اخراجها وأن أضعها مواضعها إنك علام الغيوب، فإني لم أتعمد[١] خلافك ولا خلاف رسولك، فأرشدني ووفقني ولا تذرني في عماي، ولا تسلمني إلى هوى ولا تزين لي ضلالة، ولا تعمني عن[٢] الهدى وارزقني ما يرضيك كما رزقتني ما يرضيني من سعة فضلك / فإن ذلك من عطائك وفضلك ورزقك فبارك لي في عطائك وبارك لي في فضلك [١٩/أ] وبارك لي فيما أعطيتني واجعلني لأنعمك من الشاكرين.

الثانية: المبادرة إلى إخراجها في أول وقت الإمكان قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٣]. يعني إلى العمل الذي تستوجبون به الغفران ومن أخر زكاة ماله مع التمكن فقد عصى، وقيل: من فرط فيها مع التمكن حتى يدخل حول في حول أنه هالك، وقيل: لا يهلك ما لم يمت مضيعاً لها، وأما إن تلف ماله بعد التمكن ومصادفة المستحق فلا تسقط عنه الزكاة.

وفي أثر أصحابنا: إذا عرف مقدار كيل ماله لزمته الزكاة تلف ماله أو لم يتلف، والأول

---

(١) في الأصل: «اعتمد» وهو تحريف.
(٢) في الأصل: «على» وما أثبته أنسب للسياق.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٣٣.

عندي أحسن وهو لا تلزمه إلاّ بالتفريط في إخراجها مع وجود مستحقها، ويجوز تعجيل الزكاة عن وقتها بشرط أن تقع بعد كمال النصاب وانعقاد الحول، أعني يعجل زكاة عامين في عام، ثم إن عجل فمات المسكين قبل تمام الحول أو ارتد أو صار غنياً أو تلف مال المالك أو مات فالمدفوع إلى المسكين ليس بزكاة واسترجاعه غير ممكن إلاّ إذا قيد الدفع بالاسترجاع فإنه ينبغي أن يدركها عليه والله أعلم[١].

الثالثة: أن يقصد بها أهل الولاية الأتقياء المعرضين عن الدنيا وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «لا تأكل إلا طعام تقيّ، ولا يأكل طعامك إلا تقيّ»[٢]. وهذا لأن التقيّ يستعين بها على التقوى فتكون شريكاً له في طاعته بإعانتك إياه، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أطعموا طعامكم الأتقياء، وأولوا معروفكم الصالحين»[٣] وفي لفظ آخر: «أضف بطعامك من تحبه في الله»[٤].

[٢٠/ب] وفي كتاب الغزالي قال: وكان بعض العلماء يؤثر / بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم، فقيل له: لو عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل، فقال: هؤلاء قوم هممهم الله سبحانه وتعالى، فإذا طرقتهم فاقة تشتت همّ أحدهم فلأن أردّ همة واحد منهم إلى الله تعالى أحب إليّ من أن أعطي ألفاً ممن همته إلى الدنيا، قال: فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه، وقال: هذا وليٌّ من أولياء الله تعالى[٥].

وقال بعض العلماء: لا تعطي الزكاة إلاّ لمتولي ولا تؤخذ إلاّ من متولي، ولا يجوز أن تعطي لخمسة: مشرك، ومنافقة، وعبد، وغنيّ، ومن تلزمه نفقته من الوالدين، وولد غير بالغ، وزوجة وأشباههم[٦] فهؤلاء لا تعطى لهم الزكاة والله تعالى أعلم.

الرابعة: أن تعطيها لوجه خالصاً لا لرياء ولا طمعاً من مخلوق وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) نحو هذا القول في إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٢١٢، ٢١٣).
(٢) رواه أبو داود، والترمذي من حديث أبي سعيد بلفظ: «لا تصحب إلاّ مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي». قاله العراقي في المغني (١/ ٢١٩).
(٣) رواه ابن المبارك في البر والصلة من حديث أبي سعيد الخضري، قال ابن طاهر غريب فيه مجهول (قاله العراقي في المصدر السابق).
(٤) رواه ابن المبارك، أنبأنا جويبر عن الضحاك مرسلاً [قاله العراقي في المغني (١/ ٢٢٩)].
(٥) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٢١٩، ٢٢٠).
(٦) عدّ سبعة وذكر في مقدم كلامه أنهم خمسة.

يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ﴾[١]. ثم ضرب لذلك مثلاً فقال: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ. . . .﴾[٢] الآية.

أعني أن الناس يرون في الظاهر للمرائي عملاً كما يرى التراب على هذا الصفوان فإذا كان يقوم القيامة اضمحل كله وبطل لأنه لم يكن لله كما ذهب الوابل، وهو المطر الغزير ما كان على الصفوان؛ وهو الحجر الصلب الأملس من التراب فتركه صلداً أي أجرد لا شيء عليه.

قالوا: [و][٣]جب على الإنسان أن يخلص عمله لله تعالى وإلا بطل قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾[٤] الآية. ويقال: نزلت فيمن يتصدق بصدقة يلتمس الأجر والثناء.

الخامسة: أن ينقي من ماله أجوده وأحبه إليه وأطيبه في نفسه فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[٥].

يعني لا تقصدوا إلى الرديء من أموالكم فتنفقوا منه ولو / أهدى إليكم ما قبلتوه إلاّ مع كراهيةٍ وحياءٍ. [٢١/أ]

وفي الحديث: «سبق درهم مائة ألف درهم»[٦]. وذلك بأن يخرجه الإنسان من أطيب ماله راضياً فرحاً بإعطائه لله تعالى فيكون ذلك الدرهم أفضل من مائة ألف مع كراهية أو عدم إخلاص، قال الله تعالى مخبراً عن المنافقين: ﴿لاَ يَأْتُونَ ٱلصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[٧].

ولذلك ذم الله أقواماً جعلوا لله ما يكرهون قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾[٨]. أي كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار لأن الله تعالى جعل أهل السهام شركاء رب المال في ماله فكيف يمسك

---

(١) سورة النساء الآية: ٣٨.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٦٤.
(٣) ما بين المعقوفين سقط سهواً من الناسخ.
(٤) سورة الكهف الآية: ١١٠.
(٥) سورة البقرة الآية: ٢٦٧.
(٦) رواه النسائي وابن حبان وصححه من حديث أبي هريرة (المغني ١/٢١٩).
(٧) سورة التوبة الآية: ٥٤.
(٨) سورة النحل الآية: ٦٢.

الجيد ولهم فيه حق ويعطي الرديء. وأما إن كان المال كله رديئاً فلا بأس بإعطاء الرديء إلا أن يتطوع.

وأيضاً فإن إمساك الجيد وإخراج الرديء لله تعالى من سوء الأدب لأنه إن أمسك الجيد لنفسه ولأهله أو لعبده فقد آثر غير الله ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أردىء طعامه لأوغر صدره، هذا إن كان نظره لله تعالى لا يريد منه عوضاً لنفسه، وأما إن كان نظره لنفسه وثواب الله تعالى في الآخرة فليس بعاقل يؤثر غيره على نفسه وليس له من مال إلاّ ما تصدق فأمضى أو أكل فأفنى والذي يأكله قضاء حاجته في الحلال وليس من العقل صور النظر على العاجلة وترك الإدخار لما يقوم عليه في الآخرة.

السادسة: أن يستصغر العطية فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات؛ وهو [٢٢/ب]محبط للأعمال / قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[(١)].

ويقال: إن الطاعة كلما استصغرت كبرت عند الله والمعصية كلما استكبرت صغرت عند الله تعالى.

ويقال: لا يتم المعروف إلاّ بثلاثة: تصغيره، وتعجيله، وستره، فالعجب والاستعظام يجري في جميع العبادات ودواؤه[(٢)] علم وعمل.

أما العلم: فهو أن تعلم أن العُشْر وربع العُشر قليل من كثير، وأن الله تعالى قد قنع من عبده بأحسن درجات العطاء، والعبد جدير أن يستحيي من ذلك فكيف يستعظمه، وإن ارتقى في الدرجة العلياء في إعطاء ماله كله أو أكثره[(٣)] لله تعالى وله المنة عليه إذا أعطاه ووفقه لبذله فلم يستعظم في حق الله تعالى ما هو من قبله[(٤)] عز وجل وإن كان أعطاه الله تعالى ورجاء ثواب الآخرة فكيف يستعظم إعطاء ما ينتظر عليه أضعافه عند الله تعالى كما قال: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾[(٥)].

وأما العمل: فهو أن يعطيه عطاء الخَجِل المستحيي من البخل بإمساك بقية ماله عن الله

---

(١) سورة التوبة الآية: ٢٥.
(٢) في الأصل: ودواءه. وهو لحن والتصويب من إحياء علوم الدين (١/ ٢١٨).
(٣) في الأصل: أكثر. وأحسب أن الهاء سقطت من الناسخ.
(٤) في الأصل: قلبه. وأحسب أن الناسخ قد قلب حروف الكلمة سهواً.
(٥) سورة النساء الآية: ٤٠.

عز وجل فتكون هيئة الانكسار والحياء كهيئة من يطالب برد وديعة فيمسك بعضها ويرد البعض لأن المال كله لله تعالى وبذل جميعه وهو الأحبّ عند الله تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾(١).

السابعة: ألا يفسد صدقة بالمن والأذى قال الله تعالى: ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾(٢).

واختلفوا في حقيقة المن والأذى فقيل: المنّ: أن يذكرها، والأذى: أن يظهرها.

وقال بعض السلف: من منَّ / فسدت صدقته، فقيل: كيف المن؟ فقال: أن تذكرها [٢٣/أ] ويتحدث بها، وقيل: المنّ: أن تستخدمه بالعطاء، والأذى: أن تعيره بالفقر.

وقيل: المنّ: أن يتكبر عليه من أجل اعطائه، والأذى: أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة، وقد قال عليه السلام: «لا يقبل الله صدقة منان»(٣).

وفي كتاب الغزالي قال: وعندي أن المنّ له أصل ومغرس وهو من أحوال القلب وصفاته، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح فأصله أن يرى نفسه محسناً إليه ومنعماً عليه وإنما حقه أن يرى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله تعالى منه الذي هو طهارته ونجاته من النار وأنه لو لم يقبله لبقي مرتهناً به، فحقه أن يتقلد منَّة من الفقير إذ جعل كفه نائباً عن الله عز وجل في قبض حقه إذ قال النبي عليه السلام: «أن الصدقة تقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل»(٤).

فليتحقق أنه مسلم إلى الله عز وجل حقه والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته مسلماً إلى الله تعالى، ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذي هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدي الدين كون القابض تحت منّته سفهاً وجهلاً، فإن المحسن إليه المتكفل برزقه، وأما هو فإنما يقضي الدِّين الذي لزمه لاستبراء ذمته، فهو ساعٍ في حق نفسه فلم يمن به على غيره.

---

(١) سورة محمد الآية: ٣٧، وراجع في كل ما سبق إحياء علوم الدين (١/٢١٨، ٢١٩).

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٦٤.

(٣) طرفه عند الزبيري في إتحاف السادة المقتين (٤/١٢٣، ١١٩)، وقال العراقي في المغني (١/٢١٧) لم أجده.

(٤) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/٢١٧): رواه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عباس وقال غريب من حديث عكرمة عنه ورواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف.

ومهما عرف المعاني الثلاثة التي ذكرناها في فهم وجوب الزكاة وأخذها لم ير نفسه محسناً إلاّ إلى نفسه وإما ببذل ماله إظهاراً لحب الله تعالى أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل، وشكراً على نعمة المال طلباً للمزيد فكيف ما كان؟ فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسناً إليه، ومهما جعل هذا فرأى في نفسه / أنه محسن للفقير تفرع منه على ظاهره ما ذكر [٢٤/ب] في معنى المنّ وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة[١] والتوقير والقيام بالحقوق والتقديم له في المجالس والمتابعة في الأمور فهذه كلها ثمرات المنّة، ومعنى المنّة في الباطن ما ذكرناه[٢].

وأما الأذى: فظاهره التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتعطيب[٣] الوجه وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستحقار وباطنه وهو منبعه أمران:

أحدهما: كراهية لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه، فإن ذلك يضيق الخلق لا محالة.

والثاني: رؤيته أنه خير من الفقير، وأن الفقير بسبب حاجته أخس[٤] رتبة منه، وكلاهما منشأه الجهل، أما كراهية تسليم المال فهو حمق؛ لأن من كره بذل درهم في مقابلة ما يساوي ألفاً فهو شديد الحمق، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله تعالى، وللثواب في دار الآخرة، وذلك أشرف من بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكراً لطلب المزيد، وكيف ما كان بالكراهية لا وجه لها.

وأما الثاني: فهو أيضاً جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى، وعرف خطر الأغنياء لما استحقر[٥] الفقير، بل ينزل أو يتمنى درجته إذ في الحديث: إن صلحا الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام، ولذلك قال عليه السلام: «هم الأخسرون ورب الكعبة»[٦].

---

(١) في الأصل: الحرمة. والتصويب من إحياء علوم الدين (١/٢١٧).
(٢) راجع في كل ما سبق إحياء علوم الدين للغزالي (١/٢١٧).
(٣) في الأصل: تغضيب. والتصويب من المرجع السابق.
(٤) في الأصل: أخسر. والتصويب من المصدر السابق.
(٥) في الأصل: استخس. والتصويب من الإحياء (١/٢١٨).
(٦) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٨/ ١٦٢)، ومسلم في الصحيح (الزكاة ٣٠)، والترمذي في الصحيح (٦١٧)، والنسائي في المجتبى (٥/١٠)، أحمد في المسند (٥/١٥٢، ١٥٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/٩٧)، (١٠/٢٧).

فقال أبو ذر: ومن هم؟ قال: «الأكثرون أموالاً» الحديث. ثم قال: كيف يستحقر[1] الفقير وقد جعله الله تعالى متجراً[2] له إذ يكتسب المال بجهده ويستكثر منه ويجتهد في حفظه لمقدار الحاجة، وقد أُلزم أن يسلم للفقير قدر / حاجته، ويكف عنه الفاضل الذي يضره لو [٢٥/أ] سلمه إليه، فالغني مسخر للسعي في رزق الفقير، ويتميز عنه بتقلد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضالات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه فإذن مهما انتفت الكراهية وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له في أداء واجب الحق عليه وتقييضه الفقير له حتى تحمل عنه عهدته وصار غسالاً له من الذنوب لقبوله منه انتفاء الأذى والتوبيخ وتقطيب الوجه، وتبدل بالاستبشار والثناء وقبول المنة، فهذا منشأ المنّ والأذى، فإن قيل: فرؤيته نفسه في درجة المحسن أمر غامض فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسناً.

فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة، وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية هل كان يزيد استنكاره، واستبعاده له على ما كان قبل التصدق عليه، فإن زاد فإن صدقته لم تخل عن شائبة المنّة، لأنه توقع بسببها ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك، والله أعلم.

فإن قيل: فهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه فما دواءه. فاعلم أن له دواء باطناً وظاهراً:

أما الباطن: فالمعرفة فيها بالحقائق التي ذكرناها في فهم الوجوب، وهي المعاني المتقدمة فيعلم بها أن الفقير هو المحسن إليه في تطهيره من الذنوب بالقبول منه.

وأما الظاهر: فالأعمال التي يتعاطاها مقلد المنّة، منها ما روي: أن بعضهم كان يضع الصدقة بين يدي الفقير ويتمثل قائماً بين يديه يسأله قبولها منه حتى يكون هو في صورة السائلين، وهو يستشعر مع ذلك كراهية لورودها / عليه. [٢٦/أ]

ومنها ما روي عن بعضهم: أنه كان يبسط كفه ليأخذ الفقير منها فتكون يد الفقير هي العليا، ويد المعطي هي السفلى.

ومنها ما روي: أن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما إذا أرسلتا معروفاً إلى فقير قالتا للرسول: احفظ ما يدعو به، ثم كانتا تردان عليه مثل قوله، وتقولان: هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا.

---

(١) في الأصل: يستخس. والتصويب من الإحياء.
(٢) في الأصل: يسخر، وفي الإحياء متجره، والتعديل لتقريب العبارة مع السياق.

فكانوا لا يتوقفون الدعاء منه؛ لأنه شبه المكافأة فكانوا يقابلون الدعاء بمثله، وهكذا فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابنه عبد الله فيما بلغنا فهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم، ولا دواء من حيث الظاهر إلاّ هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنّة.

ومن حيث الباطن المعارف التي ذكرناها هذا من حيث العمل، وذلك من حيث العلم، ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل، وهذه الشريطة من الزكاة تجري مجرى الخشوع من الصلاة، وثبت ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يقبل الله صدقة منان»[١].

وبقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[٢]. وإنما فتوى الفقيه بوقوعها موقعها وبراءة ذمته منها دون هذا الشرط والله أعلم[٣].

الثامنة: أن يظهر الصدقة حيث يعلم أن الاظهار ترغيباً للناس في الاقتداء ويحرس سره عن داعية الرّياء فقال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾. أي تظهروها.

﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي نعمت الخصلة. ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾ أي تسروها ﴿وَتُؤْتُوهَا﴾ أي تعطوها ﴿الْفُقَرَاءَ﴾ في السر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[٤] وأفضل، وكلٌ مقبول إذا كانت النية صادقة، ولكن صدقة السّر أفضل، وفي التفسير قال أهل المعاني: هذه / الآية في صدقة التطوع لإجماع [٢٧/ب] العلماء أن الزكاة المفروضة إعلانها أفضل، كالصلاة المكتوبة في الجماعة أفضل من إفرادها، وكذلك سائر الفرائض لمعنيين أحدهما ليقتدي به الناس والثاني لئلا يسؤ به الظن، ولا رياء في الفرض.

وأما النوافل والفضائل فاخفاؤها أفضل لبعدها من الرياء والآفات، فهكذا ينبغي لصاحب الزكاة أن يبديها حيث يقتضي الحال الإبداء للاقتداء، ولإزالت التهمة، وكذلك إذا سأل السائل على ملأ من الناس فلا ينبغي له أن يترك الصدقة خوفاً من الرياء في الإظهار بل ينبغي أن يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان وهذا لأن في الإظهار محذوراً[٥].

---

(١) طرفه عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٢٣/٤، ١١٩) وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢١٧/١) لم أجده.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٦٤.

(٣) راجع في كل ما سبق إحياء علوم الدين للغزالي (٢١٧/١، ٢١٨)، فهو فيه بنصه إلاّ تغيير يسير جداً في بعض الأحرف.

(٤) سورة البقرة الآية: ٧١.

(٥) ذكر نحوه الغزالي في الإحياء مختصراً (٢١٦/١، ٢١٧).

ثالثاً: سوى المن والرياء وهو هتك سر الفقير، فإنه ربما يتأذى أن يُرى في صورة المحتاج، فمن أظهر السؤال فهو الذي هتك ستر نفسه فلا يحذر فيه هذا المعنى في إظهاره بالصدقة عليه، وهذا كظاهر الفسق على من تستر به وتاب منه لأن إشاعة الفسق عنه، وإظهاره حرام محظور والتجسس فيه والاغتياب بذكره منهي عنه.

فأما من أظهره بنفسه فإقامة الحدّ عليه إشاعة، ولكن هو السبب فيها ولمثل هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَانفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً﴾[٢]. ندب إلى العلانية لما فيه من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذي فيها[٣] من الرياء وحب الشهرة والسمعة؛ لأنه مهما كانت الشهرة مقصودة حبط عمله؛ لأن الزكاة إزالة للبخل وتهوين / لحب المال في القلب فحب الشهرة لاجتلاب الجاه أشد استيلاءً على النفس من [٢٨/أ] حب المال، وكل واحد منهما مهلك في الآخرة.

وقد يقال: صفة البخل تنقلب في القبر في حكم المثال عقرباً لادغاً، وصفة الرياء تنقلب أفعى من الأفاعي، والإنسان مأمور بتضعيفهما من نفسه أو قتلهما بدفع أذاهما، فمهما قصد الرياء والسمعة، فكأنه جعل بعض أطراف العقرب قوة للحيّة فبقدر ما ضعف من العقرب زاد في قوة الحيّة، ولو ترك الأمر كما كان عليه من البخل لكان أهون عليه وقوة هذه الصفات إنما تضعف بمجاهدتها ومخالفاتها. والعمل بخلاف مقتضاها فأي فائدة في أن يخالف داعية البخل ويجيب داعية الرياء فيضعف الأذى ويقوي الأقوى[٤]، وليكن متيقظاً لهذه الغوائل ومتفطناً لما في الإعلان من الفوائد فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فقد يكون الإعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل[٥]، والله تعالى أعلم.

التاسعة: أن يطلب بصدقته من فقراء أهل الولاية من تزكوا به الصدقة فإن عمومهم

---

(١) ذكره ابن عدي في الكامل، ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف. قاله العراقي في المغني (١/٢١٧).

(٢) سورة الرعد (الآية: ٢٢).

(٣) إلى هنا في الإحياء بنصه غير هذه الكلمة فإنها في الإحياء (فيه) (١/٢١٧)، ثم حول الكلام بعد ذلك في نقله فنقل من وظيفة الإسرار (١/٢١٦).

(٤) وكل ما سبق بين الإشارتين السابقة وهذه من الإحياء بنصه (١/٢١٦).

(٥) وأغلب العبارات بنصها ما بين الإشارة السابقة وهذه من الإحياء (١/٢١٧).

خصوصاً فليراع خصوص تلك الصفات وهي ست:

الصفة الأولى: أن يخصص بصدقته الزهاد الأولياء المعرضين عن الدنيا، وفي كتاب الضياء قال: ومن قصد بزكاته أهل الفضل كان أفضل له، وكذلك قالوا: من أعطى زكاته ثقة ضوعفت له أربع وعشرون زكاة(١).

والثانية: أن يكون من أهل العلم أو التعامل خاصة فإن ذلك إعانة له على العلم والتعلم؛ لأن العلم أشرف العبادات مهما صحت النية، ولذلك قيل: من أكرم عالماً فكأنما [٢٩/ب] / أكرم سبعين نبياً، ومن أطعم متعلماً فكأنما أطعم سبعين شهيداً.

ويروى أن ابن المبارك كان يخصص بمعروفه العلم فقيل له: لو عممت. فقال: إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء، وإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجة لم يتفرغ للعلم، ولم يقبل على التعلم، فتفريغهم لأهل العلم أفضل(٢).

الصفة الثالثة: أن يكون صادقاً في التقوى والعلم بحقائق التوحيد حتى أنه إذا أخذ الصدقة حمد الله تعالى وشكره، ورأى النعمة منه تعالى لا من خلقه، وإن الخلق وسائط مسخرة مقهورة بتسليط الله تعالى عليه دواعي الفعل ويسّر له الأسباب فأعطاه وهو مقهور، وعن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بني لا تجعل بينك وبين الله تعالى منعماً، وعد نعمة غيره عليك مغرماً فالصدقة على ذي يقين أفضل وأنفع للمتصدق من ثناء غيره وشكره الذي يرى النعمة من العباد لأن شكره حركة لسان يقل في الأكثر جداوة وإعانة مثل هذا المؤمن المتيقن لا يضيع، وأما الذي يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فقد يذم المنع ويدعو بالشر عند الإيذاء(٣) فأحوالهما متفاوتة.

وقد روي أن النبي ﷺ: بعث معرَوفاً إلى بعض الفقراء، وقال للرسول: «احفظ ما يقول». فلما أخذه قال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، ولا يضيع من شكره.

ثم قال: اللهم [إنك](٤) لم تنس فلاناً ـ يعني نفسه ـ فاجعل فلاناً لا ينساك، فاخبر الرسول النبي عليه الصلاة والسلام / بذلك فسُرَّ. [٣٠/ب]

---

(١) ذكر بعضه الغزالي في الإحياء (١/ ٢١٩).
(٢) أغلب هذا القول ذكره الغزالي في الإحياء (١/ ٢٢٠).
(٣) في الأصل: الأداء. والتصويب من إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٢٢٠).
(٤) ما بين المعقوفين من الإحياء (١/ ٢٢٠).

وقال: «قد علمت أنه يقول ذلك»(١). فانظر كيف قصر إلتفاته على الله تعالى وحده.

ويروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لرجل: «تُب» فقال: أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد، فقال ﷺ: «عرّف الحق لأهله»(٢). وقيل: لما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في قصة أهل الإفك، قال لها أبو بكر رضي الله عنه: قومي فقبلي رأس رسول الله ﷺ. فقالت: والله لا أفعل ولا أحمد إلاّ الله.

وفي لفظ آخر قالت له: بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك، فقال عليه السلام: «دعها يا أبا بكر»(٣).

فلم ينكر ذلك مع أن الوحي وصل إليها على لسانه عليه الصلاة والسلام.

ورؤية الأشياء من غير الله تعالى من أوصاف الكفار قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(٤). ومن لم يصف قلبه عن رؤية الوسائط إلا من حيث أنهم وسائط، فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي سره، فليتق الله تعالى في تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشرائبه(٥).

---

(١) قال العراقي: لم أجد له أصلاً إلا في حديث ضعيف من حديث ابن عمر، روى ابن مندة في الصحابة أوله ولم يسق هذه القطعة التي أوردها المصنف، وسمى الرجل حديراً فقد روينا من طريق البيهقي: أنه وصل لحدير من أبي الدرداء شيء فقال: اللهم إنك لم تنس حديراً فاجعل حديراً لا ينساك، وقيل: إن هذا آخر لا صحبة له، يكنى أبا جريرة وقد ذكره ابن حبان في الثقات التابعين (المغني ١/ ٢٢٠).

(٢) رواه أحمد، والطبراني في الكبير من حديث الأسود بن سريع بسند ضعيف (قاله العراقي في المغني ١/ ٢٢٠).

(٣) وقال العراقي عنه في المصدر السابق: رواه أبو داود من حديث عائشة بلفظ: فقال أبواي: قومي فقبلي رأس رسول الله ﷺ، فقلت: أحمد الله لا إياكما.
وللبخاري تعليقاً فقال أبواي: قومي إليه فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده، ولا أحمدكما، ولكن أحمد الله.
وله ولمسلم: فقالت لي أمي قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلاّ الله.
وللطبراني: فقالت: بحمد الله لا بحمد صاحبك.
وله من حديث ابن عباس: فقالت: لا بحمدك ولا بحمد صاحبك.
وله من حديث ابن عمر: فقال أبو بكر قومي فاحتضني رسول الله ﷺ، فقالت: لا والله، لا أدنو منه..... الحديث وفيه: أنها قالت للنبي ﷺ: بحمد الله لا بحمدك.

(٤) سورة الزمر (الآية: ٤٥).

(٥) كل ذلك ذكره الغزالي في الإحياء (١/ ٢٢٠، ٢٢١).

الصفة الرابعة: أن يكون مستتراً مخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى أو يكون من أهل المرؤة، وممن ذهبت نعمته وبقيت عادته فهو يتعيش في جلباب التجمل، قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[١] أي لا يلحفون بالسؤال لأنهم أغنياء بأنفسهم أعزة بصبرهم.

[٣١/أ] وهكذا ينبغي أن يطلب أهل الدين، ويستكشف عن بواطن أحوال أهل / الخير والتجمل عن السؤال بالصبر ليضاعف ما يدفع إليهم من المعروف أضعاف ما يصرفه إلى المهاجرين بالسؤال[٢].

الصفة الخامسة: أن يكون معيلاً أو محبوساً بمرض أو سبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[٣]. لأنهم مقصوصوا[٤] الجناح مقيدوا الأطراف، فلهذه الأسباب كان عمر رضي الله تعالى عنه فيما بلغنا يعطي أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها، وكان ﷺ يعطي العطاء على مقدار العيلة[٥]، وسئل عمر عن جهد البلاء فقال: كثرة العيال وقلة المال[٦].

الصفة السادسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام فتكون صدقة وصلة، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يخفى، وعن عليّ أنه قال: لأن أصل أخاً من إخواني بدرهم أحب إلي من أن أتصدق بعشرين درهماً، ولأن أصله بعشرين أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم، ولأن أصله بمائة درهم أحب إلي من أن أعتق رقبة.

والأصدقاء والإخوان في الدين أيضاً يتقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب فليراع هذه الدقائق فهي من الصفات المطلوبة، وفي كل صفة درجات فينبغي أن يطلب أعلاها فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والقيمة العظمى، ومهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، فإن أحد أجريه في الحال

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٧٣.
(٢) ذكر ذلك الغزالي في الإحياء (١/ ٢٢١).
(٣) سورة البقرة (الآية: ٢٧٣).
(٤) في الأصل: مقصوصون. والتصويب من الإحياء.
(٥) قال العراقي في المغني (١/ ٢٢١): لم أر له أصلاً، ولأبي داود من حديث عوف بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان إذا أتاه الفيء قسمه في يومه وأعطى الأهل حظين، وأعطى الأعزب حظاً.
(٦) كل ما سبق في هذه الصفة ذكره الغزالي في الإحياء (١/ ٢٢١).

تطهيره نفسه عن صفة البخل وتأكيد حب الله تعالى في نفسه واجتهاده في طاعته.

وهذه الصفات / التي تقوى في قلبه، فتشوقه إلى لقاء الله تعالى، والأجر الثاني ما يعود [٣٢/ب] إليه من فائدة دعوة الآخذ وهمته، فإن قلوب الأبرار لها آثار في الحال والمآل فإن أصاب حصل الأجران، وإن أخطأ حصل الأول دون الثاني، فهذا معنى تضاعف أجر المصيب في الاجتهاد هاهنا، وفي سائر المواضع والله تعالى أعلم بالصواب[١].

العاشرة: من الوظائف المتقدمة ألا ينقل الصدقة من بلده إلى بلد آخر استحب ذلك أكثر العلماء.

روي ذلك عن طاوس وعمر بن عبد العزيز والنخعي وأكثر فقهاء الأمصار، وإن فرّقها في غير بلده فهو جائز في قول أصحاب الرأي.

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه ردّ زكاة أُتي بها من خراسان إلى الشام فردّها إلى خراسان، وأجاز بعضهم نقلها عن بلده إلى ذي قرابة، روي ذلك عن الحسن والنخعي.

وفي أثر أصحابنا عن أبي المؤثر، وقد سُئل، فقيل له: رأيت إن كان في البلد فقراء فساق من أهل الدعوة، وفي غيره قريباً منه أهل ولاية، أتدفع الزكاة إلى فساق الفقراء من أهل البلد أم تنقل إلى أهل الولاية في غير البلد؟ فقال: الذي نرى أن فقراء أهل الدعوة من أهل البلد أحق بها حتى يستغنوا ولو كانوا فساقاً ولا تدفع إلى غيرهم وهم محتاجون والله تعالى أعلم[٢].

الباب الرابع
في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلاّ حر مسلم ليس بهاشميّ ولا مطلبي اتصف بصفات الأصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله تعالى، ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد / ولا [٣٣/ب] إلى هاشمي أو مطلبي.

وأما الصبي، والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما إذا كان أبواهما متوليين

(١) راجع الصفة بأكملها في إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٢٢١).
(٢) جاء أول الصفة العاشرة في الإحياء في كتاب الزكاة في الفصل الثاني في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة في الشرط الرابع (١/ ٢١٣).

عند أصحابنا، فلنذكر من الأصناف الثمانية[١]، من مست إليه الحاجة وهم: الفقراء والمساكين.

الصنف الأول الفقراء: وفي كتاب الغزالي: الفقير: هو الذي ليس له مال ولا قدرة له على الكسب.

قال: فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين.

قال: فإن قدر على الكسب بآلة فهو فقير.

قال: ولا يخرجه عن الفقر كونه معتاداً للسؤال.

قال: وإن كان متفقهاً ويمنعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته.

قال: وإن كان متعبداً يمنعه الكسب عن وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب لأن الكسب أولى منه.

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «الكسب فريضة بعد الفريضة»[٢].

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: كسب في شبهة خير من مسألة وإن كان مكتفياً بنفقة من تجب عليه نفقته فليس بفقير[٣].

الصنف الثاني المساكين: والمسكين هو الذي لا يفي دخله يخرجه فقد يملك ألفا[٤] درهم وهو مسكين، وقد لا يملك إلاّ فأساً وحبلاً وهو غني، والدويرة التي يسكنها والثوب الذي يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين.

وكذلك أثاث البيت ـ أعني ما يحتاج إليه[٥] ـ وذلك ما يليق به، وكذا كتب الفقه لا تخرجه من المسكنة.

وأمثال هذه الحاجات لا تنحصر، ولكن كل ما تسع فيه الإنسان اقتحم خطر الشبهات في أخذ ذلك من الزكاة والمتورع / يأخذ بالأحوط والله أعلم. [٣٤/أ]

فحق على الفقير أن يعرف قدر نعمة الله تعالى، ويتحقق أن فضل الله عز وجل عليه فيما

---

(١) راجع الإحياء للغزالي (١/ ٢٢١، ٢٢٢).
(٢) طرفه عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤/ ١٣٨).
(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٢٢).
(٤) في الإحياء: ألف.
(٥) راجع الإحياء للغزالي (١/ ٢٢٢).

رواه عنه أفضل من فضله فيما أعطاه كما سيأتي إن شاء الله تعالى وليراع في أخذ الصدقة.

إحداها: أن يتحقق أن ما يأخذه من الزكاة إنما أخذه من الله سبحانه رزقاً له وعوناً على الطاعة حتى لا يمدح من أعطاه ولا يذم من منعه ولتكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله تعالى وليصرف الفاضل عن حاجته إلى أهله إن استغنى عنه فإن استعان به على معصية الله كان كافراً لأنعم الله تعالى مستحقاً للبعد والمقت من الله سبحانه[١].

والثانية: أن يشكر المعطي ويدعو له ويثني عليه ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرج عن كونه واسطة ولكنه طريق لوصول نعمة الله سبحانه إليه، وللطريق جزء من الشكر من حيث جعله الله تعالى طريقاً وواسطة وذلك لا ينافي في رؤية[٢] النعمة من الله عز وجل فقد قال النبي ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل»[٣] وقد أثنى الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها وفاطر القدرة عليها نحو قوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[٤].

إلى غير ذلك، وليقل القابض في دعائه: طهر الله قلبك في قلوب الأبرار، وزكى عملك في عمل الأخيار وصلى على روحك في أرواح الشهداء، وهذا إذا كان صاحب الزكاة متولاً، وأما إذا كان غير متولاً، فليقتصر على دعاء الدنيا والله أعلم.

وقد قال عليه السلام: «من أسدى إليكم معروفاً فكافؤه، فإن لم / تستطيعوا فادعوا له [٣٥/ب] حتى يرى أن قد كافأتموه»[٥].

وقال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[٦]. أي ادع لهم إن دعواتك مما تسكن إليه قلوبهم وقال عليه السلام: «اللهم صل على آل أبي أوفى» لمّا أتاه بزكاة ماله والله علم.

ومن تمام الشكر أن يستر عيوب المعطي إن كان في عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره

---

(١) راجع المصدر السابق (١/ ٢٢٣).
(٢) في الأصل: رواية. والتصويب من المصدر السابق.
(٣) رواه الترمذي في الجامع الصحيح وحسنه من حديث أبي سعيد وله ولأبي داود وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح (المغني ١/ ٢٢٤).
(٤) سورة صّ الآية: ٤٤.
(٥) رواه أبو داود، والنسائي (في المجتبى) من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ: من صنع. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٢٤).
(٦) سورة التوبة الآية: ١٠٣.

بالمنع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند غيره من الناس ضيعته فوظيفة المعطي الاستصغار لما أعطاه ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام، وكل ذلك لا تناقض فيه ـ أعني التصغير والتعظيم لشيء واحد ـ لأن النافع للمعطي ملاحظة أسباب التصغير ويضره خلافه، والأخذ بالعكس وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عز وجل؛ فإن من لا يرى الواسطة واسطة فقد جهل وإنما المنكر إن يرى الواسطة أصلاً والله أعلم[١].

الثالثة: أن ينظر فيما يأخذه فإن لم[٢] يكن من حله[٣] تورع عنه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾[٤] ولن يعدم المتورع عن الحرام فتوحاً من الحلال، فلا يأخذن من أموال العرب والأجناد وعمال السلاطين، ومن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق عليه الأمر، وكان ما يسلم إليه شبهة، فله أن يأخذ بقدر الحاجة، فإن فتوى[٥] الشرع في مثل هذا أن يتصدق به، وهذا إذا عجز عن الحلال، فإذا أخذ لم يكن أخذه أخذ زكاته إذ لا تقع زكاته عن مؤديه وهو ريبة أو حرام[٦] لا يعرف له مالك معين لأن الزكاة إنما تكون من الحلال.

وأما الشبهة: فليتصدق بها وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه والحرام الفرض عليه فيه التوبة من أخذه / والرد على صاحبه أو التصدق به إن لم يعرفه والله أعلم. [٣٦/أ]

الرابعة: أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه فلا يأخذ إلاّ المقدار المباح، ولا يأخذ إلاّ إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق، فإن كان يأخذ بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين، وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجرة المثل، فإن أُعطي زيادة أبى وامتنع إذ ليس المال للمعطي حتى يتبرع به، وإن كان مسافراً لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده.

وإن كان غازياً لم يأخذ إلا ما يحتاج للغزو خاصة من خيل، وسلاح، ونفقة، وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حدّ وكذا زاد السفر.

والورع: ترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، وإن أخذ بالمسكنة، فلينظر أولاً: إلى أثاث بيته وثيابه وكتبه هل فيها ما يستغني عنه فيمكن أن يبدل بما يكتفي به أو يفضل بعض قيمته وكل

---

(١) راجع إحياء علوم الدين به (١/ ٢٢٤).
(٢) في الأصل: ما. والتصويب من المصدر السابق.
(٣) في الإحياء الموضع السابق: حِلّ.
(٤) سورة الطلاق (الآيتان: ٢، ٣).
(٥) في الأصل: فتو. والتصويب من الإحياء.
(٦) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٢٤).

ذلك إلى اجتهاده وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق لأخذ الزكاة وطرف آخر مقابل له يتحقق معه أنه غير مستحق وبينهما أوساط مشبهة. ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، والاعتماد في هذا على قول الآخذ ظاهراً، وللمحتاج في تقديم الحاجات مقامات في التضيق والتوسيع ولا تنحصر مراتبه، وميل الورع إلى التضيق، وقيل المتساهل إلى التوسيع، حتى يرى نفسه محتاجة إلى فنون من التوسيع الذي هو ممقوت في الشرع، ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن إلا ما يتم كفايته من وقت أخذه إلى سنة.

فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث أن السنة إذا تكررت تكرر أسباب الدخل، ومن حيث أن رسول الله عليه السلام ادّخر لعياله / قوت سنة[1]، فهذا ما يرخص فيه للفقير [٣٧/ب] والمسكين ولو اقتصر على حاجة شهره أو يومه فهو أقرب للتقوى.

ومذاهب العلماء في القدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة، فمن بالغ في التقليل أوجب الاقتصار على قوت يومه وليلته، وتمسك فيما ذكر في كتاب الغزالي بما رواه سهل بن الحنظلية عن رسول الله ﷺ: أنه نهى عن السؤال، فسئل عن غناه فقال عليه الصلاة والسلام: «غداؤه وعشاؤه»[2].

وقال آخرون: يأخذ إلى حد الغنى، وحد الغنى نصاب الزكاة، إذ لم يوجب الله عز وجل الزكاة إلاّ على الأغنياء فقالوا له: أن يأخذ لنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة، وقال قائلون: حد الغنى خمسون درهماً لما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «من سأل وله مال مغنية[3] جاء يوم القيامة في وجهه خموش» فسئل: وما غناه؟ قال: «خمسون درهماً أو عدلها من الذهب»[4].

وقال قوم: أربعون لما روي عن عطاء بن يسار منقطعاً عنه ﷺ قال: «من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال»[5]. وبالغ أخرون في التوسيع فقالوا له: أن يأخذ مقدار ما يشتري به

---

(١) أخرجاه من حديث عمر: كان يعزل نفقة أهله سنة، وللطبراني في الأوسط من حديث أنس: كان إذا ادخر لأهله قوت سنة تصدق بما بقي، قال الذهبي حديث منكر. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٢٤).

(٢) رواه أبو داود، وابن حبان بلفظ من سأل وله مال يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٢٥).

(٣) في الإحياء: يغنيه.

(٤) رواه أصحاب السنن وحسنه الترمذي، وضعفه النسائي والخطابي قاله العراقي في المصدر والموضع السابق.

(٥) رواه أبو داود والنسائي من رواية عطاء عن رجل من بني أسد متصلاً وليس بمتقطع كما ذكر المصنف لأن الرجل صحابي فلا يضر عدم تسميته، وأخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد قاله =

ضيعة فيستغني بها طول عمره أو يهيء بضاعة ليتجر فيها ويستغني لأن هذا هو الغنى. وقد قال النبي عليه السلام: «خير الصدقة ما أبقت غني».

وعن عمر رحمه الله أنه قال: إذا أعطيتم فاغنوا، حتى ذهب قوم [إلى][1] أن من افتقر فله أن يأخذ مقدار ما يعود به إلى مثل ماله ولو عشرة آلاف درهم إلا إذا أخرج عن حد الاعتدال، ويروى أن أبا طلحة الأنصاري لما شغله بستانه عن الصلاة قال: جعلته صدقة، [٣٨/أ] فقال ﷺ: «اجعله في قرابتك / وهو خير لك». فأعطاه حساناً وأبا قتادة، فحائط من نخل لرجلين كثير مغن.

قال: وأما التقليل إلى قوت اليوم والليلة والأقوية فذلك ورد في كراهية السؤال والتردد على الأبواب، وذلك مستنكر وله حكم آخر، بل التجويز إلى أن يشتري ضيعة فيستغني بها أقرب إلى الاحتمال وهو مائل إلى الإسراف، والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة، فما وراءها فيه نظر، وفيما دونها تضييق وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزء بالتوقيف فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له. ثم يقال للمتورع: «استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك»[2]. كما قاله ﷺ، إذ الأثم حزاز القلوب.

وإذا وجد القابض في نفسه شيئاً مما يأخذه فليتق الله فيه ولا يترخص تعللاً بالفتوى من علماء الظاهر، فإن للغني قيود أو مطلقات من الضروريات، وبين ذلك ريبات واقتحام شبهات والتقوى من الشبهات من شيم ذوي الدين وعادات السالكين لطريق الآخرة والله نسأله العون والتوفيق[3].

الباب الخامس
في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

هذا الباب يحتوي على ثلاثة فصول:

الأول: في فضيلة الصدقة.

والثاني: في بيان إخفائها وإظهارها.

= العراقي في المصدر السابق.

(١) ما بين المعقوفين من الإحياء.

(٢) أخرجه أحمد من حديث وابصة. قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (١/ ٢٠).

(٣) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٢٢٥).

والثالث: في بيان الأفضل من أخذ الزكاة والصدقة.

الفصل الأول: في فضيلة الصدقة من الأخبار والآثار

قال الله سبحانه: ﴿أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾[٢] الآية.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾[٣].

ويروى / عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تصدقوا ولو بشق تمرة تكِنُّونَ بها وجوهكم عن [٣٩/ب] النار».

وفي لفظ آخر: «تصدقوا ولو بتمرة فإنها تسد من الجائع وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار»[٤].

وفي حديث آخر: «اتقوا النار ولو بشق تمرة وإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»[٥].

وعنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله عز وجل إلاّ طيباً إلا كان الله عز وجل يأخذها فيربيها كما يربي أحدكم فسيلة حتى تبلغ التمرة مثل أحد»[٦].

وعنه ﷺ أنه قال لأبي الدرداء: «إذا طبخت برمة فأكثر ماءها، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف»[٧].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٦٧.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٧٤.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٦١.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد من حديث عكرمة مرسلاً، ولأحمد من حديث عائشة بسند حسن: «استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان»، ولأبي يعلى البزار من حديث أبي بكر: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فإنها تقوم العوج وتدفع ميتة السوء وتقع من الجائع موقعها من الشبعان»، وإسناده ضعيف، وللترمذي والنسائي في الكبرى وابن ماجه في حديث معاذ: «والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار». قاله العراقي في المغني (١/ ٢٢٦).

(٥) أخرجاه من حديث عدي بن حاتم قاله العراقي في المصدر السابق.

(٦) رواه البخاري تعليقاً، ومسلم، والترمذي والنسائي في الكبرى واللفظ له، وابن ماجه من حديث أبي هريرة. قاله العراقي في المغني بهامش الإحياء (١/ ٢٢٦).

(٧) رواه مسلم من حديث أبي ذر: أنه قال ذلك له، وما ذكره المصنف أنه لأبي الدرداء وهم. قاله العراقي =

وعنه ﷺ أنه قال: «ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته»[١].

وعنه ﷺ أنه قال: «الرجل في ظل صدقته يوم القيامة حتى يقضى بين الناس»[٢].

وعنه ﷺ أنه قال: «صدقة السر تطفىء غضب الرب عز وجل».

وعنه ﷺ أنه قال: «ما المعطي من سعة بأفضل أجراً من الذي يقبل من حاجة»[٣].

وفي كتاب الغزالي قال: ولعل المراد به الذي يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين فيكون مساوياً للمعطي الذي يقصد بإعطائه عمارة دينه.

قال: وسئل عليه السلام: أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفاقة، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا وقد كان لفلان»[٤].

[٤٠/أ] وعنه ﷺ / أنه قال يوماً لأصحابه: «تصدقوا». فقال رجل: إن عندي دينار، قال عليه السلام: «أمسكه لنفسك». قال: إن عندي آخر، قال: «أنفقه على زوجتك». قال: إن عندي آخر، قال: «أنفقه على ولدك». قال: إن عندي آخر، قال: «أنفقه على خادمك». قال: إن عندي آخر، قال له ﷺ: «أنت أبصر به»[٥].

وعنه ﷺ أنه قال: «ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام»[٦].

وعنه ﷺ أنه قال: «إذا سأل سائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها ثم ردوا عليه

= في المغني (١/٢٢٦).

(١) رواه ابن المبارك في الزهد من حديث ابن شهاب مرسلاً بإسناد صحيح، وأسنده الخطيب فيمن روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٢) رواه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم من حديث عقبة بن عامر. قاله العراقي عن نحوه في تعليقه على الإحياء في كتابه المغني عن حمل الأسفار (١/٢٢٦).

(٣) رواه ابن حبان في الضعفاء والطبراني في الأوسط من حديث أنس، ورواه في الكبير من حديث ابن عمر بسند ضعيف قاله العراقي في المصدر السابق.

(٤) أخرجاه من حديث أبي هريرة، قاله العراقي في المصدر السابق.

(٥) رواه أبو داود والنسائي واللفظ له، وابن حبان، والحاكم من حديث أبي هريرة. قاله العراقي في المغني (١/٢٢٦).

(٦) رواه العقيلي في الضعفاء من حديث عائشة. قاله العراقي في المغني (١/٢٢٧).

بوقار ولين وببذل يسير أو برد جميل فإنه قد يأتيكم من ليس بإنس ولا جان ينظرون كيف صنعكم فيما خوّلكم الله عز وجل».

وعنه ﷺ أنه قال: «لو صدق السائل ما أفلح من رده»[(١)].

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: من رد سائلاً خائباً لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام.

وبلغنا: أن النبي ﷺ كان لا يأكل خصلتين إلى غيره: كان يضع طهوره بالليل ويخمره، وكان يناول المسكين بيده[(٢)].

وبلغنا ـ والله أعلم ـ: أن الملائكة ينزلون بالليل يسألون فيتمثلون كبني آدم، فيأتون أبواب الصالحين في صور السؤال بالليل، فإذا صعدوا إلى السماء قالت لهم الملائكة: كيف وجدتم بني آدم في المعروف؟ فيقولون: وجدنا فلاناً سخياً كثير العطية. فيقولون: اللهم اغفر له، اللهم ارزقه وبارك له فيه وقنّعه وإذا قالوا: وجدنا فلاناً شحيحاً منّاعاً خشن القول. قالوا: اللهم اجعله (. . . . . . .)[(٣)].

وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس المسكين الذي / تردُّه الثمرة والثمرتان واللقمة [٤١/ب] واللقمتان إنما المسكين المتعفف اقرأوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾»[(٤)].

وعنه ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يكسو مسلماً إلاّ كان في حفظ الله تعالى ما دامت عليه رقعة منه»[(٥)].

وعنه ﷺ أنه قال: «الصدقة تقي مصارع السوء، وتدفع ميتة السوء».

وعنه ﷺ أنه قال: «نفقة الرجل على أهله صدقة»[(٦)].

---

(١) رواه العقيلي في الضعفاء، وابن عبد البر في التمهيد من حديث عائشة، قال العقيلي: لا يصح في هذا الباب شيء، وللطبراني نحوه من حديث أبي أمامة بسند ضعيف. راجع المصدر السابق.

(٢) رواه الدارقطني من حديث ابن عباس بسند ضعيف، ورواه ابن المبارك في البر مرسلاً. راجع المصدر السابق.

(٣) موضع النقط جاء تعليق عليه بالهامش نصه: بياض في الأصل.

(٤) الحديث متفق عليه من حديث عائشة. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٢٧) والآية من سورة البقرة ورقمها: (٢٧٣).

(٥) رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن عباس وفيه خالد بن طهمان ضعيف. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٢٧).

(٦) طرفه عند: البخاري في الصحيح (٥/ ١٠٧)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٩٦٥)، ابن حجر في الفتح (٧/ ٣١٧)، الهيثمي في المجمع (٣/ ١٠٢)، ابن عدي في الضعفاء (٢٢٥٧)، ابن أبي شيبة في =

وعنه عليه السلام أنه قال: «ردوا السائل ولو بظلف محرق».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من أطعم مسلماً ثمرة أطعمه الله من ثمار الجنة ومن سقاه جرعة سقاه الله من الرحيق المختوم».

وعنه عليه السلام أنه قال: «إنما المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من أنفق زوجين نودي في الجنة، يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعيّ من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعيّ من باب الرّيان».

قال أبو بكر رضي الله عنه: ما على من يدعى من هذه الأبواب من ضرورة فهل يدعى أحد من هذه الأبواب كلها؟ قال عليه السلام: «نعم وأرجو أن تكون أنت منهم»[١].

قال الربيع بن حبيب رحمه الله: قوله: «انفق زوجين». يعني خفين أو نعلين وما كان زوجين مثلها.

وعنه ﷺ أنه قال: «سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان / تحابا في الله اجتمعا وافترقا على ذلك، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه بالدموع [٤٢/أ] من خشية الله عز وجل، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما انفقت يمينه»[٢].

وعنه عليه السلام أنه قال: «المال الحلال رائح بصاحبه إلى الجنة». ويقال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾[٣] الآية.

= المصنف (٩/١٠٦).

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٣/٣٢، ١٣٥، ٥/٧)، مسلم في الصحيح (الزكاة ٨٥، ٨٦)، والترمذي في الجامع الصحيح (٣٦٧٤)، النسائي في المجتبى (٤/١٦٨)، (٦/٢٢، ٤٧، ٤٨)، وأحمد في المسند (٤/٣٨٦)، البيهقي في الكبرى (٩/١٧١).

(٢) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (١/١٦٨)، (٢/١٣٨)، (٨/١٢٦)، مسلم في الصحيح (الزكاة ب ٣ رقم ٩١)، والترمذي في الجامع الصحيح (٢٣٩١)، النسائي في المجتبى (٨/٢٢٢)، أحمد في المسند (٢/٤٣٩)، ابن خزيمة في الصحيح (٣٥٨)، البغوي في شرح السنة (٢/٣٥٤).

(٣) سورة الحديد الآية: ١١.

قال أبو الدحداح: فداءك أبي وأمي يا رسول الله إن الله يستقرضنا وهو غنيّ عن القرض، قال: «نعم يريد أن يدخلكم الجنة». قال: فإني قد أقرضت ربي قرضاً يضمن لي به الجنة. قال: «نعم من تصدق بصدقة فله مثلها في الجنة». قال: وزوجتي أم الدحداح معي، قال: «نعم». قال: ناولني يديك، فناوله رسول الله ﷺ يده فقال: إن لي حديقتين أحدهما بالسالفة، والأخرى بالعالية والله لا أملك غيرهما جعلتهما قرضاً لله عز وجل. فقال عليه السلام: «اجعل أحدهما لله عز وجل والأخرى معيشة لك ولعيالك». قال: فأشهدك يا رسول الله إني جعلت خيرهما لله تعالى وهو حائط فيه ستمائة نخلة. قال: «إذن يجزيك الله به الجنة». ثم قال: «كم من عذق رداح ودار فياح في الجنة لأبي الدحداح»[1]. والله أعلم.

وأما الآثار فروي عن الضحاك في هذه الآية ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[2]. فقال الضحاك: من أخرج درهماً من ماله ابتغاء مرضاة الله فله في الدنيا بكل درهم سبع مائة درهم خلفاً عاجلاً وألف / ألف درهم [٤٣/ب] يوم القيامة.

وعن أبي هريرة قال: كنا نحسب ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، نفقة الرجل على نفسه ورفقائه وظهره في الجهاد ألفي ألف.

وفي الحديث: «صدقة السر تطفىء غضب الرب تعالى، وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وتدفع سبعين باباً من البلاء».

ويروى عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها تصدقت بخمسين ألفاً، وإن درعها لمرقع.

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[3]. قال: وهم يشتهونه.

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون على أولي الحاجة منا.

---

(١) بنحو هذا الحديث وبنحو طرفه الأخير أخرجه مسلم في الصحيح (الجنائز ب ١٨ رقم ٨٩ مكرر)، وعبد الرزاق في المصنف (٩٧٤٦)، والطبراني في الكبير (٢/ ٢٤٢، ٢٤٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٠)، المتقي الهندي في الكنز (٣٣١٨١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٢٤).

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٦١.

(٣) سورة الإنسان الآية: ٨.

وقال بعض العلماء: الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه. وعن بعض السلف قال: الصدقة تفك لحي سبعين شيطاناً، وفضل سرها على علانيتها سبعين ضعفاً.

وعن ابن مسعود رحمه الله: أن رجلاً عبد الله تعالى سبعين سنة، ثم أصاب فاحشة فاحبط عمله، ثم مَرَّ بمسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله عز وجل ذنبه، وردّ عليه عمل السبعين سنة.

وعن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: إذا أخطأت خطيئة فاعط صدقة.

وقال يحيى بن معاذ فيما روي عنه: لا أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلاّ الحبَّة من الصدقة.

وقال بعض العلماء: كانوا يقولون ثلاثة من كنوز الجنة: كتمان المرض، وكتمان الصدقة، وكتمان المصائب. ويقال: كتمان الفاقة أيضاً.

وقد روي في الحديث مسند عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة: أنا أفضلكن، وقد روي عن / النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنة قصراً من ياقوتة حمراء يرى ظاهره من باطنه». [٤٤/أ]

قيل: لمن هو يا رسول الله؟ قال: «لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وأفشى السلام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام».

قيل: يا رسول الله ومن يطيق هذا؟ قال: «أنتم». قيل: فكيف يا رسول الله؟ قال: «ألستم تقولون: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هذا طيب الكلام». قال: «ألستم تنفقون عن أهليكم»؟. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هذا إطعام الطعام». قال: «أوليس الرجل منكم يلقاه أخاه فيسلم عليه»؟. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هذا إفشاء السلام». قال: «ألستم تصومون شهر رمضان»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هذا إدامت الصيام». قال: «ألستم تصلون العتمة»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإنها صلاة كانت تثقل على غيركم فهي صلاة بالليل والناس نيام، والذي بعثني بالحق لا يلقى أحد ربه بهذه الخمس إلاّ دخل الجنة».

ويروى أن عبد الله بن عمر كان يتصدق بالسكر ويقول: سمعت الله تعالى يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] والله يعلم أني أحب السكر.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٩٢.

وعن النخعي أنه قال: إذا كان الشيء لله عز وجل لا يسرني أن يكون فيه عيب.

وعن عبيدة ابن عمير أنه قال: يُحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، فمن أطعم لله عز وجل أشبعه الله تعالى، ومن سقى لله عز وجل سقاه الله تعالى، ومن كسى لله عز وجل كساه الله تعالى.

وعن الحسن أنه قال: لو شاء الله عز وجل لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ولكنه / ابتلى [٤٥/ب] بعضكم ببعض.

وعن الشعبي أنه قال: من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه.

وروي أن الحسن مرّ به رجل معه جارية فقال: أترضى في ثمنها الدرهم والدرهمين. قال: لا. قال: فاذهب فإن الله عز وجل رضيّ في الحور العين بالفلس واللقمة، والله أعلم به الحول والتوفيق[١].

الفصل الثاني: في بيان إخفاء أخذ الصدقة وإظهارها

اعلم أن طلاق الإخلاص قد اختلفت طرقهم في ذلك، فحال قوم إلى أن الإخفاء أفضل، ومال آخرون إلى أن الإظهار أفضل.

وفي كتاب الغزالي قال: ونحن نشير إن شاء الله إلى ما في كل واحد من المعاني والآفات، ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه.

أما الإخفاء ففيه خمسة معان:

الأول: إبقاء للستر على الأخذ فإن أخذه ظاهر هتك لستر المرؤة، وكشف عن الحاجة وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذي يحسبهم به الجاهل أغنياء من التعفف.

الثاني: أسلم لقلوب الناس وألسنتهم فإنه لربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه أخذ مع الاستغناء وينسبونه إلى أخذ زيادة، والحسد وسوء الظن والغيب من كبائر الذنوب فصيانتهم عن هذه الجرائم أولى.

قال: وقد روي عن أيوب السختياني قال: إني لا أترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني حسد.

---

(١) ذكر أغلب هذا بل الموضوع كله الغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٢٢٦، ٢٢٧).

وعن بعض الزهاد قال: ربما تركت إستعمال الشيء لأجل إخواني يقولون من أين له هذا؟

[٤٦/أ] وعن إبراهيم التيمي أنه رُئي عليه / قميص جديد فقال بعض إخوانه: من أين لك؟

قال: كسانيه أخي خيثمة ولو علمت أن أهله علموا به ما قبلته[١].

الثالث: إعانة المعطي عن أسرار العمل فإن فضل السر على الجهر في الإعطاء كبير.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: جعل الله عز وجل صدقة التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة تفضل علانيتها بخمس وعشرين ضعفاً. وكذلك جميع الفرائض والنوافل، فإعانة المتصدق على كتمان صدقته من تمام أجرها، والإعانة على تمام المعروف معروف، والإتمام لا يتم إلا باثنين فمهما أظهر هذا انكشف أمر المعطي.

قال: ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فرده ودفع إليه آخر شيئاً في السر فقيل له في ذلك، فقال: إن هذا عمل بالأدب في إخفاء معروفه فقبلته وذلك أساء أدبه في عمله فرددته عليه.

قال: وأعطاه رجل بعض الصوفية شيئاً في الملأ فرده. فقال له: لم تردّ على الله عز وجل ما أعطاك.

فقال: إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله، ولم تقنع بعين الله عز وجل فرددت عليك شركك.

قال: وقبل بعض العارفين في السر شيئاً كان ردّه في العلانية. فقيل له في ذلك، فقال: إنك عصيت الله تعالى في الجهر فلم أكُ عوناً لك على المعصية وأطعته بالإخفاء فاعنتك على برك.

وعن الثوري أنه قال: لو علمت أن أحدهم لا يذكر صلته، ولا يتحدث بها لقبلت صلته[٢].

الرابع: إن في إظهار الأخذ ذلاً وامتهاناً، وليس للمؤمن أن يذل نفسه، ويقال: كان

---

(١) ورد هذا المعنى كله في إحياء علوم الدين للغزالي (١/٢٢٨).
(٢) راجع الكلام بنصه في المصدر السابق.

بعض العلماء يأخذ في السر ولا يأخذ في العلانية، ويقول: في إظهاره إذلال العلم / وإستهانة [٤٧/ب] أهله فما كنت بالذي أرفع شيئاً من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله[١].

الخامس: الاحتراز عن شبهة الشركة قال النبي عليه السلام: «من أُهديَ إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها»[٢].

وكونها ذهباً أو ورقاً لا يخرجها عن اسم الهدية إذ قال عليه السلام: «أفضل ما أهدى الرجل إلى أخيه ورقاً أو يطعمه خبزاً»[٣].

فجعل الورق هدية فانفراده بما يعطاه في المكروه إلا برضى جميعهم، ولا يخلو عن شبهة، فإذا انفرد سلم من هذه الشبهة والله أعلم[٤].

وأما الإظهار للمعروف والتحدث به ففيه أربعة معان:

الأول: الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبس الحال بالرياء.

الثاني: إسقاط الجاه، والمنزلة، وإظهار العبودية، والمسكنة، والتبري عن الكبرياء، ودعوى الاستغناء، وإسقاط النفس من أعين الخلق.

ويروى أن بعض العارفين قال لتلميذه: أظهر الأخذ على كل حال إن كنت أخذاً فإنك لا تخلو من أحد رجلين: رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك، فذلك هو المراد ولأنه هو أسلم لدينك، وأقل لآفات نفسك، أو رجل يزداد في قلبه بإظهارك الصدق، فذلك الذي يريد أخوك لأنك تزداد ثواباً بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك فتؤجر إذ كنت سبب مزيد ثوابه.

الثالث: هو أن العارف لا نظر له إلاّ إلى الله عز وجل، والسر والعلانية في حقه سواء، فاختلاف الحال شرك في التوحيد.

وقال بعضهم: كنا لا نعبأ بدعاء من يأخذ في السر ويرد في العلانية، والالتفات إلى

---

(١) هذا الكلام بنصه في المصدر السابق.

(٢) رواه العقيلي، وابن حبان في الضعفاء، والطبراني في الأوسط، والبيهقي من حديث ابن عباس، وقال العقيلي لا يصح في هذا المتن حديث (العراقي في المغني ١/ ٢٢٨).

(٣) رواه ابن عدي في الكامل في الضعفاء وضعفه من حديث ابن عمر: «إن أفضل العمل عند الله أن يقضى عن مسلم دينه، أو يدخل عليه سروراً، أو يطعمه خبزاً». ولأحمد، والترمذي وصححه من حديث البراء: «من منح منحة ورق أو منحة لبن، أو هدى رقاقاً، فهو كعتاق نسمة».

(٤) راجع في المعنى كله الإحياء (١/ ٢٢٨) فهو فيه بنصه.

[٤٨/أ] الخلق حضروا أو غابوا نقصان في الحال، بل / ينبغي أن يكون النظر مقصوراً على الواحد الفرد.

حكي أن بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين، فشق على الآخرين ذلك، فأراد أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد، فأعطى كل واحد منهم دجاجة فقال: لينفرد كل واحد منكم بها وليذبحها حيث لا يراه أحد، فانفرد كل واحد منهم بذبح دجاجته إلاّ ذاك المريد فإنه ردّ الدجاجة، فسألهم، فقالوا: فعلنا ما أمرنا به الشيخ.

وقال ذلك المريد: لم أقدر عليه فإن الله تعالى يراني في كل موضع. فقال الشيخ: لمثل هذا أميل إليه؛ لأنه لا يلتفت إلى غير الله عز وجل.

الرابع: أن الإظهار إقامة لسنة الشكر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١].

والكتمان كفران للنعمة، وقد ذم الله عز وجل مَنْ كتم ما أتاه الله عز وجل، وفوّته بالبخل فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٢].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن ترى عليه»[٣].

قال: وأعطى رجل بعض العارفين شيئاً في السرّ، فرفع به يده وقال: هذا من الدنيا والعلانية فيها أفضل، والسر في أمور الآخرة أفضل.

ولذلك قال بعضهم: إذا أعطيت في الملأ فخذ، ثم اردد في السر، والشكر محثوث عليه، قال عليه السلام: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل والشكر يقوم مقام المكافآت»[٤].

قال عليه السلام: «من أسدى إليكم معروفاً فكافؤه فإن لم تستطيعوا فاثنوا به خيراً وادعوا حتى تعلموا أن قد كافأتموه»[٥].

---

(١) سورة الضحى الآية: ١١.

(٢) سورة النساء الآية: ٣٧.

(٣) رواه أحمد من حديث عمران بن حصين بسند صحيح وحسنه، والترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (المغني ١/ ٢٢٩).

(٤) رواه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد، وله ولأبي داود، وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح (المغني ١/ ٢٢٤).

(٥) رواه أبو داود والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ: من صنع. (العراقي في المصدر السابق).

وكما قالت المهاجرون في الشكر: يا رسول الله ما رأينا خيراً من قوم نزلنا عندهم قاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا / بالأجر كله، قال عليه السلام: «كل ما شكرتم لهم [٤٩/ب] واثنيتم عليهم به أنه مكافأة»[١] فالآن إذا عرفت هذه المعاني فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلاف في المسألة، بل هو اختلاف حال يكشف الغطاء في هذا لأنا لا نحكم حكماً بتاً بأن الإخفاء أفضل في كل حال، أو الإظهار أفضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص.

فينبغي أن يكون المخلص مراقباً لنفسه حتى لا يتدلى بحبل الغرور، ولا ينخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان، والمكر والخداع أغلب في معان الإخفاء منه في الإظهار مع أن له دخلاً في كل واحد منهما، فأما مدخل الخداع في الأسرار من ميل الطبع إليه لما فيه من حفظ الجاه والمنزلة وسقوط القدر عن أعين الناس ونظر الخلق إليه بعين الازدراء، وإلى المعطي بعين المنعم[٢] المحسن إليه، فهذا هو الداء الدفين المستكن في النفس والشيطان بواسطته يظهر معاني الخير حتى يتعلل بالمعاني الخمسة المتقدمة التي ذكرناها ومعيار كل ذلك ومحكه أمر واحد وهو أن يكون تألمه بانكشاف أخذه للصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض أقاربه، وأمثاله: فإنه إن كان يتقي صيانة النفس عن الغيبة والحسد وسوء الظن أو يتقي انتهاك الستر وإعانة المعطي على الإسرار وصيانة العلم عن[٣] الابتذال فكل ذلك مما يحصل بانكشاف صدقة أخيه، فإن كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره، فتقديره الحذر من هذه المعاني أغاليط وأباطيل / من مكر الشيطان وخدعه فإن إذلال العلم محذور من حيث أنه علم [٥٠/ب] لا من حيث أنه علم زيد أو علم عمرو والغيبة محذورة من حيث أنه تعرض لعرض مصون لا من حيث أنه تعرض لعرض زيد على الخصوص ومن أحسن ملاحظة هذا ربما يعجز الشيطان عنه وإلّا فلا يزال كثير العمل قليل الحظ.

وأما جانب الإظهار فميل الطبع إليه من حيث أنه تطييب لقلب المعطي واستحثاث له على ميله وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين في الشكر حتى يرغبوا في إكرامه وتفقده وهذا داء دفين في الباطن والشيطان لا يقدر على المتدين إلّا بأن يروج هذا الخبث في معرض السنة

---

(١) رواه الترمذي وصححه من حديث أنس، وورواه أبو داود، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم وصححه، قاله العراقي في المغني (١/٢٢٩).

(٢) في الأصل: المنع. والتصويب من الإحياء.

(٣) في الأصل: العل على. والتصويب من الإحياء.

ويقول له: الشكر من السنة والإخفاء من الرياء ويورد عليه المعاني التي ذكرناها ليحمله على الإظهار وقصده في الباطن ما ذكرناه ومعياره ذلك ومحكمه أن ينظر إلى من يرغب في إعطائه وبين يدي جماعة يكرهون إظهار العطية ويرغبون في إخفائها وعادتهم أنهم لا يعطون إلاّ من يخفي ولا يشكر، فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعثه هو إقامة السنة في الشكر والتحدث بالنعمة وإلاّ فهو مغرور ثم إذا علم أن باعثه السنة فلا ينبغي أن يغفل عن قضاء حق المعطي فينظر فإن كان هو ممن يحب الشكر فينبغي أن يخفي ولا يشكر لأن قضاء حقه أن لا ينصر على الظلم وطلبه الشكر ظلم. وإذا علم من حاله أنه لا يحب الشكر ولا يقصده فعند ذلك يشكره ويظهر صدقته، ولذلك قال ﷺ للرجل الذي مُدح بين / يديه: «ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح»[١]. [٥١/أ]

مع أنه ﷺ: يثني على قوم في وجوههم لثقته بيقينهم وعلمه بأن ذلك لا يضرهم بل يزيد في رغبتهم في الخير فقال لواحد: «إنه سيد أهل الوبر»[٢]. وقال في خبر آخر: «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه»[٣]. وقال حين سمع كلام بعضهم فعجبه: «أن من البيان سحراً»[٤] وقال: «إذا علم أحدكم من أخيه خيراً فليخبره، فإنه يزداد رغبة في الخير»[٥].

وعنه عليه السلام أنه قال: «إذا مدح المؤمن ربى[٦] الإيمان في قلبه».

وعن الثوري أنه قال: من عرف نفسه لم يضره مدح الناس. وقيل عنه أنه قال ليوسف بن أسباط: إذا أوليتك معروفاً فكنت أنا أسرَّ به منك، ورأيت ذلك نعمة من الله عز وجل عليّ

---

(١) متفق عليه أبي بكرة بلفظ: «ويحك قطعت عنق صاحبك» زاد الطبراني: في رواية: «لو سمعها ما أفلح أبداً». وفي سنده علي بن زيد بن جدعان متكلم فيه وله نحوه من حديث أبي موسى. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٣٠).

(٢) رواه الطبراني، وابن قانع في معاجمهم، وابن حبان في الثقات من حديث قيس بن عاصم المنقري أن النبي ﷺ قال له ذلك، (قاله العراقي في المغني ١/ ٢٣٠).

(٣) رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر، ورواه أبو داود في المراسيل من حديث الشعبي مرسلاً بسند صحيح، وقال: روي متصلاً وهو ضعيف، والحاكم نحوه من حديث معبد بن خالد الأنصاري عن أبيه وصحح إسناده. المرجع السابق.

(٤) رواه البخاري في الصحيح من حديث ابن عمر. المصدر السابق.

(٥) رواه الدارقطني في العلل من رواية ابن المسيب عن أبي هريرة، وقال: لا يصح عن الزهري، وروى عن ابن المسيب مرسلاً. (المصدر السابق).

(٦) في الأصل: وفى. والتصويب من الإحياء والحديث قال عنه العراقي في المصدر السابق: رواه الطبراني من حديث أسامة بن زيد بسند ضعيف.

فاشكر وإلاّ فلا تشكر. فدقائق هذه المعاني ينبغي أن يلحظها من يراعي قلبه فإن أعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع، ويقال إن هذا من العلم الذي قيل فيه: أن تعلم مسألة واحدة أفضل من عبادة سنة إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمر، وبالجهل به تموت عبادة العمر وتتعطل.

وعلى الجملة فالأخذ في الملأ والردّ في السرّ أحسن المسالك وأسلمها فلا ينبغي أن يدفع بترويقات اللسان إلاّ أن تكمل المعرفة بحيث يستوي السر والعلانية وذلك هو الكبريت الأحمر يتحدث به ولا يرى، والله أعلم[١].

الفصل الثالث: في بيان الأفضل من أخذ الزكاة أو الصدقة

وفي كتاب الغزالي قال: كان إبراهيم الخواص والجنيد، وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقة أفضل فإن في أخذ / الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييق عليهم، ولأنه ربما لا يكمل في [٥٢/ب] أخذه الزكاة صفة الاستحقاق كما وصفنا في الكتاب[٢]، وأما الصدقة فأمرها أوسع.

وقال قائلون: يأخذ الزكاة دون الصدقة لأنه إعانة على أداء الواجب قالوا: ولو ترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأثموا ولأنه لا مِنَّة فيه، وإنما هو حق واجب لله سبحانه رزقاً لعباده المحتاجين[٣]، ولأنه أخذ بالحاجة والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعاً، وأخذه الصدقة أخذ بالدين، وأن الغالب أن المتصدق إنما يعطي من يعتقد فيه خيراً، ولأن موافقة المساكين أدخل في الذل والمسكنة وأبعد من التكبر إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة في معرض الهدية وهذا تنصيص على ذل الآخذ وحاجته.

والقول الحق في هذا أن هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه ويحضره من النية فإن كان في شبهة من إتصافه بصفةُ الاستحقاق فلا ينبغي أن يأخذ الزكاة.

وإذا علم أنه مستحق قطعاً كما إذا حصل عليه دين صرفه إلى الخير وليس له وجه في قضائه وهو صالح في نفسه فهو مستحق قطعاً، فإذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة فإن كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك المال لو لم يأخذ هو فليأخذ الصدقة فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها، ففي ذلك تكثير للخير وتوسيع للمساكين، وإن كان المال

---

(١) المعاني الأربعة في هذا الباب بنصها في إحياء علوم الدين للغزالي (١/٢٢٨، ٢٣٠).

(٢) في إحياء علوم الدين: كما وصف في الكتاب العزيز.

(٣) في الأصل: للعباد والمحتاجين. والتصويب من الإحياء.

معرضاً للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير والأمر فيهما يتقارب، [٥٣/أ] وأخذ الزكاة / أشد في كسر النفس وأذلالها في أغلب الأحوال والله أعلم[١].

مسألــة

ومن الكتاب أجمع العلماء وهو مما ينسب إلى علي بن أحمد بن حزم من فقهاء قومنا قال واتفقوا أن المسألة حرام على كل قوي على الكسب أو غني إلاّ من تحمل حمالة أو سأله سلطان مالاً وما لا بد له منه. قال: واتفقوا أن كسب القوت من الوجوه المباحة له أو لعياله فرض إذا قدر على ذلك، قال: واتفقوا أن المسألة لمن هو فقير ولا يقدر على الكسب بمقدار ما يقيم قوته مباحة، قال: واختلفوا في مقدار الغنى إلاّ أنهم[٢] اتفقوا أن ما كان أقل من مقدار قوت اليوم فليس غنى، قال: والذي يذهب إليه من ذلك أن قوت اليوم فما زاد كفافاً، وأن قوت العام فما زاد غنى ويسار.

وأن المسألة لمن عنده قوت يوم حرام عليه وأنها لمن ليس عنده ذلك مباحة إذ لم يكن مكتسباً، وأنها فرض عليه إذا خشي في تركها الموت هزلاً، وأن أخذ الصدقة الواجبة من الزكاة والكفارات مباح لمن ليس عنده قوت عامه له ولعياله من نفقة وكسوة وسكناً لأنه مسكين، وإن لم يكن فقيراً وكان عنده كفاف.

وإن أخذها حرام على من عنده قوت عامه له ولعياله مما ذكرنا لأنه غني والله أعلم وأحكم، وبه العون والتوفيق، كملت قنطرة الزكاة وأسرارها بحمد الله تعالى تتلوها قنطرة أسرار الحج.

---

(١) ذكر ذلك كله في الإحياء للغزالي بنصه (١/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) في الأصل: إلاّ أن أنهم. وكلمة: أن. زائدة على السياق فحذفتها.

القنطرة السادسة
قنطرة أسرار الحج

اعلم أن الله سبحانه فرض الحج على كل من استطاع إليه سبيلاً بعد استقرار سائر الفروض على الأبدان والأموال فكان في سفر الحج تذكير لسفر الآخرة وما هنالك من الأخطار والأهوال على ما سيأتي شرح ذلك إن شاء الله بالكمال فكان الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الشرع بما يقتضيه وبه كمال الدين وتمامه إذ فيه أنزل الله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾[1].

ويقال: فيه قال عليه السلام: «من وجب عليه الحج ولم يحج فليمت يهودياً أو نصرانياً»[2] فأعظم بعبادته بعدم الدين من أجلها بالكمال ويساوي تاركها اليهود والنصارى في الضلال فجدير أن نصرف العناية إلى شرحها وتفصيل أركانها وسننها وآدابها وفضائلها وأسرارها.

وأنا إن شاء الله أنقل من كتاب الغزالي ومن كتاب روضة الحقائق جملتها، واتجنب ما خالفا فيه مذهب أئمتنا، كما فعلت فيما مضى من كتابنا، وبالله عصمتنا، وتوفيقنا وفي كتاب الغزالي: اعلم أن ما ذكرناه من أسرار الحج ينحصر إن شاء في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في فضائل الحج وفضائل مكة والبيت وفضيلة المقام بها وفضل المدينة وشروط وجوب الحج.

الباب الثاني: في أعماله الظاهرة على الترتيب من مبدأ السفر إلى الرجوع.

الباب الثالث: في آدابه الدقيقة وأسراره الخفية وأعماله الباطنة.

---

(١) سورة المائدة الآية: ٣.

(٢) رواه ابن عدي من حديث أبي هريرة، والترمذي نحوه من حديث علي وقال: غريب وفي إسناده مقال. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٤٠).

الباب الأول

ينحصر في خمسة فصول:

الفصل الأول: في فضائل الحج

[٥٥/أ] قال الله سبحانه: ﴿وَأَذِّنْ فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ / رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾[١] وعن قتادة قال: لما أمرالله عز وجل إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه أن يؤذن في الناس بالحج نادى أيها الناس إن لله تعالى بيتاً[٢] فحجوه.

وقال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[٣]. قيل: التجارة في الموسم، والأجرة في الآخرة.

ويقال إنه لما سمع بعض السلف هذا قال غُفر لهم ورب الكعبة وقيل في تفسير قول الله عز وجل: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[٤].

إن بعضهم قال: إنه طريق مكة يقعد الشيطان عليها ليمنع الناس منها وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[٥].

فتوجه الخطاب بالحج على الناس كافة فعلم الله تعالى العاجزين عنه فقال رحمة منه لهم: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[٦]. فأوجبه على المستطيعين خاصة، فأخبر النبي عليه السلام بما أوجب الله تعالى من الثواب لمؤدِ الحج على حسب ما يحبه ويرضاه فقال عليه السلام: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[٧].

وقال عليه السلام: «من العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له ثواب إلا الجنة».

ويقال: إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة[٨]. وقد أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله عليه السلام.

---

(١) سورة الحج الآية: ٢٧.
(٢) في الإحياء: إن الله بنى بيتاً فحجوه.
(٣) سورة الحج الآية: ٢٨.
(٤) سورة الأعراف الآية: ١٦.
(٥) سورة آل عمران الآية: ٩٧.
(٦) سورة آل عمران الآية: ٩٧.
(٧) قال العراقي في المغني: أخرجاه من حديث أبي هريرة (١/ ٢٤٠).
(٨) لم أجد له أصلاً. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٤٠).

وعنه ﷺ أنه قال: «من خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فمات أجري عليه أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب، وقيل له أدخل الجنة»[١].

وقال عليه السلام: «حجة مبرورة خير من الدنيا بما فيها»[٢].

وعنه عليه السلام أنه قال: «الحجاج والعمار وفد الله عز وجل وزوّاره، إن سألوه / أعطاهم وإن استغفروا غفر لهم وإن دعوا استجيب لهم وإن شَفَعوا شُفِعوا»[٣]. [٥٦/ب]

وفي حديث مسند من طريق أهل البيت: «أعظم الناس ذنوباً من وقف بعرفة فظن أن الله تعالى لم يغفر له»[٤].

وعن ابن عباس عنه ﷺ أنه قال: «لينزل على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرون رحمة ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين»[٥].

وفي الخبر: «استكثروا من الطواف بالبيت فإنه من أول شيء تجدونه في صحفكم يوم القيامة واغبط عمل تجدونه»[٦]. ولهذا استحب الطواف ابتداءً في غير حج ولا عمرة.

وفي الخبر: «من طاف أسبوعاً حافياً حاسراً كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعاً في المطر غفر له ما تقدم من ذنبه»[٧] ويقال أن الله عز وجل إذا غفر لعبده ذنباً غفر لكل من أصابه في ذلك الموقف.

---

(١) رواه البيهقي في الشُعب بالشطر الأول من حديث أبي هريرة، ورواه هو الدارقطني من حديث عائشة الشطر الثاني نحوه وكلاهما ضعيف. المصدر السابق.

(٢) أخرجاه من حديث أبي هريرة. . . . . المصدر السابق.

(٣) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة دون قوله وزوّاره، ودون قوله: إن سألوه أعطاهم، وإن شَفعوا شُفعوا، وله من حديث ابن عمر: وسألوه فأعطاهم، ورواه ابن حبان. المصدر السابق (١/ ٢٤١).

(٤) رواه الخطيب في المتفق والمفترق، وأبو منصور شهر دار بن شيرويه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف. المصدر السابق.

(٥) رواه ابن حبان في الضعفاء، والبيهقي في الشعبي من حديث ابن عباس بإسناد حسن وقال أبو حاتم: حديث منكر. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٦) رواه ابن حبان والحاكم من حديث ابن عمر: استمتعوا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع في الثالثة، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين. المصدر السابق.

(٧) لم أجده، وعند الترمذي، وابن ماجه من حديث ابن عمر: «من طاف بهذا البيت أسبوعاً فأحصاه كان كعتق رقبة». لفظ الترمذي وحسنه، المصدر السابق.

وقال بعض السلف إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل عرفة وهو أفضل يوم في الدنيا وفيه حج النبي عليه السلام حجة الوداع وكان واقفاً إذ نزل قوله عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[١].

قال أهل الكتاب: لو نزلت هذه الآية علينا لجعلناها عيداً فقال عمر رضي الله عنه: أشهد أن هذه الآية لقد أنزلت في يوم عيدين اثنين يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة. وعنه ﷺ قال: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج»[٢].

وعن مجاهد وغيره من العلماء: أن الحجاج إذا قدموا مكة تتلقاهم الملائكة فيسلمون على ركبان الإبل / [٥٧/ب] ويصافحون ركبان الحمر ويعتنقون المشاة إعتناقاً.

وعن الحسن أنه قال: من مات عقيب رمضان أو عقيب غزو أو عقيب حج مات شهيداً.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: الحاج مغفور له ولمن استغفر له في شهر ذي الحجة، والمحرم، وصفر وعشر من ربيع الأول.

ويقال: إن من عادة السلف أن يشيعوا الغزاة وأن يستقبلوا الحاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء ويبادرون بذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام.

وفي كتاب الغزالي قال: ويروى عن علي بن موفق قال: حججت سنة فلما كان ليلة عرفة نمت بمنى في مسجد الخيف، فرأيت في المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثياب خضر فنادى أحدهما صاحبه: يا عبد الله، فقال الآخر: لبيك يا عبد الله، قال: أتدري كم حج بيت ربنا في هذه السنة؟ قال: لا أدري.

قال: حج بيت ربنا ستمائة ألف.

قال: أفتدري كم قبل منهم؟

قال: لا.

قال: ستة أنفس.

قال: ثم ارتفعا في الهواء فغابا عني فانتبهت فزعاً واغتممت غماً شديداً وأهمني أمري. فقلت: إذا قبل ستة أنفس فأين أنا أكون في ستة أنفس، فلما أفضت من عرفة نمت عند المشعر

(١) سورة المائدة الآية: ٣.

(٢) رواه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح على شرط مسلم. (المغني ١/ ٢٤٢).

الحرام أفكر في كثرة الخلق وفي قلة من قُبل منهم فحملني النوم فإذا الشخصان قد نزلا كأول مرة على هيئتهما فنادى صاحبه وأعاد الكلام بعينه، ثم قال: أتدري ماذا وهب ربنا هذه الليلة؟

قال: لا.

قال: فإنه وهب لكل واحد من الستمائة ألف.

قال: فانتبهت وبي من السرور ما يحل عن الوصف والله أعلم[١].

/ وعنه ﷺ أنه قال: «للحاج الراكب بكل خطوة يخطوها بعيره سبعون حسنة، وللحاج [٥٨/ب] الماشي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم». قيل: وما حسنات الحرم يا رسول الله قال: «الحسنة بمائة ألف حسنة ولو أن الملائكة صافحت أحداً لصافحت الغازي في سبيل الله والبار بوالديه والطائف بيت الله الحرام». وبالله التوفيق.

الفصل الثاني: في فضيلة البيت ومكة

قال الله سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾[٢] الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً.....﴾[٣] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾[٤].

وقال مخبراً عن إبراهيم: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِناً﴾[٥].

في أمثال هذه الآيات مما يطول الكتاب بذكرها مما خص الله به البيت الحرام.

وجاء عن النبي عليه السلام أنه حين أخرجه كفار قريش من مكة فقال: «والله إني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله وإنك أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك» أو قال «المشركون أخرجوني منك ما خرجت»[٦].

وعنه عليه السلام: «أن الله تعالى قد وعد هذا البيت أن يحجه في كل سنة ستمائة ألف

---

(١) كل ما ورد في باب فضائل الحج منقول عن كتاب الإحياء للغزالي وقد أشار هو في ذلك في أوله وفي أثنائه وراجع (١/ ٢٤٠، ٢٤٢).

(٢) سورة المائدة الآية: ٩٧.

(٣) سورة آل عمران الآية: ٩٦.

(٤) سورة البقرة الآية: ١٢٥.

(٥) سورة البقرة الآية: ١٢٦.

(٦) عن نحو هذا قال العراقي في المغني (١/ ٢٤٤): رواه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه، وابن حبان من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء.

فإن نقصوا كملهم الله عز وجل بالملائكة، فإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة وكل من حجها متعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها»[١].

[٥٩/أ] وجاء عنه عليه السلام أنه / قال: «أول من طاف بالبيت الملائكة، وما من نبي يهرب من قومه إلا هرب إلى الله بمكة يعبده بها حتى يموت»[٢].

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن قبر نوح وهود وصالح وشعيب فيما بين زمزم والمقام»[٣].

وقال: «إن حول الكعبة لقبور ثلاثمائة نبي وإن ما بين الركن اليماني والركن الأسود لقبور سبعة أنبياء وكل نبي من الأنبياء إذا كذبه قومه خرج من بين أظهرهم فأتى الكعبة فعبد الله تعالى حتى يموت».

وعنه عليه السلام قال: «إن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام شكا إلى الله تعالى حَرَّ مكة فأوحى الله إليه أني أفتح لك باباً من أبواب الجنة في الحجر يجري عليك الروح إلى الروح إلى يوم القيامة».

ويروى أن عثمان بن عفان أقبل ذات يوم إلى أصحابه فقال لهم: ألا تسألوني من أين جئت؟ فقالوا: من أين جئت يا أمير المؤمنين؟ فقال: ما زلت قائماً على باب الجنة وكان قائماً تحت الميزاب يدعو الله عنده.

وعنه ﷺ أنه قال: «إن الركن اليماني باب من أبواب الجنة والركن الأسود باب من أبواب الجنة وما من أحد يدعو الله تعالى عنده إلا استجاب، وكذلك عند الركن اليماني وعند الميزاب».

وعنه عليه السلام قال: «ما بين الركن اليماني والركن الأسود روضة من رياض الجنة».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من مات بمكة فكأنما مات في سماء الدنيا، ومن مات في أحد الحرمين حاجاً أو معتمراً بعثه الله يوم القيامة لا حساب عليه ولا عذاب»[٤].

---

(١) لم أجد له أصلاً. المرجع السابق.

(٢) ذكره ابن كثير في التفسير (١/١٠٠).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/٤٦).

(٤) طرفه الثاني عند ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٤/١٤٥٥) وابن الجوزي في الموضوعات (٢/٢١٨)، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤/٤١٦).

وعنه عليه السلام أنه قال: «من نظر إلى البيت إيماناً واحتساباً / غفر له ما تقدم من ذنبه [٦٠/ب] وما تأخر ويحشر يوم القيامة مع الآمنين».

وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «من نظر إلى البيت من غير طواف ولا صلاة [كان] أفضل من عبادة سنة صائماً قائماً راكعاً ساجداً».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من جلس مستقبل الكعبة ساعة واحدة محتسباً لله ولرسوله وتعظيماً للقبلة كان له أجر الحاج والمعتمر والمرابط الصائم القائم».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من أدرك شهر رمضان بمكة فصامه كله، وقام فيه ما تيسر له كتب الله له مائة ألف شهر، رمضان بغير مكة وكان له بكل يوم مغفرة وشفاعة»[١].

وعنه عليه السلام أنه قال: «من طاف حول بيت الله الحرام سبعاً في يوم صائف شديد الحر حاسراً عن رأسه، واستلم الحجر من غير أن يؤذي أحداً، وقل كلامه إلاّ من ذكر الله تعالى كان له بكل قدم يرفعها ويضعها سبعون ألف درجة وتكتب له سبعون ألف حسنة، وتمحى عنه سبعون ألف سيئة، ويعطيه الله تعالى فضل الماشي على الراكب، وفضل الماشي على الراكب كفضل القمر على سائر الكواكب»[٢].

وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «الكعبة محفوفة بسبعين ألفاً من الملائكة يستغفرون لمن طاف بها ويصلون عليه».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من مرض بمكة كتب الله له من العمل الصالح الذي كان يعمله عبادة ستين سنة».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت النار عنه مسيرة مائة عام»[٣].

وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «أقرب البقاع / إلى الله تعالى ما بين الركن والمقام وإن [٦١/ب] الطائف بالبيت ليخوض في حرمة الله تعالى وإن الله سبحانه ليباهي بالطائفين حول بيته الملائكة».

---

(١) طرفه عند المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٩١).
(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٥٩)، وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٣٥٠).
(٣) أورده العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٣٥٤)، والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٧٠٤).

وعنه عليه السلام أنه قال: «استكثروا من الطواف قبل أن يحال بينكم وبينه فكأني أنظر إلى رجل من الحبشة أصلع أفيدع جالساً عليها فيهدمها حجراً حجراً، أو صدقة درهم بمكة بمائة ألف درهم، وفيها شراب الأبرار ماء زمزم، وإن لمس الحجر الأسود تكفير للخطايا وإحطاط للذنوب يحطان للخطايا حطاً، ومن دعا بمكة أمنت له الملائكة، تقول: آمين آمين حول بيت الله الحرام، ومن نظر إلى مكة من غير طواف ولا صلاة كتب الله له عبادة الدهر، وصيام الدهر»(١).

وعنه عليه السلام أنه قال: «من حج حجة الإسلام، وطاف طواف الإفاضة يطوف يومئذٍ ولا ذنب له».

وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «إذا كان يوم عرفة يدنو الموقف في ذلك اليوم حتى يكون أدنى إلى السماء، فيباهي الله بهم الملائكة، يقول: انظروا عبادي شعثاً غبراً جاؤوا من كل فج عميق يرجون مغفرتي، قد غفرت لهم جميعاً، فينادي منادٍ يا أهل عرفة استأنفوا العمل، فقد غفر لكم».

وفي الحديث عنه عليه السلام: «إن الحجر ياقوتة من ياقوت الجنة، وأنه يُبعث يوم القيامة له عينان / [٦٢/أ] ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق»(٢).

وكان عليه السلام فيما بلغنا يقبله كثيراً»(٣). وروي أنه سجد عليه. وروي: أنه كان يطوف على الراحلة ويضع المحجن عليه ثم يقبل طرف المحجن(٤).

وروي أن عمر رضي الله عنه قبله ثم قال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع(٥)، ولولا أني رأيت رسول الله عليه السلام يقبلك ما قبلتك، ثم بكى حتى علا نشيجه فالتفت إلى

(١) أورد طرفه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤/ ٢٧٣، ٢٨٠).

(٢) رواه الترمذي وصححه، والنسائي من حديث ابن عباس: «الحجر الأسود من الجنة». لفظ النسائي، وباقي الحديث رواه الترمذي وحسنه، ورواه ابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن عباس أيضاً الحاكم من حديث أنس: «إن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة»، وصحح إسناده ورواه النسائي، وابن حبان، والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٤٢).

(٣) أخرجاه من حديث عمر دون قوله: كثيراً.
وأنه كان يقبله كل مرة ثلاثاً إن رآه خالياً قاله العراقي في المغني (١/ ٢٤٣).

(٤) رواه البزار والحاكم من حديث عمر، وصحح إسناده، المصدر السابق.

(٥) أخرجاه دون الزيادة التي رواها عليّ، ورواه بتلك الزيادة الحاكم وقال: ليس من شرط الشيخين. المصدر السابق.

ورواية فرأى علياً فقال: يا أبا الحسن هاهنا تكسب العبرات، فقال علي: يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع، قال: وكيف؟

قال: إن الله سبحانه لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتباً ثم ألقمه هذا الحجر فهو أمين الله يشهد للمؤمن بالوفاء ويشهد للكافر بالجحود. قيل: فذاك معنى قول الناس عند الاستلام إيماناً بك وتصدقاً بكتابك ووفاء بعهدك.

وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «الركن والمقام يأتيان يوم القيامة مثل أبي قبيس له عينان وشفتان ولسانان يشهدان لمن وافى بالوفاء».

وأظن أنه قال عليه السلام: «لم يبقى شيء في الأرض من الجنة غير الحجر ولولا ما مسه من أنجاس المشركين لما استشفى ذو عاهة إلا برأ».

وفي الخبر: أنه يستجاب الدعاء بمكة في خمسة عشر موضعاً تحت الميزاب، وخلف المقام، وفي الطواف، وفي الملتزم؛ وهو ما بين الباب والحجر الأسود، وفي عرفة، وفي منى، وفي المزدلفة وعند[1] الجمرات الثلاث أيضاً مستجاب، وعلى الصفا والمروة، وفي السعي وفي كل موضع من هذه المواضع مستجاب، فمن اجتهد / فيهن في الدعاء ترجى له [٦٣/ب] الإجابة والله أعلم.

وروي عن الحسن: أن صوم يوم في مكة بمائة ألف وصدقة درهم بمائة ألف وكذا كل حسنة بمائة ألف. ويقال: طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة وثلاث عمرات يعدل حجة.

وفي حديث آخر: «عمرة في رمضان كحجة [معي]»[2].

وعنه ﷺ أنه قال: «[أنا][3] أول من تنشق عنه الأرض، ثم آتي[4] أهل البقيع فيحشرون معي، ثم آتي أهل مكة فأحشر بين الحرمين»[5].

---

(١) في الأصل: عن. واحسبه سهو من الناسخ.

(٢) ما بين المعقوفين من الإحياء والحديث قال عنه العراقي في تعليقه عليه بالمغني (١/ ٢٤٣): أخرجاه من حديث ابن عباس دون قوله: «معي» فهي عند مسلم على الشك: «تقضي حجة أو حجة معي»، ورواه الحاكم بزيادتها من غير شك.

(٣) ما بين المعقوفين من الإحياء.

(٤) في الأصل: يأتي، والتصويب من الإحياء.

(٥) رواه الترمذي وحسنه، وابن حبان من حديث ابن عمر. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٤٣).

وفي الخبر: «[إن][١] آدم عليه السلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة عليهم السلام فقالوا: بر الله حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام»[٢].

وجاء في الأثر: «إن الله سبحانه ينظر في كل ليلة إلى أهل الأرض فأول من ينظر إليهم أهل الحرم وأول من ينظر إليه [من أهل الحرم][٣] أهل المسجد الحرام، فمن رآه طائفاً غفر له، ومن رآه مصلياً غفر له، ومن رآه قائماً مستقبل الكعبة غفر له».

ويقال: لا تغرب الشمس من يوم إلاّ ويطوف بهذا البيت رجل من الأبدال[٤]، ولا يطلع الفجر من ليلة إلاّ طاف به واحد من الأوتاد[٥]، وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الأرض، فيصبح الناس وقد رفعت الكعبة لا يرى [الناس][٦] لها أثر، قال: [وهذا][٧] إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجها أحد، ثم يرفع القرآن من المصاحف، فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف، ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا تذكر منه كلمة، ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغاني وأخبار الجاهلية، ثم يخرج الدَّجال، وينزل عيسى عليه السلام ويقتله، والساعة عند ذلك بمنزله الحامل المقترب تتوقع ولادتها.

[٦٤/أ] ويقال: مكتوب في أسفل المقام إن الله ذو بكة، / حرمتها يوم خلقت السموات والأرض، ووضعتها بين هذين الجبلين، وحففتها بسبعة أملاك، فجعلتها حرمي وأمني.

وفي الخبر: «أكثروا[٨] من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع وقد هدم مرتين وسيرفع في الثالثة»[٩].

---

(١) ما بين المعقوفين من الإحياء.

(٢) رواه المفضل الجندي ومن طريقه ابن الجوزي في العلل من حديث ابن عباس وقال: لا يصح، ورواه الأزرقي في تاريخ مكة موقوفاً على ابن عباس.

(٣) ما بين المعقوفين من الإحياء (١/ ٢٤٣).

(٤) الأبدال، والأوتاد مصطلحان لأهل التصوف ولا أساس لهما من الصحة في صحيح الأحاديث وأما الأبدال: فيقولون أنهم أربعون رجلاً صالحاً كلما مات رجل أُبدل بآخر وذلك إلى آخر الزمان كما في اعتقادهم.

(٥) وأما الأوتاد أو الأقطاب فهم عندهم وخصوصاً أهل مصر أربعة: الدسوقي، والبدوي، والرفاعي، القناوي ويختلفون فيما بينهم حسب طرفهم ويعتقدون أنهم أوتاد الأرض وحفاظها. عافانا الله وإياهم وإياكم من مثل هذا الاعتقاد.

(٦) ما بين المعقوفين من الإحياء (١/ ٢٤٣).

(٧) ما بين المعقوفين من الإحياء (١/ ٢٤٣).

(٨) في الإحياء: استكثروا.

(٩) رواه البزار، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث ابن عمر: استمتعوا من هذا البيت فإنه هدم =

ويروى عن علي أن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتي فخربته، ثم أخرب الدنيا على أثره[١]»[٢].

وعن النبي ﷺ أنه جاءه رجل يسأله عن الحج ما له فيه؟ فقال عليه السلام: «أتسألني أم أخبرك بما تريد أن تسألني عنه»؟ قال: «فإنك جئتني [تريد] أن تسأل عن خروجك تؤم هذا البيت». قال نعم يا رسول الله قال: «لك بكل خطوة تخطوها راحلتك حسنة وتمحى عنك سيئة وترفع لك بها درجة، وأما طوافك فإنك تخرج من ذنوبك كيوم ولدتك أمك، وأما ركعاتك بعد الطواف فكعتق رقبة من ولد إسماعيل، وأما طوفك بين الصفا والمروة فكعتق سبعين رقبة، وأما وقوفك بعرفات فإن الله سبحانه يباهي بأهل عرفات أهل السماء فيقول: عبادي شعثاً غبراً أتوني من كل فج عميق فلو كانت ذنوبك مثل زبد البحر ورمل عالج وعدد أيام الدنيا لغفرت، وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة تكفير كبيرة، وأما نحرك فمُدَّخرٌ لك عند ربك فذلك أحوج ما تكون إليه، وأما حلقك رأسك فإن لك بكل شعرة تقع من رأسك نوراً يوم القيامة، وأما إستلامك الحجر فإنه يأتي يوم القيامة وله عينان ولسان وشفتان يشهد لكل من استلمه ويشفع / له وإنه أمين الله في الأرض يصافح به من يشاء من خلقه وإنه لمن الجنة». [٦٥/ب]

وقد اختلف فيه أيضاً فروي عن ابن عباس أنه من الجنة وأنه كان أشد بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا المشركين.

وعن وهبة بن منبه: أنه كان كاللؤلؤة إبيضاضاً فسوده المشركون.

وعن محمد بن الحنفية: أنه حجر من أحجار الوادي والله أعلم وأحكم، وبه الحول والتوفيق.

الفصل الثالث: في فضيلة المقام بمكة حرسها الله وكراهيته

اعلم أن المقام بمكة له فضل عظيم وأجر جسيم قال الله سبحانه: ﴿سَوَآءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾[٣]. يعني المقيم فيه والطارىء به.

وأي موضع أعظم بركة وأعظم درجة من موضع تكتب لك فيه الحسنات وتمحى عنك

= مرتين، ويرفع في الثالثة. (المغني ١/ ٢٤٣).

(١) ليس له أثر. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٢) وإلى هنا وارد في الإحياء على غير ترتيب (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٣) سورة الحج الآية: ٢٥.

السيئات، وأنت قاعد، كما قدمنا في الحديث. لكن كره الخائفون من العلماء المحاطين المقام بمكة لمعاني ثلاثة:

أحدها: خوف التبرم والأنس بالبيت فإن ذلك ربما تؤثر في تسكين حرقة القلب في الحرم ولهذا كان عمر رحمه الله يضرب الحجاج إذا حجوا، ويقول: يا أهل اليمن يمنكم. ويا أهل الشام شامكم، ويا أهل العراق عراقكم. ولقد روي عن عمر أيضاً: أنه هم بمنع الناس من كثرة الطواف وقال: خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت.

الثاني: تهيج الشوق بالمفارقة لتنبعث داعية الرجوع فإن الله سبحانه جعل البيت مثابة للناس وأمناً؛ أي يثوبون ويعودون إليه مرة بعد أخرى ولا يقضون منها وطراً.

وقال بعض السلف: تكون في بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون / فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك في بلد أخر. [٦٦/أ]

وقال بعض السلف: كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به والله علم.

الثالث: الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها فإن ذلك شديد الخطر وبالحرى[١] أن يورث المقت من الله تعالى وذلك لشرف الموضع وعلو درجته.

قال: روي عن مهيب بن الورد المكي قال: كنت ذات ليلة في الحِجْر أصلي فسمعت كلاماً بين الكعبة والأستار يقول: إلى الله أشكو، ثم إليك يا جبريل ما ألقى من الطائفين حولي من تفكههم في الحديث ولغوهم ولهوهم لئن لم ينتهوا عن ذلك لانتفضن إنتفاضة يرجع كل حجر مني إلى الجبل الذي قطع منه.

وعن ابن مسعود رحمه الله: ما من بلد يؤاخذ فيه العبد بالهمة قبل العمل إلاّ مكة، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيْهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢] أي أنه مجرد الإرادة. ويقال السيئات تضاعف كما تضاعف الحسنات.

وعن ابن عباس أنه كان يقول: الاحتكار بمكة من الإلحاد في الحرم. وقيل: الكذب أيضاً.

---

(١) في الأصل: بالحر. والتصويب من الإحياء (١/ ٢٤٤).
(٢) سورة الحج الآية: ٢٥.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أيضاً: لأن أذنب سبعين ذنباً بركية أحب إليّ من أذنب ذنباً واحداً بمكة؛ قال: وركية منزل بين مكة، والطائف. ولخوف ذلك انتهى بعض المقيمين إلى أن لا يقضي حاجته في الحرم بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة. وبعضهم أقام شهراً وما وضع جنبه على الأرض. وللمنع من الإقامة كره بعض العلماء أجرة دور مكة. ولا تظنن أن كراهية المقام مناقض فضل البقعة لأن / هذه كراهية علتها ضعف الخلق وقصورهم عن [٦٧/ب] المقام بحق الموضع، فمعنى قولنا: أن ترك المقام به أفضل بالإضافة إلى المقام مع التقصير والتبرم، فأما أن يكون أفضل من المقام مع الوفاء بحقه فهيهات وكيف.

ولما عاد ﷺ إلى مكة استقبل الكعبة وقال: «إنك خير[١] أرض الله عز وجل وأحب بلاد الله تعالى إلي ولولا أني أُخرجت منك[٢] ما خرجت». وكيف لا والنظر إلى البيت عبادة، والحسنات فيها مضاعفة كما ذكرنا، والله أعلم وأحكم[٣].

الفصل الرابع: في فضل المدينة

اعلم أن مدينة الرسول عليه السلام أفضل البلاد بعد مكة والبيت الحرام وقد جعل لها عليه السلام حرماً كحرم مكة، فقال ﷺ: «إن إبراهيم عليه السلام حرم مكة، وأنا حرمت المدينة وهو ما بين لابتيها». يعني حرتيها وهو ما بين عير إلى ثور؛ وهما جبلان بالمدينة.

وقال عليه السلام: «المدينة خير لهم لو كان يعلمون». ودعا لها عليه السلام وبارك عليها فقال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في صاعنا وبارك لنا في مدنا»[٤].

وعن الزبير بن العوام قال: كنت جالساً عند عبد الله بن عمر فأتته مولاة له تسلم عليه فقالت: إني أريد الخروج يا أبا عبد الرحمن، اشتد علينا الزمان فقال ابن عمر: اقعدي يا لكعاع فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصبر أحد على شدتها ولأوائها إلاّ كنت له شفعاً أو شهيداً يوم القيامة ولا يخرج أحد منها رغبة عنها إلاّ أبدل الله فيها من هو خير منه وإنها / لتنقي [٦٨/ب] الناس كما ينقي الكير خبث الحديد»[٥].

---

(١) في الإحياء: لخير.

(٢) في الإحياء: لما. والحديث ذكره العراقي تعليقاً في المغني (١/ ٢٤٤) وقال: رواه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه، وابن حبان من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء.

(٣) الفصل بتمامه وكلامه في الإحياء للغزالي (١/ ٢٤٤).

(٤) طرفه عند: مسلم في الصحيح (الحج ٤٨٣)، والترمذي في الجامع (٣٤٥٤)، ومالك في الموطأ (٨٨٥).

(٥) عن نحوه مختصراً في الإحياء قال العراقي في المغني (١/ ٢٤٥): حديث أبو هريرة، وابن عمر، وأبو سعيد.

وكان عليه السلام يقول في جبل أحد: «هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع إليّ فأسكني أحب البقاع إليك». فأسكنه المدينة وجعل فيها قبره ﷺ فثبت بما ذكرنا أنه لا بقعة أفضل منها بعد مكة والأعمال فيها أيضاً مضاعفة إذ قال ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلاّ المسجد الحرام»(١).

وكذلك كل عمل بالمدينة بألف، وبعد المدينة الأرض المقدسة، فإن الصلاة فيها بخمسمائة، وكذلك سائر الأعمال.

وروي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة، وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة، وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة»(٢).

وعنه ﷺ أنه قال: «من استطاع أن يموت بالمدينة فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة»(٣).

وما بعد هذه البقاع الثلاث: فالمواضع فيها متساوية إلاّ الثغور فإن المقام للمرابطة له فضل عظيم ولذلك قال ﷺ: «لا تشد الرحال إلاّ لثلاث مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»(٤).

وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث في المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء الصلحاء.

وفي كتاب الغزالي قال: وما تبين لي أن الأمر كذلك بل الزيارة مأمور بها قال ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة المقابر ألا فزوروها ولا تقولوا هجراً»(٥).

[٦٩/أ] والحديث إنما ورد في المساجد، وليس في معناها المشاهد / لأن المساجد بعد

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم من حديث ابن عمر. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٤٤).

(٢) غريب لم أجده بجملته، ورواه ابن ماجه من حديث ميمونة بإسناد جيد في بيت المقدس: «ائتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره»، وله من حديث أنس: «صلاة بالمسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة، وصلاة في مسجدي بخمسين ألف صلاة» وليس في إسناده من ضعف، وقال الذهبي: إنه منكر. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٤٥).

(٣) رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث ابن عمر قال الترمذي حسن صحيح، المرجع السابق.

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد، راجع المصدر السابق.

(٥) رواه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب، راجع المصدر السابق.

المساجد الثلاثة متساوية ولا بلد إلاّ وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر، وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل، نعم لو كان في موضع لا مسجد فيه فله أن يشد الرحال إلى موضع فيه مسجد وينتقل إليه بالكلية إن شاء، ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل شد الرحال إلى قبور الأنبياء مثل إبراهيم، وموسى، وعيسى[(١)]، وغيرهم عليهم السلام والمنع من ذلك في غاية الإحالة، وإذا جوز ذلك فقبور الأولياء والعلماء والصلحاء في معناها ولا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة ومقاصدها كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد هذا في الرحلة.

وأما المقام فالأولى بالمريد أن يلازم مكانه إذ لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهما سلم له حاله في وطنه فإن لم يسلم فليطلب من المواضع ما هو أقرب من الخمول، وأسلم للدين، وأفرغ للقلب، وأيسر للعبادة، وذلك أفضل المواضع له، إذ قد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «البلاد بلاد الله عز وجل والخلق عباده فأي موضع رأيت فيه رفقاً فأقم وأحمد الله تعالى»[(٢)].

وفي الخبر: «من رزق من شيء فليلزمه، ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه»[(٣)].

وعن بعضهم[(٤)] قال: رأيت سفيان قد جعل جرابه على كتفيه وأخذ قلته بيده فقلت: إلى أين يا أبا عبد الله؟ قال: إلى بلد أملأ فيه جرابي بدرهم.

وفي حكاية أخرى قال: بلغني قرية فيها رخص أقيم فيها. قال فقلت: وتفعل هذا يا أبا عبد الله؟ قال: نعم، إذا سمعت برخص في بلد فاقصده فإنه أسلم لدينك وأقل لهمك. وكان يقول: هذا زمان سوءِ لا يأمن فيه على الخاملين فكيف بالمشهورين / هذا زمان ينتقل فيه [٧٠/ب] الرجل من قرية إلى قرية يفر بدينه من الفتن.

ويحكى أنه قال: والله لا أدري أي البلاد أسكن فقيل له: خرسان. فقال: مذاهب مختلفة، وآراء فاسدة. قيل: فالشام. قال: يشار إليك بالأصابع، أراد الشهرة. قيل: فالعراق.

---

(١) في الإحياء: ويحيى. بدل عيسى. وأحسب أن ما هنا محرف.
(٢) رواه أحمد، والطبراني من حديث الزبير بسند ضعيف، قاله العراقي في المغني (١/ ٢٤٥).
(٣) رواه ابن ماجه من حديث أنس بالجملة الأولى بسند حسن، ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة بلفظ: «إذا سبب الله لأحدكم رزقاً من وجه فلا يدعه حتى يتغير أو يتنكر له». المصدر السابق.
(٤) في الإحياء: أبو نعيم.

قال: بلدة الجبابرة. وقيل: مكة. قال: مكة تذيب الكيس والبدن. وقال له رجل: عزمت على المجاورة بمكة فأوصني. قال: أوصيك بثلاث؛ لا تصلين في الصف الأول، ولا تصحبن قرشياً[١]، ولا تظهرن صدقة. قال: وإنما كره الصف الأول لأنه يشتهر فيفتقد فيختلط بعمله التزين والتصنع. والله أعلم وأحكم[٢].

الفصل الخامس: في شرائط وجوب الحج وصحته وأركانه وواجباته ومحظوراته

وهذا الفصل يشتمل على خمسة أقسام:

الأول في الشرائط: وهي نوعان:

أحدهما: شروط لزوم الحج.

والثاني: شروط صحته.

فأما شروط اللزوم فهي خمسة: البلوغ، العقل، الحرية، الإسلام، الاستطاعة. فكل من لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة، ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة لزمه الإحرام، ثم يتحلل بعمرة أو حج، إلاّ من يكثر الترداد على مكة كالحطابين فقد جاءت الرخصة في دخولهم مكة بغير إحرام.

وأما الاستطاعة فنوعان: إحداهما: للمباشرة وذلك له أسباب أما في نفسه فالصحة، وأما في الطريق فبأن تكون مخصبة مأمونة بلا بحر مخطر ولا عدو قاهر. وأما في المال فبأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه كان له أهل أو لم يكن، لأن مفارقة الوطن شديد، وبأن يملك نفقة من تلزمه نفقته في هذه المدة، وأن يملك / ما يقضي به ديونه، وأن يقدر على راحلة أو كرائها بمحمل أو زاملة إن استمسك على الزاملة. [٧١/أ]

وأما النوع الثاني من الاستطاعة فهو استطاعة العاجز عن الحج بمرض أو غيره ولكنه يستطيع الحج بماله وذلك أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير من حجة الإسلام.

وقال بعض العلماء: إذا عرض الابن طاعته على الأب المزمن صار به مستطيعاً، قال: لأن الخدمة بالبدن فيها شرف للولد وبذل المال فيه مِنَّة على الوالد، ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر فإن تيسر له ولو في آخر عمره سقط عنه، وإن مات قبل الحج

---

(١) في الأصل: قريشاً. وهو تحريف من الناسخ.
(٢) راجع الفصل في الإحياء فهو فيه بجملته (١/٢٤٤، ٢٤٥).

لقي الله عاصياً بترك الحج، وإن أوصى به وكان [الحج][1] في تركته يحج عنه من ثلث ما مات عنه، وإن استطاع في سنة ولم يخرج مع الناس فتلف ماله في تلك السنة قبل حج الناس، ثم مات لقي الله سبحانه ولا حج عليه ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله.

إذ قد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لقد هممت أن أكتب في الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلا، وفي لفظ آخر قال: لقد هممت أن أبعث إلى أمصار المسلمين فلا أجد رجلاً بلغ سناً وجب عليه الحج فلم يحج إلاّ وضربت عليه الجزية والله ما أولئك بالمؤمنين، قالها ثلاثاً.

وعن سعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وطاوس: لو علمت رجلاً غنياً وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه. وبعضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه.

وعن الربيع بن حبيب قال: إن لم يوص به وهو مضيع مات كافراً.

وعنه أيضاً عن مجاهد عن ابن عمر قال: من / مات صحيحاً موسراً ولم يحج كان سيماً [٧٢/ب] بين عينيه كافراً ثم تلا: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾[2].

وكان ابن عباس يقول: من مات ولم يحج ولم يزكِ سأل الرجعة إلى الدنيا وقرأ قوله عزوجل: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾[3]. قال: أحج. والله أعلم.

الثاني شروط الصحة وهي نوعان: الوقت، والإسلام.

أما الوقت: فهو شوال، وذو القعدة، وتسعة أيام من ذي الحجة، واختلف في ليلة النحر هل يجزي فيها الوقوف بعرفة أم لا؟ فمن أحرم بالحج في غير هذه المدة فهي عمرة، وجميع السنة وقت العمرة.

وأما شروط وقوعه بالإسلام: فإن المشرك لا يجزي حجه عن حجة الإسلام إلاّ إذا أسلم قبل الوقوف بعرفة.

وأما البلوغ: فقد اختلف فيه هل هو شرط في الحج أم لا؟ والصحيح أن الصبي إذا حج

---

(١) ما بين المعقوفين من الإحياء (١/٢٤٦).

(٢) سورة آل عمران الآية: ٩٧.

(٣) سورة المؤمنون الآية: ٩٩.

وهو غير بالغ فعليه إعادة، وكذلك العبد إلاّ إذا بلغ الصبي، وأعتق العبد قبل الوقوف بعرفة فإنه يجزي عن حجة الإسلام لأن الحج عرفة.

ويشترط هذه الشروط في وقوع العمرة عن فرض الإسلام عند وقت الإحرام لأن الإحرام ذلك شرط في العمرة كالطواف والله علم.

وأما شروط وقوع الحج نقلاً عن الحر البالغ فهي براءة الذمة عن حجة الإسلام، ثم القضاء لمن أفسده، ثم النذر إذا أوجبه على نفسه، ثم قضاء حق الغير إذا تحمله أن يحج عنه بخلافه أو نيابة، ثم النفل بعد ذلك لغيره والله أعلم[١].

القسم الثاني في الأركان التي لا يصح الحج دونها: وهي ثلاث[٢] متفق عليها عند أصحابنا:

[٧٣/أ] أحدها: الإحرام من الميقات أو من غيره، لكن إذا أحرم من بعد / أن -جاوز الميقات لزمه دم.

الثاني: الوقوف بعرفات نهاراً، فإن غابت الشمس ولم يقف فلا حج له، وقيل إن وقف ساعة قبل طلوع فجر يوم النحر فقد أجزاه.

الثالث: طواف الزيارة بعد التحلل من الإحرام يوم النحر. فمتى الحاج بشيء من هذه الثلاث فقد بطل حجه، وكذلك المعتمر تبطل عمرته بترك الإحرام والطواف خاصة.

واختلف في السعي بين الصفا والمروة؛ فقيل هو فرض وأكثر القول أنه سنة، وكذلك ذكر الله عند المشعر الحرام مختلف فيه وأكثر القول أنه سنة.

وأما اجتناب الصيد، والجماع، وما نهيّ المحرم عنه في الحج فهو فرض على الحاج والمعتمر والله أعلم.

القسم الثالث: في الواجبات التي تجبر بالدم: فهي مثل ترك الإحرام من الميقات، وترك ركوع الطواف حتى يخرج من الحرم، وترك المبيت بالمزدلفة، وترك الوقوف بالمشعر الحرام، وترك ذكر الله عز وجل فيه، وترك الحلق، والذبح وجمرة العقبة، وترك رمي الجمرات الثلاث في أيام التشريق، وترك طواف الوداع، فمن ترك شيئاً من هذه المذكورات فعليه دم، والجمار

---

(١) ورد أغلب الفصل في إحياء علوم الدين للغزالي (١/٢٤٦).
(٢) في الإحياء: خمسة، وعدها.

إن ترك ثلاث حصايات فصاعد الزمه دم والله أعلم.

القسم الرابع: في وجوب أداء الحج والعمرة: وهي ثلاثة؛ تمتع، وقران، وإفراد.

أما المتمتع: فهو إفراد العمرة مجردة عن الحج فيحل منها ثم يردفها الحج في عامة ذلك ولها ستة شروط:

أحدها: أن يحرم بها في أشهر الحج.

الثاني: أن يحل منها في أشهر الحج.

والثالث: أن يحرم بالحج في عامه ذلك.

والرابع: أن يكون ذلك قبل الرجوع إلى أفقه أو مثل أفقه.

الخامس: / أن تقع العمرة قبل الحج في عام واحد. [٧٤/ب]

السادس: أن لا يكون من أهل مكة ولا ذي طوى.

والمتمتع أيضاً نوعان:

أحدهما: متمتع يسوق الهدي إذا قدم مكة فطاف وركع وشرب من ماء زمزم وسعى بين الصفا والمروة فليقم بمكة محرماً من غير حلق ولا تقصير حتى يبلغ الهدي محله يوم النحر، فيحلق حينئذٍ ويقصر.

والثاني: متمتع لا هدي معه فإنه إذا فرغ من مناسك العمرة بالحلق والتقصير فقد حل له كل شيء من النساء والطيب وغير ذلك ما خلا صيد الحرم فإنه حرام على المحلين والمحرمين.

وأما القران: فهو أن يجمع بين الحج والعمرة معاً فيصير محرماً بهما، وتكفيه أعمال الحج من السعي والطواف، وعند تجديدهما للعمرة في قول بعض الفقهاء، وتندرج العمرة تحت الحج، كما يندرج الوضوء تحت الغسل، إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف فسعيه محسوب من النسكين في قول بعضهم، وأما طوافه فغير محسوب لأن شرط طواف الفرض والحج أن يقع بعد الوقوف، والأحسن عندي: إذا قدم القارن مكة فليطف للعمرة ويركع ويشرب من زمزم ويسعى بين الصفا والمروة، فإذا فرغ أقام محرماً ولا يطوفن بالبيت، ثم إذا رمى جمرة العقبة ذبح وحلق وحلّ من إحرامه ما خلا النساء والطيب ثم إذا طاف للزيارة وسعى، فقد حل له الحلال كله ويلزمه دم شاة لتركه الحلق من العمرة، والله أعلم.

وأما الإفراد: فهو أن يحرم بالحج مفرداً ولا يطوف بالبيت إن قدم في عشر ذي الحجة

[١/٧٥أ] وأما قبلها فلا باس وإذا طاف أقام محرماً حتى / يرمي جمرة العقبة فيحل ويزور البيت، فإذا فرغ من الحج خرج إلى الحلّ لإحرام فيحرم بها من الجعرانة أو من التنعيم أو من الحديبية وليس على المفرد دم إلاّ أن تطوع والله أعلم.

والتمتع عند أصحابنا أفضل من الإفراد، والإفراد أفضل من القِران، ثم المتمتع يلزمه ما استيسر من الهدي إذا لم يكن المحرم من حاضري المسجد الحرام وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيه الصلاة، وقيل: هم أهل الحرم، فإذا لم يكن المتمتع من حاضري المسجد الحرام فعليه دم، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج قبل النحر آخرها يوم عرفة وسبعة إذا رجع في الطريق وقيل في الوطن، وبدل دم القران إذا لم يجد كدم المتمتع سواء والله أعلم[١].

القسم الخامس في محظورات الحج والعمرة: وهي ستة:

أحدها: لبس القميص والسراويل والخف والعمامة، بل ينبغي أن يلبس إزاراً، ورداء، ونعلين، فإن لم يجد نعلين فمكعباً من الأخفاف، وإن لم يجد إزاراً فسراويل، ولا بأس بشد الهميان[٢] على وسطه لئلا تضيع النفقة، وكذلك الاستظلال بالمحمل والقباب والخيم وليحذر أن تمس رأسه أو يغطيه فإن إحرام الرجل في رأسه، وأما المرأة: فلها أن تلبس كل مخيط ما خلا الخز والحرير والديباج والحلي في عنقها بعد أن تستر وجهها ببرقع ولا بما يماسه بل إحرامها في وجهها والله أعلم[٣].

الثاني: الطيب فليجتنب كل ما يعده العقلاء طيباً فإن تطيب أو لبس مخيطاً أو غطى رأسه متعمداً فعليه دم شاة.

[١/٧٦أ] **الثالث**: نزع الشعر وقلم / الأظفار فإن نزع أو قلم ثلاثاً فصاعداً فعليه دم وفيما دون ذلك لكل واحد طعام مسكين وكذلك إذا أدمى نفسه ولا بأس بالاكتحال والإدهان والتداوي بما لا طيب فيه.

الرابع: الجماع وهو مفسد للحج إذا وقع قبل الوقوف بعرفة أو وقع في العمرة فإن جامع متعمداً فلا حج له لكن يؤمر بإتمامه وعليه أن يهدي بدنة والحج من قابل.

الخامس: مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة والنظر والمباشرة وشبهها فإن فعل شيئاً من

---

(١) نحو هذا القوم في الإحياء (١/٢٤٦، ٢٤٧).

(٢) وهو ما يسمى اليوم «بالكمر».

(٣) وهذا القسم بنصه في الإحياء (١/٢٤٧).

هذا فأمنى فقد فسد حجه كما تقدم وإن لم يمن ماء دافقاً فعليه دم إذا أمنى والله أعلم.

السادس: قتل صيد البر الذي يؤكل منه أو ما هو متولد بين الحلال والحرام فإن قتل صيداً فعليه دم مثله من النعم يراعي فيه التقارب في الخلقة وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه[١]، وهَـوَام البدن[٢] فيه حبة أو ثمرة أو لقمة والله أعلم. اختصرنا هذه الأشياء اختصاراً لأن هذا كله مشروح في كتاب الحج الذي ألفناه وبالله التوفيق.

الباب الثاني
في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع

وهي عشر جمل:

الجملة الأولى: في السنن من أول الخروج إلى الإحرام، وهي ثمانية: أحدها: في المال فينبغي أن يبدأ بالتوبة، ورد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقة إلى وقت الرجوع، ويرد ما عنده من الودائع، ويستصحب زاداً من المال الحلال الطيب ما يكفيه لذهابه وإيابه من غير تقتير بل على وجه يمكنه معه التوسع في الزاد، والرفق بالضعفاء / والفقراء، ويتصدق بشيء قبل خروجه، ويشتري لنفسه دابة قوية على الحمل لا تضعف، أو [٧٧/ب] يكتريها، فإن اكترى فليظهر للمكاري ما يريد أن يحمله من قليل وكثير، ويحصل رضاه فيه.

الثانية: في الرفيق ينبغي أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً عليه إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه وإن جبن شجعه، وإن عجز قواه، وإن ضاق صدره صبّره، ويورع رفقاءه وإخوانه المقيمين، ويلتمس أدعيتهم، فإن الله تعالى جاعل له في أدعيتهم خيراً، والسنة في الوداع أن يقول: «استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»[٣] وكان ﷺ يقول لمن أراد السفر: «في حفظ الله وكنفه، زودك الله التقوى، وغفر ذنوبك، ووجهك للخير أينما توجهت»[٤].

---

(١) كذا ذكره الغزالي في كتابه الإحياء (١/ ٢٤٧).

(٢) هوام البدن: كالقمل، والبراغيث، والديدان الشرجية.

(٣) رواه أبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي من حديث ابن عمر: أنه كان يقول للرجل إذا أراد سفراً: أدن مني حتى كما كان رسول الله ﷺ يودعنا. العراقي في المغني (١/ ٢٤٨).

(٤) رواه الطبراني في الدعاء من حديث أنس وهو عند الترمذي وحسنه دون قوله: «في حفظ الله وكنفه». المصدر السابق.

فهذا ينبغي أن يدعى به للمتولي دون غيره.

الثالثة: في الخروج من الدار ينبغي إذا هَمَّ بالخروج أن يودع المنزل بركعتين يصليهما يقرأ في الأولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾. وفي الثانية بعد الفاتحة بسورة الإخلاص ثلاثاً فإذا فرغ رفع يديه ودعى الله سبحانه عن إخلاص صادق ونية صادقة وقال: اللهم أنت الصاحب في السفر، وأنت الخليفة في الأهل والمال والولد، والأصحاب، احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة، اللهم إنَّا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى والعمل بما ترضى، اللهم هوّن علينا السفر واطو لنا الأرض، وارزقنا في سفرنا هذا سلامة البدن والدين والمال، وبلغنا بيتك الحرام، وزيارة قبر نبيك محمد عليه السلام، اللهم إنّا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب [٧٨/أ]/ وسوء المنظر في المال والأهل والولد والأصحاب، اللهم اجعلنا وإياهم في جوارك، ولا تسلبنا وإياهم نعمتك، ولا تغير ما بنا وبهم من عافيتك[١].

الرابعة: إذا حصل على باب الدار قال: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلاّ بالله، رب إني أعوذ بك أن أَضل أو أُضل، أو أذل أو أُذل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل عليَّ، اللهم إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعةً بل خرجت إتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك وإتباع سنتك وشوقاً إلى لقائك، فإذا مشى قال: اللهم بك انتشرت، وعليك توكلت، وبك اعتصمت، وإليك توجهت، اللهم أنت ثقتي ورجائي، فاكفني ما أهمني وما لا أهتم به، وما أنت أعلم به مني، عز جارك، وجل ثناؤك، ولا إله غيرك، اللهم زودني التقوى، واغفر لي ذنبي، ووجهني للخير أينما توجهت. ويدعو بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه[٢].

الخامسة: في الركوب وإذا ركب راحلته فليقل: بسم الله وبالله، الله أكبر، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشاء لم يكن، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إني وجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وتوكلت في جميع أموري عليك، أنت حسبي ونعم الوكيل. فإذا استوى على الراحلة واستوت تحته قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، الله أكبر سبع مرات، وقال: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، اللهم أنت الحامل [٧٩/أ] على الظهر، / والمستعان على الأمور[٣].

---

(١) كذا في الإحياء (١/٢٤٨).

(٢) في الإحياء بنصه. غير أنه قال في آخره: في كل منزل يدخل عليه (١/٢٤٨).

(٣) المصدر السابق بنصه.

السادسة: في النزول، والسنة في النزول أن لا ينزل حتى يحمى النهار ويكون أكثر سيره بالليل، قال عليه السلام: «عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوي بالليل ما لا تطوي بالنهار»[١]. وليقلل نومه بالليل حتى يكون ذلك عوناً على المسير، ومهما أشرف على المنزل فليقل: اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب البحار وما جرين، أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وخير من فيه وخير ما فيه، اصرف عني شر شرارهم يا أرحم الراحمين. فإذا نزل المنزل صلى فيه ركعتين، ثم قال: أعوذ بكلمات التامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر من شرّ ما خلق. فإذا جن عليه الليل قال: يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما دبّ عليك، أعوذ بالله من شرّ كل أسد وأسود وحية وعقرب، ومن ساكني البلد، ووالدٍ وما ولد، وله ما سكن في الليل والنهار، وهو السميع العليم[٢].

السابعة: في الحراسة: وينبغي أن يحتاط بالنهار ولا يمشي منفرداً خارج القافلة لأنه ربما يغتال أو ينقطع ويكون بالليل متحفظاً عند النوم، فإن نام في ابتداء الليل افترش ذراعه، وإن نام في آخر الليل نصب ذراعه نصباً، وجعل رأسه في كفه، هكذا كان ينام رسول الله ﷺ في أسفاره[٣] فيما بلغنا، لأنه ربما استثقل النوم فتطلع الشمس وهو لا يدري فيكون ما فاته من الصلاة أفضل مما يناله / من الحج. والأحب في الليل أن يتناوب الرفيقان في الحراسة فإذا نام [٨٠/ب] أحدهما حرس الآخر[٤]، فهو السُنَّة، فإن قَصَدَهُ عدو أو سَبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي، وشهد الله وسورة الإخلاص، والمعوذتين وليقل: بسم الله لا قوة إلا بالله، حسبي الله، توكلت على الله، ما شاء الله، لا يأتي بالخيرات إلاّ الله، ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، ليس وراء الله منتهى، ولا دون الله ملجأ، كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز، تحصنت بالله العلي العظيم، واستعنت بالحيّ

---

(١) رواه أبو داود من حديث أنس دون قوله ما تطوي بالنهار وهذه الزيادة في الموطأ من حديث خالد بن معدان مرسلاً. قاله العراقي في المغني (١/٢٤٨).

(٢) بنصه في المصدر السابق.

(٣) رواه أحمد، والترمذي في الشمائل من حديث أبي قتادة بإسناد صحيح وعزاه أبو مسعود الدمشقي والحميدي إلى مسلم ولم أره فيه. قاله العراقي في المغني (١/٢٤٩).

(٤) رواه البيهقي من طريق ابن إسحاق من حديث جابر في حديث فيه فقال الأنصاري للمهاجري: أي الليل أحب إليك أن أكفيكه أوله أو آخره؟ فقال: بل اكفني أوله، فاضطجع المهاجري الحديث والحديث عند أبي داود ولكن ليس فيه قول الأنصاري للمهاجري، المصدر السابق.

الذي لا يموت، اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بكنفك الذي لا يرام، اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك، وأنت ثقتنا ورجاؤنا، اللهم اعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين[١].

الثامنة: مهما علا نشزاً من الأرض في الطريق يستحب أن يكبر ثلاثاً ثم يقول: اللهم لك الشرف على كل شرف، ولك الحمد على كل حال. ومهما هبط سبّح، ومهما خاف الوحشة في سفره قال: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جلل السموات بالعزة والجبروت. وبالله التوفيق[٢].

الجملة الثانية: في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة، وهي خمسة:

الأول: أن يغتسل وينوي به غسل الإحرام إذا انتهى إلى الميقات المشهور الذي يحرم الناس منه وينبغي له أن يتم غسله بالتنظيف والإتيان بخصال الفطرة من تقليم الأظفار، ونتف الأبطين / وحلق العانة، وقصّ، وغير ذلك من استكمال النظافة التي قدمت في الطهارة[٣]. [٨١/أ]

الثاني: أن يفارق الثياب المخيطة، ويتجرد عنها، ويلبس ثوبين للإحرام يستحب أن يكونا جديدين أو غسيلين لم يلبسا منذ غسلا فيرتدي أحدهما ويتزر بالآخرة والأبيض من الثياب أحب إلى الله تعالى[٤].

الثالث: أن يركع ركعتين ويحرم على إثرهما إن لم تحصر صلاة مكتوبة، ثم إذا فرغ عقد النية للإحرام على ما أراد من تمتع أو قران أو إفراد، ويكفي مجرد النية لانعقاد الإحرام مع لفظ التلبية، فيقول: لبيك اللهم لبيك، [لبيك][٥] لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك [والملك][٦] لا شريك لك، لبيك بعمرة تمامها وبلاغها عليك يا الله، وإن قرن فليقل: بحجة وعمرة تمامها وبلاغها عليك يا الله، وإن أفرد فليقل: بحجة تمامها وبلاغها عليك يا الله. وإن شاء زاد في التلبية، فقال؛ لبيك وسعديك والخير كله بيديك[٧]، والرغباء إليك، لبيك حقاً

---

(١) بنصه في الإحياء (٢٤٩/١).
(٢) بنصه في الإحياء الموضع السابق.
(٣) نصه في المصدر السابق.
(٤) في المصدر السابق بنحوه وأتم مما هنا.
(٥) ما بين المعقوفين سقط من الأصل وأثبته من المصدر السابق.
(٦) ما بين المعقوفين سقط من الأصل وأثبته من المصدر السابق.
(٧) في الأصل: بيدك. والتصويب من المصدر السابق.

حقاً تعبداً ورقاً اللهم صلى على محمد وآل محمد، وبالله التوفيق[١].

الرابع: ينبغي له أن يلبي إذا انبعثت به راحلته إن كان راكباً وإذا أخذ في السير إذا كان راجلاً. ويستحب له أن يقول: اللهم إني أريد العمرة أو الحج فيسره لي وأعني على أداء فرضك وتقبله مني، اللهم إني نويت أداء فرضتك في الحج فاجعلني من الذين استجابوا لك، وآمنوا بوعدك، واتبعوا أمرك، واجعلني من وفدك الذين رضيت وارتضيت وقبلت وكتبت / وسميت، اللهم قد أحرم لك لحمي وشعري ودمي وبشري وعصبي ومخي وعظامي،[٨٢/ب] وحرمت على نفسي النساء والطيب ولبس المخيط إبتغاء وجهك والدار الآخرة، فليجتنب من حين أحرم المحظورات الستة التي[٢] ذكرناها قبل[٣].

الخامس: يستحب تجديد التلبية في دوام الإحرام عند اصطدام الرفاق، وعند اجتماع الناس، وعند كل صعود وهبوط، وعند كل ركوب ونزول رافعاً بها[٤] صوته، بحيث لا يبح حلقه، ولا ينهر، فإنه لا ينادي أصم ولا غائباً[٥]. كما ورد في الخبر، ولا بأس برفع الصوت بالتلبية في المساجد الثلاثة، فإنها مظنة المناسك ـ أعني المسجد الحرام، ومسجد الخيف بمنى، ومسجد الميقات ـ وأما سائر المساجد فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع صوت، وكان ﷺ إذا أعجبه شيء قال: «لبيك إن العيش عيش الآخرة»[٦].

الجملة الثالثة: في آداب دخول مكة إلى الطواف، وهي ستة:

الأولى: أن يغتسل بذي طوى لدخول مكة، ويقال الاغتسالات المستحبة، ويقال: المسنونات في الحج تسع؛ أحدها: اغتسال الإحرام، ثم لدخول مكة، ثم لطواف القدوم، ثم للوقوف بعرفة، ثم ثلاثة: اغتسال لرمي الجمار الثلاث، والغسل لطواف الزيارة، ولطواف الوداع، ولم ير ذلك بعضهم.

الثانية: أن يقول عند الدخول في أول الحرم وهو خارج مكة: اللهم هذا حرمك وأمنك

---

(١) بنحوه في المصدر السابق.
(٢) في الأصل: التي وهو لحن.
(٣) بنصه في الإحياء (١/٢٤٩، ٢٥٠).
(٤) في الأصل: به. وهو لحن.
(٥) متفق عليه من حديث أبي موسى. العراقي في المغني (١/ ٢٥٠).
(٦) رواه الشافعي في المسند من حديث مجاهد، مرسلاً، بنحوه، وللحاكم وصححه من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ وقف بعرفات فلما قال: «لبيك اللهم لبيك» قال: «إنما الخير خير الآخرة». المصدر السابق.

[٨٣/أ] فحرّم لحمي ودمي وبشري على النار، وأمني من / عذابك يوم تبعث عبادك، واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك.

الثالثة: أن يدخل مكة من جانب الأبطح وهي من ثنية كَداء بفتح الكاف، يقال: أن رسول الله عليه السلام عدل إليها من جادة الطريق[١]، فالتأسي به أوْلَى فإذا خرج فليخرج من ثنية كُداء بضم الكاف وهي الثنية السفلى والأولى هي العليا.

الرابعة: إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الردم فعنده يقع بصره على البيت فليقل: لا إلٰه إلا الله، والله أكبر، اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام، فحينا يا ربنا بالسلام، وأدخلنا دار السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم إن هذا بيتك عظمته وكرمته وشرفته، اللهم فزده تعظيماً وزده تشريفاً وتكريماً ومهابة وزد من عظمه وشرفه وكرمه تكريماً وإيماناً ومهابة ممن حجه واعتمره من عبادك الصالحين، اللهم افتح لي أبواب رحمتك وأدخلني جنتك وأعذني من الشيطان الرجيم.

الخامسة: إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بني شيبة اقتداءً بالنبي عليه السلام وليقدم رجله اليمنى عند الدخول وليقل: بسم الله، وبالله ومن الله، وإلى الله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، فإذا قرب من البيت قال: الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، اللهم صلى على محمد عبدك ورسولك، وعلى إبراهيم خليلك، وعلى جميع أنبيائك [٨٤/أ] ورسلك، وليرفع يديه وليقل: اللهم / إني أسألك في مقامي هذا في أول مناسكي أن تقبل توبتي، وتتجاوز عن خطيئتي، وتضع عني وزري، الحمد لله الذي بلغني بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمنا، وجعله مباركاً وهدى للعالمين، اللهم إني عبدك، والبلد بلدك، والحرم حرمك، والبيت بيتك، جئت أطلب رضاك ورحمتك، وإتمام طاعتك، أسألك مسألة البائس الفقير المضطر إليك المستسلم لأمرك، الخائف من عقوبتك، الراجي لرحمتك، الطالب لمرضاتك، أسألك أن تستقبلني بعظيم عفوك، وأن تجود لي بمغفرتك، وأن تعينني على أداء فرائضك.

السادسة: أن تقصد الحجر الأسود بعد ذلك، وتمسه بيدك اليمنى، وتقبله، وتقول: اللهم أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته، أشهد لي بالموافات. فإن لم تستطع التقبيل والمسّ، فقف

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل مكة دخل من الثنية العليا التي بالبطحاء..... الحديث. العراقي في المغني (١/ ٢٥٠).

في مقابلته وقل ذلك، ثم لا تعرج على شيء دون الطواف، وهو طواف القدوم إلاّ أن تجد الناس في الصلاة المكتوبة فتصلي معهم، ثم تطوف[١].

الجملة الرابعة: في الطواف.

فإذا أراد القادم مكة افتتاح الطواف إما للعمرة أو للقدوم فينبغي أن يراعي أموراً ستة:

الأول: أن يراعي شروط الصلاة: من طهارة الحدث، والخبث في الثوب والبدن، والمطاف، وستر العورة، والطواف بالبيت صلاة لكن أحل الله فيه الكلام، وليضطبع قبل ابتداء الطواف؛ وهو أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى، ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر، / فيرخي طرفاً وراءَ ظهره، وطرفاً على صدره، ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف، ويشتغل [٨٥/ب] بالأدعية التي سنذكرها.

الثاني: إذا فرغ من الاضطباع، فليجعل البيت على يساره، وليقف عند الحَجر، وليتنح عنه قليلاً ليكون الحَجر قدامه، فيمر بجميع الحَجر بجميع بدنه في ابتداء طوافه، وليكن بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات، ليكون قريباً من البيت، فإنه أفضل، ولكي لا يكون طائفاً على الشذروان، فإنه من البيت، وعند الحجر الأسود قد يتصل الشذروان بالأرض، ويلتبس به، والطائف عليه لا يصح طوافه لأنه طاف في البيت، والشذروان هو الذي فضل من عرض جدار البيت بعد أن ضيق أعلى الجدار، ثم من هذا الموقف يبتدىء الطواف على يمينه.

الثالث: أن يقول قبل مجاوزة الحَجر في ابتداء الطواف: بسم الله الله أكبر، اللهم إني أسألك إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاء بعهدك، واتباعاً لسنتك وسنة نبيك محمد ﷺ، ثم يأخذ في الطواف، فأول ما يجاوز الحَجر ينتهي إلى باب البيت فيقول: اللهم هذا البيت بيتك، وهذا الحرم حرمك، وهذا الأمن أمنك، وهذا مقام العائذ بك، اللهم قني شُح نفسي، واجعلني من المفلحين، واعذني من النار، ومن الشيطان الرجيم، وَحَرِّم لحمي ودمي على النار، وأمِّني من أهوال يوم القيامة، واكفني مؤنة الدنيا والآخرة، ثم يسبح الله تعالى، ويحمده ويهلله، حتى يبلغ الركن العراقي فعنده يقول: اللهم إني / أعوذ بك من الشرك والشك والكفر [٨٦/ب] والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء المنظر في الأهل والمال والولد. فإذا بلغ الميزاب قال: اللهم أظلنا تحت عرشك يوم لا ظل إلاّ ظل عرشك، اللهم اسقنا من كأس نبيك محمد عليه السلام شربة لا نظمأ بعدها أبداً. فإذا بلغ الركن الشامي قال: اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً

---

(١) الجملة السابقة بتمامها في إحياء علوم الدين بنصها (١/ ٢٥٠، ٢٥١).

مشكوراً وذنباً مغفوراً وتجارة لن تبور يا عزيز يا غفور، اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم. فإذا بلغ الركن اليماني قال: اللهم إني أعوذ بك من الكفر، ومن عذاب القبر، وضيق الصدر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وموقف الجزي في الدنيا والآخرة. ويقول بين الركن اليماني والحَجر الأسود: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. فإذا بلغ الحَجر قد تَمَّ شوط واحد فيطوف كذلك سبعة أشواط ويدعو بهذه الأدعية في كل شوط.

الرابع: ترك الرمل في مشي الطواف؛ ومعنى الرمل الإسراع في المشي مع تقارب الخطا، وهو دون العدو وفوق المشي المعتاد والمقصود منه ومن الاضطلاع إظهار الشطارة والجلادة والقوة وقد فعل ذلك النبي عليه السلام وأصحابه لما بلغ المشركين عنهم أنهم في جُهدٍ وشدةٍ جوع، فأمرهم عليه السلام أن يرملوا لكي يرى المشركون أن بهم قوة وأنهم غير مجهودين كما بلغهم عندهم، ثم ترك الرمل بعد ذلك.

[٨٧/أ] وكان ابن عباس رحمه الله فيما بلغنا / لا يرى الرمل شيئاً ويقول: إنما فعل ذلك النبي عليه السلام للعلة المتقدمة. وكذلك عند أصحابنا لا يرون الرمل شيئاً وهو عندهم من متروك السنن[١]. والله أعلم.

الخامس: إذا فرغ من اسبوعه، فليركع ركعتين خلف المقام أو حيث أمكنه في المسجد، وهما من مؤكدات السنن فمن تركها حتى خرج من الحرم فليركعهما وليهرق دماً ويستحب أن يقرأ في الركعة الأولى منهما بفاتحة الكتاب، وسورة قل يا أيها الكافرون، وفي الثانية بعد الفاتحة بسورة الإخلاص ثلاثاً.

السادس: يكره الطواف قبل طلوع الشمس وبعد العصر إلا أن يطوف أسبوعاً ثم يدع الركعتين حتى ترتفع الشمس فيصليهما وإذا صلى المغرب صلاهما أيضاً إن طاف بعد العصر وقيل إن شاء صلاهما قبل المغرب والله تعالى أعلم وأحكم[٢].

---

(١) حديث مشروعية الرمل والاضطباع قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة أما الرمل فمتفق عليه من حديث ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة الحديث، وأما الاضطباع فروى أبو داود، وابن ماجه، والحاكم وصححه من حديث عمر قال: فيم الرملان الآن، والكشف عن المناكب وقد أظهر الله الإسلام، ونفى الكفر وأهله، ومع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ. قاله العراقي في المغني (٢٥١/١، ٢٥٢).

(٢) راجع في الجملة الرابعة بأقسامها الإحياء فقد ورد بها أربع أقسام منه نصاً وبعض الخامس، والسادس (٢٥١/١، ٢٥٢).

الجملة الخامسة: في زمزم والسعي.

فإذا فرغ من الركعتين فليأت زمزم وليشرب من مائها وليصب على رأسه وليقل: اللهم إني أسألك إيماناً تاماً، ويقيناً ثابتاً، وديناً قيماً، وعلماً نافعاً، وعملاً صالحاً، ورزقاً حلالاً واسعاً وشفاءً من كل داءٍ. ويستحب أن يكون في تلك الحالة مستقبلاً للقبلة ويمسح من ذلك وجهه وذراعيه أيضاً.

وكان ابن عباس فيما بلغنا يقول: التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق.

وفي بعض كتب أصحابنا: إذا فرغ من الطواف فليأت الملتزم، وهو بين الحَجر والباب، وهو موضع استجابة الدعاء / فليلصق بطنه بالبيت، وليتعلق بأستار الكعبة، وليدع بما فتح الله، [٨٨/ب] وليخرج إلى الصفا من باب الصفا؛ وهو الباب الذي بحيال الحَجر في مقابلته، ويسمى باب الجنائز، وليكن خروجه أولاً من بين الأسطوانتين المطليتين بالذهب، وهو يقول: اللهم أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعلني من لدنك سلطاناً نصيراً. فإذا بلغ الصفا صعد عليه ولا يعلوه ولكن بقدر ما يرى البيت، وقيل: إلى خمس درجات، ومن لم يستطع قام في أصله وكذلك المرأة تقوم في أصله، وعند رقيه على الصفا ينبغي أن يستقبل البيت، ويكبر سبع تكبيرات، ويثني على الله تعالى، ويصلي على رسوله ﷺ، ويستغفر لذنبه وللمؤمنين، والمؤمنات، ويسأل الله حوائجه من أمر دنيا وآخرة، ويستجب له أن يقول: الله أكبر الله أكبر، الحمد لله على ما هدانا وأولنا وأحسن إلينا، الحمد لله بجميع محامده على جميع نعمه، لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، لا إلٰه إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا إلٰه إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره المشركون، لا إلٰه إلا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين، فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من / الحي، [٨٩/ب] ويحيي الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون.

اللهم إني أسألك إيماناً دائماً، وعلماً نافعاً، وقلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً، وأسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، ويصلي على محمد عليه السلام ويدعو الله تعالى بما شاء من حوائج دنيا وآخرة، ثم ينزل ويبتدىء في السعي وهو يقول: رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، إنك أنت الأعز الأكرم، اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، ويمشي على هيئته حتى ينتهي إلى الميل الأخضر، وهو على

زاوية المسجد الحرام، فإذا بقي بينه وبين محازاة الميل ستة أذرع أخذ في السير السريع وهو الهرولة حتى ينتهي إلى الميلين الأخضرين، ثم يمسك عن الهرولة ويمشي، فإذا انتهى إلى المروة صعد عليها كما صعد على الصفا، وأقبل بوجهه على الصفا، وكبر ودعا بمثل دعاء الصفا، ثم ينزل ويسعى إلى الصفا ممتثلاً ما قدمناه من المشي والهرولة بين العلمين، يفعل هذا سبعة أشواط يبتدىء بالصفا حتى يصل إلى المروة، فيعود إلى الصفا، فيعد ذلك شوطاً واحداً، ولا يعد الرجوع إلى الصفا شوطاً، ولكن يعد من الصفا إلى المروة، ثم إلى الصفا شوطاً، حتى يتم سبعة، يبتدىء بالصفا ويختم بالمروة، فإذا فعل ذلك فليقصر أو يحلق إن كان متمتعاً، وإن كان مفرداً أو قارناً فليقم على إحرامه حتى ينحر الهدي بمنى يوم النحر. والطهار في السعي مستحبة وليست بواجبة بخلاف الطواف والله أعلم.

[٩٠/أ] وفي كتاب الغزالي قال: وإذا سعى فينبغي أن لا يعيد / السعي بعد الوقوف ويكتفي بهذا ركناً: قال: فإنه ليس من شرط السعي أن يتأخر عن الوقوف قال: وإنما ذلك شرط في طواف الركن، نعم شرط كل سعي أن يقع[1] بعد طواف أي طواف كان وهذا لغير المتمتع، والله أعلم وأحكم.

الجملة السادسة: في الإحرام بالحج والخروج إلى منى.

والوقوف بعرفة فإذا أحل المتمتع من عمرته كما قدمنا، وأقام بمكة حلالاً يطوف بالبيت متى ما شاء ويركع مع كل أسبوع ركعتين فإذا كان نصب النهار من يوم التروية، وهو الثامن من ذي الحجة فليغتسل إن أمكنه، وإلاّ أجزأه الوضوء، وليحرم بالحج كما قدمنا في العمرة والتلبية وغير ذلك، فإذا ركع وأحرم ولبى قام متوجهاً من الركوع إلى منى وهو يلبي، ولا يقف عند البيت بعد التلبية، فإذا بلغ منى قال: اللهم إن هذه منى، وهي مما دللت عليه من المناسك، أسألك أن تمنَّ علي فيها وفي غيرها بما مننت به على أوليائك وأصفيائك، فها أنا عندك وبين يديك وفي قبضتك، فيصلي بها خمس صلوات آخرهن صلاة الفجر، ثم يمشي رويداً إلى عرفات، فإذا بلغ وادي محسر فليقف حتى تطلع الشمس، وحد منى فيما بلغنا من جمرة العقبة إلى وادي محسر، وهو الذي عند حياض الماء التي عند مجمع الجبلين، وهما: الجبل الذي عن يمين الذاهب إلى عرفات والجبل الذي يجتمع فيه ماء منى كلها والله أعلم. فإذا طلعت عليه الشمس فليدفع إلى عرفات وهو يلبي، وينبغي أن يقول: اللهم إليك أفضت، ومن

---

(١) في الأصل: يقعه. وهو تحريف.

/ عذابك أشفقت، وإليك صمدت، وإياك اعتمدت، ورحمتك أردت، اللهم اجعلها خير [٩١/ب] غدوة غدوتها قط، وأقربها إلى رضوانك وأبعدها من سخطك. أسألك أن تبارك لي في رزقي ورحيلي، وأن تلقني في عرفات حاجتي، وأن تباهي بي من هو أفضل مني، فإذا أتى عرفات فليضرب خباءه بنمرة قريباً من المسجد، ويقال: ثم ضرب رسول الله عليه السلام قبته[1]، ونمرة هي بطن عُرنة دون الموقف، ودون عرفة فيما وجدت، وليغتسل للوقوف، ويجمع بين الظهر والعصر بأذان وأقامتين ويقصر الصلاة، ثم يروح إلى الموقف ويقف بعرفة، ولا يقفن في وادي عُرنة.

ويستحب له المشي من مكة إلى المناسك إلى انقضاء حجة إن قدر وإلاّ فالمشي من مسجد إبراهيم عليه السلام إلى الموقف أفضل وآكد.

وفي كتاب الغزالي ويقال: صدر مسجد إبراهيم عليه السلام من وادي عُرنة وأخرياته من عَرفة، فمن وقف في صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت هناك.

والأفضل أن يقف عند الصخرات بقرب الإمام مستقبلاً للقبلة، وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله عز وجل والدعاء والتوبة، ولا يصوم في هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء، ولا يقطع التلبية يوم عرفة إلاّ بعد الغروب ليجمع في عرفة بين الليل والنهار، وإن أمكنه الوقوف يوم الثامن ساعة عند إمكان الغلط في الهلال فهو الحزم وبه الأمن / من فوات الوقوف، ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر من يوم النحر فقد فاته الحج باتفاق، [٩٢/ب] وذهب بعض أصحابنا إلى أنه إن غابت الشمس ولم يقف فقد فاته الحج وعليه أن يتحلل بأعمال العمرة، ثم يهرق دماً لأجل الفوات، ثم يقضي الحج من عام قابل، ولا يصيب النساء ولا الصيد حتى يحج، والله أعلم. وليكن أهم اشتغال الواقف بعرفة الدعاء ففي مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجمع ترجى أجابت الدعوات، والدعاء المأثور عن رسول الله ﷺ[2]، وعن

---

(١) رواه مسلم من حديث جابر الطويل؛ فأمر بقبة من شعرٍ تضرب له بنمرة.... الحديث. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٥٤).

(٢) قال العراقي تعليقاً على ذلك في المغني (١/ ٢٥٤): حديث الدعاء المأثور في يوم عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الحديث رواه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»، وقال: حسن غريب. وله من حديث علي قال: أكثر ما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة في الموقف: «اللهم لك الحمد كالذي نقول وخيراً مما نقول، لك صلاتي، =

السلف في يوم عرفة أولى وأحق أن يدعي به، وقد ذكرت ذلك أو أكثره في كتاب مناسك الحج الذي ألّفناه، فمن أراد ذلك فليطلبه هناك، وينبغي أن يلح في الدعاء والمسألة فإن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب يغفره، ولا مطلوب يمن به.

وقد روي عن مطرف بن عبد الله أنه قال وهو بعرفة: اللهم لا ترد الجمع من أجلي.

وقال بعضهم: لما نظر إلى أهل عرفات ظننت أنه قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم. وهكذا ينبغي أن يكون من عرف الله تعالى يرهبه أشد رهبة، ويرغب إليه أعظم رغبة وبالله التوفيق[١].

الجملة السابعة: في الدفع من عرفات والوقوف بالمشعر الحرام ورمي جمرة العقبة. فإذا أفاض الحاج من عرفة بعد غروب الشمس، فينبغي أن يكون على السكينة والوقار وهو يلبي، وليجتنب الإسراع؛ فإن النبي عليه السلام نهى عن إسراع وجيف الخيل وإيضاع الإبل وقال: «اتقوا الله / وسيروا سيراً جميلاً لا تطؤا ضعيفاً ولا [تؤذوا][٢] مسلماً». [٩٣/أ]

وروي أنه عليه السلام لما دفع من عرفة دهم الناس بعيره من ورائه فقال: «أيها الناس على رسلكم». فإذا بلغ الحاج المزدلفة، وفي آخرها المشعر الحرام فينبغي أن يغتسل لدخولها؛ لأنها من الحرم، وإن قدر فليدخلها ماشياً؛ لأن ذلك أفضل وأقرب إلى توقير الحرم. ويقول إذا بلغ المزدلفة: اللهم هذه مزدلفة جمعت فيها السنة مختلفة نسألك حوائج

= ونسكي، ومحياي، ومماتي، وإليك مآبي، ولك رب تراثي، اللهم إني أعوذ بك من شر ما يجيء به الريح». وقال ليس بالقوي إسناده.

وروى المستغفري في الدعوات من حديثه: «يا علي إن أكثر دعاء من قبلي يوم عرفة أن يقول: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير، اللهم اجعل في بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي قلبي نوراً، اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، اللهم إني أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وفتنة القبر، وشر ما يلج في الليل وشر ما يلج في النهار، وشر ما تهب به الريح، وشر بوائق الدهر»، وإسناده ضعيف، وروى الطبراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس. قال: وكان مما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة: «اللهم إنك ترى مكاني، وتسمع كلامي، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري أنا البائس الفقير....» فذكر الحديث إلى قوله: «يا خير المسؤولين، وخير المعطين...»، وإسناده ضعيف، وباقي الدعاء من دعاء بعض السلف، وفي بعضه ما هو مرفوع، ولكن ليس مقيداً بموقف عرفة. اهـ.

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/٢٥٥).

(٢) ما بين المعقوفين من الإحياء (١/٢٥٦) وعلق العراقي على الحديث بقوله: رواه النسائي والحاكم وصححه من حديث أسامة بن زيد: «عليكم بالسكينة والوقار، فإن البر ليس في إيضاع الإبل». وقال الحاكم: «ليس البر بإيجاف الخيل والإبل». وللبخاري من حديث ابن عباس: «فإن البر ليس بالإيضاع».

مؤتنفة، فاجعلني ممن دعاك فاستجبت له، وتوكل عليك فكفيته، ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة في وقت العشاء قاصراً لها بأذان وإقامتين وليس بينهما نافلة، ولكن يجمع سبحة المغرب والوتر بعد الفريضتين يبدأ بركعتي المغرب ثم ركعتي الشفع ثم ركعة الوتر، هكذا يفعل الجامع في السفر وغيره فإن ترك النوافل المأثورة في السفر وغيره خسران ظاهر، ثم يمكث تلك الليلة بمزدلفة وهو مبيت النسك. ومن تركها أو خرج في النصف الأول من الليل فعليه دم، وإحياء مثل هذه الليلة الشريفة من أفضل القربات لمن قدر على ذلك، ثم مهما انتصف الليل فليأخذ في التأهب للرحيل، ويتزود الحصى منها ففيها حجارة رخوة فليأخذ سبعين حصاة فإنها قدر الحاجة ولا بأس بالزيادة عليها؛ لأنه ربما يسقط بعضه ولتكن الحصى خفافاً صغاراً ثم ليغلس بصلاة الصبح، وليأخذ في السير حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو إلى الأسفار ويقول: / اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام والشهر الحرام والركن والمقام بَلِّغ روح [٩٤/ب] محمد منا التحية والسلام وأدخلنا دار السلام يا ذا الجلال والإكرام. ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينتهي إلى وادي محسر فيستحب له أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادي وإن كان راجلاً أسرع في المشي، ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التكبير بالتلبية، فيلبي تارة ويكبر أخرى، فينتهي إلى منى ومواضع الجمرات الثلاث، فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له فيهما يوم النحر حتى ينتهي إلى جمرة العقبة وهي عن يمين مستقبل القبلة في الجادة والمرمى مرتفع قليلاً في سفح الجبل، ورمي جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقيد رمح.

وكيفيته: أن يقف مستقبلاً للقبلة وإن استقبل الجمرة فلا بأس ويأتيها من بطن الوادي فيرميها بسبع حصيات رافعاً يده، يقول مع كل حصاة: الله أكبر ولله الحمد. هذا على طاعة الرحمن ورغم الشيطان. اللهم تصديقاً بكتابك، واتباعاً لسنة نبيك عليه السلام. ثم إذا أراد أن يرمي بدل مكان التلبية التكبير فإذا رمى قطع التلبية والتكبير جميعاً إلا التكبير عقيب الصلوات المفروضات، من ظهر يوم النحر إلى عقيب الصبح أو العصر آخر أيام التشريق، وصفة التكبير أن يقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلا، لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، لا إلٰه إلا الله وحده، صدق /وعده، ونصر عبده، [وهزم الأحزاب وحده][1] لا إلٰه إلا الله والله أكبر، يستحب هذا كله [٩٥/ب] والله أعلم[2].

(١) ما بين المعقوفين من الإحياء.

(٢) راجع إحياء علوم الدين للغزالي فقد توسع في هذه الجملة في كتابه (١/٢٥٦، ٢٥٨).

الجملة الثامنة: في بقية أعمال الحج.

من الذبح والحلق وطواف الزيارة ورمي الجمار، فإذا رمى جمرة العقبة فلينصرف إلى أضحيته فليذبحها إن كانت معه، والأولى أن يذبحها بنفسه، وليقل: بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك ولك، تقبل مني كما تقبلت من خليلك إبراهيم عليه السلام. والضحية بالبدن أفضل من مشاركة سبعة في البدنة أو البقرة، والضأن أفضل من المعز، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «الأضحية الكبش الأقرن والبيضاء أفضل من الغبراء والسوداء»[١].

وعن أبي هريرة أنه قال: البيضاء أفضل في الأضاحي من دم سوداوين، وليأكل منه إن كان هدى التطوع، ولا يضحي بالجدعاء والعضباء والجرباء والشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدابرة والعجفاء.

والجدع: في الأنف والأذن القطع منهما، والعضب: في القرن، وفي نقصان القوائم، والشرقاء المشقوقة الأذن من فوق، والخرقاء: من أسفل، والمقابلة: المخروقة الأذن من قدام، والمدابرة: من خلف، والعجفاء: المهزولة التي لا مخ فيها من الهزال.

ثم إذا ذبح أو نحر فليحلق رأسه، قال الله سبحانه ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾[٢]. والسنة في الحلق أن يستقبل القبلة ويبتدىء بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن إلى العظمين المشرفين على / القفى ثم يحلق الباقي ويقول: اللهم بارك لي في تفثي، واشكر لي حلقي، واكتب لي بكل شعرة حسنة، وامح بها عني سيئة وارفع لي بها عندك درجة. [٩٦/أ] والمرأة تقصر من شعرها ولا تحلقه لأن الحلق لها مُثلَة، والأصلع يستحب له إمرار الموسى على رأسه، ومهما حلق بعد الرمي فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحظورات إلا النساء والصيد فحتى يزور البيت ثم يفيض إلى مكة لطواف الزيارة ويسمى طواف الإفاضة، ثم يطوف بالبيت ويركع ويشرب من زمزم ويسعى بين الصفا والمروة كما قدمنا في العمرة، وهذا الطواف ركن من أركان الحج ولا حج لمن تركه قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[٣] أراد طواف الزيارة.

ويقال: أول وقته نصف الليل من ليلة النحر، وأفضل وقته يوم النحر، ولا آخر لوقته،

---

(١) رواه أبو داود من حديث عبادة بن الصامت، والترمذي من حديث أبي أمامة قال الترمذي: غريب، وعفير يضعف في الحديث، راجع المغني (١/٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) سورة البقرة الآية: ١٩٦.

(٣) سورة الحج الآية: ٢٩.

بل له أن يؤخر أي وقت شاء، ولكن لا تحل له النساء إلاّ أن يطوّف، فإذا طاف تم التحلل، وحل الجماع، وارتفع الإحرام بالكلية، ولم يبق إلاّ رمي الجمار أيام التشريق.والمبيت بمنى والطواف لوداع البيت، ثم إذا فرغ من طواف الإفاضة عاد إلى منى للمبيت والرمي فيبيت تلك الليلة بمنى، وتسمى ليلة القر؛ لأن الناس في غدها يقرون بها ولا ينفرون فإذا أصبح في اليوم الثاني من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي، وقصد الجمرة الأولى التي تلي عرفة وهي عن يمين الجادة ويرميها بسبع حصيات مع كل حصاة تكبيرة / فإذا تعداها انحرف قليلاً عن يمين [٩٧/ب] الجادة ووقف مستقبلاً للقبلة وكبّر ودعى مع حضور القلب، وخشوع الجوارح، يقف قدر سورة البقرة مقبلاً كالأولى ويقف كما وقف للأولى، ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرميها بسبع حصيات ولا يعرج على شغل بل يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول، ويصبح ثم إذا صلى الظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق رمى في هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كاليوم الذي قبله، ثم هو مخير بين المقام بمنى وبين الرجوع إلى مكة فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شيء عليه، وليدفن ما بقي من الحصى في أصل جمرة العقبة وإن صبر إلى الليل لم يجز له الخروج بل يلزمه المبيت حتى يرمي في يوم النفر الثاني إحدى وعشرين حصاة كما سبق.

وله أن يزور البيت في ليالي منى بشرط ألا يبيت إلاّ بمنى كان رسول الله ﷺ فيما بلغنا يفعل ذلك[١] ولا يترك حضور الفرائض مع الإمام في مسجد الخيف؛ فإن فضله عظيم، فإذا أفاض من منى فالأولى أن يقيم بالمحصب من منى ويصلي العصر والمغرب والعشاء ويرقد رقدة[٢]، فهي السنة رواه جماعة عن الصحابة، هكذا في كتاب الغزالي قال: فإن لم يفعل فلا شيء عليه[٣].

الجملة التاسعة: في طواف الوداع.

فمهما عَنَّ له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج / والعمرة فليجهز أولاً [٩٨/ب]

---

(١) رواه أبو داود في المراسيل من حديث طاوس قال: أشهد أن رسول الله ﷺ كان يفيض في ليالي منى. قال أبو داود: وقد أسند. قلت: وصله ابن عدي عن طاوس عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يزور البيت أيام منى. وفيه: عمرو بن رباح ضعيف، والمرسل صحيح الإسناد، ولأبي داود من حديث عائشة: أن النبي ﷺ مكث بمنى ليالي أيام التشريق. قاله العراقي في المغني (١/٢٥٨).

(٢) رواه البخاري من حديث أنس: أن النبي ﷺ صلى الظهر، والعصر، والمغرب والعشاء بالبطحاء، ثم هجع هجعة. المصدر السابق.

(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/٢٥٨)، وقد أدخل الجملة الثامنة ضمن الجملة السابعة.

أشغاله وليشد رحاله، وليجعل آخر أشغاله وداع البيت ووداعه بأن يطوف به سبعاً كما سبق، فإذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام، وشرب من ماء زمزم ثم يأتي الملتزم ويدعو ويتضرع وليقل: اللهم البيت بيتك، والعبد عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، حملتني على ما سخرت لي حتى سيرتني في بلادك، وبلغتني بنعمتك حتى اعتني على قضاء مناسكك، فإن كنت رضيت عني فازدد عني رضًى، وقربني إليك زلفى، وإلاّ فمن الآن عليّ قبل أن أتباعد عن بيتك فهذا أوان انصرافي إن أذنت لي، غير مستبدل بك، ولا ببيتك، ولا راغبٌ عنك، ولا عن بيتك.

اللهم أصحبني العافية في بدني، والعصمة في ديني، وأحسن منقلبي، وارزقني طاعتك ما ابقيتني، واجعل لي خير الدنيا والآخرة، إنك على كل شيء قدير. اللهمّ لا تجعل هذا آخر عهدي من بيتك الحرام، وإن جعلته آخر عهدي فعوضني عنه الجنة.

وينبغي ألا يصرف بصره عن البيت حتى يغيب عنه، ولا يبيع ولا يشتري بعد الوداع ويمضي وهو محزونٌ على فراق البيت والله أعلم وأحكم[١].

الجملة العاشرة: في زيارة مسجد المدينة وقبر النبي عليه السلام

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من زارني ميتاً كمن زارني حيّاً»[٢].

وعنه ﷺ أنه قال: «من وجد سعة ولم يغد إليَّ فقد جفاني»[٣].

[٩٩/أ] وقال عليه السلام: / «من جاءني زائراً لا يهمه إلاّ زيارتي كان حقاً على الله أن أكون له شفيعاً»[٤]. فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله ﷺ في طريقه كثيراً، فإذا وقع بصره على جدار المدينة وأشجارها فليقل: اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لي وقاية من النار وأماناً من العذاب وسوء الحساب، وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة، وليتطيب وليلبس أفضل ثيابه وأنظفها، فإذا دخلها فليدخلها متواضعاً معظماً وليقل: بسم الله على ملة رسول الله ﷺ، رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً. ثم ليقصد

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (٢٥٩/١).

(٢) عن نحوه قال العراقي في المغني (٢٥٩/١): رواه الطبراني، والدارقطني من حديث ابن عمر.

(٣) رواه ابن عدي، والدارقطني في غرائب مالك، وابن حبان في الضعفاء والخطيب في الرواة عن مالك من حديث ابن عمر: «من حج ولم يزرني فقد جفاني» وذكره ابن الجوزي في الموضوعات. وروى نحوه ابن النجار في تاريخ المدينة من حديث أنس بن مالك. المصدر السابق.

(٤) رواه الطبراني من حديث ابن عمر وصححه ابن السكن قاله العراقي في المصدر السابق.

المسجد ويدخله ويصلي بجنب المنبر ركعتين ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن وليستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه فذلك موقف الرسول عليه السلام قبل أن يغير المسجد وليجتهد أن يصلي في المسجد الأول قبل أن يزداد فيه ثم يأتي قبر النبي عليه السلام فيقف عند وجهه، وذلك بأن يستدير القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو أربع أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر ويجعل القناديل على رأسه، وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله، بل الوقوف من بعيد أقرب إلى الاحترام والتوقي فيقف ويقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله حتى يستكمل التسليم عليه وحسن الثناء كما / وصفنا في الكتاب الذي صنفناه في المناسك، فإذا فرغ من ذلك فليتأخر قدر ذراع [١٠٠/ب] ويسلم على أبي بكر رضي الله عنه ويثني عليه، ثم يتأخر قليلاً فيسلم على عمر بن الخطاب رحمه الله كما ذكرنا في كتاب المناسك.

ولا يلصق نفسه بالقبر ولا يرفع صوته عليه بالتسليم ولا يخفضه ولا يقف عند رأس رسول الله عليه السلام بين القبر والأسطوانة اليوم، وليستقبل القبلة ويحمد الله عز وجل ويمجده، وليكثر من الصلاة على رسوله عليه السلام، وليمتثل ما ذكرناه في كتاب المناسك من الاستغفار والتوبة والاعتراف بالتقصير ثم إن كانت له حاجة فليجعل النبي خلف كتفه وليستقبل القبلة وليسأل حاجته فإنها تقضي إن شاء الله. ثم يأتي المنبر فليمسحه وليأخذ برمانتيه السفلاوتين وليمسح بهما وجهه وعينيه[١]؛ فإنه يقال: أنهما شفاء للعين، وليقم هناك وليحمد الله تعالى وليصلي ركعتين وليكثر من الدعاء ما استطاع لقوله عليه السلام: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»[٢]. ثم يأتي مقام جبريل عليه السلام وهو تحت الميزاب فيما بلغنا؛ فإنه كان مقامه إذا استأذن على رسول الله عليه السلام، وليكثر من الدعاء والتضرع ما استطاع، ثم بعد ذلك إذا دخل المسجد سلم على رسول الله، وإذا خرج فمثل ذلك، وليكثر من الصلاة في مسجده عليه السلام.

وإذا زالت الشمس / فليصل ثمان ركعات وليصل ما استطاع، وينبغي أن يأتي سارية أبي [١٠١/ب] لبابة التي كان ربط نفسه إليها حتى نزلت توبته من السماء، فيصلي ويدعو ما استطاع، وإن قام

---

(١) حديث وضعه ﷺ يده عند الخطبة على رمانة المنبر لم أقف له على أصل، وذكر محمد بن الحسن بن زبالة في تاريخ المدينة أن طول رمانتي المنبر اللتين كان يمسكهما ﷺ بيديه الكريمتين إذا جلس شبر وأصبعان. قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ٢٦٠).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، وعبد الله بن زيد. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٦٠).

بالمدينة فليصل ليلة الأربعاء عند سارية أبي لبابة ما استطاع، وليقعد يوم الأربعاء عندها ثم يأتي ليلة الخميس التي مما يلي مقام النبي عليه السلام فليجلس عنده ليلته ويومه، ويصوم يوم الخميس والجمعة، ثم يتقدم إلى مقام النبي وهو خلف الأسطوانة المخلقة التي أكثرهن خلوقاً ويجعلها بين يديه ويقوم قدام التي تليها من خلفها حتى يكون في مقام النبي عليه السلام، فليصل عندها ليلة الجمعة ويومها ويدعو الله تعالى، وليستحب له أن يأتي أحداً من يوم الخميس، ويزور قبور الشهداء، ويصلي الغداة في مسجد النبي عليه السلام حين يخرج ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر فلا تفوته فريضة في الجماعة في المسجد.

ويستحب له أن يخرج إلى البقيع كل يوم بعد السلام على رسول الله ﷺ ويصلي في مسجد فاطمة رضي الله عنها، ويزور قبر إبراهيم بن رسول الله عليه السلام. ويستحب له أن يأتي مسجد قباء في كل سبت ويصلي فيه، يقال في الحديث: إن ذلك يعدل عمرة[١]، ويأتي بئر أريس ويقال أن النبي عليه السلام تفل فيها[٢] وهي عند المسجد فيتوضأ منها ويشرب من مائها، ويأتي مسجد الأحزاب وهو مسجد الفتح وهو على الخندق وكذا يأتي سائر المساجد والمشاهد فيقصد ما قدر عليه وكذلك يقصد الآبار التي كان ﷺ يتوضأ منها ويشرب وهي سبعة آبار يأتيها طلباً للشفاء وتبركاً به / عليه السلام، وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة [١٠٢/أ] فلها فضل عظيم وقد تقدم ذلك. ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فيستحب له أن يأتي القبر ويعيد دعاء الزيارة كما تقدم، ويودّع النبي عليه السلام ويسأل الله تعالى أن يرزقه العودة إليه، ويسأل السلامة في سفره، ثم صلى ركعتين في الروضة الصغيرة وهي موضع قيام رسول الله ﷺ قبل أن تزاد المقصورة في المسجد فإذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولاً، ثم اليمنى وليقل: اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحط أوزاري بزيارته، واصحبني في سفري ويسر لي رجوعي إلى أهلي سالماً يا أرحم الراحمين. وينبغي أن يتصدق على جيران رسول الله ﷺ بما قدر عليه وليتبع المساجد التي بين مكة فيصلي فيها ويقال أنه عشرون موضعاً والله أعلم[٣].

فصل في سنن الرجوع من السفر

ويقال: إن النبي ﷺ كان إذا رجع من غزو أو حج أو غيره يكبر على كل شرف من

---

(١) رواه النسائي، وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف بإسناد صحيح. العراقي في المغني (١/ ٢٦١).

(٢) لم أقف له على أصل، وإنما ورد أنه تفل في بئر البصة، وبئر. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) راجع الإحياء فقد توسع فيه الغزالي (١/ ٢٥٩، ٢٦٢).

الأرض ثلاث تكبيرات ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، أيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده».

وفي بعض الروايات: «وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم / وإليه ترجعون»[١] [١٠٣/ب] وينبغي أن يستعمل هذه السنة في رجوعه وإذا أشرف على موطنه وموضع قراره فليحرك الدابة ويقول: اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً، ثم ليرسل إلى أهله من يخبرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة، فذلك هو السنة[٢]، ولا ينبغي أن يطرق أهله ليلاً، ثم إذا دخل فليقصد المسجد ويصلي فيه ركعتين، كذلك يفعل رسول الله ﷺ، فإذا دخل قال: توباً توباً لربنا أوبالاً يغادر علينا حوباً، فإذا استقر في منزله فلا ينبغي أن ينسى ما أنعم الله عليه من زيارة بيته وحرمه وقبر نبيه عليه السلام فيكفر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة واللهو فما ذلك علامة الحج المبرور، بل علامته أن يعود زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة متأهباً للقاء رب البيت بعد لقاء البيت، والله أعلم وأحكم[٣].

الباب الثالث
في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

من كتاب الغزالي، وهذا الباب يشتمل على جملتين:

أحدهما: في بيان دقائق الآداب وهي عشرة:

الأول: أن تكون النفقة حلالاً، وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب، بل يكون الهم لله تعالى مجرداً، والقلب مطمئناً منصرفاً إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره، وقد ورد في الحديث: «يأتي على الناس زمان يحج الناس فيه وهم أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة وأغنياؤهم للتجارة، وفقراؤهم للمسألة وقراؤهم للرياء والسمعة»[٤].

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر، وما زاد في آخره في بعض الروايات من قوله: «وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون» رواه المحاملي في الدعاء بإسناد جيد. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٦٢).

(٢) لم أجد فيه ذكر الارسال وفي الصحيحين من حديث جابر: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل، فقال: «أمهلوا حتى ندخل ليلاً» ـ أي عشاء ـ «كي تمتشط الشعثة، وتستحد المغيبة». قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٦٢).

(٤) رواه الخطيب من حديث أنس بإسناد مجهول، وليس فيه ذكر السلاطين، ورواه أبو عثمان الصابوني في =

[١٠٤/أ] وفي هذا الحديث إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التي لا تتصور / أن تتصل بالحج، فكل ذلك مما يمنع فضيلة الحج ويخرجه عن حد حج الخصوص، لا سيما إذا كان متجراً بنفس الحج بأن يحج لغيره بأجره فيطلب الدنيا بعمل الآخرة، وقد كره الورعون وأرباب القلوب ذلك إلا أن يكون قصده المقام بمكة ولم يكن له ما يبلغه فلا بأس أن يأخذ ذلك على هذا القصد، لا ليتوصل بالدين إلا الدنيا بل بالدنيا إلى الدين، وعند ذلك ينبغي أن يكون قصده زيارة بيت الله عز وجل، ومعاونة أخيه المسلم بإسقاط الفرض عنه، وفي مثله ينزل قول رسول الله ﷺ: «يدخل الله تعالى بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة: الموصي بها، والمنفذ لها، والخارج[١] والحاج بها عن أخيه»[٢].

قال: ولست أقول لا تحل الأجرة أو يحرم ذلك بعد أن سقط فرض الإسلام عن نفسه، ولكن الأولى أن لا يفعل ولا يتخذ ذلك مكسبة ومتجرة فإن الله عز وجل يعطي الدنيا بالدين ولا يعطي الدين بالدنيا.

وفي الخبر: «مثل الذي يغزو في سبيل الله عز وجل ويأخذ أجراً مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»[٣]. فمن كان مثاله في أخذ الأجرة على الحج مثل أم موسى فلا بأس بأخذه، فإنه يأخذ ليتمكن من الحج والزيارة فيه، وليس الحج بأخذ الأجرة كما كانت ليتيسر لها الارضاع بتلبيس حالها عليهم.

الثاني: أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس إليهم وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة الأعراب المترصدين في الطرق.

[١٠٥/أ] قال: فتسليم المال / إليهم إعانة على الظلم وتيسير لأسبابه عليهم فهو كالإعانة بالنفس ولكن فليتلطف في حيلة الخلاص فإن لم يقدر فقد قال بعض العلماء فليترك التنفل بالحج.

قال: والرجوع عن الطريق أفضل من إعانة الظلمة.

قال: فإن هذه بدعة أحدثت وفي الانقياد لها ما يجعلها سنة.

= كتاب المائتين فقال: «يحج أغنياء أمتي للنزهة، وأوساطهم للتجارة، وفقراؤهم، وقراؤهم للرياء والسمعة». المغني (١/٢٦٣).

(١) هذا اللفظ زائد على السياق وليس في الإحياء أيضاً ولا نحوه.

(٢) رواه البيهقي من حديث جابر بسند ضعيف، قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) رواه ابن عدي من حديث معاذ، وقال: مستقيم الإسناد منكر المتن، قاله العراقي في المصدر السابق.

قال: وفي ذلك ذل وصغار على المسلمين ببذل جزية.

قال: ولا معنى لقول القائل إن ذلك يؤخذ مِنّي وأنا مضطر، فإنه لو قعد في البيت أو رجع من الطريق لم يؤخذ، بل ربما يظهر أسباب الترفه فتكثر مطالبته فإن كان في زي الفقراء لم يطالب فهو الذي ساق نفسه إلى حالة الاضطرار.

الثالث: التوسع في الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقتير ولا إسراف، بل على الاقتصاد، وأعني بالإسراف التنعم بأطيب الأطعمة والترفه بشرف أنواعها على عادة المترفين.

وأما كثرة البذل فلا سرف فيه إذ لا خير في السرف ولا سرف في الخير كما قيل ذلك قديماً. وبذل الزاد في طريق الحج نفقة في سبيل الله عز وجل والدرهم بسبع مائة درهم، وعن ابن عمر قال: من كرم الرجل طيب زاده في سفره، وكان يقول: أفضل الحجاج أخلصهم نيّة وأزكاهم نفقة وأحسنهم يقيناً.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». قيل: يا رسول الله ما بر الحج؟ قال: «طيب الكلام وإطعام الطعام»[1].

الرابع ترك الرفث والفسق والجدال: / كما نطق به القرآن فالرفث: اسم جامع لكل لغو [١٠٦/ب] وخناء وفحش من الكلام، وتدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهن، والتحدث بشأن الجماع ومقدماته فإن ذلك يهيج داعية الجماع المحظور والداعي إلى المحظور محظور.

والفسوق: اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل والجدال: هو المبالغة في الخصومة والممارات مما يورث الضغائن ويفرق في الحال الهمة ويناقض حسن الخلق وليس حسن الخلق كفّ الأذى بل احتمال الأذى.

وقال بعض العلماء: من رفث فسد حجه، وقد جعل النبي عليه السلام طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج والممارات تناقض طيب الكلام، فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجمّاله، وعلى غيرهم من أصحابه بل يلين جانبه ويخفض جناحه للزائرين إلى بيت الله عز وجل.

---

(١) رواه أحمد من حديث جابر بإسناد لين، ورواه الحاكم مختصراً وقال: صحيح الإسناد. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٦٤).

وقيل: سمي السفر سفراً لأنه يسفر من أخلاق الرجال أن يكشفها، ولذلك قال عمر رضي الله عنه لمن زعم أنه يعرف رجلاً هل صحبته في السفر يستدل به على مكارم الأخلاق قال: لا. قال: ما أراك تعرفه[١].

الخامس: ينبغي أن يحج ماشياً إن قدر عليه فذلك الأفضل ويروى أن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أوصى بنيه عند موته فقال: يا بني حجوا مشاة فإن للحاج الماشي بكل خطوة يخطوها سبع مائة حسنة من حسنات الحرم. قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة بمائة ألف.

[١٠٧/أ] والاستحباب / المشي في المناسك والتردد من مكة إلى الموقف إلى منى آكد منه في الطريق وإن أضاف المشي إلى الإحرام من دويرة أهله فقد قيل: إن ذلك من إتمام الحج.

روي ذلك عن علي، وعمر، وابن مسعود في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[٢].

وقال بعض العلماء: الركوب أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤنة ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقل أذاها وأقرب إلى السلامة، وتمام الحج وهذا التحقيق ليس مخالفاً للأول، بل ينبغي أن يفصل فيقال: من سهل عليه المشي فهو الأفضل وإن كان يضعف ويؤدي به ذلك إلى سوء الخلق وقصر عن عمل فالركوب له أفضل كما أن الصوم للمسافر والمريض أفضل ما لم يفض إلى ضعف وسوء خلق.

وسئل بعض العلماء عن العُمرة: المشي فيها أفضل أو يكتري حماراً بدرهم؟ فقال: إن كان وزن الدرهم أشد عليه فالكراء أفضل من المشي، وإن كان المشي أشد عليه كالأغنياء فالمشي له أفضل. فكأنه ذهب فيه إلى طريق مجاهدة النفس وله وجه، ولكن الأفضل له أن يمشي ويصرف ذلك الدرهم إلى خير فهو أولى من صرفه في كراء الدابة فإن كان لا تتسع نفسه في الجمع بين مشقة النفس ونقصان المال فما ذكره غير بعيد والله أعلم[٣].

السادس: ينبغي أن لا يركب إلاّ زاملة، وأما المحمل فليجتنبه إلاّ إذا كان يخاف أن لا يستمسك على الزاملة لعذر وفي ترك المحمل معنيان:

---

(١) راجع الإحياء (١/ ٢٦٤) والكلام فيه بنصه.
(٢) سورة البقرة الآية: ١٩٦.
(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٦٤).

أحدهما: التخفيف عن البعير فإن / المحمل يؤذيه. [١٠٨/ب]

والثاني: إجتناب زي المترفين والمتكبرين، يقال: أن رسول الله ﷺ حج على راحلته، وكان تحته رحل رثّ وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم(١)، وطاف على الراحلة لينظر الناس إلى هدية وشمائله.

وقال عليه السلام: «خذوا عني مناسككم»(٢). وقيل: إن هذه المحامل أحدثها الحَجاج، وكان العلماء في وقته ينكرونها.

قال: وروى سفيان بن سعيد عن أبيه أنه قال: برزت من الكوفة إلى القادسية للحج، وتوافت الرفاق من البلدان، فرأيت الحُجاج كلهم على زوامل وجواليقات ورواحل، وما رأيت في جميعهم إلاّ محملين.

قال: وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحُجاج من الزي، والمحامل يقول: الحَاج قليل والركب(٣) كثير، ثم نظر إلى رجل مسكين رثّ الهيئة تحته جواليق. فقال: نعم هذا من الحُجاج(٤).

السابع: أن يكون رثّ الهيئة أشعث أغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر، فيكتب في المتكبرين والمترفهين، ويخرج عن حزب الضعفاء، والمساكين وخصوص الصالحين، فقد أمر عليه السلام بالشعث والاختفاء(٥) ونهى عن التنعم والرفاهية في حديث فضالة بن عبيد(٦).

وفي الحديث أيضاً: «إنما الحج الشعث التفث»(٧) ويقول الله عز وجل: «انظروا إلى

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل، وابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٦٤).
(٢) رواه مسلم والنسائي واللفظ له من حديث جابر. قاله العراقي في المصدر السابق (١/ ٢٦٥).
(٣) في الأصل: الراكب. والتصويب من الإحياء.
(٤) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٦٤، ٢٦٥).
(٥) رواه البغوي والطبراني من حديث عبد الله بن أبي حدرد قال: قال رسول الله ﷺ: «اخشوشنوا، وانتضلوا، وامشوا حُفاة». وفيه اختلاف، ورواه ابن عدي من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف، قاله العراقي في المغني (١/ ٢٦٥).
(٦) أن النبي ﷺ كان ينهي عن كثير من الإرفاه، ولأحمد من حديث معاذ: «إياك والتنعم». المصدر السابق.
(٧) في الأصل: التفل. والتصويب من الإحياء، وقال العراقي تعليقاً على الحديث في المغني (١/ ٢٦٥): رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث ابن عمر وقال: غريب.

زوار بيتي فقد جاؤني شعثاً غبراً من كل فج عميق»[(١)]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾[(٢)].

والتفث: الشعث، والأغبار، وقضاء ذلك بالحلق وقص الأظفار.

[١٠٩/أ] قال: وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد اخلولقوا / واخشوشنوا، أي: البسوا الخلقان، واستعملوا الخشونة في الأشياء.

وقد قيل: زين الحجيج أهل اليمن، لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف، وينبغي أن يجتنب الحمرة في زيه على الخصوص والشهرة كيف ما كانت على العموم فقد روي أنه ﷺ: كان في سفر فنزل أصحابه منزلاً فسرحت الإبل فنظر إلى أكسيت حُمر على الأقتاب، فقال عليه السلام: «أرى هذه الحُمرة قد غلبت عليكم»[(٣)]. قالوا: فقمنا إليها فنزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل[(٤)].

الثامن: أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق، والمحمل خارج عن حدّ طاقتها، والنوم عليها يؤذيها ويثقلها ويسرع في دبرها، كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلاّ غفوة عن قعود، وكانوا لا يقفون عليها الوقوف الطويل.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي»[(٥)].

ويستحب أن ينزل عن دابته غدوة وعشية يروحها بذلك فهو سنة، وفيها آثار عن السلف وكان بعض السلف يكتري بشرط ألا ينزل ويوفي الأجرة ثم كان ينزل ليكون بذلك محسناً إلى الدابة، فيكون في حسناته ويوضع في ميزانه لا في ميزان المكاري وكل من آذى بهيمة وحملها ما لا تطيق طولب به في القيامة.

وقد روي عن أبي الدرداء أنه قال لبعير له عند الموت: يا أيها البعير لا تخاصمني إلى [١١٠/أ] ربك، فإني لم أكن أُحملك فوق طاقتك. وعلى الجملة في كل ذات كبد حراء أجر. فليراع / حق الدابة، وحق المكاري جميعاً وفي نزوله ساعة ترويح الدابة وسرور قلب المكاري، ويروى

---

(١) رواه الحاكم وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله: «من كل فج عميق» وكذا رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو. المصدر السابق.

(٢) سورة الحج الآية: ٢٩.

(٣) رواه أبو داود من حديث رافع بن خديج، وفيه رجل لم يسم، قاله العراقي في المصدر السابق.

(٤) راجع إحياء علوم الدين والموضوع فيه بنصه (١/ ٢٦٥).

(٥) رواه أحمد من حديث سهل بن معاذ بسند ضعيف، وروراه الحاكم وصححه من رواية معاذ بن أنس عن أبيه. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٦٥).

أن رجلاً قال لابن المبارك: احمل لي هذا الكتاب معك لتوصله. فقال: حتى استأمر الجمال، فإني قد اكتريت.

فانظر كيف تورع من استصحاب كتاب، ولا وزن له وذلك هو طريق الحزم في الورع، وأنه إذا فتح باب القليل انجر، إلى باب الكثير يسيراً يسيراً[١].

التاسع: أن يتقرب بإراقة دم وإن لم يكن واجباً عليه، ويستحب أن يكون من سمين النعم ونفيسه، وليأكل منه إن كان تطوعاً، ولا يأكل إن كان واجباً.

قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ ٱللَّهِ﴾[٢]. إنه تحسينه وتسمينه، وسوق الهدي من الميقات أفضل إن كان لا يجهده ولا يكده، وليترك المكاس في شرابه، فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس فيهن: الهدي، والأضحية، والرقبة، فإن أفضل ذلك أغلاه ثمناً وأنفسه عند أهله.

وروي عن ابن عمر: أن عمر رضي الله عنه أهدي نجيبة فطلبت منه بثلاث مائة دينار، فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك وقال: «بل اهديها»[٣]. وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون وفي ثلاث مائة قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير اللحم.

ولكن ليس المقصود اللحم إنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله عز وجل: و﴿لَنْ يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[٤]. وذلك يحصل بمراعاة النفاسة والجودة في القيمة كثر العدد أم قل.

وسئل رسول الله ﷺ: ما بر الحج؟ قال: «العج والثج»[٥]. فالعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إهراق الدماء.

وروت عائشة عنه عليه السلام أنه قال: «ما عمل أدمي عملاً أحب إلى الله عز وجل من إراقة دم يوم النحر، وأنها لتأتي يوم القيامة في فرثها وقرونها وأشعارها وأصوافها وإن الدم ليقع

---

(١) الفقرة بنصها في الإحياء (١/ ٢٦٥، ٢٦٦).
(٢) سورة الحج الآية: ٣٢.
(٣) أخرجه أبو داود، وقال: «انحرها». العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ٢٦٦).
(٤) سورة الحج الآية: ٣٧.
(٥) رواه الترمذي واستغربه، ورواه ابن ماجه، والحاكم وصححه، والبزار واللفظ له من حديث أبي بكر وقال الباقولي أي الحج. العراقي في المغني (١/ ٢٦٦).

من الله بمكان قبل أن يقع بالأرض فطيبوا بها نفساً»[١].

وفي الخبر: «لكم بكل صوفة من جلدها حسنة، وكل قطرة من دمها حسنة، وإنها لتوضع في الميزان فأبشروا»[٢]. ويقال: فحول الضأن في الضحايا أفضل من إناثها، وإناثها أفضل من ذكور المعز من إناثها، وإناثها أفضل من الإبل في الضحايا.

وأما الهدايا فالإبل أفضل من البقر، ثم البقر، ثم الضأن، ثم المعز، والله أعلم[٣].

العاشر: أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدي، وما أصابه من خسران أو مصيبة في مال وبدن، وإن أصابه ذلك فإن ذلك من دلائل قبول حجه، فإن المصيبة في طريق الحج تعدل النفقة في سبيل الله عز وجل الدرهم بسبع مائة درهم، وهو بمثابة الشدائد في طريق الجهاد فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب ولا يضيع منه شيء عند الله عز وجل.

ويقال: إن من علامة قبول الحج أيضاً ترك ما كان عليه من المعاصي وأن يستبدل بإخوانه البطالين إخواناً صالحين وبمجالس اللهو / والغفلة مجالس الذكر واليقظة وبالله [١١١/ب] التوفيق[٤].

الجملة الثانية: في بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة.

إن أول الحج الفهم ـ أعني فهم موقع الحج في الدين ـ ثم الشوق إليه، ثم العزم عليه، ثم قطع العلائق المانعة منه، ثم شراء ثوبي الإحرام، ثم شراء الزاد، ثم اكتراء الراحلة، ثم الخروج، ثم السير في البادية، ثم الإحرام من الميقات بالتلبية، ثم دخول مكة، ثم استتمام الأفعال كما سبق، وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر، وتنبيه للمريد الصادق، وتعريف وإشارة للفطن، فلنرمز إلى مفاتحها حتى إذا انفتح بابها وعرفت أسبابها،

---

(١) رواه الترمذي وحسنه ابن ماجه، وضعفه ابن حبان، وقال البخاري إنه مرسل ووصله ابن خزيمة. المصدر السابق.

(٢) رواه ابن ماجه: والحاكم وصححه البيهقي من حديث زيد بن أرقم في حديث فيه: «بكل شعرة حسنة». قالوا: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة»، وفي رواية للبيهقي «بكل قطرة حسنة». قال البخاري لا يصح، وروى أبو الشيخ في كتاب الضحايا من حديث علي أما إنها يجاء بها يوم القيامة لحومها ودمائها حتى توضع في ميزانك يقولها لفاطمة. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/٢٦٦).

(٤) راجع الباب في إحياء علوم الدين (١/٢٦٦، ٢٦٧).

انكشف لكل خارج إلى الحج من أسراره ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة عمله.

أما الفهم: اعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار عن الضرورات فيها والتجرد إلى الله سبحانه في جميع الحركات والسكنات، ولأجل هذا انفرد الرهابين في الملل السالفة عن الخل، وانحازوا إلى قلل[1] الجبال، وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عز وجل، فتركوا لله سبحانه الذات الحاضرة، وألزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعاً في الآخرة، فأثنى الله عز وجل / عليهم في كتاب العزيز [١١٣/ب] فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2]. فلما اندرس ذلك، وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله تعالى وفتروا عنها، بعث الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين في سلوكها فسأله أهل الملل عن الرهابنية والسياحة في دينه، فقال عليه السلام: «أبدلنا بها الجهاد والتكبير على كل شرف أعني الحج»[3].

وسئل عليه الصلاة والسلام عن السائحين، فقال: «هم الصائمون»[4].

وأنعم الله عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم فشرق البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه، ونصبه مقصد العبادة وجعل باحواليه حرماً لبيته تفخيماً لشأنه، وتعظيماً، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق، ومن كل أوب سحيق شعثاً غبراً متواضعين لرب البيت ومستكينين له خضوعاً لجلاله وإستكانة لعزه مع الاعتراف بتنزهه تعالى عن أن يحويه بيت أو يكتنفه موضع ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم وأتم في إدعائهم وانقيادهم.

---

(١) كذا في الأصل، والإحياء أيضاً، واحسبها «قمم» والله أعلم.

(٢) سورة المائدة الآية: ٨٢.

(٣) رواه أبو داود من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» رواه الطبراني بلفظ: «إن لكل أمة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله، ولكل أمة رهبانية، ورهبانية أمتي الرباط في نحر العدو». وللبيهقي في الشعب من حديث أنس: «رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله». وكلاهما ضعيف، والترمذي حسنه والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجه من حديث أبي هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أريد أن أسافر قال: «عليك بتقوى الله، والتكبير على كل شرف». قاله العراقي في المغني (١/٢٦٧).

(٤) رواه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة وقال المحفوظ عن عبيد بن عمير عن عمر مرسلاً. المصدر السابق.

ولذلك وظّف الله عز وجل عليهم فيها أعمالاً لا تستأنس بها النفوس، ولا تهتدي إلى معانيها العقول كرمي الجمار بالأحجار والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار فبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرزق والعبودية فإن الزكاة / [١١٤/أ] إرفاق بالفقراء وعلتها مفهومة، وللعقل إليها ميل، والصوم كسر للشهوة التي هي إله عدو الله الشيطان، وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل والركوع والسجود تواضع لله عز وجل في الصلاة.

وأما ترددات السعي ورمي الجمار، وأمثال هذه الأعمال فلا حظّ للنفوس، ولا أنس للطبع فيها، ولا إهتداء للعقل إلى معانيها فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلّا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث أنه أمر يحب إتباعه فقط وفيه عزل العقل عن تصرفه ومنع النفس والطبع عن محل أنسه، فإن كل ما أدرك العقل معناه: مال الطبع إليه ميلاً ما، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً له على الفعل، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد، ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص: «لبيك بحجة حقاً تعيد أورقاً»[١]. ولم يقل ذلك في صلاة وغيرها، فلما اقتضت حكمة الله سبحانه ربط الخلق ونجاتهم بأن تكون أعمالهم على خلاف ما تهوى طبائعهم، وأن يكون زمامها بيد الشرع فيرددون في أعمالهم على سبيل الانقياد، وعلى مقتضى الاستعباد كان ما لا يهتدي إلى معانيها أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق التي هي مقتضى الاسترقاق، فإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات وهذا القدر كافٍ في تفهم أصل الحج[٢].

[١١٥/أ] وأما الشوق: فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق / بأن البيت بيت الله عز وجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك، فقاصده[٣] قاصداً إلى الله عز وجل، وزائر له، وأن من قصد البيت في الدنيا جدير بأن لا يحرم الرحمة في الآخرة، بل يستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الصادق. فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يسوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة هذا مع أن المحب يشتاق إلى كل ما له إلى محبوبه إضافة والبيت مضاف إلى الله تعالى فبالأحرى يشتاق إليه بمجرد هذه الإضافة فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل[٤].

---

(١) رواه البزار، والدارقطني في العلل من حديث أنس، قاله العراقي في المغني (١/٢١٣).
(٢) راجع إحياء علوم الدين فالكلام فيه بنصه (١/٢٦٧، ٢٦٨).
(٣) في الأصل: فقاد فقاصد. واللفظ الأول زائد على السياق فحذفته.
(٤) راجع الفقرة في إحياء علوم الدين (١/٢٦٨).

وأما العزم: فليعلم أنه بعزمه قاصد إلى مفارقة الأهل والوطن، ومهاجرة الشهوات واللذات متوجهاً إلى زيارة بيت الله عز وجل، فليعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت، وليعلم أنه عز على أمر رفيع شأنه خطير أمره، وأن من طلب عظيماً خاطر بعظيمة، وليجعل عزمه خالصاً لوجه الله تعالى، بعيد عن شوائب الرياء والسمعة، وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلاّ الخالص.

وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمه، والمقصود غيره، فليصحح مع نفسه العزم، وليخلصه من كل ما فيه رياء وسمعة وليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير(١).

وأما قطع العلائق: فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي، فكل مظلمة علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبة ينادي عليه، ويقول له: أين تتوجه أتقصد بيت ملك الملوك وأنت / مضيع أمره في منزلك هذا ومستهين به ومهمل له، أَوَ [١١٦/ب] لَا تستحي أن تقدم قدوم العبد العاصي فيردك ولا يقبلك؟ فإن كنت راغباً في قبول زيارتك فامتثل أوامره وَرُدَّ المظالم وتب إلى الله أولاً من جميع المعاصي، واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما في ورائك لتكون متوجهاً إليه بوجه قلبك، كما أنت متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك، فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولاً إلاّ النصب والشقاء وأخراً إلاّ الطرد والردّ، ويقطع العلائق عن وطنه قطع من انقطع عنه وقدر أن لا يعود إليه، وليكتب وصيته لأولاده وأهله فإن المسافر لعلى خطر(٢) إلا ما وقى الله تعالى.

وليتذكر عند قطعة العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة، فإن ذلك بين يديه على القرب، وما يقدمه في هذا السفر طمع في تيسير ذلك السفر فهو المستقر، وإليه المصير، فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك السفر عند الاستعداد لهذا السفر(٣).

وأما الزاد: فليطلبه من موضع حلال، وإذا حس من نفسه الحرص على إستكثاره وطلب ما يبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد، فليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا، وأن زاده التقوى، وأن ما سواه مما يظن أنه زاد يتخلف عنه عند الموت، فكونه لا يبقى معه كالطعام الرطب الذي يفسد في أول منازل السفر، فيبقى وقت الحاجة محيراً

(١) راجع الفقرة بكاملها في المصدر السابق.
(٢) في الأصل: قلة. والتصويب من الإحياء.
(٣) الفقرة بنصها أيضاً في الإحياء (١/٢٦٨، ٢٦٩).

[١١٧/أ] محتاجاً لا حيلة له، فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى الآخرة لا تصحبه / بعد الموت بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير[(١)].

وأما الراحلة: إذا أحضرها فليشكر الله عز وجل بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى، وتخفف عنه المشقة، وليتذكر عنده المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة وهي الجنازة التي يحمل عليها، فإن أمر الوجه من وجه يوازي أمر السفر إلى الآخرة، فلينظر أيصلح سفره على هذا المركب لأن يكون زاداً لذلك السفر على ذلك المركب أم لا، فما أقرب ذلك منه.

وما يدري لعل الموت قريب فيكون ركوبه للجنازة قبل ركوبه للراحلة، فركوب الجنازة مقطوع به، وتيسير أسباب السفر مشكوك فيه، فكيف يحتاط في أسباب السفر المشكوك فيه، ويستظهر في زاده وراحلته ويهمل أمر السفر المتيقن[(٢)].

وأما شروط ثوبي الإحرام: فليذكر عنده الكفن ولفه فيه[(٣)] فإنه سيرتدي ويتأزر بثوبي الإحرام عند القرب من بيت الله تعالى وربما لا يتم سفره إليه، وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة، فكما لا يلقى بيت الله عز وجل إلا مخالفاً عادته في الزي والهيئة، فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلا في زي مخالف لأهل الدنيا وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيهما مخيط كما في الكفن[(٤)].

وأما الخروج من البلد: فليعلم عنده أنه يفارق الأهل والوطن متوجهاً إلى الله عز وجل في سفر لا يضاهي أسفار الدنيا، فليحضر في قلبه أنه ماذا يريد؟ وإلى أين يتوجه؟ وزيارة من [١١٨/أ] يقصد؟ / وأنه متوجهاً إلى ملك الملوك في زمرة الزائرين له، الذين نودوا فأجابوا، وشوقوا فاشتقاوا واستنهضوا فنهضوا، وقطعوا العلائق، وفارقوا الخلائق، وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذي فخّم أمره وعظّم شأنه ورفع قدره، تسلياً بلقاء البيت عن لقاء رب البيت، إلى أن يرزقوا منتهى مناهم، ويسعدوا بلقاء مولاهم.

وليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول لا إدلالاً بأعماله في الارتحال، ومفارقة الأهل

---

(١) وهذه الفقرة أيضاً كسابقتها في الإحياء (١/٢٦٩).
(٢) راجع الفقرة في المصدر السابق.
(٣) في الأصل فيها. والتصويب من الإحياء.
(٤) راجع الفقرة في المصدر السابق.

والمال، ولكن ثقة بفضل الله عز وجل، ورجاء لتحقيق وعده لمن زار بيته، وليرج أنه إن لم يصل وأدركته المنية في الطريق لقي الله عز وجل وافداً إليه إذ قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِّن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُوراً رَّحِيماً﴾[(١)][(٢)].

وأما دخول البادية إلى الميقات، ومشاهدة تلك العقبات: فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات، وليتذكر من هول قطّاع الطريق هول سؤال منكر ونكير، ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعي والحيات، ومن إنفراده عن أهله وأقاربه ووحشة القبر وكربته ووحدته، وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوداً لمخاوف القبر[(٣)].

وأما الإحرام والتلبية من الميقات: فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل، وليرج أن يكون مقبولاً / وليخش أن يقال له: لا لبيك ولا سعديك، وليكن بين الرجاء والخوف متردداً [١١٩/ب] وعن حوله وقوته متبرئاً، وعلى فضل الله تعالى وكرمه متكلاً فإن وقت التلبية هي بداية الأمر وهو محل الخطر.

وعن سفيان بن عيينة أنه قال: لما حج علي بن الحسين فلما أحرّم واستوت به راحلته اصفّر لونه، وانتقض ووقعت عليه الرعدة، ولم يستطع أن يلبي، فقيل له: لِمَ لا تلبي؟ فقال: أخشى أن يقال لي: لا لبيك ولا سعديك، فلما لبّى غشي عليه ووقع عن راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه. قال: وقال أحمد بن أبي الحواري: كنت مع أبي سليمان الداراني حين أراد الإحرام فلم يلب حتى سرنا ملأ وأخذته الغشية، ثم أفاق وقال: يا أحمد إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام مُرْ ظلمة بني إسرائيل أن يقلوا من ذكري؛ فإني أذكر من ذكرني منهم باللعنة. ويحك يا حماد بلغني أنه من حج من غير حلة، ثم لبّى قال الله عز وجل: لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما في يديك فما نأمن أن يقال لنا ذلك.

وليتذكر الملبس عند رفع الصوت بالتلبية في الميقات إجابة لنداء الله عز وجل إذ قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾[(٤)]. وليتذكر أيضاً نداء الخلق عند نفخ الصور وحشرهم من القبور، وإزدحامهم في عرصات القيامة مجيبين لنداء الله عز وجل

---

(١) سورة النساء الآية: ١٠٠.
(٢) راجع الفقرة في الإحياء بنصها (١/ ٢٦٩).
(٣) راجع الفقرة في الإحياء بنصها (١/ ٢٦٩).
(٤) سورة الحج الآية: ٢٧.

[١٢٠/أ] ومنقسمين إلى مقبولين مردودين، فهم يترددون في أول الأمر / بين الخوف والرجاء لردد الحجيج في الميقات حيث لا يدرون أيبشر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا[١].

وأما دخول مكة: فليتذكر عندها أنه انتهى إلى حرم الله تعالى وهو حرم أمن وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عذاب الله سبحانه وليخش أن لا يكون أهلاً للقرب فيكون بدخوله الحرم خائباً مستحقاً للمقت، وليكن رجاؤه في جميع الأوقات مقروناً بالخوف بل غالباً عليه فإن الكرم عميم، وشرف البيت عظيم، وحق الزائر مرعي، وذمام اللائذ المستجير غير مضيع[٢].

وأما وقوع البصر على البيت: فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه، وليرج أن يرزقه الله تعالى دار السلام كما رزقه الوصول إلى بيته الحرام، وليشكر الله تعالى على تبليغه إياه هذه الرتبة بأن ألحقه بزمرة الوافدين إليه، وليذكر عند ذلك إنصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة أمنين لدخولها كافة.

ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين عن بلوغ المأمول انقسام الحجيج إلى مقبولين ومردودين، ولا يغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما يراه فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة[٣].

وأما الطواف بالبيت: فاعلم أنه صلاة، واحضر قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما تقدم في قنطرة الصلاة، واعلم أنك بالطواف مشبه بالملائكة / المقربين الحافين [١٢١/أ] حول العرش الطائفين به، ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف[٤] قلبك بذكر الله حتى لا تبتدىء في الذكر إلاّ منه ولا تختم إلاّ به كما تبتدىء الطواف من البيت وتختم بالبيت.

واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر، وهي في عالم الملكوت كما أن البدن ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب، وأن عالم الملك والشهادة مدرجة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمود في السمّوات بإزاء الكعبة.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/٢٦٩، ٢٧٠).
(٢) راجع الإحياء (١/ ٢٧٠).
(٣) راجع المصدر السابق.
(٤) في الأصل: طوافك. والتصويب من المصدر السابق.

وأن طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت، قال: ولما قصر رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف، أمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم[(١)] والله أعلم[(٢)].

وأما استلام الحجر: فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته، فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك فمن غدر في المبايعة استحق المقت وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحجر يمين الله تعالى يصافح به عباده»[(٣)].

وأما التعلق بأستار الكعبة والالتزاق بالملتزم: فلتكن نيتك في الالتزام طلباً لقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وشوقاً إليه، وحباً له، ولبيته تبارك وتعالى تبركاً بالمماسة، ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء لاقى البيت، ولتكن نيتك في التعلق بالأستار الإلحاح في طلب المغفرة / وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه في عفوه عنه، المظهر له [١٢٢/ب] أنه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا مفزع له إلا إلى كرمه وعفوه، وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل[(٤)].

وأما السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت: فإنه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائياً وذاهباً مرة بعد أخرى إظهاراً للخلوص في الخدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما يقضي به الملك في حقه من قبول أو رَدّ، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة أخرى يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى، وليذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردده عند وزن الأعمال يوم القيامة ناظراً إلى الرجحان والنقصان متردداً بين العذاب والغفران[(٥)].

وأما الوقوف بعرفة: فليتذكر عندما يرى من إزدحام الخلق، وإرتفاع الأصوات، واختلاف اللغات، وإتباع الفرق أئمتهم في الترددات على المشاعر إقتداءً بهم، وسيراً بسيرهم، فليتذكر بذلك عرصات القيامة، وإجتماع الأمم مع الأنبياء، وإقتفاء كل أمة بنبيها، وطمعهم في

---

(١) رواه أبو داود من حديث ابن عمر بسند صحيح، قاله العراقي في المغني (١/ ٢٧٠).

(٢) الفقرة بتمامها كما هنا في الإحياء (١/ ٢٧٠).

(٣) رواه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر. قاله العراقي في المغني (١/ ١٠٣)، والفقرة بتمامها في الإحياء (١/ ٢٧٠).

(٤) راجع الإحياء الموضع السابق.

(٥) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٧١).

شفاعتهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول، فإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة، والابتهال إلى الله تعالى كي تحشر في زمرة الفائزين، المرحومين.

وأيقن وحقق رجاؤك بالإجابة؛ فالموفق شريف، والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلائق بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض ولا ينفك الموضع عن طبقة من الأبدال / والأوتاد[١] وطبقات الصالحين، وأرباب القلوب، فإذا اجتمعت هممهم، وتجردت [١٢٣/أ] للضراعة والابتهال قلوبهم، وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم، وامتدت إليه أعناقهم، وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة، فلا تظنن أنه يخيب أملهم، ويضيع سعيهم ويدّخر عنهم رحمة تغمرهم ولذلك قيل: إن من أعظم الذنوب أن يحضر الإنسان عرفات فيظن أن الله تعالى لم يغفر له.

فكان اجتماع الهمم، والاستظهار بمجاورة الأمم من الأبدال والأوتاد المجتمعين من أقطار البلاد وهو سر الحج وغاية مقصودة، فلا طريق في استدرار الرحمة من الله سبحانه وتعالى، مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد على صعيد واحد.

وأما رمي الجمار: فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية، وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس في ذلك، ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو ليفتنه بمعصية، فأمره الله تعالى أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله، فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه، [أما أنا][٢] فليس يعرض لي الشيطان، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان، وأنه الذي ألقاه في عزمك ليفتر عزمك في الرمي، ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه، وأنه يضاهي اللعب فلم تشتغل به؟ فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير في الرمي فيه ترغم أنف الشيطان وتقصم ظهره، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى / تعظيماً لمجرد الأمر من غير حظ [١٢٤/أ] للعقل والنفس فيه[٣].

وأما ذبحه للهدي: فاعلم أنه تقرب إلى الله سبحانه بحكم الامتثال، وأكمل الهدي واجزائه وأرج أن يعتق بكل جزء منه جزءً منك من النار، فهكذا ورد الوعد، فكلما كان الهدي

(١) سبق الكلام عن الأبدال والأوتاد وأنها مصطلحات صوفية تفتقر إلى الدليل الشرعي الصحيح.
(٢) ما بين المعقوفين سقط من الأصل وأثبته من الإحياء.
(٣) راجع إحياء علوم الدين وهو فيه بنصه (١/ ٢٧١).

أكثر وأجزاؤه أوفر، كان فداؤك به من النار أعم[(١)].

وأما زيارة المدينة: فإذا وقع بصرك على حيطانها فلتذكر أنها البلدة التي اختارها الله تعالى لنبيه عليه السلام، وجعل إليها هجرته، وأنها داره التي فيها شرع فرائض ربه عز وجل وسننه، وجاهد عدوه، فأظهر بها دينه إلى أن توفاه الله عز وجل، ثم جعل تربته فيها، وتربة وزيريه القائمين بالحق من بعده، ثم مثل في ذلك مواقع أقدام رسول الله ﷺ عند تردداته فيها، وأنه ما من موضع قدم تطاؤه إلا وهو موضع قدمه العزيزة، فلا تضع قدك عليه إلاّ على سكينة، وتذكر مشيه وتخطيه في سككها، وتصور خشوعه وسكينته في المشي، وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته، ورفعة ذكره مع ذكره حتى قرنه بذكر نفسه، وإحباط عمل من هتك حرمته، ولو برفع صوته فوق صوته عليه السلام.

ثم تذكر ما مَنَّ الله به على الذين أدركوا صحبته، وسعدوا بمشاهدته، وسماع كلامه، وعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته، وصحبة أصحابه رضي الله عنهم.

ثم اذكر أنك قد فاتتك رؤيته في الدنيا، وأنك من رؤيته في الآخرة على خطر، وأنك ربما لا تراه إلاّ بحسرة، وقد حيل بينك وبين قبوله إياك بسؤ عملك كما قال / عليه السلام: [١٢٥/ب] «يرفع إلي أقوام فيقولون: يا محمد، يا محمد، فأقول: رب أصحابي فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً»[(٢)]. فإن تركت حرمة شريعته ولو في دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه لعدو لك عن محجته، وليعظم مع ذلك رجاؤك أن لا يحول الله بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان، وأشخصك من بلدك من أجل زيارته من غير تجارة، ولا حظ في دنيا، بل لمحض حبك له، وشوقك إلى النظر إلى آثاره، وإلى حائط قبره، إذ سمحت نفسك بالسفر لمجرد ذلك لما فاتتك رؤيته، فما أجدرك بأن ينظر الله سبحانه إليك بعين الرحمة. فإذا بلغت المسجد فاذكر أنها العرصة التي اختارها الله عز وجل لنبيه ﷺ، ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة.

وأن فرائض الله سبحانه وتعالى أول ما أقيمت في تلك العرصة، وأنها جمعت أفضل خلق الله حياً وميتاً، فليعظم أملك في الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه، فادخله خاشعاً معظماً، وما أجدر هذا المكان بأن يستدعي الخشوع من قلب كل مؤمن.

---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) متفق عليه منَ حديث ابن مسعود، وأنس، وغيرهما دون قوله: «يا محمد، يا محمد» قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ٢٧٢).

كما حكي عن أبي سليمان أنه قال: حج أويس القرني رحمه الله، ودخل المدينة فلما وقف على باب المسجد قيل له: هذا قبر رسول الله ﷺ، فغشي عليه فلما أفاق قال: أخرجوني فليس يلذ لي[١] بلد محمد فيه مدفون[٢].

وأما زيارة المصطفى عليه السلام: فينبغي أن يقف بين يديه كما وصفناه، ويزوره ميتاً كما يزوره حياً، ولا يقرب من قبره إلا كما كان يقرب من شخصه الكريم لو كان حياً، وما كان يرى الحرمة في أن لا يمس شخصه ولا يقبله / بل يقف من بعد ماثلاً بين يديه. [١٢٦/أ]

وكذلك فافعل وإن المس والتقبيل للمشاهدة عادة النصارى واليهود، واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك، وأنه يبلغه سلامك وصلاتك فمثل صورته الكريمة في خيالك موضوعاً في اللحد بإزائك وأحضر عظيم رتبته في قلبك.

فقد روي عنه ﷺ: «إن الله وكَّل بقبره ملكاً يبلغه سلام من يسلم عليه من أمته»[٣]. هذا في حق من لم يحضر قبره، فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقاً إلى لقائه، وإكتفاء بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاتته مشاهدة غرته الكريمة، وقد قال ﷺ: «من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً»[٤].

فهذا جزاؤه في الصلاة عليه بلسانه، فكيف بالحضور لزيارته ببدنه. ثم ائت منبر الرسول ﷺ وتوهم صعوده المنبر، ومثّل في قلبك طلعته البهية قائماً على المنبر، وقد أحدق به المهاجرون والأنصار، وهو ﷺ يحثهم على طاعة الله عز وجل بخطبته وتسأل الله عز وجل أن لا يفرق بينك وبينه يوم القيامة فهذا وظيفة القلب في أعمال الحجة، فإذا فرغ منها كلها فينبغي أن يلزم قلبه الهم والحزن والخوف، وأنه ليس يدريه أَقُبِلَ منه حجه وأثيب في زمرة المقبولين أم ردّ حجه وأُلْحِقَ بالمطرودين، وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله، فإن صادف قلبه قد ازداد تجافياً عن دار الغرور، وانصرافاً إلى دار الأنس بالله عز وجل، ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع، فليثق بالقبول؛ فإن الله تعالى لا يقبل إلاّ من أحبه، ومن أحبه تولاه، وأظهر عليه آثار محبته، وكفّ عن سطوة عدوه إبليس، فإذا ظهر ذلك عليه دلّ على القبول، وإن / كان الأمر بخلافه [١٢٧/أ]

---

(١) في الأصل: بلدي. والتصويب من الإحياء.

(٢) راجع الفقرة في الإحياء بنصها (١/ ٢٧٢).

(٣) رواه النسائي، وابن حبان، والحاكم من حديث ابن مسعود بلفظ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام». قاله العراقي في المغني (١/ ٢٧٢).

(٤) رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، قاله العراقي في المصدر السابق.

فيوشك أن يكون حظه من سفره العناء والتعب، نعوذ بالله من ضلة المساعي، وإمحال المراعي[١].

وقد روي عن بعض الصوفية أنه جاء إلى بكر الشبلي فقال له: إني أريد أن أحج. فقال الشبلي للرجل الذي يخدمه: أعط للرجل غرارتين ليحمل لنا بهما من المسجد الحرام رحمة نقسمها على أصحابنا فيكون ذلك حظنا من حجه. فأخذ الرجل غرارتين وودعه ومضى لحجه فلما رجع سلم عليه. فقال له الشبلي: أحججت يا فلان؟ قال الرجل: نعم. فقال له: حين احللت من الميقات أتجردت من ثيابك واغتسلت وأحرمت؟ قال: نعم. قال: نويت أنك تجردت من الرياء والنفاق والدخول في الشبهات؟ قال: لا. قال له: حين اغتسلت نويت أنك اغتسلت من الخطايا والأوزار؟ قال: لا. قال له: حين تطييت لإحرامك نويت أنك تطييت بأنوار التوبة؟ قال: لا. قال له: حين عقدت الحج حللت كل عقدة لغير الله عز وجل؟ قال: لا. قال له: صليت ركعتين؟ قال: نعم. قال له: أيقنت المعونة من الله عز وجل؟ قال: لا. قال له: لبيت؟ قال: نعم. قال له: وجدت جواب التلبية من الله تعالى؟ قال: لا. قال: ما تجردت ولا اغتسلت ولا تطييت ولا عقدت الحج ولا لبيت ولا صليت. ثم قال له الشبلي: دخلت الحرم؟ قال: نعم. قال له: أحرمت على نفسك ألا تواقع كل محرم. قال: لا. قال له: فما دخلت الحرم. قال له: دخلت مكة؟ قال: نعم. قال له: نويت أنك دخلت في قرب الله عز وجل وشعاع رحمته؟ قال: لا. قال له: فما دخلت مكة. قال له: رأيت الكعبة؟ قال: نعم. قال له: رأيت ما قصدت إليه؟ قال: لا. قال له: فما رأيتها. قال له: طفت بالبيت؟ قال: نعم. / قال له: سعيت ثلاثة أشواط ومشيت أربعاً؟ قال: نعم. قال له: حين هرولت [١٢٨/ب] نويت أنك هرولت من المعاصي والأوزار؟ قال: لا. قال له: حين مشيت أوجدت الأمن من الخطيئة والعفو من الذنوب؟ قال: لا. قال: فما هرولت ولا سعيت ولا مشيت. قال له: صافحت الحجر الأسود وقبلته؟ قال: نعم. قال: فصاح الشبلي صيحة منكرة: أواه من صافح الحجر الأسود فقد صافح الله عز وجل فانظر يا مسكين لا تصغر ما عظم الله عز وجل ولا تنقض المصافحة ثم، قال له: وقفت الوقفة عند المقام وصليت ركعتين؟ قال: نعم. قال له: رأيت مكانك من بساط الطاعة؟ قال: لا. قال له: فما وقفت ولا صليت. قال له: شربت من ماء زمزم؟ قال: نعم. قال له: نويت أنك أخرجت من قلبك وساوس الشيطان؟ قال: لا. قال: فما شربت إذاً. قال له: سعيت بين الصفا والمروة؟ قال: نعم. قال له: تردد قلبك بين

---

(١) إلى هنا جاء بنصه في إحياء علوم الدين (١/ ٢٧٢، ٢٧٣).

الرجاء والخوف أو تردد بين الرجاء والشوق؟ قال: لا. قال له: خرجت إلى منى؟ قال: نعم. قال له: آمنت ونويت مفارقة الهوى؟ قال: لا. قال له: فما حضرت فيه. قال له: وقفت بعرفة؟ قال: نعم. قال له: وقفت وعرفت وعلمت اطلاع الله عز وجل ملك الملوك على قلبك وقبضة لصفحتك؟ قال: لا. قال له: بت بالمزدلفة؟ قال: نعم. قال له: سكنت إلى شعار أهل الولاية؟ قال: لا. قال له: فما بت بها. قال له: وقفت بالمشعر الحرام؟ قال: نعم. قال له: رميت جمرة العقبة؟ قال: نعم. قال: نويت أنك رميت عيوبك؟ قال: لا. قال له: فما رميت. قال له: حلقت شعرك؟ قال: نعم. قال له: نويت أنك أسقطت التبعات والأدناس؟ قال: لا. قال له: فما حلقت. قال له: ذبحت نسكاً؟ قال: نعم. قال له: نويت أنك ذبحت / [١٢٩/أ] عدوك إبليس اللعين برجوعك إلى طاعة الله عز وجل؟ قال: لا. قال له: فما ذبحت. قال له: رجعت إلى مكة وطفت طواف الإفاضة؟ قال له: نعم. قال له: رأيت أنك رجعت عن كل خلق يكرهه الله تعالى منك؟ قال: لا. قال له: فما رجعت ولا طفت ارجع فإنك لم تحج. قال: فجلس الرجل يبكي ورجع إلى الحج من عامه[1]. والله أعلم.

نجزت قنطرة أسرار الحج

بحمد الله وحسن عونه والصلاة على محمد نبيه

---

(١) أبو بكر الشِّبْلي البغدادي قيل اسمه دُلَف بن جَحْدر، وقيل اسمه: جعفر بن يونس، وقيل: جعفر بن دُلَف. أصله من الشِّبْلِيَّة قرية، ومولده بسمراء. وكان أبوه من كبار حُجَّاب الخلافة، وولي هو حجابة أبي أحمد الموفق، ثم لما عُزل أبو أحمد من الولاية، حضر الشِّبْلي مجلس بعض الصالحين، فتاب، ثم صحب الجُنَيْد وغيره، وصار من شأنه ما صار. وكان فقيهاً عارفاً بمذهب مالك، وكتب الحديث عن طائفة، وقال الشعر، وله ألفاظ وحكم، وحال وتمكن، لكنه كان يحصل له جفاف دِمَاغ وسُكْر، فيقول أشياء يُعتَذرُ عنه فيها بأَزٍّ (أي كبر وفخر) لا تكون قدوة. . . .
وسُئل: ما علامة العارف؟ قال: صدره مشروح، وقلبه مجروح، وجسمه مطروح. توفي ببغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة عن نيف وثمانين سنة. (الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٥/٣٦٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ذكر فضل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اعلم أنا قلنا في الكتاب لا نتعرض لذكر الجهاد إذ هو من فروض الكفايات لأن الكتاب موضوع في ذكر قناطر الإسلام التي يلزم من كل إنسان صح عقله عند بلوغ الاحتلام فرأينا أن نثبت هاهنا فضل فريضة الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه القطبُ الأعظم في الدين وهو أهم الذي بعث الله من أجله النبيين أجمعين إذ لولا ذلك لطوى بساط الديانة وعمت الفتنة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة وخربت البلاد وهلكت العباد ولم يشعر بالهلاك إلى يوم التناد.

وقد كان السلف الصالح من المسلمين يبيعون أنفسهم وأموالهم تقرباً بها إلى ربّ العالمين فيخرجون مجاهدين في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم في ذات الله فخلف من بعدهم خلف أهملوا من هذا الفرض وعمله فاندرس بالكلية حده ورسمه وأُمحت من القلوب آثاره وحقيقته فاستولى / على الكل مداهنة المخلوقين واضمحلت من قلوبهم مراقبة الخالق [١٣٠/ب] ومعرفة الدين فاسترسل الناس في اتباع الهوى استرسال البهائم في المرعى وعز علي بسيط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصحبنا فيه وأمسينا في الدين من الاندراس والانطماس والانتكاس فيه على أم الرأس.

فمن سعى في إحياء هذه الفريضة وسد ثلمتها الفظيعة كان منفرداً من بين الخلق بإحياء فريضة أفضى الزمان إلى امانتها ومستبداً بغربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها. ونحن نشرح ذلك في خمسة أبواب أجمع ذلك من كتب العلماء ذوي الألباب:

أحدها: في فضل الجهاد.

والثاني: في فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثالث: في أركانه وشروطه.

والرابع: في بيان المنكرات المألوفة في العادات.

والخامس: في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

الباب الأول
في فضيلة الجهاد والرباط

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾. إلى قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِ. . .﴾(١) الآية.

فهنيئاً للبائعين أنفسهم من الله بالتجارة الرابحة، يستوجبون بها من الله الغفران، والحور الحسان في دار الجنان.

ويروى أن بعض أصحاب النبي عليه السّلام قالوا: يا رسول الله وددنا أن نعلم أفضل الأعمال فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢) الآية.

[١٣١/أ] وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ / أنه قال: «هل تريدون من ربكم إلا أن يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار». قالوا: بلى يا رسول الله قال: «فاغزوا في سبيل الله فلمقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاة في أهله ستين عاماً فمن قاتل في سبيل الله ولو فواق ناقة وجبت له الجنة».

وعنه عليه السلام قال: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف امرء مسلم أبداً وما من مكلوم يكلم في سبيل الله والله أعلم بمن يُكلم في سبيله إلا ويأتي يوم القيامة وجرحه يشخبُ دماً اللوّن لون الدم والريح ريح المسك».

وعن عبد الله بن عمر أنه قال: لأن أقف موقفاً في سبيل الله، مواجهاً للعدو، ولا أضرب بسيف، ولا أطعن برمح، ولا أرمي بسهم، أحب إلي من أن أعبد الله سبعين سنة لا أعصيه.

وعن أبي هريرة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «موقف ساعة في سبيل الله أفضل من شهود ليلة القدر عند الحجر الأسود».

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «يقول الله عز وجل ما أذن لعبد في جهاد ولو قدر فواق ناقة إلا استحييت منه أن أرده إلى منزله ولم اعتقه من النار».

---

(١) سورة التوبة الآية: ١١١.
(٢) سورة الصف الآيتان: ٩، ١٠.

وعنه عليه السلام أنه قال: «لموقف أحدكم في الصف في سبيل الله خير له من عبادةٍ في أهله سبعين سنة».

وعنه عليه السلام أنه قال: «ما جميع أعمال البر عند الجهاد إلا كتفلة في بحر لجى».

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن لكل طريق مختصراً وأقرب طريق إلى الجنة الجهاد في سبيل الله».

وعنه عليه السلام أنه كان يقول: «فضل الجهاد في سبيل الله كمثل الصائم القائم لا يفتر عن صيام ولا صلاة حتى يرجع / والذي نفس محمد بيده. لا يكلم أحد في سبيل الله إلا جاء [١٣٢/ب] يوم القيامة وجرحه يثعب دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك».

ويروى أن رجلاً جاء إليه فقال: يا رسول الله إن لي عملاً فهل يدركني المجاهد في سبيل الله؟ قال: «وما عملك»؟ قال له: أصوم النهار وأقوم الليل، قال: «ما عملك عند المجاهد في سبيل الله إلا كنومة ينامها المجاهد». قال: يا رسول الله إن لي مالاً فإن أنا انفقته أيكون لي مثل أجر المجاهد؟ قال: «وكم مالك»؟ قال: ستة آلاف، قال: «فإن أنفقتها في سبيل الله لم تبلغ شراك نعل المجاهد في سبيل الله وما من أحد يغزو في سبيل الله إلا أعطاه الله بعدد خلقه من مؤمن وكافر صغير أو كبير ذكراً أو أنثى قيراطاً من الأجر».

وعنه عليه السلام أنه بعث بعثاً مع معاذ بن جبل رحمه الله، فتقدم القوم فتخلف معاذ ليصلي الظهر مع رسول الله فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال: «لقد سبقك القوم بشهر في الجنة فالحق أصحابك». قال: يا رسول الله أردت أن أصلي معك وتدعو لي فيكون لي الفضل عليهم، قال: «بل لهم الفضل عليك الحق أصحابك فلو كان لك أحدٌ وذهباً أنفقته في طاعة الله حتى لا يبقى شيء ما أدركت سبقة القوم الذين سبقوك».

وعنه عليه السلام أنه قال: «ليغزون ناس من هذه الأمة بغير رزق ولا عطاء أجورهم كأجور أصحابي ولوددت أني أقاتل في سبيل فأقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل».

وجاء عنه عليه السلام أنه أتاه جبريل عليه السلام، فأمره أن يجهز جيشاً نحو العدو، فأمر بجهازهم فجهزهم رجل، ونسي منهم رجلاً يدعى جرير، فلم يجهزه فخرج / جرير صابراً [١٣٣/ب] محتسباً وجعل جرير يمشي في آخر العسكر، ولا يرفع قدماً ويضع أخرى إلا وهو يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،

ونعم الزاد هذا يا رب. فنزل جبريل عليه السلام على النبي عليه السلام فقال: «إن الله يقرءك السلام ويقول لك أنك جهزت العسكر إلا رجل يسمى جرير فإنك لم تجهزه فإنه يصعد منه كلام أبكى به ملائكة السموات فعجل بجهازه، فبعث إليه بجهازه» وقال للرسول: «اسمع منه ما يقول». فوصل إليه الرسول وسمع منه ما يقول: وقال له: «دونك جهازك» فقال: أو رضي عني رسول الله ﷺ فقال: «ما كان سخط عنيك حتى يرضى عنك، لكن نسيك حتى ذكره بك رب العالمين»، فخر جرير ساجداً لرب العالمين، وجعل يقول: اللهم إنك لم تنس جرير فاجعل جريراً لا ينساك.

ويروى أنه عليه السلام ذكر الجهاد يوم بدر ورغب فيه ووعد بالجنة فقال رجل: يا رسول الله أريت إن قتلت في سبيل الله ماذا لي؟ قال: «الجنة».

وكان رجل يأكل ثمرات في يده فقال: إني لحريص على الدنيا إن جلست حتى أفرغ هذه الثمرات فرمى بهن من يده وقاتل حتى قتل. وكان عليه السلام يقول: «الجنة تحت ظلال السيوف».

وكان الحسن فيما بلغنا يقول: من كثرت سيأته وقلت حسناته فليغزوا في سبيل الله، ألا وأن الذنوب لتحبس صاحبها عن الغزو في سبيل الله كما يحبس الغريم غريمه. ومصداق قول الحسن قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ. . . .﴾[1] الآية.

[١٣٤/أ] وقد / روى أبو هريرة فيما بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما يؤذن للعبد بالخروج في سبيل الله حتى يفتح الله له سبعين باباً من الرحمة والمغفرة والله سبحانه أفضل وأكرم من أن يرده وقد بقي عليه شيء من ذنوبه لم يغفرها له ويعطيه مع ذلك ثلاث خصال أولها: يحمل خطاياه إلى باب بيته فإذا جاوزه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، الثانية لا تطلع شمس ولا تغرب إلا غربت بخطاياه، الثالثة إن مات في وجهته تلك مات شهيداً».

وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «من مرض يوماً في سبيل الله أو بعض يوم أو ساعة غفرت له ذنوبه، وكتب الله له من الأجر عدل مائة ألف رقبة قيمة كل رقبة منها ألف دينار».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من صدع رأسه يوماً في سبيل الله ثم احتسب ذلك غفر له ما تقدم من ذنبه، وما هلل مهلل، وما كبر مكبر، إلا بشر بالجنة ومن صلى ركعتين في سبيل الله

(١) سورة التوبة الآية: ٤٦.

خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ومن قرأ ألف آية في سبيل الله كتبه الله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن كبر تكبيرة في سبيل الله رافعاً بها صوته كان له بها صخرة في ميزانه أثقل من السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن، ومن قال في سبيل الله لا إله إلا الله والله أكبر رافعاً بها صوته كتب الله له بها رضوانه ومن كتب له رضوانه جمع بينه وبين إبراهيم ومحمد والمرسلين عليهم السلام في دار الجلال».

وعنه عليه السلام أنه كان يقول: «طوبى لمن أكثر ذكر الله في سبيل الله فإن له بكل كلمة سبعين ألف / حسنة كل حسنة بعشر أمثالها مع ما له عند الله من المزيد ومن بث علماً في [١٣٥/ب] سبيل الله أعطاه الله بكل حرف مثل رمل عالج حسنات، وكان له مثل عمل من عمل به إلى يوم القيامة ومن صام يوماً في رمضان في سبيل الله كان له خيراً من عبادة مائة ألف سنة وستمائة ألف حجة وستمائة ألف عمرة وستمائة ألف رقبة ويبعد الله وجهه من النار سبعين خريفاً ويجعل الله بينه وبين النار خندقاً عرضه ما بين السماء والأرض وكل نعيم مسؤول عنه صاحبه يوم القيامة إلا نعيماً في سبيل الله».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق».

وعن جابر بن عبد الله أنه خرج غازياً مع أصحاب النبي ﷺ وهو يمشي فقيل له: يا صاحب رسول الله ألا تركب إذا حملك الله قال جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار». فنزل الناس معه يمشون.

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا أذلهم الله وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا عمهم الله بالعذاب، وما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا اقتتلوا فيما بينهم».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من جهز غازياً فقد غزا ومن أظل رأس غازٍ أظله الله يوم القيامة لا ظل إلا ظل عرشه وكان له مثل أجره حتى يرجع أو يموت».

وعنه عليه السلام أنه قال: «لأن أشيع غازياً في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها».

وعنه عليه السلام / كان يقول: «ما من أهل بيت لا يغزو منهم غازٍ ولا يجهزون غازياً [١٣٦/ب] ولا يخلفونه في أهله بخير إلا أصابهم الله بقارعة». قيل: يا رسول الله وما القارعة؟ قال: «بلاء في أنفسهم وأموالهم».

وعنه عليه السلام أنه قال: «أيما امرأة جهزت زوجها في سبيل الله ثم لم تخلفه في نفسها إلا بما يحبّهُ إلا جعل الله لها مثل أجره ولا ينقص من أجره شيء».

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن ممن يدخل الجنة سراً والناس في الحساب من أمر بالجهاد وحظ عليه».

وكان سعيد بن المسيب فيما بلغنا يقول: من حرض أخاه على الجهاد في سبيل الله قيل له ادع يستجب لك. وتمن على الله يوم القيامة بما شئت يعطيك ومن حرض أخاه على القتال كان له مثل أجره ويعطي بكل خطوة خطاها في ذلك عبادة سنة.

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الملائكة لتصلي على الغازي في سبيل الله ما دامت حمائل سيفه عليه ودرعه وسلاحه».

وعنه عليه السلام أنه رجلاً جاءه فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله أيكفر ذلك عني ذنوبي؟ قال: «نعم إلا الدين كذلك قال لي جبريل إلا أن يكون ديناً على أحد ثلاثة أوجه: فإن الله يقضيه عن صاحبه؛ رجل ضعفت قوته عن الجهاد في سبيل الله فتداين ليتقوى به على قتال عدوه ثم مات ولم يقضه فإن الله تعالى يقضيه عنه، ورجل مات عنده رجل من المسلمين فلم يجد ما يكفنه ولا ما يواريه إلا بدين فتداين ثم مات ولم يقضه فإن الله تعالى يقضيه عنه، ورجل أخذ ديناً ليعتصم به بتزويج أو لينفقه على أهله ثم مات ولم يقضه فإن الله تعالى يقضيه عنه».

[١٣٧/أ] وعنه عليه السلام أنه قال: «/ ما تقدم رجل خطوة في سبيل الله إلا طلعت عليه الحور العين فإذا[١] تأخر [خطوة استحيين منه و][٢] استترن عنه[٣] فإذا[٤] استشهد كان[٥] أول نضحة[٦] نضحت[٧] من دمه كفارة لخطاياه وتنزل عليه اثنان من الحور العين يمسحان[٨] التراب

(١) في الكنز وإن.
(٢) ما بين المعقوفين سقط من الأصل وأثبتناه من الكنز.
(٣) في الكنز منه وأحسبه الصواب.
(٤) في الكنز فإن.
(٥) في الكنز كانت.
(٦) في الكنز شجه.
(٧) ليست موجودة في الكنز.
(٨) في الكنز فينفضان.

عن وجهه ويقلن[١]: مرحباً مرحباً[٢] قد آن[٣] لك ويقول [هو مرحباً فـ][٤] قد آن[٥] لكما»[٦].

وعنه عليه السلام كان يقول: «إن للشهيد عند الله تعالى ست خصال؛ يغفر له من أول دفعة من دمه ويتبوأ مقعده من الجنة ويتحلى بحلية الإيمان ويجار من عذاب القبر ويؤمن من الفزع الأكبر ويلقى على رأسه تاج من الياقوت خير من الدنيا وما فيها ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقاربه وأهل بيته ممن كان على الإسلام».

وفي حديث آخر عنه عليه السلام أنه قال: «الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة».

وفي لفظ أخر: «لعظة نملة أشد على الشهيد من ألم السلاح بل هو أشهى إليه من الشراب البارد في يوم صائف».

وعنه عليه السلام كان يقول: «ليس بين حياة الشهيد في الدنيا وحياته في الآخرة إلا كمضغ تمرة».

وعنه عليه السلام قيل له: ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهداء؟ فقال عليه السلام: «كفى ببارقة السيوف على رؤوسهم فتنة».

وعنه عليه السلام أنه قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل تقال عند إمام جائر يقتل عليها صاحبها».

وفي كتاب الحضرمي قال: وقيل لما فتحت خيبر قال عليه السلام لجرير: «هل تعجبك هذه الحلة»؟ قال: نعم يا رسول الله قال عليه السلام: «لو رأيت منادياً في الجنة علمت أنها ليست مثل حلتك». قال: قلت: أهي لشهداء بدر قال عليه السلام: «بل لغيرهم من أمتي». قال: من هم؟ قال: «قوم في آخر الزمان تأتيهم أشرار لهم مُرّجاً لشهيدهم مثل ما لسبعين رجلاً من شهداء بدر، الإيمان / راسخ في قلوبهم وأنا أعلم بأسمائهم من الوالد بولده وإن الجنة [١٣٨/ب]

---

(١) في الكنز ويقولان.
(٢) التكرار غير وارد بالكنز.
(٣) في الأصل قد نحن.
(٤) ما بين المعقوفين من الكنز.
(٥) في الأصل أنا والتصويب من الكنز.
(٦) ذكره المتقى الهندي في كتابه كنز العمال بحر ١٠٦٩٨ وعزاه لهناد، والطبراني في الكبير عن يزيد بن شجرة.

لتشتاقهم كما تشتاق الناقة إلى ولدها وذلك إذا وهن الدين وعطلت الحدود وظهر أهل الجور على أهل الحق انتبذت منهم فرقة من أمتي من تخلف عنهم من غير عذر فأنا منه بريء وهو مني بريء». قال: يا رسول الله هل أدرك ذلك الزمان؟ قال عليه السلام: «لا». قال: كيف لي حتى ابلغ إلى ذلك الثواب؟ قال عليه السلام: «لو تقربت إلى الله بمثل ثواب العابدين من الأولين والآخرين لكنت عسى أن تدرك فضل نائمهم في رباط ساعة واحدة».

وعن أبي هريرة عنه عليه السلام أنه سمعه يقول في قوله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1]. قال: «الشهداء هم الذين استثناهم الله عز وجل من الصعق». قال: «إذا سمعوا النفخة الأولى قالوا: كان هذا أذان المسلمين في الدنيا لا يموتون ولا يفزعون وهم تحت العرش متقلدين سيوفهم والذي نفسي بيده إن الشهداء ليأتون يوم القيامة سالين سيوفهم واضعيها على عواتقهم لو يمرون بإبراهيم خليل الله أو نبي من الأنبياء لخلاء لهم طريقهم يقول أهل الجنة هؤلاء الذين أهرقوا في سبيل الله دمائهم حتى يجلوا على منابر من نور ينظرون إلى الخلائق كيف يحاسبون وهم قد أمنوا الحساب وما لهم عند الله أفضل».

وفي كتاب الحضرمي قال ويقال: أن المقتولين في سبيل الله يأتون يوم القيامة متقلدين السيوف وجراحهم تنضح دماً على لون الزعفران ورائحة المسك ويقولون للخلائق: أفرجوا لنا عن الطريق فنحن الذين ارقنا في الله دمائنا وأيتمنا فيه ابناءنا وأرملنا فيه نساءنا ويقول الله تعالى: أوليائي اراقوا لي دماءهم.

[١٣٩/أ] وعن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «لو كنت / أنا وإبراهيم» صلى الله عليهما «لأفرجنا لهم عن الطريق» لما رأوا من كرامتهم على الله وقيل: إنه يكون من كرامتهم على الله أنه تكون لهم مواد تحت ظل العرش والناس في أهوال يوم القيامة وعن العلاء بن كثير أنه قال: إذا جمع الله الخلائق ليفصل بينهم يقول الشهداء: اذهبوا بنا إلى ربنا ننظر كيف يحكم بين عباده وهم قد أمنوا ذلك.

وعن كعب الأحبار أنه قال: يوجد على باب الجنة رجل وهو يبكي فيقال له ما يبكيك ألست من أهل الجنة قال: بلى ولكن لم أقتل في سبيل الله إلا قتلة واحدة فلو أني قتلت في سبيل الله ألف ألف قتلة كان قليلاً عند ما أعد الله من الكرامة.

---

(١) سورة الزمر الآية: ٦٨.

وعن عبد الله بن عمر أنه كان يقول: والذي نفسي بيده إن الملائكة لتتمنى منازل الشهداء الذين ماتوا على فرشهم، وأما الذين قتلوا في سبيل الله فلا يطمع أحد من الملائكة أن يكون في منزلتهم، وما من ميت يموت ويريد الرجوع إلى الدنيا إلاّ الشهيد، فإنه يريد الرجوع إلى الدنيا ليقتل في سبيل الله مرة أخرى.

وعنه عليه السلام أنه قال: «موطنان تزخرف عندهما الجنة وتتزين فيهما الحور العين عند الصلاة وعند القتال فإذا انصرف المصلي من صلاته ولم يسأل الله الجنة ولا الحور العين قلن: ويح هذا الذي لم يسأل من الله الحور وإذا كان عند القتال قالت: زوجته من الحور العين أقدم أقدم ولا تحزني في صواحباتي».

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لما أصيب إخوانكم يوم أحد، جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر ترد بهم أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما طيب مشربهم، ومأواهم، ومثاكلهم، وحسن منقلبهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، لئلا يذهدوا في الجهاد، ولا يستأخروا عن الحرب، / فقال الله [١٤٠/ب] تعالى: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ. . . . .﴾[1] الآية.

وبالجملة أفضل الناس منزلة عند الله تعالى بعد الأنبياء والرسل الشهداء، كما قدمنا من فضلهم. وقد قال عليه السلام: «القتيل شهيد وصاحب الهدم شهيد والمبطون شهيد والغريق شهيد ومن أكله السبع شهيد والسليم شهيد» ـ يعني اللديغ ـ «ومن ذكر إذا دخل مضجعه ثم مات فهو شهيد والنفساء شهيد ومن مات على فراشه وهو يريد أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى شهيد».

وعن محمد بن محبوب رحمه الله أنه قال: الشهيد المرزوق من قتل بالسيف.

وقد روي عن أبي مرداس مهاصر رحمه الله أنه لما التقى المشايخ مع خلف بن السمح بفاغيس واشتد القتال قال أبو مرداس: ضمنت الجنة لمن مات هاهنا اليوم إلاّ من كان فيه ثلاث خصال، قتل النفس التي حرم الله، وأكل أموال الناس ظلماً، والقاعد على الفراش الحرام، وسأجعل له منهن مخرجاً إن شاء الله. أما من قتل النفس التي حرم الله فليقد نفسه لأولياء المقتول، فإن لم يحضروا فليشهد أنه إنما يقاتل بنفس غيره، وأما من كانت عليه أموال الناس

(١) سورة آل عمران الآيتان: ١٦٩، ١٧٠.

فليعطهم، فإن لم يجد فلويصي بها، والقاعد على الفراش الحرام فليرفع نفسه.

وقد روي أن أبا عبيدة عبد الحميد الحناوني رحمه الله أنه فعل مثل ذلك حين التقى مع خلف أيضاً والله أعلم.

والجهاد فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقين، ما لم يتركوه استخفافاً بحقه أو ديانة بتركه ولا يجب إلاّ بإمام عادل وعدة وعدد يبلغ نصف العدو ولا ينبغي أن يخرج / الإنسان إلى الجهاد إلا بإذن أبويه إلا إن كان ممن لا يقوم الجهاد إلا به. [١٤١/أ]

وقد روي أن النبي ﷺ جاءه رجل للمبايعة على الجهاد فقال: يا رسول الله لقد جئتك وأبواي ليبكيان. فقال عليه السلام: «ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما وإن علمت أن هواهما أن تقيم عندهما فأقم».

وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «إن أصحاب الأعراف هم ناس خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله بغير إذن آبائهم فقتلوا فمنعوا من الجنة بمعصية آبائهم ومنعوا من النار بقتلهم في سبيل الله». ويقال: إن رسول الله ﷺ قاتل معه يوم أُحد عبد مملوك فقال له عليه السلام: «أأذن لك سيدك»؟ فقال: لا. فقال له: «لو قتلت لدخلت النار». فقال له سيده هو حر يا رسول الله فقال له: «الآن فقاتل».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من غزا غزوة في سبيل الله فقد أدى إلى الله جميع طاعته وأدى الحق الذي لا تقصير دونه فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» فقالوا: يا رسول الله من يدع الجهاد على ما سمع منك؟ فقال: «من لعنه الله وغضب عليه وأعد له عذاباً عظيماً وليكونن في آخر الزمان قوم يقولون: لا جهاد فمن لقي الله وهو يقول ذلك عذبه الله عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين».

وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «لا يزال الجهَادُ حلواً خضراً ما قطر القطر من السماء وسيأتي على الناس زمان يقول فيه قراءهم ليس هذا زمان جهاد فمن أدرك ذلك الزمان فنعم زمان الجهاد». فقالوا!: يا رسول الله أو يقول ذلك أحد؟ قال: «نعم من عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين للمجاهد في ذلك الزمان ما للمجاهد هذا اليوم من الأجر».

وعنه عليه السلام أنه قال: «الشهداء ثلاثة: رجل خرج بماله ونفسه ونيته لا يقتل ولا / يقتل وهو يكثر الناس بسواده وفسطاطه أصابه سهم فقتله فذلك يغفر له بأول قطرة تقطر من دمه ويؤتى بجسدٍ من الجنة فيجعل فيه روحه ثم يؤتى بحلة من الجنة فيصب عليها ستون لوناً [١٤٢/أ]

كشقائق النعمان ثم يعرج مع الملائكة حتى يؤتى به إلى الجنة ورجل خرج مجاهداً في سبيل الله بنفسه وماله ونيته أن يقتل ويقتل فذلك شهيد شاهد يتمنى على الله ما شاء يشفع في سبعين من جيرانه وما من امرىء مسلم يخرج في سبيل الله إلا ويأتي يوم القيامة وعليه طابع الشهداء».

ويقال: الخيل تقسم ثلاثة أقسام: فرس للرحمٰن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان، فإما فرس الرحمٰن فالذي يتخذ للقتال في سبيل الله، وفرس الإنسان فالذي يتخذ للراحة، وفرس الشيطان فالذي يتخذ للمفاخرة وقوة على الإسلام.

وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «من مات مرابطاً في سبيل الله أجرى الله عليه عمله الصالح الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن من فتن القبر ويبعثه الله يوم القيامة أمناً من الفزع وهو في قبره مرابط إلى يوم القيامة ويبعث الله أقواماً يمرون على الصراط كهيئة الريح حتى يلحقوا الجنة». قيل: من هم؟ قال: «أقوام أدركهم الموت وهم في الرباط».

وعنه عليه السلام أنه قال: «رباط رجل في سبيل الله ليلة أفضل من ألف ليلة في أهله يقوم لياليها لا يفتر ويصوم نهارها لا يفطر».

وفضل الجهاد والرباط ما لا يحصيه كتاب، وقد ذكرنا من فضلهما ما فيه الكفاية، فالجهاد موضوع لقتل أعداء الله، وإعلاء كلمة الله، والرباط لحقن دماء أولياء الله الذابين عن دين الله، / فحقن دمائهم أفضل من سفك دماء أعداء الله. وإنما يتم الجهاد بإمام عادل [١٤٣/ب] واختلف في الغزو مع الجبابرة فأجازه بعض ومنع منه آخرون.

ويقال: من حرض رجلاً على الجهاد كان له مثل أجره وأجر نبي بلغ رسالة ربه ومن ثبطه عن الجهاد في سبيل الله فلو يفتدى يوم القيامة بملء الأرض ذهباً لم يقبل منه.

وفي الحديث عنه عليه السلام قال: «مثل المجاهد في سبيل الله من أمتي كمثل جبريل وميكائيل في الملائكة». وإنما ينال فضل الجهاد المسلم الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا فقتل على ذلك، ولم تزل أولياء الله في سالف الدهر يقتِلون ويقتَلون في سبيله فما نسيهم ربك، وما كان ربك نسيا، ولأجل ما ذكرنا من الفضل في الجهاد.

قال أبو بلال رحمه الله تعالى: لكل منية ظنون إلا القتل في سبيل الله وقال حين وقف على البثجاء ـ وهي امرأة من المسلمين قتلها الفاسق عبيد الله بن زياد ـ فقال أبو بلال: لو أني صرعت مصرع البثجاء لعلمت أني أبعث على الصراط السوي. وقيل عنه إنما قال يوم قتل: لو

أن لي نفسين نفساً تقاتل في سبيل الله ونفس تقوم في حوائج المسلمين، ومما يختار من أشعاره قوله فيما ذكر المبرد في كتابه الكامل:

أبعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى ... ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أرُجّى حَيَاةً أو أحب سلامة ... وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلم نيتي وبصيرتي ... وزدني التقى حتى ألاقي أولائكا

وقوله:

إني وزنت الذي يبقى بعاجلة ... تغني وشيكاً فلا والله ما اتزنا
تقوى الإله وخوف النار أخرجني ... وبيع نفسي بما ليس له ثمنا
[١٤٤/أ] / من كان يرجو بقاءً لا نفاد له ... فلا تكن جنة الدنيا له سجنا

وقوله:

ماذا نبالي إذا أرواحنا خرجت ... ما فعلتم بأجسادي وأوصالي
نرجو الجنان إذا صارت جماجمنا ... تحت العجاج كمثل الحنظل البالي
إني امرؤ باعني ربي لموعده ... إذا القلوب هوت من خوف أهوال
وأدت الأرض منا مثلما أخذت ... وقربت لحساب القسط أعمال
نفسي ظنون ولست الدهر آمنها ... من بعد كعب وطواف وغسال
من كان من أهل هذا الدين كان له ... ودي وشاركته في تالِدِ المال
الله يعلم أني لا أحبهم ... إلا لوجهك دون العم والخال

وقد قال عمران بن حطان في آخر القصيدة التي رثا بها أبا بلال وأصحابه رحمهم الله:

أتعجزون وترجون اللحاق بهم ... أنَّا يكون ذو عجز كأكياس

وقال:

لقد زاد الحياة إلي بغضاً ... وحباً للخروج أبو بلالِ
أحاذر أن أموت على فراشي ... وأرجو الموت في دار العوالِ
ومن يك همه الدنيا فإني ... لها والله رب البيت قالِ
فلو أني وثقت بأن حتفي ... كحتف أبي بلال لم أبالِ

وله قصائد كثيرة تركناها إذا ليس هذا الكتاب موضوعاً لأخبار الشرات[1] وبالله التوفيق.

---

(١) هكذا بالأصل وأحسبها الشعر وقد تحرفت.

وعلى هذا مضى أوائل المسلمين رحمهم الله ممن يطول الكتاب بتعدادهم أفنوا المخ واللحم في العبادة، فلم يرضهم ذلك في ذات الله، حتى أهرقوا عليه دمائهم، ومزقوا عليه أبدانهم، فرحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحهم الجنان، فإن لله وإنا إليه راجعون على مصيبتنا في أنفسنا، وضعف عزائمنا / في ديننا وبالله التوفيق. [١٤٥/ب]

الباب الثاني
في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضلهما والمذمة في إهمالهما وإضاعتهما

ويدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه وإشارة العقول السالمة إليه على ما سيأتي إن شاء الله الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات: فقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

فقوله: ﴿وَلْتَكُن﴾. أمر وظاهره الإيجاب والإلزام وفيه بيان الفلاح متعلق به وأنه فرض كفاية لا فرض عين إذا قامت به جماعة سقط الفرض عن الآخرين إذ لم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف بل قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ فمهما قام به جماعة أو واحد سقط الأثم عن الباقين، وخص بالفلاح القائمين به المباشرين له، وإن تركه الجميع هلكوا إذا كانوا قادرين لا محالة.

وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾. إلى قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2]. فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر، حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...﴾[3] الآية، فوصفهم الله سبحانه وتعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي هجرهما خرج عن المؤمنين الموصوفين في هذه الآية.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٠٤.

(٢) سورة آل عمران الآيتان: ١١٣، ١١٤.

(٣) سورة التوبة الآية: ٧١.

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[١]. وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم اللعنة بتركهم النهي عن المنكر.

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٢] الآية.

[١٤٦/أ] وهذا / يدل على فضيلة الأمر بالمعروف إذ بين أنهم كانوا به خير أمة.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ....﴾[٣] الآية. فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء ويدل ذلك على الوجوب أيضاً لأنه لا يتعلق الثواب والعقاب جميعاً إلاّ على الفرض.

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ.....﴾[٤] الآية. فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ...﴾[٥] الآية. وهذا أمر جزم، ومعنى التعاون الحث عليه وتسهيل طريق الخير، وسد طريق الشر والعدوان بحسب الإمكان.

وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[٦] فبيّن أنهم أثموا بترك النهي.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[٧]. فبين أنه أهلك جميعهم إلاّ قليلاً منهم كانوا ينهون عن الفساد.

وقال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ....﴾[٨] الآية. فهذا أمر عام للقادرين عليه.

وقال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْواهـم إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ.....﴾[٩]

---

(١) سورة المائدة الآيتان: ٧٨، ٧٩.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١١٠.
(٣) سورة الأعراف الآية: ١٦٥.
(٤) سورة الحج الآية: ٤١.
(٥) سورة المائدة الآية: ٢.
(٦) سورة المائدة الآية: ٦٣.
(٧) سورة هود الآية: ١١٦.
(٨) سورة النساء الآية: ١٣٥.
(٩) سورة النساء الآية: ١١٤.

الآية. وقال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا﴾ الآية. والإصلاح نهي عن البغي وإعانة على الطاعة فإن لم يفعل فقد أمر بقتاله فقال: ﴿فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي﴾[(١)]. الآية[(٢)]. وذلك هو النهي عن المنكر.

وقال فيما حكي عن لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ...﴾[(٣)] الآية. فالخير كله داخل في الأمر بالمعروف، والشر كله داخل في المنكر، وسمي المعروف معروفاً لأن العقول تعرفه، وتوجبه، وسمي المنكر منكراً لأن العقول تنكره وتأباه. وقد قالت العرب: الفاحشة كإسمها / والله أعلم. [١٤٧/ب]

وأما الأخبار: عن الرسول عليه السلام فكثيرة. منها ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبة خطبها: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتتأولونها على خلاف تأويلها: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[(٤)]. فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»[(٥)].

وروي عن أبي ثعلبة الخشني أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[(٦)]. فقال: «يا ثعلبة مر بالمعروف وانهِ عن المنكر فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع العوام إن من ورائكم فتناً كقصع الليل المظلم للمتمسك فيها بمثل الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم» قيل: بل منهم يا رسول الله قال: «بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدونه»[(٧)].

ووجدت أن قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[(٨)]. قيل: أن تهدوه إذا اهتديتم. وقيل: نزلت في ناس أسلموا دون عشائرهم فاغتموا فنزلت الآية والله أعلم.

---

(١) سورة الحجرات الآية: ٩.
(٢) ذكر الغزالي في الإحياء مثله في الجزء الثاني ص ٣٠٣ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
(٣) سورة لقمان الآية: ١٧.
(٤) سورة المائدة الآية: ١٠٥.
(٥) ذكره الحافظ العراقي في المغني وعزاه إلى أصحاب السنن الأربعة.
(٦) سورة المائدة الآية: ١٠٥.
(٧) قاله العراقي في المغني: رواه أبو داود والترمذي وحسنه ورواه ابن ماجه.
(٨) سورة المائدة الآية: ١٠٥.

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه سئل عنها فقال: إن هذا ليس زمانها إنها اليوم مقولة[١]، ولكن قد أوشك أن يأتي زمانها تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا وتقولون ولا يقبل منكم فحينئذٍ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

وعنه ﷺ أنه قال: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم»[٢]. قيل: معنى ذلك تسقط مهابتهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم.

وعنه ﷺ أنه قال: «[يا أيها الناس][٣] إن الله تعالى يقول لتأمرن وتنهون عن المنكر قبل أن / تدعوا فلا يستجاب لكم»[٤]. [١٤٨/أ]

وعنه عليه السلام أنه قال: «ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلاّ كنفتة في بحر لجى وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلاّ كنفتة في بحر لجى»[٥].

وعنه ﷺ أنه قال: «إن الله ليسأل العبد ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره فإذا لقن الله العبد حجته قال: يا رب[٦] وثقت بك وفرقت من الناس»[٧].

وعنه عليه السلام أنه قال: «إياكم والجلوس على[٨] الطرقات» إلا لما لا بد منه. قالوا: [ما لنا بد][٩] إنما هي مجالسنا نتحدث فيها قال: «فإذا أبيتم إلا ذلك فأعطوا الطريق حقها»[١٠]. قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر

---

(١) في الإحياء مقبولة.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه البزار من حديث عمر بن الخطاب والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف وللترمذي من حديث حذيفة نحوه وقال هذا حديث حسن.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من الأصل وأثبتناه من الإحياء.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أحمد والبيهقي من حديث عائشة بلفظ: «مروا وانهوا». وهو عند ابن ماجه دون عزوه إلى كلام الله تعالى وفي إسناده لين.

(٥) قال الحافظ العراقي: رواه أبو منصور الديلمي من حديث جابر بسند ضعيف في مسند الفردوس واقتصر على الشطر الأول.

(٦) في الإحياء. قال: رب.

(٧) قال الحافظ في المغني: رواه ابن ماجه.

(٨) جاءت في الأصل في والتصويب من الإحياء.

(٩) ساقط من الأصل، وأثبتناه من الإحياء.

(١٠) جاءت بالأصل حقه والتصويب من الإحياء.

بالمعروف والنهي عن المنكر»[١] وذكر الله تعالى. وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الله ليعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه»[٢].

وعن أبي أمامة الباهلي عنه ﷺ أنه قال: «كيف بكم[٣] إذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم». قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون». قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: «كيف بكم[٤] إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهو عن المنكر»؟. قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون». قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: «كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً»؟ قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون»؟ قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: «كيف بكم[٥] إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف»؟ قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون يقول / الله [١٤٩/ب] تعالى لي حلفت لأتيحنّ عليهم فتنة يصير الحليم فيها حيران»[٦].

وعن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقفن على رجل يقتل أو يضرب مظلوماً فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يرفع عنه»[٧].

وعنه ﷺ أنه قال: «لا ينبغي لامرىء شهد مقام فيه حق إلا أن يتكلم به فإن لن يقدم أجله ولن يؤخره ولن يحرمه رزقاً هو له»[٨].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: متفق عليه من حديث أبي سعيد.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أحمد من حديث عدي بن عميرة وفيه من لم يسم والطبراني من حديث أخيه العرس بن عميرة وفيه من لم أعرفه ج ٢ ص ٣٠٥.

(٣) جاءت بالإحياء «أنتم».

(٤) جاءت بالإحياء «أنتم».

(٥) جاءت بالإحياء «أنتم».

(٦) ذكره ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف دون قوله: «كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف». ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة مقتصراً على الأسئلة الثلاثة الأول وأجوبتها دون الأخيرين وإسناده ضعيف. قاله الحافظ العراقي في المغني ج ٢ ص ٣٠٥.

(٧) جاء بالإحياء بنحوه وقال الحافظ العراقي في المغني رواه الطبراني بسنده ضعيف والبيهقي في شعب الإيمان بسند حسن ج ٢ ص ٣٠٥.

(٨) جاء بالإحياء بنحوه وقال الحافظ العراقي في المغني رواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند الحديث الذي قبله، وروى الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد «لا يمنعن رجلاً هيبة الناس =

وهذا الحديث يدل على أنه لا يجوز دخول دور الظلمة والفسقة ولا حضور المواضع التي يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغيره فإنه قال: «اللعنة تنزل على حضر». ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذاراً بأنه عاجز.

ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم المنكرات في الأسواق والأعياد والمجامع وعجزهم عن التغير وهذا يقتضي لزوم الهجر للخلق.

ولهذا قال عمر بن عبد العزيز: ما ساح السواح وخلوا دورهم، وأولادهم، إلاّ لمثل ما نزل بنا، حين رأوا الشر قد ظهر، والخير قد اندرس، ورأوا أنه لا يقبل ممن تكلم، ورأوا الفتن، ولم يأمنوا أن تغيرهم، وأن ينزل العذاب في أولئك القوم فلا يسلمون، ورأوا أن مجاورة السباع، وأكل البقول خير من مجاورة هؤلاء في نعيمهم ثم قرأ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[1].

قال: ففر قوم، فلولا ما جعل الله جل ثناؤه في النبوّة لقلنا: ما هم بأفضل من هؤلاء، فيما بلغنا أن الملائكة تتلقاهم، وتصافحهم، والسحاب والسباع تمر بأحدهم فيناديها فتجيبه ويسألها أين أمرت فتخبره وليس بنبي[2].

قال: وقال أبو هريرة: قال قال رسول الله ﷺ: «من حضر معصية فكرهها فكأنه غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنه حضرها»[3].

[١٥٠/أ] ومعنى الحديث أن يحضر لحاجة أو يتفق جريان ذلك بين يديه، / فأما الحضور قصداً فممنوع بدليل الحديث الأول.

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا وله حواري فيمكث النبي بين أظهرهم ما شاء الله يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره حتى إذا قبض الله نبيه مكث الحواريون

= أن يقول الحق إذا علمه» ج ٢ ص ٣٠٥.

(١) سورة الذاريات الآية: ٥٠.

(٢) نقل هذا عن الإمام الغزالي ومع احترامنا وتقديرنا لعلمه إلاّ أننا نأخذ بما جاء صحيحاً وصريحاً من أدلة الشرع وهي الكتاب والسنة اللذان يأمران بالأخذ بظواهر الأمور وترك بواطنها فأمثال هذه الأشياء لا تدل على صلاح أو طلاح فقد تكون أمثال هذه الأشياء عظة أو تكرمة لعبد من عباد الله كالحضر مثلاً وموقفنا منها كموقف موسى عليه السلام مع الحضر، وقد يفعلها ساحر فموقفنا من مثل هذه الأشياء تطبيق الشرع الظاهر على من كانت معه والله أعلم.

(٣) رواه ابن عدي وفيه يحيى بن أبي سليمان قال البخاري منكر الحديث قاله الحافظ العراقي في المغني.

يعملون بكتاب الله وبأمره وبسنة نبيهم فإذا انقرضوا كان من بعدهم قوم يركبون رؤوس المنابر، يقولون ما تعرفون[١] ويعملون ما تنكرون[٢] فإذا رأيتم ذلك فحق على كل مؤمن جهادهم بيده فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وليس وراء ذلك إسلام»[٣].

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: كان أهل قرية يعملون بالمعاصي، وكان فيهم أربعة نفر ينكرون ما يعملون. فقام أحدهم فقال: إنكم تعملون كذا وكذا، فجعل ينهاهم ويخبرهم بقبيح ما يصنعون فجعلوا يردون عليه ولا يدعون أعمالهم، فسبهم فسبوه، وقاتلهم فغلبوه، فاعتزل وقال: اللهم إني نهيتهم فعصوني، فسبيتهم فسبوني، وقاتلتهم فغلبوني ثم ذهب. ثم قام الآخر فنهاهم فلم يطيعوه، فسبهم فسبوه، فاعتزل ثم قال: اللهم إني نهيتهم فلم يطيعوني فسبيتهم فسبوني، ولو قاتلتهم لغلبوني، ثم ذهب. ثم قام الثالث: فنهاهم فلم يطيعوه، فاعتزل عنهم ثم قال: اللهم إني نهيتهم فلم يطيعوني ولو سبيتهم لسبوني ولو قاتلتهم لغلبوني، ثم ذهب. ثم قال الرابع فقال: اللهم إني لو نهيتهم لعصوني ولو سبيتهم لسبوني، ولو قاتلتهم لغلبوني، ثم ذهب. قال ابن مسعود كان الرابع أدناهم منزلة وقليل فيكم مثله.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قيل: يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون؟ قال: «نعم». قيل: بم يا رسول الله؟ قال: «بتهاونهم وسكوتهم عن معاصي الله عز وجل»[٤].

وعن جابر بن عبد الله عنه ﷺ / أنه قال: «أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن اقلب[١٥١/ب] مدينة كذا وكذا على أهلها فقال: يا رب إن فيهم عبيدك فلان ألم يعصك طرفة عين؟! قال: اقلبها عليه وعليهم؟ فإنه لم يتمعر وجهه ساعة قط»[٥].

وعن عائشة رضي الله عنها عنه ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى عذّب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفاً عملهم عمل الأنبياء». قالوا: يا رسول الله كيف ذلك؟! قال: «لم يكونوا يغضبون لله ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر»[٦].

---

(١) كذا بالأصل وجاءت بالإحياء يعرفون.

(٢) كذا بالأصل وجاءت بالإحياء ينكرون.

(٣) قال الحافظ العراقي رواه مسلم نحوه المغني ج ٢ ص ٣٠٦.

(٤) قال الحافظ العراقي: رواه البزار والطبراني بسند ضعيف.

(٥) ذكر العراقي نحوه في المغني ج ٢ ص ٣٠٦ وقال: رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب وضعفه وقال المحفوظ من قول مالك بن دينار.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني: لم أقف عليه مرفوعاً ج ٢ ص ٣٠٦.

وعن عروة عن أبيه أن موسى عليه السلام قال: يا رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يتسرع إلى هواي كما يتسرع النسر إلى هواه، والذي يكلف بعبادي الصالحين كما يكلف الصبي بالثدي، والذي يغضب إذا أتيت محارمي غضب كما يغضب النمر إذا غضب لنفسه لم يبال قل الناس أم كثروا. فهذا يدل على فضل الحسبة مع شدة الخوف.

وفي أثر أصحابنا من أهل المشرق: وقيل والله أعلم: أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى الملائكة أن ينزلوا على أهل قرية، فيهلكوهم فلما نزلت الملائكة وجدوا قوماً في المساجد والله بذلك أعلم فعرجت الملائكة فقالت: إلهنا أرسلتنا أن نهلك أقواماً في المساجد ـ وهو تعالى أعلم ـ فأوحى الله إليهم بأولئك، فأبدؤا أولئك لم يعصوني ولكن شاربوهم وواكلوهم.

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال أبو بكر: يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين؟ فقال: «نعم يا أبا بكر إن لله مجاهدين في الأرض أفضل من الشهداء أحياء مرزوقين يمشون على الأرض يباهي الله بهم ملائكة السماء، وتزين لهم الجنة كما تتزين[1] أم سلمة لرسول الله ﷺ». قال أبو بكر: يا رسول الله من هم؟ قال: / [١٥٢/أ] «هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والمحبون في الله والمبغضون في الله». قال: «والذي نفسي بيده أن العبد منهم ليكون في الغرفة فوق الغرفات فوق غرف الشهداء للغرفة منها ثلاث مائة [ألف][2] باب منها الياقوت والزمرد والأخضر على كل باب نور، وأن الرجل منهم ليزوج ثلاث مائة ألف حوراء قاصرات الطرف عين كلما التفتت [إلى][3] واحدة منهن فنظر إليها فتقول: أتذكر يوم كذا وكذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر كلما التفتت[4] إلى واحدة منهن ذكرت له كل مقام أم فيه بمعروف ونهي عن منكر»[5].

وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: أي الشهداء أكرم على الله تعالى؟ قال: «رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فإن لم يقتله فإن القلم لا يجري عليه بعد ذلك، وإن عاش ما عاش»[6].

---

(١) كذا بالأصل وجاءت ـ تزينت ـ بالإحياء ج ٢ ص ٣٠٧.
(٢) ساقط من الأصل وأثبتناه من الإحياء.
(٣) ساقط من الأصل وأثبتناه من الإحياء.
(٤) كذا بالأصل وجاءت بالإحياء «نظر».
(٥) قال الحافظ العراقي في المغني: الحديث بطوله لم أقف له على أصل وهو منكر. ج ٢ ص ٣٠٧.
(٦) قال الحافظ العراقي في المغني: ذكر البزار دون قوله: «فإن لم يقتله» إلى آخره وهذه الزيادة منكرة وفيه =

وعن الحسن البصري عنه ﷺ أنه قال: «أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر»[(١)].

وعن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بئس القوم قوماً لا يأمرون بالقسط، وبئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر»[(٢)].

وعنه ﷺ أنه قال: «مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فإن ذلك لا يقرب أجلاً ولا يقطع رزقاً». وقال: «إذا كانت الأرزاق موافات فعلام التهافت في النار».

وأما الآثار: فقد روي أن حذيفة رضي الله عنه سئل عن ميت الأحياء، فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بقلبه[(٣)] ولا بلسانه.

وقد روي أيضاً عن النبي عليه السلام وعن أبي الدرداء أنه قال: لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو عليه / خياركم فلا يستجاب لهم، ويستنصرون فلا تنصرون[(٤)]، ويستغفروا فلا يغفر [١٥٣/ب] لهم[(٥)].

وفي الأثر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جندان من جنود الله فمن نصرهما نصر الله، ومن خذلهما خذل الله.

ويقال: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينصبان يوم القيامة ويكونان صورتين يشهدان يشفعان.

= أبو الحسن غير مشهور لا يعرف.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: هذا حديث مرسل وللحاكم في المستدرك وصحح إسناده من حديث جابر: ج ٢ ص ٣٠٧.

(٢) رواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث جابر بسند ضعيف وأما حديث عمر فأشار إليه أبو منصور الديلمي بقوله وفي الباب ورواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلاً. قاله الحافظ في المغني.

(٣) هكذا جاء بالأصل: وجاء بالإحياء ولا بلسانه ولا قلبه وهو الصواب لأن الإنكار باللسان يسبق الإنكار بالقلب كما في الحديث.

(٤) جاء بالأصل «ينصرون» والتصويب من الإحياء.

(٥) كذا بالأصل وجاءت في الإحياء «لكم».

وفي رواية مشايخ الجبل: أن عجوزاً من أهل كرلين بعثت إلى أخت لها في الله يا أختاها إياك أن تتركي سهمك من الأمر والنهي، فإنه بلغني من أحيى سهمه منهما كمن يغدي المسلمين من غد، وأن من ترك سهمه منهما كمن قتل المسلمين وباع سهمه من الجنة.

وعن مالك بن دينار أنه قال: كان حبر في بني إسرائيل يغشي منزله الرجال والنساء يعظهم ويذكرهم بأيام الله فرأى بعض بنيه يوماً وقد غمز بعض النساء. فقال: مهلاً يا بني مهلاً فسقط من سريره وانقطع نخاعه، وأسقطت امرأته، وقتل بنوه [في الجيش][1] فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه ان أخبر فلاناً الحبراني لا أخرج من صلبك صديقاً أبداً أما كان من غضبك لي إلا أن قلت: مهلاً يا بني.

وفي قول الله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2]. قيل: يا رسول الله ما كانت ولايتهم؟ قال: «يواكلونهم ويشاربونهم ويجالسونهم».

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم.

وفي الأثر: أن الله تعالى أوحى إلى يوشع بن نون عليه السلام أني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم، فقال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، وواكلوهم وشاربوهم.

وعن بلال بن سعد أنه قال: إن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا أعلنت فلم تغير أضرت / بالعامة. [١٥٤/أ]

وقد قال الله جل جلاله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ﴾[3] الآية. فأخبر أن الناهي ناج بنهيه فكان ألد عامل المعصية والراضي بها شريكين في عقوبة الله تعالى فصار النهي عن معصية الله تعالى منجاتاً من عذاب الله.

وعن كعب الأحبار أنه قال لأبي مسلم الخولاني كيف منزلتك في قومك؟ قال: حسنة. قال كعب: إن التوراة لتقول غير ذلك. قال: ما تقول؟ قال: تقول أن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه. فقال: صدقت التوراة وكذب أبو مسلم.

---

(١) ساقط من الأصل وأثبتناه من الإحياء.
(٢) سورة المائدة الآية: ٨٠.
(٣) سورة الأعراف الآية: ١٦٥.

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فإذا لم يعرف القلب المعروف، ولم ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله.

وقال بعض العلماء: أيما عبد عمل في شيء من دينه بما أمر الله به، أو نهى عنه وتعلق به عند فساد الأمور، وتنكرها وتشوش الزمان فهو ممن قام الله في زمانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قيل: معناه أنه إذا لم يقدر إلا على نفسه فقام بها وأنكر أحوال الغير بقلبه، فقد جاء بما هو الغاية في حقه. وقيل للفضيل: ألا تأمر وتنهى؟ فقال: إن قوماً أمروا ونهوا فكفروا، وذلك أنهم لم يصبروا على ما أصيبوا به.

وعن الثوري أنه قيل له: ألا تأمر بالمعروف وتنه عن المنكر؟ فقال: إذا انبثق البحر فمن يشده؟

فقد ظهر بما ذكرنا من الأدلة أن الأمر والنهي فرضان واجبان مع القدرة على كل مكلف شاهد ذلك، حراً كان، أو عبداً، ذكراً كان، أو أنثى، ولا يسقطان إلا بقائم يقوم بهما؛ لأنهما فرض على الكفاية فمن قدر أن ينكر بيده فليفعل، وإن لم يقدر فبلسانه، وإن لم يقدر فبقلبه وهو أضعف الإنكار، وليس ذلك عذر يمنعه / ولا ضعف يزيله. [١٥٥/ب]

وإن قدر أيضاً أن يظهر الإنكار على أهل المعاصي بالهجران، واكفرار الوجه فليفعل وإنما أجاز الله سبحانه للمسلمين، ترك إظهار المنكر عند عجزهم رخصة منه تعالى لهم، ومن أظهر النكير طلباً للوسيلة فله ثواب ذلك، على ما قدمنا من فضيلته والله أعلم[١].

فصـــل

اعلم أن الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تأكيداً لتحريم زواجره، وامتثال أوامره؛ لأن النفوس الأشرة قد الهتها الصبوة عن إتباع الأوامر، وأذهلتها الشهوة عن تذكار الزواجر، فكان إنكار أهل جنسها أزجر لها، وتوبيخ المخالطين لها أبلغ فيها، فلا خلاف بين الناس.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة، واجب على من شاهد

(١) هذا الباب وما جاء به من آيات وأحاديث وآثار فمعظم ما جاء به منقول نصاً من كتاب الإمام الغزالي ـ إحياء علوم الدين ـ وما أضافه المؤلف إلى الباب شيء قليل بجوار هذا النقل. ج ٢ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ طبعة دار إحياء الكتب العربية.

ذلك من فاعله، أو سمعه من قائله، وإنما اختلفوا من طريق وجوبه، هل وجب عليهم ذلك بالعقل، أو بالشرع، فذهب بعض المتكلمين إلى وجوب ذلك بالعقل؛ لأنه لما وجب بالعقل أن يمتنع عن القبيح، وجب عليه أيضاً بالعقل أن يمنع غيره منه.

وقد روي مثل ذلك عن رسول الله ﷺ وذلك أنه قال: «إن قوماً ركبوا سفينة في البحر فاقتسموها فعمد رجل منهم إلى موضعه فأخذ فأساً ينقره بها، فقالوا: ما تصنع، فقال: هذا مكاني أصنع فيه ما شئت، فإن أخذوا على يده ومنعوه سلم وسلموا، وإن تركوه هلك وهلكوا».

وذهب آخرون إلى وجوب ذلك بالشرع لا بالعقل قالوا: لأن العقل لو أوجب النهي عن المنكر، ومنع التغيير عن القبيح لوجب مثله على الله سبحانه. قالوا: ولما ورد الشرع بإقرار أهل الذمة على كفرهم وترك التنكير عليهم، دل على أن وجوب ذلك بالشرع لا بالعقل والله أعلم وأحكم.

[١٥٦/أ]

/ الباب الثالث
في أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وشروطها وهي أربعة أركان: المُحْتسِبُ والمحْتَسَبُ عليه والمحتسب فيه ونفس الاحتساب. وكل واحد من هذه الأربعة شروط مشروطة:

الركن الأول المحتسب: وهو المباشر للأمر والنهي، وله شروط، وهو أن يكون مكلفاً بالغاً عاقلاً موحداً قادراً، فيخرج منه الصبي والمجنون والعاجز ويدخل فيه العبد والمرأة والفاسق.

وأما التكليف: فلا يخفى اشتراطه إن أريد به الوجوب، وأما إن أريد به إمكان الفعل وحصول التمييز فلا يشترط فيه التكليف؛ لأن الصبي المميز الذي راهق البلوغ له أن يريق الخمر، وينكر المنكر، وإن لم يكن مكلفاً، ولم يكن لأحد منعه من حيث أنه ليس بمكلف لأن هذه قربة، وهو من أهلها ينال عليها الثواب، كما يناله على الصلاة، وسائر القربات قبل البلوغ، وليست كالولايات حتى يشترط فيها التكليف، ولذلك وجب على العبد وآحاد الرعايا.

نعم في المنع عن الفعل، وإبطال المنكر نوع الولاية، وسلطنة، ولكنها تستفاد بمجرد الإيمان كقتل المشرك، وكسر الأصنام، فالمنع عن الفسق كالمنع عن الكفر، وكذلك الإيمان

لا يخفى اشتراطه؛ لأن هذه نصرة للدين فكيف يكون من أهلها من هو جاحد لأصل الدين؟ هذا من جهة الشرط.

وأما من جهة التكليف فلا، لأن المشرك مأمور بجميع الفرائض منهي عن جميع المعاصي من الأمر والنهي وغير ذلك.

وأما العدالة فقد اعتبرها قوم، وقالوا: ليس للفاسق أن يحتسب بالأمر والنهي، وربما استدلوا بالآيات والأخبار الواردة بالإنكار على من يأمر بما لا يفعله مثل قوله تعالى: / ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[١]. [١٥٧/ب]

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٢]. وبما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مررت ليلة أسري بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من أنتم؟ قالوا: كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهي عن المنكر ونأتيه». وبما روي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى بن مريم عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني. وربما استدلوا من طريق القياس أن تقويم الغير فرع الاستقامة، والإصلاح زكاة عن نصاب الصلاح فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يصلح غيره؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج؟ وكل ما ذكروه خيالات، وإنما الحق أن للفاسق أن يحتسب بالأمر والنهي لأنه لا يشترط في الاحتساب العصمة عن المعاصي كلها. فمن زعم أنه لا يجوز لأحد أن يأمر وينهى حتى يكون معصوماً فقد خرق الإجماع وحسم باب الأمر والنهي، إذ لا عصمة للصحابة فضلاً عن من دونهم والأنبياء قد اختلف في عصمتهم عن الصغائر، والقرآن دال على نسبة الأنبياء[٣] إلى المعصية والظلم لأنفسهم ولهذا قيل عن سعيد بن جبير أنه قال: إن لم يأمر بالمعروف ولا ينه عن المنكر إلاّ من لا يكون فيه شيء لم يأمر أحداً بشيء.

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانهوا عن المنكر، وإن لم تنتهوا عنه كله»[٤]. ولم تزل جنود أهل الإسلام مشتملة على البار والفاجر

---

(١) سورة البقرة الآية: ٤٤.

(٢) سورة الصف الآية: ٣.

(٣) لم يصب المؤلف في نسبة الأنبياء إلى المعصية فإن كان القرآن نسب بعض الأنبياء إليها فلا يدل ذلك على تعميم هذه النسبة عليهم.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني رواه الطبراني في المعجم الصغير والأوسط وفيه عبد القدوس بن حبيب أجمعوا على تركه.

في الغزو والجهاد ولم يمنعوا عن ذلك في عصر الرسول عليه السلام وغيره من الأعصار. والتحقيق في هذا أن الاحتساب تارة يكون بالوعظ ولا ينفع وعظ من لا يتعظ عند من علم ذلك منه ويكون الاحتساب تارة بالقهر والمنع فلا / حجر على الفاسق في إراقة الخمر وكسر [١٥٨/أ] الملاهي، وغيرها إذا قدر على ذلك، وكذلك إغاثة المظلوم وقمع الظالم وغيره من المنكر والله أعلم[١].

وأما الآيات والأخبار التي استدلوا بها في إنكار عليهم من حيث تركهم المعروف، وارتكابهم المنكر لا من حيث الأمر والنهي، لأن أمرهم ونهيهم دل على قوة علمهم وعقاب العالم التارك أشد، لأنه لا عذر له مع قوة علمه فالجاهل غير معذور فكيف العالم؟

وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[٢]. فالمراد به الوعد الكاذب.

وقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٣]. توبيخ من حيث أنهم نسوا أنفسهم لا من حيث أنهم أمروا غيرهم، إن ذلك أدل على علمهم وأقوى في تأكيد الحجة عليهم، وقوله: «يا ابن مريم عظ نفسك» الحديث. هو في الاحتساب بالوعظ.

وقد سلمنا أن وعظ الفاسق قليل الجدوى ساقط القبول عند من يعرف، ثم قوله: وإلا فاستحي مني لا يدل على تحريم وعظ الغير بل معناه لا تترك مهم نفسك وتشتغل بمهم غيرك كما يقال احفظ أباك ثم جارك وإلاّ فاستحي والله أعلم.

وقد روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر الفاعلين له.

وأما آحاد الرعية فإنما ذكرنا ذلك، لأن قوماً اشترطوا في المحتسب أن يكون مأذوناً له من جهة الإمام أو الوالي وهذا الاشتراط فاسد، فإن الآيات والأخبار التي قدمناها تدل على أن كل من رأى منكراً فسكت عنه مع القدرة على إنكاره فهو آثم عاص أينما رآه، وكيفما رآه على العموم، واستمرار علماء السلف في إنكارهم على السلاطين قاطع بصحة ذلك ووجوبه من غير إذن الإمام فكل من أمر بالمعروف / سلطاناً أو والياً فإن كان راضياً به فذلك، وإن كان [١٥٩/أ]

---

(١) ما جاء في هذا الباب بعد اختصار مخلاً لما جاء بكتاب الإحياء في نفس الموضوع في الجزء الثاني ص ٣٠٩ طبعة دار إحياء الكتب العربية.

(٢) سورة الصف الآية: ٢.

(٣) سورة البقرة الآية: ٤٤.

ساخطاً فسخطه لذلك أيضاً منكر منه يجب الإنكار عليه فكيف يحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه؟

وقد روي أن مروان بن الحكم خطب قبل الصلاة في العيد فقال له رجل: إنما الخطبة بعد الصلاة. فقال له مروان: اترك ذلك يا فلان. فقال له أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه. قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فلينكره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[١].

وفي كتاب الغزالي قال: وروي أن المهدي لما قدم مكة لبث ما شاء الله، فلما أخذ في الطواف نحى الناس عن البيت، قال: فوثب عبد الله بن مرزوق فلبسه بردائه ثم هزه فقال له: انظر ما تصنع من جعلك بهذا البيت أحق ممن أتاه من البعد، حتى إذا صار عنده حلت بينه وبين البيت من جعل لك هذا فنظر في وجهه وكان يعرفه لأنه من مواليهم فقال عبد الله بن مرزوق: قال: نعم. فأخذ فجيء به إلى بغداد، فكره أن يعاقبه عقوبة تشنع عليه في العامة فجعله في إصطبل الدواب، ليسوس الدواب وضموا إليه فرساً عضوضاً سيء الخلق ليعقره الفرس، فأمن الله له الفرس ثم إنهم صيروه في بيت وأخذ المهدي المفتاح عنده فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل فإذن له المهدي. فقال له: من أخرجك؟ قال: الذي حبسني. قال: فضحك المهدي ثم صاح وقال: ما اخلق بنا[٢] أن أقتلك. فرفع إليه عبد الله رأسه يضحك وهو يقول: لو كنت تملك إحياء أو موتاً. قال: فما زال محبوساً حتى مات المهدي ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة. قال: وكان قد جعل على نفسه نذراً إن خلصه الله من / [١٦٠/ب] يديه أن ينحر مائة بدنة، فكان يعمل في ذلك حتى نحر مائة بدنة.

قال: وروي [عن][٣] حبان بن عبد الله قال: تنزه هارون المدعو بالرشيد بالدوين، ومعه سليمان بن أبي جعفر الهاشمي فقال له هارون: قد كانت لك جارية تغني فتحسن فجئنا بها. قال: فجاءت فغنت فلم يحمد غناءها. فقال لها: ما شأنك؟ فقالت له: ليس هذا عودي. فقال للخادم: جئها بعودها. قال: فجاء بالعود فوافق شيخاً يلقط النوى. فقال: الطريق يا شيخ، فرفع الشيخ رأسه فرأى العود فأخذه فضرب به الأرض، فأخذه الخادم وذهب به إلى صاحب الربع. فقال: احتفظ بهذا فإنه طلبه أمير المؤمنين. فقال صاحب الربع: ليس ببغداد أعبد من هذا فكيف يكون طلبة أمير المؤمنين. فقال له: اسمع ما أقول لك ثم دخل على هارون فقال:

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه مسلم.
(٢) كذا جاءت بالأصل المخطوط وإن كانت في الإحياء «ما تخاف».
(٣) ساقط من الأصل وأثبتناه من كتاب إحياء علوم الدين.

إني مررت على شيخ يلقط النوى، فقلت له: الطريق، فرفع إلي رأسه فرأى العود فأخذه وضرب به الأرض. فاستشاط هارون وغضب واحمّرت عيناه، فقال له سليمان بن أبي جعفر: ما هذا الغضب يا أمير المؤمنين ابعث إلى صاحب الربع بضرب عنقه ويرمى به في دجلة. قال: لا ولكن نبعث إليه ونناظره[1] أولاً، فجاءه الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين. فقال: نعم. قال: اركب. قال: لا. فجاء يمشي حتى وقف على باب القصر. فقيل لهارون: قد جاء الشيخ فقال للندماء: أي شيء ترون نرفع ما قدامنا من المنكر حتى يدخل هذا الشيخ أو نقوم إلى مجلس آخر. فقالوا: نقوم إلى مجلس آخر أصلح، فقاموا صاغرين إلى مجلس آخر ليس فيه منكر ثم أمر بالشيخ فأدخل وفي كمه الكيس الذي فيه النوى. فقال له الخادم: أخرج هذا وأدخل على أمير المؤمنين. فقال: من هذا عشاء الليلة. فقال: نحن نعيشك. / [١٦١/أ] قال: لا حاجة لي في عشائك. فقال له هارون: أي شيء تريد منه؟ فقال: في كمه نوى. قلت له: اطرحه، وادخل على أمير المؤمنين. فقال له: دعه لا تطرحه. قال: فدخل له فسلّم وجلس. فقال له هارون: يا شيخ ما حملك على ما صنعت؟ قال: وأي شيء صنعت؟ وجعل هارون يستحي أن يقول كسرت عوداً، فلما أكثر عليه. قال: إني سمعت آباءك وأجدادك يقرؤون هذه الآية على المنبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ...﴾[2] الآية. ورأيت منكراً فغيرته. قال: فغيره والله ما قال إلا هذا. فلما خرج أعطى رجلاً بدرة وقال له: اتبع الشيخ فإن رأيته يقول قُلت لأمير المؤمنين. وقال لي: فلا تعطه شيئاً وإن رأيته لا يكلم أحد فاعطه البدرة، فلما خرج من القصر إذا هو بنواة في الأرض قد غاصت يعالجها ولم يكلم أحداً. فقال له: قال لك أمير المؤمنين خذ هذه البدرة. فقال: قل لأمير المؤمنين يردها من حديث أخذها.

ويروى أنه أقبل بعد فراغه من كلامه على النواة يعالج قلعها من الأرض وهو يقول:

أرى الدنيا لمن هي في يديه ... هموماً كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر ... وتكرم كل من هانت عليه
وفي التقوى من الدنيا بلاغ ... ورزق المرء مبعوث إليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج إليه

قال: وقد روي عن المأمون أنه بلغه أن رجلاً محتسباً يمشي في الناس يأمرهم بالمعروف

(١) كذا بالإحياء وجاءت بالأصل «مناظره».
(٢) سورة النحل الآية: ٩٠.

وينهاهم عن المنكر، ولم يكن مأمور من عنده بذلك فأمر بأن يدخل عليه فلما صار بين يديه. قال: بلغني أنك رأيت نفسك أهلاً للأمر بالمعروف من غير أن نأمرك؟

وكان المأمون جالساً على كرسي ينظر في كتاب أو قصة فأغفله فوقع / منه تحت قدمه [١٦٢/ب] من حيث لم يشعر. فقال المحتسب: ارفع قدمك عن أسماء الله ثم قل ما شئت، فلم يفهم المأمون مراده. فقال: ماذا تقول؟ حتى أعاد ثالثاً فلم يفهم منه. فقال: أما رفعت وأذنت لي حتى أرفع؟ فقال: قد أذنت، فنظر المأمون تحت قدمه فرأى الكتاب فأخذه وقبله وخجل. ثم عاد فقال: لم تأمر بالمعروف؟ وقد جعل الله ذلك إلينا أهل البيت ونحن الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[١] فقال: صدقت يا أمير المؤمنين، أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمكين غير أنا أعوانك وأولياؤك فيه ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٢] الآية.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[٣]. وقد مكنت في الأرض، وهذا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فإن انقدت لهما شكت لما أعانك لحرمتهما، وإن استكبرت عنهما ولم تنقد لما لزمك منهما فإن الذي إليه أمرك وبيده عزك، أنه قد شرط أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً. فقل الآن ما شئت، فأعجب بكلامه، وسر به، وقال: مثلك يجوز له أن يأمر بالمعروف فامض على ما كنت عليه بأمرنا، وعن رأينا فاستمر الرجل على ذلك.

ففي سياق هذه الحكايات بيان الدليل على الاستغناء عن الإذن والله أعلم[٤].

فصـــل

فإن قيل يجب الاحتساب للولد على الوالد، والعبد على السيد، والزوجة على الزوج، والتلميذ على الأستاذ، والرعية على الوالي مطلقاً، كما يجب للوالد على الولد والسيد على العبد، والزوج على / الزوجة والأستاذ على التلميذ والسلطان على الرعية أو بينهما فرق. [١٦٣/ب]

---

(١) سورة الحج الآية: ٤١.

(٢) سورة التوبة الآية: ٧١.

(٣) قال الحافظ العراقي: متفق عليه من حديث أبي موسى.

(٤) ما جاء في هذا الباب يعد نقلاً من كتاب الإحياء. الجزء الثاني كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طبعة دار ـ إحياء الكتب العربية ـ.

فاعلم أن الذي نراه أنه يجب أصل الاحتساب ولكن بينهما فرق ولنفرض ذلك من الولد مع الوالد فنقول أن الاحتساب خمس مراتب، وللولد أن يحتسب على الوالد باثنين منهما وهما التعريف والوعظ والنصح باللطف، وليس له الاحتساب بالسب، والتعنيف والتهديد ومباشرة الضرب وهي الرتبة الأخيرة، لأنه وإن ورد الأمر والنهي في الكتاب على العموم.

فقد ورد في حق الأب على الخصوص ما يوجب استثناءه على العموم، إذ لا خلاف في أن الجلاد لا يباشر قيامة الحد على أبيه بل لا يباشر قتل أبيه المشرك، بل لو قطع يده لم يلزمه قصاص، ولا يقتل بابنه ولم يكن له أن يؤذيه في مقابلته. وقد ورد في ذلك أخبار وثبت بعضها بالإجماع[1] فإذا لم يجزي إيذاءه بعقوبة هي حق على جناية سابقة فلا يجوز إيذاءه بعقوبة هي منع عن جناية مستقبلة متوقعة بل ذلك أولى.

وهذا الترتيب أيضاً ينبغي أن يجري في العبد والزوجة مع السيد والزوج فهما قريبان من الوالد في لزوم الحق.

وأما الرعية مع السلطان:

فالأمر فيه عند قومنا أشد من الوالد في لزوم الحق، فليس لهم معه عندهم إلا التعريف والنصح. وقد اختلف الناس في الخروج على السلاطين الجورة والإنكار عليهم ظلمهم، وليس هذا موضع ذكر.

وأما التلميذ والأستاذ:

فالأمر فيما بينهما أخف؛ لأن حرمة الأستاذ إنما تأكدت بالدين، وإفادته العلم للمسترشد ولا حرمة للعالم الذي لا يعمل بعلمه فله أن يعامله بموجب علمه الذي تعلمه منه.

وروي أنه سئل الحسن عن الولد كيف يحتسب على الوالد؟ قال: يعظه ما لم يغضب عليه، فإن غضب سكت عنه.

[١٦٤/أ] وأما شرط القدرة على إنكار المنكر: فلا يخفى / ذلك؛ لأن العاجز ليس عليه أن يحتسب إلا بقلبه إذ كل من أحب الله يكره معاصيه وينكرها.

---

(١) ما أشار المؤلف إلى أن الإجماع ثابت عليه من علاقة الولد بوالده حال ارتكابه المنكر وحال قيامه بالحد عليه ومباشرة ذلك قال الحافظ العراقي في المغني لم أقف فيه إلا على حديث ابن عمر عند الترمذي وابن ماجه وقال عنه الترمذي فيه اضطراب. وهو «لا يقاد الوالد بالولد».

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: جاهدوا الكفار بأيديكم فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا في وجوهكم فافعلوا.

واعلم أنه لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروهاً أن يناله فذلك في معنى العجز وله أربعة أحوال:

الحالة الأولى: أن يعلم أنه لا ينفع كلامه، ويُضرب إن تكلم فلا يجب عليه الاحتساب، نعم يلزمه ألا يحضر مواضع المنكر، ويعتزل في بيته حتى لا يشاهده، ولا يخرج إلا في حاجة مهمة، أو قضاء واجب، ولا يلزمه مفارقة تلك البلدة إلا إذا كان يرهق إلى الفساد، ويحمل على مساعدة السلاطين في الظلم والمنكرات، فتلزمه الهجرة عندها إن قدر عليها فإن الإكراه لا يكون عذراً في حق من يقدر على الهروب من الإكراه.

الحالة الثانية: أن يعلم أن المنكر يترك بقوله أو بفعله ولا يناله مكروه فيجب عليه الإنكار؛ لأن هذه هي القدرة المطلقة.

الحالة الثالثة: أن يعلم أنه لا يفيده إنكاره لكنه لا يخاف مكروهاً فلا يجب عليه الاحتساب لعدم فائدتها ولكن يستحب ذلك لإظهار شعائر الإسلام وتذكير الناس بأمر الدين.

الحالة الرابعة: عكس هذا وذلك أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله مثل أن يريق خمراً أو يكسر عوداً فيرجع إليه صاحبه فيضربه فهذا ليس بواجب ولا بحرام بل مستحب ويدل عليه الحديث الوارد في فضل كلمة حق عند إمام جائر.

وقد روي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: سمعت كلاماً من بعض الخلفاء فأردت أن أنكر عليه، وعلمت أني أمثل ولا يمنعني القتل ولكن كان في ملأ من الناس فخشيت أن يعتريني التزين للخلق فاقتل من غير إخلاص في الفعل.

وعلى هذا / المعنى قتل عروة بن جدير أخو أبي بلال رحمه الله وعمروس بن فتح [١٦٥/ب] رحمه الله، وغيرهم من المسلمين رحمهم الله فيما بلغنا.

فإن قيل فما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1] قلنا: لا خلاف في أن المسلم الواحد له أن يهجم على صف الكفار ويقاتل وإن علم أنه يقتله، وذلك أنه يكسر

(١) سورة البقرة الآية: ١٩٥.

قلوب الكفار بمشاهدتهم جرأته، واعتقادهم في سائر المسلمين قلة المبالاات وحبهم الشهادة في سبيل الله فيكسر بذلك شوكتهم.

وأما معنى الآية: فقد روي عن ابن عباس أنه قال: الهلكة ترك النفقة في طاعة الله تعالى.

وعن البراء بن عازب أنه قال: التهلكة أن يذنب الإنسان ذنباً فييأس من التوبة. وقيل: هو أن يقعد عن الجهاد. وقيل: هو أن يذنب ثم لا يعمل بعده خيراً حتى يهلك. وإذا جاز للإنسان أن يقاتل الكفار حتى يقتل، جاز أيضاً ذلك في الاحتساب، ولكن لو يعلم أنه لا نكاية لهجومه على الكفار كالأعمى يطرح نفسه على الصف فذلك حرام وداخل تحت عموم آية التهلكة.

وكذلك المحتسب إنما يجوز له بل ويستحب أن يعرض نفسه للضرب والقتل، إذا كان لاحتسابه تأثيراً في دفع المنكرات، وفي كسر جاه الفاسق أو في تقوية قلوب أهل الدين، وأما إن رأى فاسقاً معه سيف وفي يده قدح خمر وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القدح وضرب رقبته، فهذا مما لا أرى للاحتساب فيه وجهاً، وهو عين الإهلاك. فإن المقصود أن يؤثر في الدين أثراً ويفديه بنفسه، فأما تعريض النفس للهلاك من غير أثر فلا وجه له في الدين بل ينبغي أن يكون هذا حراماً. فإن قيل: فما حد الأذى الذي يترك المنكر لأجله؟ قلنا: ينحصر ذلك في أربعة أشياء: في البدن والمال والعرض والأقارب.

أما البدن: فلا يلزمه الاحتساب إذا كان يعلم أنه يقتل، أو تقطع أطرافه، أو يجرح، [١٦٦/أ] / أو يضرب ضرباً مؤلماً، وإن كان يستحب له ذلك كما تقدم.

وأما المال: فإذا كان يعلم أن داره تنهب أو ثيابه تخلب أو يسعى به من أجل ذلك إلى سلطان يقتله؛ فإنه يسقط عنه الوجوب ويبقى الاستحباب إذ لا بأس أن يفدي دينه بدنياه، ولكل واحد من الضرب والنهب حد في القلة والكثرة، إذ لا يكترث بالحبة من المال واللطمة الخفيفة.

وأما العرض: فيخاف أن يهتك منه من أجل الإنكار شيئان:

أحدهما زوال جاهه: بأن يطرح حبل في عنقه ويدار به في البلد، أو يسود وجهه كل، وذلك من غير ضرب وهذا قادح في الجاه مؤلم للقلب. فهذا ربما يرخص له في السكوت؛ لأن المروءة مأمور بحفظها في الشرع، وهذا يؤلم القلب ألماً يزيد على ضربات معدودة، وفوت دريهمات قليلة.

والثاني خوف زوال فضلات الجاه: بأن يتعرض للسب في حضرته بالتجهيل والتحميق، والنسبة إلى الرياء والنفاق، أو في غيبته بأنواع الشتم والافتراء عليه، والغيبة فهذا لا يسقط الوجوب إذ لو كان يترك الاحتساب بلوم لائم، أو باغتياب فاسق أو بسقوط المنزلة من قلبه لم يكن لوجوب إنكار المنكر أصل ثابت، إذ لا ينفك كل من ينكر المنكر عن مثل هذا الأذى، وقد قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾[1]. اللهم إلا إن كان المنكر اغتياب مسلم، وعلم أنه لو أنكر عليه لم يسكت بل يغتابه هو أيضاً ويشتمه فربما لا يجب عليه الإنكار؛ لأن ذلك سببٌ لزيادة المعصية، لأن غيبته هو أيضاً معصية في حق المغتاب، ولكن يستحب له أن يفدي عرض أخيه المسلم بعرض نفسه على سبيل الإيثار.

وقد دلت الآيات والأخبار على تأكيد وجوب الاحتساب، وعظم الخطر في السكوت عنها، فلا يقابله إلا ما عظم في الدين خطره والبدن والمال والمروءة قد ظهر في الشرع خطرها. وأما فضلات الجاه ودرجات / التجمل وطلب ثناء الخلق، وجر المنافع فكل ذلك لا [١٦٧/ب] خطر له.

وأما الأقارب: فيخاف على أولاده وسائر أرحامه أن يضربوا وتنهب أموالهم إن أنكر المنكر فهذا الله به أعلم ولعله لا يجب عليه الإنكار؛ لأنه دفع منكر يفضي إلى منكر أعظم منه، وإن كان لا ينالهم الأذى في النفس، والمال، ولكن بالشتم والسب، فهذا فيه نظر ويختلف ذلك بدرجات المنكر، ودرجات الكلام والشتم المحذور في نكاية القلب والله أعلم. واعلم أن صاحب المنكر لا يخلو من ثلاثة أحوال:

الأولى: أن يكون قد فرغ من المنكرة ومفارقة المعصية فيجب عليه الحد والتعزير والنكال، وذلك إلى الأئمة والسلاطين لا إلى آحاد الرعية.

الثانية: أن يكون مباشر للمنكر بفعله كلبسه الحرير، وإمساكه العود وشربه الخمر، فإبطال هذه المناكر واجب بكل ما يمكن ما لم تؤد إلى منكر أفحش منه، وذلك يثبت للآحاد والرعية ذكراناً كانوا أو إناثاً، أحراراً أو عبيداً مع القدرة على إزالته.

الثالثة: أن يكون مهيئاً للمنكر كمن يزين المجلس ويجمع الرياحين لشرب الخمر ولم يحضر الخمر فهذا مشكوك فيه، وربما يعوق عنه عائق فلا يثبت للآحاد ولا للسلاطين سلطنة على العازم على شرب الخمر إلا من طريق الوعظ والنصح دون الضرب والتعنيف، إلا إذا

---

(١) سورة لقمان الآية: ١٧.

كانت تلك المعصية معلومة منه بالعادة: كوقوف الشبان على أبواب حمامات النساء للنظر إليهن، أو خلوة بعضهم، أو كلهم بالنساء الأجنبيات، فهؤلاء يجب أن يمنعوا من الوقوف، ويفرق بينهم وبين النساء بالتعنيف والضرب؛ لأن ذلك منهم معصية وتنجر إلى أعظم منها، وكذلك اختلاط النساء بالرجال في الأسواق معصية يجب المنع منها والله أعلم.

الركن الثاني فيما فيه الاحتساب: وهو كل منكر موجود في الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم / كونه منكراً بغير اجتهاد. فهذه أربعة شروط: [١٦٨/أ]

الأول: كونه منكراً ونعني به محذور الوقوع في الشرع منهياً عنه، ويدخل في لفظ المنكر كل ما ينكره العقل من صغير أو كبير ورد الشرع بالنهي عن فعله.

الثاني: أن يكون موجوداً في الحال، إذ لا يحتسب على من فرغ من شرب الخمر إلا بالنهي عن العودة إليها هذا في حق الآحاد. وأما السلطان فيجب عليه إقامة الحد عليه إذا صح ذلك من حاله. وإن أنكر عزمه عليه ولم تكن له علامة لم يجز وعظه بذلك؛ لأن ذلك تهمة وسوء ظن بالمسلم وإن بعض الظن إثم.

الثالث: أن يكون المنكر ظاهراً من غير تجسس؛ لأن كل من ستر معصية في داره وأغلق بابه فلا يجوز أن يتجسس عليه. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾[(١)] الآية.

وعن عبد الرحمٰن بن عوف رحمه الله قال: حرست مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة بالمدينة، فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج، فلما دنونا منه إذا باب مغلوق على أقوام لهم أصوات ولغط فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شُرَّب فما تراه؟ قلت: أرى أنّا قد أتينا ما نهى الله عنه فرجع عمر وتركهم.

وروي عن عمر أيضاً أنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه. فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت عصيت الله من وجه فقد عصيته من ثلاثة أوجه قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾[(٢)]. وقد تجسست، وقال: ﴿وأْتُوا البُيوت مِنْ أبْوَابِها﴾[(٣)].

وقد تسورت من السطح، وقال: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا

---

(١) سورة الحجرات الآية: ١٢.
(٢) سورة الحجرات الآية: ١٢.
(٣) سورة الآية:

عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[1]. وما سلمت فتركه عمر وشرط عليه التوبة.

وكذلك ما روي أن عمر قال لعبد الرحمن بن عوف رحمه الله ذات ليلة: اغد عليّ بقوم ورآهـم على حالة مكروهة، فلما رجع عبد الرحمن إلى بيته سألته امرأته: لما بطأ عنها فأخبرها بقول / عمر. فقالت: أما يكفي أمير المؤمنين ما يرفع إليه حتى يطلب الناس يحكم عليهم.[١٦٩/ب] فأخبر عبد الرحمٰن عمر بذلك فقال: أبصرت شيئاً عمينا عنه. ولذلك شاور عمر الصحابة رضي الله عنهم وهو على المنبر وسألهم عن الإمام إذا شاهد منكراً بنفسه هل له إقامة الحد؟ فقال علي: إن ذلك منوط بعدلين فلا يكفي فيه والله أعلم.

وأما إذا ظهر المنكر من البيت أو الدار ظهوراً يعرفه من هو خارج الدار: كأصوات المزامير، والملاهي، وأصوات السكارى، والكلمات المألوفات منهم فله دخول الدار وكسر الملاهي؛ لأنّا قد أمرنا أن نستر ما ستر الله وننكر على من أبدى لنا صفحته.

والإيذاء له درجة فتارة يبدو لنا بحاسة السمع، وتارة بحاسة البصر، وتارة بحاسة الشم، بل المراد العلم وهذه الحواس تفيد العلم، ومعنى التجسس طلب العلامات المعرّفة، فإذا حصلت وأورثت المعرفة جاز العمل بمقتضاها، وأما أن يبحث على العلامات المعرّفة فلا رخصة فيه أصلاً إلا من دخل مداخل السوء وظهرت عليه علامة السوء فلا تباعة على من اتهمه.

الثالث: أن يكون منكراً معلوماً بغير اجتهاد، إذ لا ينكر على المجتهدين فيما خالف فيه بعضهم بعضاً في مسائل الفروع. وأما ما اختلفوا فيه من أصول الديانات مثل: مسألة الرؤية، وقدم الكلام، وإثبات الجسمية، والصورة لله سبحانه، وغير ذلك مما يطول ذكره فيجب على المسلمين إنكار ذلك على المخالفين في جميع ما احدثوه من البدع التي لا يجوز إعتقاده، ولا الدنيوية بها، وبالجملة فالاحتساب على أهل البدع أهم من الاحتساب على أهل المنكرات، لكن إنما يتم ذلك بالسلطان العادل، لأن إنكار الآحاد والعوام في ذلك ينجر إلى تحريك فتنة، لأن أهل الحق مبتدعون / عنه مخالفيهم كما هم عند المسلمين مبتدعون وكل يزعم أنه محق [١٧٠/ب] والله أعلم.

الركن الثالث: المحتسب عليه، وشرطه أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع في حقه منكراً، وعسى يكفي فيه أن يكون إنساناً ولا يشترط أن يكون مكلفاً؛ لأن الصبي والمجنون يمنعان عن الزنا وشرب الخمر وأنواع الفساد.

---

(١) سورة النور الآية: ٢٧.

فإن قيل: فاكتف إذاً بكونه حيواناً، فإن البهيمة تمنع من إفساد الزرع كما يمنع المجنون من الزنا. قيل له: إن تسمية منع البهيمة حسبة لا وجه له، إذ الحسبة عبارة عن المنع عن المنكر لحق الله تعالى صيانةً للممنوع من مقارفة المنكر، ومنع البهيمة عن الإفساد إنما هو راجع إلى حفظ مال المسلم، ومنع المجنون والصبي عن الزنى وإتيان البهيمة وشرب الخمر صيانة وتنزيه له من حديث أنه إنسان وعلى هذا المعنى لا تمنع البهيمة عن أكل الميتات والأنجاس وقد اختلف في ذلك والله أعلم.

فإن قال: فكل من رأى بهيمة في زرع إنسان هل يجب عليه إخراجها؟ أو رأى مالاً للمسلم قد أشرف على الضياع هل يجب عليه حفظه؟ فإن قلتم: يجب عليه ذلك فهذا تكليف شطط يؤدي إلى أن يصير الإنسان طول عمره مسخراً لغيره، فإن قلتم: لا يجب فلم يجب الاحتساب على من يغصب مال غيره وليس له سبب إلا مراعاة مال غيره. قيل له: مهما قدر على حفظه من الضياع من غير أن يناله تعب في بدنه، أو خسران في ماله، أو نقصان في جاهه وجب عليه ذلك وهو أقل درجات حقوق المسلم؛ لأنه لا خلاف في أن مال المسلم إذا كان يضيع بظلم ظالم، وقدر على حفظه عليه بشهادة له عنده يتكلم بها وجب عليه ذلك وعصى بكتمان الشهادة، ففي معنى ترك الشهادة ترك كل دفع لا ضرر على الدافع فيه.

وأما إن كان يلحقه التعب والضرر في حفظه فلا يجب عليه ذلك، كما أنه لا يجب عليه السفر / في أداء الشهادة ويجب عليه الإقامة بها فيما دون ستة أميال، إذ ليس فيه ضرر وكثرة تعب. [١٧١/أ]

وقد اختلف الفقهاء في التقاط اللقطة هل هو واجب أم لا؟ والحق في ذلك أنه إن كانت اللقطة في موضع لا تضيع فيه بل يلتقطها من يعرف بها، يتركها: مثل مدرسة أو مسجد أهله كلهم أمناء فلا يلزمه الالتقاط، وإن كانت في موضع تضيع فيه نظر فإن كان عليه كثرة تعب في حفظها كبهيمة تحتاج علف وصيانة بيت فلا يلزمه ذلك، وإن كان ذهباً أو ثوباً لا ضرر عليه فيه ولا تعب إلا مجرد تعب التعريف فهذا ينبغي له أن يحفظه؛ لأنه ليس فيه كثير تعب، بل إنما هو بمنزلة تعب الشاهد في حضور مجلس الحكم والله أعلم.

الركن الرابع: في نفس الاحتساب وله درجات وآداب: أما الدرجات فأولها التعرف ثم التعريف ثم النهي ثم الوعظ والنصح والسب والتعنيف، ثم التغيير باليد ثم التهديد بالضرب، ثم إيقاع الضرب، ثم شهر السلاح. ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود.

أما الدرجة الأولى: وهو التعرف ونعني به طلب المعرفة بجريان المنكر وذلك منهي عنه وهو التجسس الذي ذكرناه، فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الملاهي، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر، ولا يمس ما في ثوب إنسان ليعرف شكل المزمار، ولا أن يستخبر جيرانه عن ذلك، نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار أن المنكر في دار فلان فله أن يدخل إلى إنكاره بغير استئذان كما أنه يضرب رأسه ليقمعه عن ظلم غيره من غير إذنه.
وأما إن أخبره عدل واحد أو من لا تقوم به الحجة فالأولى أن يمتنع عن الدخول إلا بالإذن، ولا يسقط حق الاستئذان الثابت إلا بعدلين أو إشهار وقد قيل أنه نقش خاتم / لقمان عليه [١٧٢/ب] السلام: الستر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت.

الدرجة الثانية: التعريف وذلك مثل من لا يحسن الركوع والسجود جهلاً منه بشروط الصلاة، فينبغي أن يعرف ذلك باللطف فيقال له: إن الإنسان لا يولد عالماً، وقد كنا جهالاً فعلّمنا العلماء، ولعل قريتك خالية عن أهل العلم أو عالمها مقصر في شرح الصلاة، وإنما شرط الصلاة الطمأنية في الركوع والسجود.

كذلك يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء له بالنسبة إلى الجهل والحمق، فإن إيذاء المسلم حرام، وليس من العقلاء من يغسل النجس بالنجس، ومن أزال معرة الجهل، فالإذن للمسلم مع الاستغناء عنه فقد غسل النجس بالنجس على الحقيقة. وأما الخطأ في غير الدين فلا ينبغي أن يرده عليه فإنه يستفيد منك علماً ويصير لك عدواً إلاّ إذا علمت أنه يغتنم العلم وذلك عزيز جداً.

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله، وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً، أو أصر عليه بعد أن عرف أنه منكر كالذي يواظب على الشرب، أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين وأشباه ذلك فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى ويورد عليه الآيات والأخبار الواردة في ذلك، وكل ذلك بشفقة عليه من غير عنف بل ينظر إليه بعين الرحمة، وهاهنا آفة مهلكة فليتق فيها الجهل. فإن كان الباعث هذا فهو منكر، أقبح من المنكر الذي ينكر على من يتعاطاه؛ لأن النفس في الاحتكام على الغير لذة عظيمة من جهة العلم، وذلك يرجع إلى الرياء وهي الشهوة الخفية الداعية إلى الشرك الخفي وله محك / ومعيار ينبغي [١٧٣/ب] أن يمتحن به المحتسب نفسه، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه، أو باحتساب غيره أحب إليه من امتناعه باحتسابه، فإن كانت الحسبة ثقيلة عليه فليحتسب، فإن باعثه هو الدين، وإن كان غير ذلك فليتق الله وليحتسب أولاً على نفسه. وعند هذا يقال له ما

قيل لعيسى ابن مريم عليه السلام: عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني.

وقيل لداود الطائي: أرأيت رجلاً دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ قال: أخاف عليه السوط. قيل له: إنه يقوى عليه. قال: أخاف عليه السيف. قيل له: إنه يقوى عليه. قال: أخاف عليه الداء الدفين وهو العجب.

ومثال المحتسب على غيره رياء، أو عجباً مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو غاية الجهل وهذه منزلة عظيمة إلا من عرفه الله تعالى عيوب نفسه، وفتح بصيرته بنور هدايته والله أعلم[1].

الدرجة الرابعة: السب والتعنيف بالقول الغليظ، وذلك عند العجز عن المنع وظهور استهزائه بالوعظ، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2]. ولا يسبه بالفحش والكذب. ولكن يقول له: يا فاسق، يا عدو الله، يا أحمق، يا جاهل في إمساك هذا إذا كان أهلاً لذلك، وليقتصر على قدر الحاجة، فإن خاف من هذا فليقتصر على ظهار الغضب والاستحقار له لأجل المعصية والاكفهرار في وجهه والهجران، فإن خاف فلينكر بقلبه مع الاجتناب له والله أعلم[3].

الدرجة الخامسة: التغيير باليد، وذلك ككره الملاهي وإراقة الخمر، وخلع الحرير عن رأسه وبدنه، ومنعه من الجلوس عليه ودفعه عن مال الغير، وإخراجه من الدار المغصوبة، ومن المسجد إذا جلس فيه وهو جنب وما يجري مجراه ويتصور ذلك في بعض المعاصي دون [١٧٤/أ] / البعض.

وأما معاصي اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها باليد، وإذا قدر أن يكلفه كسر الملاهي وإراقة الخمسر بنفسه، فلا يباشر التغيير بيده، وكذلك الخروج من الدار المغصوبة ومن المسجد فلا ينبغي أن يجره أو يدفعه إذا كان يخرج بنفسه. وإن باشر ذلك بنفسه فليقتصر على القدر المحتاج إليه، وهو أن لا يأخذه بلحيته ولا برجله في حال الإخراج إذا قدر على جره بيده؛ فإن زيادة الأذى مستغنى عنه، وإن كان لا يصل إلى إراقة الخمر إلا بكسر الغلال

---

(١) ما جاء في هذا الباب بمعناه من كتاب الإمام الغزالي الإحياء طبعة دار إحياء الكتب العربية. كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) سورة الأنبياء الآية: ٦٧.

(٣) ما جاء في هذه الدرجة جاء بمعناه في الإحياء الجزء الثاني طبعة دار إحياء الكتب العربية. كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

التي هي فيها فليكسرها، وكذلك إن حيل بينه وبينها فليرمها بحجر يكسرها به، ولو سترها بيده فليضربها حتى يرفعها ليصل إلى إراقة الخمر، والله أعلم. ولو أريقت الخمر أولاً لكان لا يجوز كسر أوانيها؛ لأنها إتلاف مال إلا أن تكون لا تصلح إلا للخمر فلا بأس بكسرها والله أعلم[١].

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف كقوله: دع عنك هذا أو لأكسرن رأسك، أو لأفعلن بك كذا وكذا، وما أشبه هذا، وهذا لا ينبغي أن يقدم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه، ولا يهدده بما لا يجوز كقوله: لأنهبن دارك، أو لأضربن ولدك، أو لأسبن زوجتك وما يجري مجراه فإنه إن قال ذلك عن عزم فهو حرام، وإن قاله عن غير عزم فهو كذب.

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرجل، وغير ذلك مما ليس فيه إشهار السلاح؛ وذلك جائز للآحاد في دفع المنكر، وإن كان لا بد من إشهار السلاح فله أن يتعاطاه كما لو قبض فاسق مثلاً على امرأة، أو يشرب خمراً أو يضرب مزماراً أو بينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع فيقول: خل عنها أو لأرمينك بسهم، أو يسل سيفاً فيقول: اترك هذا المنكر أو لأضربنك، ولا يقصد القتل لكن الساق والفخذ، وكل ذلك دفع للمنكر ودفعه واجب بكل ممكن / ولا فرق في ذلك بين ما يتعلق بحق الله وبين ما يتعلق بحق الآدميين والله أعلم. [١٧٥/ب]

الدرجة الثامنة: أن لا يقدر على دفع المنكر بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوان يشهرون السلاح، وربما يستمد الفاسق أيضاً بأعوان فيتقابل الصفان ويتقابلان فيجوز للآحاد قتال أهل المنكر وأعوانه على ذلك دفعاً للمنكر، وذلك غير كبير في رضاء الله تعالى، ودفع معاصيه فإن قتل المحتسب على ذلك مظلوماً فهو شهيد إذا كان محقاً والله أعلم.

وأما آداب المحتسب فجميع مصدرها من ثلاث صفات في المحتسب وهي: العلم والورع وحسن الخلق.

أما العلم: فليعلم مواقع الاحتساب وحدودها ومجاريها لئلا يجعل المنكر معروفاً والمعروف منكراً، وليقتصر على حد التسرع فيها ولا يغضب لله عز وجل أكثر مما يغضب لنفسه في كتابه، وغضب له رسوله في سنته وحدة المسلمون من بعده.

وأما الورع فليكفه من مخالفة علمه فما كل من عمل بعلمه، بل ربما يعلم أنه مسرف في الاحتساب، وزاد على الحد المأذون فيه شرعاً، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض وليكن

---

(١) ما جاء في هذا الباب منقول بمعناه من كتاب الإمام الغزالي ـ إحياء علوم الدين ـ الجزء الثاني كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طبعة ـ دار إحياء الكتب العربية.

كلامه ووعظه مقبولاً، فإن الفاسق يهزأ به إذا احتسب فيورث بذلك جرأة وإصرار ولسنا نعني بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعاً بالفسق ولكن يسقط أثره عن اللوب لظهور فسقه للناس.

وقد روي عن أنس أن النبي ﷺ قيل له: لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله، ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله. فقال ﷺ: «بل أمروا بالمعروف، وإن لم تعملوا به كله وانهوا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله»[1]. ولكن الفرض عليه الائتمار بالمعروف قبل الأمر به لئلا يدخل في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[2].

[١/١٧٦] وعن الحسن أنه قال: إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكن ممن أخذ/ الناس به وإلا هلكت. ولذلك قيل:

لا تلـم المـرء علـى فعلـه ... وأنـت منسـوب إلـى مثلـه
مـن ذم شيئـاً وأتـى مثلـه ... فـإنمـا يـزري علـى عقلـه

وأما حسن الخلق: فليتمكن من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأساسه، والعلم والورع لا يكفي فيه وإذا هاج الغضب لا يقمعه مجردهما ما لم يكن في الطبع قبول له بحسن الخلق، وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق، والقدرة على ضبط الغضب والشهوة وبه يصير المحتسب على ما أصابه في ذات الله وإلا فإذا أصيب عرضه أو نفسه بشتم أو ضرب نسي الاحتساب وغفل عن دين الله وغضب لنفسه.

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «لا يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهي عنه، حليم فيما يأمر به حليم فيما ينهي عنه، فقيه فيما يأمر به فقيه فيما ينهي عنه»[3].

وهذا يدل على أنه لا يشترط أن يكون فقيهاً مطلقاً بل فيما يأمر به وينهي عنه وكذا الحلم. قال: وأوصى بعض السلف بنيه فقال: إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر وليثق بالثواب من عند الله تعالى فمن وثق بالثواب من عند الله لم يجد مس الأذى. فإذن من آداب الاحتساب توطين النفس على الصبر، ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني رواه الطبراني في المعجم الصغير والأوسط وفيه عبد القدوس بن حبيب أجمعوا على تركه.

(٢) سورة البقرة الآية: ٤٤.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: لم أجده هكذا وللبيهقي في الشُعب من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف.

بالمعروف فقال مخبراً عن لقمان عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾[(١)].

ومن الآداب تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه وقطع الطمع عن الخلائق حتى يزيل عنه المداهنة.

فقد روي عن بعض أشياخ السلف: كان له سنور وكان يأخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئاً من القدد لسنوره فرأى على القصاب / منكراً، فدخل الدار أولاً وأخرج السنور ثم جاء [١٧٧/ب] واحتسب على القصاب، فقال له القصاب: لا أعطيك بعد هذا شيئاً لسنورك. فقال: ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك. وهو كما قال وإن لم يقطع الطمع من الخلق لم يقدر على الاحتساب، ومن طمع في أن تكون قلوب الناس له طيبة، وألسنتهم بالثناء عليه منطلقة لم يتيسر له الاحتساب.

وقد قال كعب لأبي مسلم الخولاني: كيف منزلتك بين قومك؟ قال: حسنة. قال: إن التوراة تقول أن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه. قال أبو مسلم: صدقت التوراة وكذب أبو مسلم.

وقال بعض العلماء: إذا رأيتم القارىء محبباً إلى جيرانه فاعلم أنه مداهن؛ لأن الحق صعب قبوله مر مذاقه، قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[(٢)]. وقال: ﴿وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾[(٣)].

وعن أبي ذر رحمه الله أنه قال: تركني الحق وما لي من صاحب. ويدل على وجوب الرفق ما استدل به المأمون إذ وعظه واعظ وعنف له في القول فقال: يا رجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[(٤)]. فليكن اقتداء المحتسب بالأنبياء عليهم السلام، قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[(٥)].

وقد روي عن أبي أمامة: أن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أتأذن لي في

---

(١) سورة لقمان الآية: ١٧.
(٢) سورة المؤمنون الآية: ٧٠.
(٣) سورة الأعراف الاية: ٧٩.
(٤) سورة طه الآية: ٤٤.
(٥) سورة النحل الآية: ١٢٥.

الزنا؟ فصاح الناس به فقال ﷺ: «أقربوه[١]، ادن». فدنى حتى جلس بين يديه ﷺ فقال له: «أتحبه لأمك»؟ فقال: لا، جعلني الله فداءك. فقال: «كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك»؟ فقال: لا، جعلني الله فداءك. قال: «كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك»؟[٢].

[١٧٨/أ] وزاد / الراوي أنه ذكر العمة والخالة وهو يقول كل ذلك: لا جعلني الله فداءك وهو ﷺ يقول: «كذلك الناس لا يحبونه».

قالت الرواة: فوضع عليه السلام يده على صدره وقال: «اللهم طهر قلبه وحصن فرجه». فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا.

وعن حماد بن سلمة قال: إن صلة ابن أشيم مر عليه رجل وقد أسبل إزاره، فَهَم أصحابه أن يأخذوه بشدة فقال: دعوني أنا أكفيكم. فقال: يا ابن أخي إن لي إليك حاجة. فقال: وما حاجتك يا عم؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك. قال: نعم وكرامة، فرفع من إزاره. فقال لأصحابه: لو أخذتموه بشدة فقال: لا ولا كرامة وشتمكم.

وحكايات السلف في مثل هذا كثيرة كالذي جرى لأبي الحر علي بن الحصين الحضرمي رحمه الله مع الغلام الذي يلازم مجلسه، ثم بعد ذلك أبطأ عنه فأخذ في البطالة والسفه حتى رده أبو الحر إلى مجلسه بلطف وتألف في حديث فيه طول، وكما جرى له أيضاً مع الفتى الذي خانه في قطعة من الذهب، وغير ذلك مما لو نقلناه[٣] لطال الكتاب. ولذلك قيل: المؤمن يأمر وينهي بالسياسة فيصلح، والمنافق يأمر وينهي بالرئاسة فيطلح.

وفي الحديث: «ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا دخل الخرق في شيء إلا شانه». ويكون القصد في جميع ما ذكرناه في هذا الباب الذب عن دين الله ودفع المنكر غضباً لله وطلباً لثوابه والدعاء إليه خالصاً لوجهه لا لطلب جاه ولا رياء ولا سمعة.

فهذه الأبيات التي ذكرناها، بها يصير الاحتساب من القربات وبها دفع المنكرات، فإن

---

(١) جاءت بالأصل «اقروه». والتصويب من التحفة.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أحمد بإسناد جيد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) هذا تصريح من المؤلف بالنقل وهذا النقل من كتب عديدة ومنها كتاب الإحياء للإمام الغزالي وإن كان صرح بذلك في أماكن أخرى من الكتاب ونقله هذا هند ما يختصره يكون الاختصار مخلاً للمعنى في غالب الأمر.

فقدت لم يندفع المنكر بل ربما صار الاحتساب منكراً لمجاوزته حد الشرع فيها وبالله التوفيق.

الباب الرابع
في المنكرات المألوفة في العادات

ونحن ننقل[١] جملاً منها ليستدل بها على أمثالها إذْ لا مطمع في حصرها / واستقصائها. فمن ذلك منكرات المساجد. [١٧٩/ب]

اعلم أن المنكرات تنقسم إلى: مكروهة، وإلى محظورة. فإذا قلنا هذا منكر مكروه فاعلم أن المنع منه مستحب، والسكوت عليه مكروه وليس بحرام إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب عليه عند بعضهم ذكره، لأن الكراهة حكمها في الشرع يجب تبليغه إلا من لا يعرفه. وإذا قلنا: منكراً محظوراً، أو قلنا: منكراً مطلقاً فنريد به المحظور فيكون السكوت عليه مع القدرة محرماً محذوراً، فممّا يشاهد كثيراً في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود، أو نقرها نقر الديك والالتفات، وكذلك ما يقدح في الصلاة من نجاسة الثوب، أو انحراف عن القبلة في الظلام، أو اللحان الذي يبطل الصلاة في القراءة، أو مسابقة الإمام في التكبير أو الركوع، أو السجود؛ فكل ذلك منكر يجب التنبيه عليه.

ومنها أن يكون الخطيب لابساً لثوب أسود يغلب عليه الإبريسم، أو ممسكاً بسيف مذهب فهو فاسق، والإنكار عليه واجب. ومنها كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم البدعة فلا يجوز حضور مجلسه إلاّ على قصد إظهار الرد عليه إن قدر على ذلك وإلاّ فلا يجوز سماع البدعة.

قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[٢]. ومهما كان كلامه مائلاً إلى الإرجاء وتجريه الناس على المعاصي فهو منكر يجب منعه؛ لأن فساد ذلك عظيم بل رجح خوفهم على رجائهم فذلك أليق وأقرب بطباع الخلق؛ فإنهم إلى الخوف أحوج وإنما العدل تعديل الخوف والرجاء.

كما قال عمر رضي الله عنه: لو نادى مناد يوم القيامة ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً

---

(١) هذا التصريح بالنقل منصرف إلى النقل من كتاب الإمام الغزالي ـ إحياء علوم الدين ـ الجزء الثاني كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ طبعة دار إحياء الكتب العربية.

(٢) سورة الأنعام الآية: ٦٨.

واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نادى منادٍ ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك / الرجل. ومهما كان الواعظ شاباً متزيناً للنساء في ثيابه وهيئته، وقد [١٨٠/أ] حضرت مجلسه فهذا منكر يجب منعه؛ لأن الفساد فيه أكثر من الصلاح، بل ينبغي أن يسلم الوعظ إلا لمن ظاهره الورع، وهيئته السكينة والوقار، وزيّه زي الصالحين، وإلا فلا يزداد الناس به إلا تمادياً في الضلال ويجب أن يكون بين النساء والرجال حائل يمنع من النظر. فإن ذلك أيضاً مظنه الفساد، والعادات تشهد بهذه المنكرات، ويجب منع النساء من حضور المساجد للصلاة ومجالس الذكر إذا خيفت الفتنة فقد منعتهن عائشة رضي الله عنها فقيل لها: إن رسول الله ﷺ ما منعهن من الجماعات. فقالت: لو علم رسول الله ما أحدث النساء بعده لمنعهن.

وأما اجتياز المرأة بالمسجد مستترة فلا تمنع منه، إلا أن الأولى أن لا تتخذ المسجد طريقاً أصلاً وقراءة القراء بين يدي الواعظ مع التمديد والألحان على وجه بغير نظم القرآن، ويجاوز حد الترتيل منكر مكروه شديد الكراهة أنكره جماعة من السلف.

ومنها: الحلق يوم الجمعة لبيع الأطعمة والأدوية والتعويذات وقيام السؤال وقراءتهم للأشعار، وما يجري مجراه فهذه الأشياء منها ما هو حرام لكونه تلبيساً وكذباً كالكذابين من الأطباء وأصحاب التعويذات؛ لأنهم في الأغلب يتوصلون إلى بيعها بالتلبيس على الصبيان فهذا حرام في المسجد وغيره، ويجب المنع منه، بل كل بيع فيه كذب وتلبيس وإخفاء عيب عن المشتري فهو حرام، ومنها ما هو مباح خارج المسجد كالخياطة وبيع الأدوية والكتب والأطعمة فهذا أيضاً في المسجد لا يحرم إلا بعارض. وذلك بأن يضيق المكان على المصلين ويشوش عليهم صلاتهم لكن الأولى تركه وإن كان ولا بد / ففي أوقات نادرة؛ لأنه حرام أن يتخذ [١٨١/أ] المسجد موضعاً للبيع والشراء؛ لأن من المباحات ما يباح بشرط القلة فإن كثر صار صغيرة كما أن من الذنوب ما يكون صغيرة بشرط عدم الإصرار.

ومنها دخول المجانين والصبيان والسكارى في المسجد لكن الصبي إذ لم يلعب فلا بأس بدخوله المسجد.

وأما المجانين: فلا تأثير لدخولهم في المسجد إلا أن يصدر منهم منكر كالنطق بالفحش، أو كشف العورة، أو تنجيس المسجد؛ فإن ذلك يجب منعه منه.

والسّكران: في معنى المجنون فإن خيف منه القيء أو الأذى باللسان وجب إخراجه،

والرائحة فاحت منه فهي منكر شديد الكراهية، وكيف لا وقد نهى رسول الله ﷺ من أكل الثوم والبصل عن حضور المسجد ولكن يحمل ذلك على الكراهية والأمر في الخمر أشد؛ فإن إظهار الفاحشة فاحشة.

والمعاصي يجب تركها، وبعد الفعل يجب سترها وستر مآثاره؛ فإن كان مستتراً مخفياً لأثره فلا يجوز أن يتجسس عليه والرائحة قد تفوح من غير شرب بالجلوس في موضع الخمر بوصول الخمر إلى الفم دون الابتلاع فلا ينبغي أن يعول على ذلك.

منكرات الأسواق: ومن المنكرات المعتادة في الأسواق الكذب في المرابحة وإخفاء العيب، فمن قال مثلاً: اشتريت هذه السلعة مثلاً بعشرة وأربح فيها درهماً، وكان كاذباً فهو فاسق وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه، فإن سكت مراعاة القلب كان شريكاً له في الخيانة، وعصى بسكوته. وكذلك إذا علم به عيباً فيلزمه أن يبينه للمشتري وإلا كان راضياً بضياع مال أخيه المسلم وذلك حرام. وكذلك التفاوت في الزراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالي حتى يغيره.

ومنها ترك الإيجاب والقبول / والاكتفاء بالمعاطات، ولكن ذلك في محل الاجتهاد فلا [١٨٢/ب] ينكر إلا على من اعتقد وجوبه. وكذا في الشروط الفاسدة المعتادة بين الناس يجب الإنكار فيها؛ فإنها مفسدة للعقود، وكذلك سائر التصرفات الفاسدة.

ومنها بيع الملاهي وبيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد لأجل الصبيان فذلك يجب كسره والمنع من بيعه كالملاهي. وكذلك الأواني المتخذة من الذهب والفضة وكذلك بيع ثياب الحرير وملابس الذهب التي لا تصلح إلاّ للبس الرجال فكل ذلك منكر حضور، وكذلك من يعتاد بيع الثياب المبتذلة المقصورة التي يلبس على الناس ابتذالها واستعمالها من أجل قصارتها ويزعم أنها جديدة، فهذا الفعل حرام والمنع منه واجب. وكذلك تلبيس انخراق الثوب بالرفق وما يؤدي إلى الالتباس من جميع العقود المؤدية إلى التلبيسات وذلك يطول إحصاؤه وليستدل بما ذكرناه على ما لم نذكره.

منكرات الشوارع: فمن المنكرات المعتادة في الشوارع وضع الأساطين وبناء الدكاكين متصلاً بالأبنية المملوكة، وغرس الأشجار ووضع الخشب وأحمال الأطعمة وغيرها على الطرقات فكل ذلك منكر إن كان يضيق الطريق ويضر بالمارة وإلا فلا منع فيه؛ لأن ذلك يشترك في الحاجة إليه كفاة الناس، وكذلك ربط الدواب على الطريق منكر بحيث يضيق الطريق إلا

بقدر حاجة النزول والركوب؛ وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة التي تراد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات.

ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر، إن أمكن شدها وضمها بحيث لا تمزق الثياب، وأمكن العدول بها إلى موضع واسع وإلاَّ فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك.

[١٨٣/أ] / وكذلك تحميل الدواب من الأجمال ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه. وكذلك ذبح القصاب على باب دكانه وتلويث الطريق بالدم منكر يجب المنع منه. وكذلك طرح الكناسة على الطريق، وتبديد قشور البطيخ، أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق أو السقوط فكل ذلك من المنكرات، وكذلك إرسال الماء من الميزاب المخرجة من الحائط إلى الطريق الضيقة، فإن ذلك ينجس الثياب لضيق الطريق وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذي الناس فيجب منعه منه بل يمنع صاحبه من أن ينام على الطريق أو يقعد قعوداً يضيق الطريق فكلبه أولى بالمنع منه.

منكرات الضيافة: فمن ذلك فرش الحرير للرجال فهو حرام، وكذلك يتخير البخور في مجمرة فضة أو ذهب وكذلك الشرب منها، وكذلك تعليق الستور عليها الصور ومنها سماع الأوتار وسماع القينات.

ومنها اجتماع النساء على السطح للنظر إلى الرجال مهما كان في الرجال شبان تخاف الفتنة منهم فكل ذلك منكر يجب تغييره، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج، ولم يجز له الجلوس فلا رخصة في الجلوس مع مشاهدة المنكرات.

وأما الصور على النمارق والحصر المفروشة، أو على الأطباق والقصاع، فليس منكر إلا الأواني المتخذة على شكل الصور، فإنه لا يجوز، وقد يكون أيضاً بعض رؤوس المحاصر على شكل طائر فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه.

وفي المكحلة الصغيرة من الفضة خلاف ومهما كان الطعام حراماً أو كان الموضع مغصوباً أو كانت الثياب المفروشة حراماً فذلك من أشد المنكرات، وإن كان فيها من يتعاطى شرب الخمر وحده فلا يجوز الحضور إذ لا يحل مجالسة الفاسق في حالة مباشرته الفسق.

[١٨٤/أ] وإنما النظر في مجالسته بعد ذلك، والصحيح أنه يجب بغضه / في الله ومقاطعته، وكذلك إن كان فيهم من لبس الحرير، أو خاتم الذهب فهو فاسق به لا يجوز الجلوس معه من غير ضرورة

فإن كان الثوب على صبي غير بالغ فهذا في محل النظر، والصحيح إن ذلك منكر يجب نزعه عنه كما يجب منع الصبي من شرب الخمر لا لكونه مكلفاً، ولكنه لأنه يأنس به، فإذا بلغ عسر عليه الصبر عنه. نعم يحل التزين للنساء بالذهب والحرير من غير إسراف، ولا أرى رخصة في تثقيب أذن الصبية، لأجل تعليق حلق الذهب فيها، فإن ذلك جرح مؤلم موجب للقصاص، فلا يجوز إلاّ لحاجة مهمة كالفصد والحجامة والختان، والتزين بالحلق غير مهم بل من التفريط تعليقه على الأذن وفي المخانق والأسورة كفاية عنه وإن كان معتاداً فهو حرام والمنع منه واجب والأجرة المأخوذة عليه حرام إلا أن تثبت من جهة النقل فيه رخصة ولم تبلغنا فيه إلى الآن رخصة.

ومنها أن يكون في الضيافة مبتدع فيجوز الحضور لمن يقدر على الرد عليه، وإلا فلا يجوز وإن كان لا يتكلم ببدعته فيجوز الحضور مع إظهار الكراهية له، وإن كان فيها مضحك بحكايات الفواحش والكذب فهو منكر يجب إنكاره، وإن كان يضحك بمزاح لا كذب فيه ولا فحش فما يقل منه فهو مباح. وأما اتخاذه صنعة وعادة فليس بمباح، وكل كذلك لا يخفى أنه كذبه ولا يقصد به التلبيس فليس هو من جملة المنكرات كقول الإنسان مثلاً: طلبتك اليوم مائة مرة وما يجري هذا المجرى مما يعلم أنه ليس يقصد به التحقيق فذلك لا يقدح في العدالة ولا ترد به الشهادة.

ومنها: الإسراف في الإطعام وذلك على وجهين:

أحدهما: صرف المال في أنواع الفساد والمعاصي فهو منكر محظور.

الثاني: إضاعة المال بلا فائدة، وكذلك المبالغة في صرف المال إلى المباحات في حق / المقلين من المال دون المكثرين له. [١٨٥/ب]

مثال ذلك: أن من لم يملك إلا مائة دينار مثلاً وله عيال وأولاد ولا معيشة لهم ولا كسب، فانفق الجميع في وليمة فهو مسرف يجب منعه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾[١].

وفي كتاب الغزالي[٢] قال: انزل هذا في رجل كان بالمدينة قسم جميع ماله ولم يبق شيئاً لعياله، فطولب بالنفقة فلم يقدر على شيء. وأما إن كان وحده ولم يكن له عيال وكانت له قوة

(١) سورة الإسراء الآية: ٢٩.
(٢) ما جاء قبل هذه العبارة منقول من نفس كتاب الغزالي بتصرف قليل ـ إحياء علوم الدين ـ.

في التوكل فلا بأس بإنفاق جميع ماله في سبيل الخير، ولو صرف جميع ماله إلى تزويق الحيطان، وتشييد البنيان لكان إسرافاً محرماً. وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام؛ لأنه كالتجمل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في نفسه وهو يصير إسرافاً باعتبار حال الرجل في قلة ماله وكثرته وأمثال هذه المنكرات لا يمكن حصرها فلنقتصر على هذا القدر منها.

المنكرات العامة: ومن كتاب الغزالي قال: اعلم أن كل قاعد في بيته أين ما كان فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون في شروط الصلاة في البلاد، فكيف في القرى والبوادي؟

قال: وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم وكذا في كل قرية. قال: وواجب على كل فقيه فرغ من فرض نفسه وتفرغ لفرض الكفاية، أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل القرى والبوادي وغيرهم فيعلمهم دينهم وفرائض شرعهم. قال: ويستصحب معه زاد يأكله ولا يأكل من أطعمتهم، فإن كان أكثرها يكون شبهة. قال: فإن قام بهذا الأمر واحد سقط عن الآخرين، وإلاّ عمّ الحرج الكافة أجمعين. أما العَالم فلتقصيره في الخروج، وأما الجاهل فلتقصيره في ترك التعلم. قال: وكل عامي عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرف غيره، وإلا فهو شريك في المأثم ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالماً بالشرع. وإنما [١٨٦/أ] / يجب التبليغ على أهل العلم، وكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم، وكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها، ولعمري الإثم على الفقهاء أشد؛ لأن قدرتهم فيه أظهر وهو بصناعتهم أليق؛ لأن المحترفين لو تركوا حرفهم لبطلت المعائش فهم قد تقلدوا أمراً لا بد منه في صلاح الخلق، وشأن الفقيه وحرفته تبليغ ما بلغه عن رسول الله ﷺ، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وليس للإنسان منهم أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم، وكذلك كل من تيقن أن في السوق منكراً يجريه على الدوام أو في وقت بعينه وهو قادر على تغييره فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت. بل يلزمه الخروج لتغيير ما يقدر عليه ولا يضره مشاهدة ما لا يقدر على تغييره، وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح فحق على كل مسلم أن يبدأ بإصلاح نفسه بالمواظبة على المفروضات وترك المحرمات ثم يعلم ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ثم إلى أهل ملته ثم إلى أهل بلده ثم إلى أهل القرى المحيطة ببلده، ثم إلى أهل البوادي وكذا إلى أقصى العالم، فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد ولا حجر به كل قادر عليه قريباً كان أو بعيداً، ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه

الأرض جاهل لفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى بنفسه ليتعلمه أو يسعى إليه من يعلمه فرضه فهذا حرج شديد وأمر عسير، ولكن لعمري الأمر فيه كما قال؛ لأن العلماء يجب عليهم التبليغ كما يجب على الرسول.

وقال: قال النبي ﷺ عام حجة الوداع في خطبته: «ألا هل بلغت»؟. قالوا: نعم. قال: «اللهمّ فاشهد ألا ليبلغ الشاهد الغائب».

وفي هذا شغل شاغل لمن يهمه /أمر دينه لأن الله سبحانه ما أخذ على الجهال أن [١٨٧/ب] يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا وبالله التوفيق[١].

الباب الخامس
في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

ومن كتاب الغزالي قال: اعلم إن درجات الأمر والنهي قد ذكرناها: ومنها أن التخشين في القول لصاحب المنكر كقولك له: يا ظالم يا من لا يخاف الله وما يجري مجراه.

قال: فذلك إن كان لا يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيرها لم يجز.

قال: وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه، والذي عندي والله أعلم أن ذلك جائز إذا لم يكن قصده إلا إنكار المنكر أو إشهار الحق لعموم الآيات والأخبار في ذلك، وقد لحق المسلمين من عقوبات الجبابرة لأجل خروج أهل ولايتهم عليهم ما لو ذكرناه لطال الكتاب، فلم يمنعهم ذلك عن الخروج عن الجبابرة ولو كان ذلك غير جائز لكان لا يجوز لأحد أن يدفع عن نفسه ولا عن غيره ظلم ظالم إذا كان يخاف أن يعاقب على ذلك غيره بعده.

قال في كتاب الغزالي: ولقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالات بهلاك المهجة والتعرض لأنواع العذاب لعلمهم بأن ذلك شهادة لقوله عليه السلام: «خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك»[٢].

---

(١) ما جاء في هذا الباب بمعناه من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي الجزء الثاني كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد.

وعنه عليه السلام أنه قال: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». قال: ووصف ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: «قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم تركه قوله الحق ما له من صديق»[١]. ولما علم المتصلبون في الدين أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر، وإن صاحب ذلك أن قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار، أقدموا على ذلك موطنين /[١٨٨/أ] أنفسهم على الهلاك، ومحتملين لأنواع العذاب، وصابرين عليه في ذات الله، كالذي جرى للبثجاء، وعروة أخي أبي بلال رحمهما الله مع عبيد الله بن زياد حين سأل البثجاء عن نفسه فقال: إيه ما تشهدين به علي. فقالت: شهد الله عليك ثلاث شهادات وشهادتين تشهدهما لنفسك، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ و﴿ٱلظَّالِمُونَ﴾ و﴿ٱلْفَاسِقُونَ﴾[٢]. وشهادتك أنت أنك في أولك لزينة وفي آخرك لدعوى، فعظ على لحيته، وذلك علامة منه لقتلها، فقتلت بين يدي الفاسق بن زياد على ذلك، وقتل عروة بعد أبي بلال رحمهما الله أيضاً على ذلك وقصتهما مشهورة، وقتل إبراهيم بن أحمد - من مشايخ الإباضية - على ذلك ما شاء الله من العدد.

وفي كتاب الغزالي ويحكى أن حطيطاً الزيات جيء به إلى الحجاج، فلما دخل عليه قال: أنت حطيط؟ قال: نعم سل عما بدا لك فإني عهدت الله عند المقام على خلال إن سُألت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن. قال: فما تقول فيّ؟ قال: أقول إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة. قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قال: إنه أعظم جرماً منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه. فقال الحجاج: ضعوا عليه العذاب. قال: فانتهى به العذاب إلى أن شق له القصب ثم جعلوه على لحمه ثم شدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبه حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئاً. قال: فقيل للحجاج إنه في آخر رمق. فقال: أخرجوه وأمروا به في السوق وقال جعفر: فأتيته أنا وصاحب له فقلنا: حطيطاً ألك حاجة؟ قال: شربة. / فأتوه بها ثم مات، وكان ابن ثمان عشرة. وقتلت [١٨٩/أ] الجبابرة على هذا من المسلمين ممن حضر أجله من لا يحصى كثرة شهادة رزقها الله لهم ومن لم يحضر أجله تكلم بحق الله في وجوههم فجعل الله له مخرجاً من بأسهم. منهم جابر بن زيد

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الترمذي بسند ضعيف مقتصراً على آخر الحديث من حديث علي «رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مراً تركه الحق وما له من صديق» وأما الحديث الأول فرواه الطبراني «أن عمر قال لكعب الأحبار كيف تجد نعتي، قال أجد نعتك قرنا من حديد قال: وما قرن من حديد؟ قال أمير شديد لا تأخذه في الله لومة لائم.

(٢) سورة المائدة الآيات: ٤٤، ٤٥، ٤٧.

حين سأله الحجاج فقال: أخبرني عن أول آية في سورة البقرة؟ قال: تلك في المؤمنين. قال: والثانية؟ قال: تلك في الكفار. قال: والثالثة؟ قال: فيك وفي أصحابك ـ يعني المنافقين. وكذلك أبو عبيدة مسلم رحمه الله مع المأمون حين بعث إليه يسأله واضمر في نفسه قتله إن عجز عن سؤاله، فسلّمه الله من بأسه قصتهما مشهورة.

ومن كتاب الغزالي قال: ويروى أن معاوية حبس العطاء، فقام إليه أبو مسلم الخولاني فقال: يا معاوية إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك. قال: فغضب معاوية ونزل من أعلى المنبر. فقال لهم: مكانكم، فغاب عنهم ساعة ثم خرج عليهم. فقال: إن أبا مسلم كلمني بكلام أغضبني، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار وإنما تطفىء النار بالماء وإذا غضب أحدكم فليغتسل»[1]. وإني دخلت فاغتسلت وصدق أبو مسلم ليس من كدي ولا من كد أبي فهلموا إلى أعطياتكم.

وعن الأصمعي أنه قال: دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره وحواليه الأشراف من كل بطن وهو بمكة فلما بصّر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له: يا أبا محمد حاجتك؟ وقال: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور؛ فإنهم حصن المسلمين وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول / عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك [١٩٠/ب] دونهم. فقال له: افعل، ثم نهض فقام فقبض عليه عبد الملك بن مروان. فقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك فقد قضيناها فما حاجتك؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج. فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك الشرف.

وروي أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوماً قف على الباب فإذا مر بك رجل فأدخله ليحدثني، فخرج الحاجب فوقف على الباب مدة فمر به عطاء بن أبي رباح وهو لا يعرفه فقال له: يا شيخ أدخل إلى أمير المؤمنين فإنه أمرك بذلك. فدخل عطاء على الوليد ومعه عمر بن عبد العزيز فلما دنا عطاء من الوليد قال: السلام عليك يا وليد. قال: فغضب الوليد على حاجبه فقال: ويلك أمرتك أن تدخل علي رجلاً يحدثني ويسامرني فأدخلت إلي رجلاً لم يرض أن يسميني بالاسم الذي اختاره الله لي. فقال له الحاجب: ما مر بي غيره. ثم قال

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو نعيم في الحلية وفيه من لا أعرفه.

لعطاء: اجلس، ثم أقبل عليه يحدثه فكان فيما حدثه عطاء أن قال له: إن في جهنم وادياً يقال له: هبهب أعده الله لكل أمير جائر في حكمه. قال: فصعق الوليد من قوله وكان جالساً بين عتبتي باب المجلس فوقع على قفاه إلى جوف المسجد مغشياً عليه. فقال عمر لعطاء: قتلت أمير المؤمنين، فقبض عطاء على ذراع عمر فغمره غمرة شديدة. فقال له يا عمران: الأمر جد فجد، ثم قام وانصرف فبلغنا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: مكثت سنة أجد ألم غمرته في ذراعي.

قال: وكان ابن أبي شميلة[١] يوصف بالعقل والأدب فدخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك: تكلم. قال: بم أتكلم قد علمت أن كل كلام يتكلم به المتكلم عليه وبال إلا ما كان لله تعالى. قال: فبكى عبد الملك. فقال: يرحمك الله لم يزل الناس يتواعظون. [١٩١/أ] / فقال: يا أمير المؤمنين إن الناس في القيامة لا ينجون من غصص مرارتها ومعاينة الرديء فيها إلا من أرضى الله بسخط نفسه فبكى عبد الملك ثم قال: لا جرم لأجعلن هذه الكلمات مثالاً نصب عيني ما دمت حيًا.

ويروى عن ابن أبي عائشة أنه قال: دعى الحجاج بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة قال: فدخلنا عليه ودخل الحسن البصري آخر من دخل. فقال الحجاج: مرحباً يا أبا سعيد إليَّ إليَّ ثم دعا بكسر فوضع إلى جنب سريره فقعد فجعل الحجاج يذاكرنا إذ ذكرنا عليًا فنال منه ونلنا مقاربة له وفرقا من شره والحسن ساكت عاض على إبهامه. فقال: يا أبا سعيد مالي أراك ساكتاً؟ قال: ما عسيت أن أقول؟ قال: أخبرني برأيك في أبي تراب. قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[٢]. فعليّ ممن هدى الله من أهل الإيمان.

فأقول: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه على ابنته وأحب الناس إليه وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا يحول بينه وبينها وأقول: أنها كانت لعلي هنات فالله حسيبه. قال: فسمر وجه الحجاج وتغيّر وقام عن سريره مغضباً فدخل بيتاً خلفه وخرجنا.

قال عامر الشعبي: فأخذت بيد الحسن. فقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت

---

(١) جاء في الأصل «ابن سلمة» والتصويب من الإحياء.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٤٣.

صدره. قال: إليك عني يا عامر، يقول الناس: عامر الشعبي عامر أهل الكوفة أتيت شيطاناً من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه ويحك يا عامر هلا اتقيته إن سئلت فصدقت، أو سكتت فسلمت؟ قال عامر: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم بما فيها. قال الحسن: فذلك أعظم في الحجة عليك وأشد في التباعة.

/ قال: وبعث الحجاج إلى الحسن فأتاه فقال: أنت الذي تقول: قتلهم الله قتلوا عباد الله [١٩٢/ب] على الدينار والدرهم؟ قال: نعم. قال: وما حملك على هذا. قال: ما أخذه الله على العلماء من المواثيق ﴿لتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتمونه﴾[١]. قال: يا حسن امسك لسانك وإياك أن يبلغني عنك ما أكره فافرق بين رأسك وجسدك.

وروي أن عمر بن هبيرة دعى بفقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة وأهل الشام وقرائها فجعل يسألهم فكلم عامر الشعبي فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده فيه علماً ثم أقبل على الحسن البصري فسأله ثم قال: هما هذان رجل أهل الكوفة ـ يعني الشعبي ـ وهذا رجل أهل البصرة ـ يعني الحسن ـ وأمر الحاجب فأخرج الناس وخلا بالشعبي والحسن فأقبل على الشعبي فقال: يا أبا عمر إني أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها، وقد يبلغني عن العصاب من أهل الديار والأمور وأخذ عليهم فيه فاقبض طائفة من عطاياهم فاضعه في بيت المال ومن نيتي أن أرد عليهم فيبلغ أمير المؤمنين أني قبضته على ذلك النحو فيكتب إلي أن لا أرده فلا أستطيع رد أمره ولا إنفاذ كتابه وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة فهل عليَّ في هذا اتباعه وفي أشباهه من الأمور والنية فيها على ما ذكرت. قال الشعبي: فقلت أصلح الله الأمير إنما السلطان والد يخطىء ويصيب. فقال: فَسُرَّ بقولي وأعجب له ورأيت البشر في وجهه قال: فللّه الحمد. ثم أقبل على الحسن فقال: ما تقول يا أبا سعيد؟ فقال: قد سمعت قول الأمير يقول: أنه أمين أمير المؤمنين على العراق، وعامله عليها، ورجل مأمور على الطاعة بليت بالرعية، ولزمني حقهم والنصيحة لهم والتعهد بما يصلحهم، وحق الرعية لازم لك ويحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة وإني / سمعت عبد الرحمن بن سمرة القرشي صاحب [١٩٣/ب] رسول الله ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استرعى رعية ولم يحفظها بالنصيحة حرّم الله عليه الجنة»[٢]. وتقول: إنما قبضت من عطاياهم إرادة صلاحهم واستصلاحهم وإن يرجعوا إليّ طاعتهم فيبلغ أمير المؤمنين أني قبضتها على ذلك النحو فيكتب إلي أن لا أرده فلا أستطيع

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه البغوي في معجم الصحابة إسناد لين وقد اتفق عليه الشيخان بنحوه من رواية الحسن عن معقل بن يسار.

رد أمره ولا أستطيع إنفاذ كتابه، وحق الله ألزم من حق أمير المؤمنين والله أحق أن يطاع ولا طاعة للمخلوق في معصية الله. فأعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل، فإن وجدته موافقاً لكتاب الله فخذ به وإن وجدته مخالفاً لكتاب الله فأنبذه. يا ابن هبيرة اتق الله؛ فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك فتدع سلطاناك ودنياك خلف ظهرك، وتقدم على ربك وتنزل على عملك، يا ابن هبيرة إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله، وإن أمر الله فوق كل أمر، وأنه لا طاعة في معصية الله، وإني أحذرك بأس الله الذي لا يرده عن القوم المجرمين. فقال: أي ابن هبيرة أربع على ظلعك أيها الشيخ وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين فإنه صاحب العلم والحلم وصاحب الفضل، وإنما ولاه الله أمر هذه الأمة لعلمه به، وما يعلم من فضله ونيته. فقال الحسن: يا ابن هبيرة الحساب من ورائك سوط بسوط، وعصى بعصى، والله بالمرصاد. يا ابن هبيرة: إنك إن تلقى من ينصحك في دينك، ويحملك على أمر آخرتك خير من أن تلقى رجلاً يغرك ويمنيك. فقام ابن هبيرة وقد سمر وجهه وتغير لونه. قال الشعبي: يا أبا سعيد أغضبت الأمير، وأوغرت صدره، وحرمتنا معروفه / وصلته. فقال: إليك عني يا عامر. قال: فخرجت [١٩٤/أ] إلى الحسن التحف والطرف وكانت له المنزلة واستخف بنا وبقينا، فكان أهلاً لما أودى إليه وكنا أهلاً أن يفعل ذلك بنا فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربي بين المغاريف ـ يعني الهجه ـ، وما شهدنا مشهد إلا برز علينا وقال لله تعالى وقلنا مقاربة لهواهم. قال الشعبي: وأنا أعاهد الله ألا أشهد سلطاناً بعد هذا المجلس. بإجابته قال ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة أمير البصرة فقال له: ما تقول في القدر؟ فقال: جيرانك أهل القبور فتفكر فيهم، فإن فيهم شغلاً عن القدر. وكان ابن واسع من سادات العباد في زمانه.

ومن كتاب سراج الملوك[1] قال: ودخل أيضاً على ابن أبي بردة، وكان ثوبه إلى نصف ساقه، فقال له بلال: ما هذه الشهرة يا ابن واسع؟ قال له ابن واسع: أنتم شهرتمونا هذا كان لباس من مضى وأنتم أطلتم ذيولكم فصارت السنة بينكم بدعة وشهرة.

وروي أيضاً أن بلال بن أبي بردة أمير البصرة خرج في جنازة فنظر إلى جماعة وقوف فقال: ما هذا؟ قالوا: مالك بن دينار ويذكر الناس. فقال لوصيف له: اذهب إلى مالك بن دينار فقل له يرفع إلينا إلى القبر. فجاء الوصيف فأدى الرسالة إلى مالك فصاح به مالك: ما لي إليه

---

(١) كتاب سراج الملوك أحد الكتب التي نقل المؤلف منها هذا الكتاب ـ قناطر الخيرات ـ.

حاجة فأجيبه فيها، فإن كانت له حاجة فليجيء في حاجة نفسه، فلما دفنوا ميتهم مال بلال ومن معه إلى حلقة مالك فلما دنى منه نزل ونزل من معه ثم جاء يمشي إلى الحلقة حتى جلس فلما رآه مالك سكت فأطال السكوت فقال له بلال: يا أبا يحيى ذكرنا. قال له: أنسيت شيئاً فأذكرك؟ قال: فحدثنا. قال: أما هذا فنعم، قدم علينا إمام قبلك في البصرة فمات فدفناه في هذه / الجبانة ثم أتينا بزنجي فدفناه إلى جنبه، فوالله ما يدري أيهما أكرم على الله؟ فقال له [١٩٥/ب] بلال: يا أبا يحيى أتدري ما الذي أجراك علينا وما الذي يسكتني عنك؟ لأنك لم تأخذ من دراهمنا شيئاً. قال: ودخل ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك فقال: يا ابن شهاب ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: حدثونا أن الله تعالى إذا استرعى عبداً رعية كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات. فقال: كذبوا يا أمير المؤمنين أخليفة نبي أكرم على الله أم خليفة ليس بنبي؟ قال: بل خليفة نبي، قال: فأنا أحدثك يا أمير المؤمنين بأمر لا شك فيه، قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾[1] الآية. يا أمير المؤمنين فهذا وعيد الله لنبي خليفة فما ظنك بخليفة ليس بنبي؟ فقال الوليد: إن الناس ليغروننا عن ديننا.

وفي كتاب الغزالي قال: ويروى أن هشام بن عبد الملك قدم مكة حاجاً فلما دخلها قال: أئتوني برجل من الصحابة. فقيل: يا أمير المؤمنين قد فنوا. قال: فمن التابعي. فأوتي بطاوس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم بإمارة المؤمنين ولكن قال: السلام عليك ولم يُكَنِّه ولكن جلس بإزائه. وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب غضباً شديداً حتى هم بقتله. فقيل له: أنت في حرم الله وفي حرم رسوله فلا يكن ذلك. فقال له: يا طاوس ما الذي يحملك على ما صنعت؟ قال: وما الذي صنعت؟ فازداد غضباً وغيظاً فقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تقبل يدي، ولم تسلم علي بإمارة المؤمنين ولم تكنني، وجلست إزائي بغير إذن، وقلت كيف أنت يا هشام. فقال: أما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني اخلعها بين يدي رب العزة كل يوم / وليلة خمس مرات فلا يعاقبني ولا يغضب عليّ، وأما [١٩٦/ب] قولك، لم تقبل يدي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده لرحمة. وأما قولك: لم أسلم بإمارة أمير المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمارتك فأخاف أن أكذب. وأما قولك: لم تكنني فإن الله تعالى سمى أولياءه فقال: (يا داود)، (يا يحيى)، (يا عيسى) وكنّى أعداءه فقال: (تبت يدا أبي لهب).

(١) سورة صٓ الآية: ٢٦.

وأما قولك: جلست إزاءك فإني سمعت أمير المؤمنين علياً يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام. فقال هشام: عظني. فقال طاوس: سمعت أمير المؤمنين علياً يقول: إن في جهنم حيّات كالتلال، وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ثم قام وخرج فهكذا كانوا يدخلون على السلاطين إذا أكرهوا، وكانوا يغزون بأرواحهم في الانتقام لله ممن ظلم. قال: ودخل مالك بن دينار على أمير البصرة فقال: أيها الأمير قرأت في بعض الكتب من أحمق من السلطان، ومن أجهل ممن عصاني، ومن أغر ممن اغتر بي، أيها الراعي السوء دعت إليك غنماً سماناً صحاحاً، فأكلت اللحم ولبست الصوف وتركتها عظاماً تقعقع. فقال له والي البصرة: أتدري ما الذي أجراك علينا وتحملنا عنك؟ قال: قلة الطمع إلينا وترك الابتهال بما في أيدينا. قال: وكان عمر بن عبد العزيز واقفاً مع سليمان بن عبد الملك فسمع صوت الرعد فخرج ووضع صدره على مقدمة الرحل. فقال له عمر: هذا صوت رحمته فكيف إذا سمعت صوت عذابه؟ ثم نظر سليمان إلى الناس فقال: ما أكثر الناس؟ فقال عمر: خصماؤك يا أمير المؤمنين. فقال له سليمان: ابتلاك الله بهم.

[١٩٧/أ] وحكي أن سليمان أتى المدينة وهو يريد / مكة فأرسل إلى أبي حازم فدعاه فلمّا دخل عليه قال سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم خربتم آخرتكم وعمّرتم دنياكم فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. قال: يا أبا حازم كيف القدوم على الله تعالى؟ قال: يا أمير المؤمنين أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه. فبكى سليمان وقال: ليت شعري ما أنا عند الله. قال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[1]. فقال له سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين. قال سليمان: يا أبا حازم أي عباد الله أكرم؟ قال: أهل المروؤة والتقى. قال: فأي الأعمال أفضل؟ قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم. قال: فأي الدعاء اسمع؟ قال: قول الحق عند من يخاف ويُرجى. قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: رجل عمل بطاعة الله ودعى الناس إليها. قال: فأي الناس أخس؟ قال: من سعى في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره. قال سليمان: ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: أو تعافيني؟ قال: لا ولكن نصيحة تلقيها إليّ. قال: يا أمير المؤمنين إن آبائك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضي منهم حتى قتلوا مقتلة عظيمة، وقد ارتحلوا فلو شعرت بما قالوا وما قيل لهم.

---

(١) سورة الانفطار (الآيتان: ١٣، ١٤).

فقال له رجل من جلسائه: بئس ما قلت. قال أبو حازم: إن الله تبارك وتعالى أخذ الميثاق على العلماء ليُبيننه للناس ولا يكتمونه. قال: وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد؟ قال: أن تأخذ الشيء من حله فتضعه في حقه. قال سليمان: ومن يقدر على هذا؟ قال: من يطلب الجنة، ويخاف من النار. وفي لفظ آخر قال: من قلده الله من الأمر ما قلدك؟ قال: عظني يا أبا حازم. قال: يا أمير المؤمنين إن / هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك، وهو [١٩٨/ب] خارج عنك بمثل ما صار إليك. ثم قال: يا أمير المؤمنين نزه نفسك وربك في عظمته عن أن يراك حيث ينهاك، ويفقدك من حديث أمرك يا أمير المؤمنين، إنما أنت سوق فما نفق عندك أحمل إليك من خير أو شر فاختر لنفسك أيهما شئت. قال: فما لك لا تأتينا؟ قال: فما أصنع بإتيانك؟ إن أدنيتني فتنتني وإن أقصيتني أحزنتني، وليس لي مال أخافك عليه ولا عندي مال أرجوك به. قال: فارفع إلينا حوائجك. قال: قد رفعنا لمن هو أقدر منك عليها فما أعطاني منها قبلت وما منعني منها رضيت بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1].

فمن ذا الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله له، أو يزيد في قليل ما قسم الله له؟ فلما خرج من عنده وجه إليه بمال فرده وقال للرسول: قل له: يا أمير المؤمنين والله لا أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسي؟

ويروى أن عمر بن عبد العزيز قال لأبي حازم: عظني. قال: اضطجع ثم اجعل الموت تحت رأسك ثم انظر ما تحب أن تكون فيه تلك الساعة فخذ به الآن، وما تكره أن تكون فيه تلك الساعة فدعه الآن فلعل تلك الساعة قريبة.

ويروى أن أعرابياً دخل على سليمان بن عبد الملك فقال: تكلم يا أعرابي. فقال: يا أمير المؤمنين إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته. فقال: يا أعرابي إنا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصيحته ولا نأمن غشه. قال الأعرابي: يا أمير المؤمنين إنه قد تكنفك رجال أساؤوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياهم بدينهم ورضاهم بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك حرب للآخرة سلم / للدنيا فلا تأمنهم على ما [١٩٩/ب] أئتمنك الله عليه؛ لأنهم لم يألوا في الأمانة تضييعاً وفي الأمة خسفاً وعسفاً وأنت مسؤول عما اجترحوا وليسوا مسؤولين عما اجترحت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك؛ فإن أعظم الناس غبناً

---

(١) سورة الزخرف الآية: ٣٢.

من باع آخرته بدنيا غيره. فقال سليمان: يا أعرابي أما أنك سللت لسانك وهو أقطع من سيفك. فقال: أجل يا أمير المؤمنين ولكن لك لا عليك.

وفي كتاب سراج الملوك[١] قال: ودخل الأحنف بن قيس على معاوية وعليه شملة ومدرعة صوف. قال الأحنف: يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع من المحول وإتصال من الدخول فالمكثر منها قد أطرق، والمقل قد أصلق وبلغ به الخنق فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعش الفقير، ويجبر الكسير ويسهل العسير، ويصفح عن الدخول ويداوي المحول، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ويزيل الإواء، ألا وأن السيد من يعم ولا يخص ويدعو الجفلاء ولا يدعو النقراء إن أحسن إليه شكر وإن أساء إليه غفر ثم يكون من وراء الرعية عماداً يدفع عنهم الملمات ويكشف عنهم المعضلات. فقال معاوية: هاهنا غرت يا أبا بحر. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[٢].

ويروى أن هارون المدعو بالرشيد لما حَجَّ ودخل على الفضل بن عياض فقال له: خذ لما جئنا فيه. فقال له: وفيما جئت أخطأت على نفسك وجميع من معك أخطأوا عليك حتى لو سألتم عن انكشاف الغطاء فيك عنك وعندهم أن يتحملوا عنك شقصاً من ذنب ما فعلوا ولكن أشدهم حباً لك أشدهم يأمنك. ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرضي ورجب/ بن حيوة. فقال لهم: إنّي قد ابتليت بهذا [٢٠٠/أ] البلاء فأشيروا عليّ، فعد الخلافة بلاء وعددتموها أنت وأصحابك نعمة. فقال له سالم بن عبد الله: وإن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك فيها الموت. وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فليكن كبير المسلمين لك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم ولداً، فَبِرّ أباك، وارحم أخاك وتحنن إلى ولدك. وقال له رجب بن حيوة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فأوجب للمسلمين ما تحب لنفسك، ثم متى شئت مت، وإني لا أقول لك هذا، وإني لا أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام. قال الفضيل: فهل معك مثل هذا القوم؟ قال: فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشي عليه. فقال له الفضيل بن الربيع: ارفق يا أمير المؤمنين. فقال: يا ابن أم الربيع قتلته أنت وأصحابك وارفق أنا به ثم أفاق. فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز تشكى إليه فكتب إليه عمر: يا أخي اذكر سهر أهل النار وخلود الأبرار يطردان بك إلى ربك نائماً ويقظاناً، وإياك أن

---

(١) كتاب سراج الملوك أحد الكتب التي نقل منها المؤلف كتابه قناطر الخيرات.

(٢) سورة محمد الآية: ٣٠.

تزل بك قدمك عن هذا السبيل فيكون أخر العهد بك، ومنقطع الدخول منك فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه. قال له عمر: ما أقدمك؟ قال له: خلعت قلبي بكتابك لا وليت لك ولاية أبداً حتى ألقى الله سبحانه. فبكى هارون بكاءً شديداً، ثم قال له: زدني. فقال له: يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي ﷺ قال: يا رسول الله أمِّرني على إمارة. فقال له: «يا عباس يا عم النبي نفس تحييها[١] خير من إمارة لا تحصيها»[٢].

«إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون / أميراً فافعل». فبكى [٢٠١/ب] هارون بكاءً شديداً وقال: زدني. فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسأله الله تعالى غداً عن هذا الخلق فإن استطعت أن تغني هذا الوجه عن النار فافعل وإياك أن تمسي وتصبح وفي قلبك غش لرعيتك فإن النبي ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشاً لم يشم رائحة الجنة». فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال: أعليك دين؟ قال: نعم، دين لربي إن لم يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني، والويل إن لم يلهمني حجتي. فقال: أعني دين العباد. فقال: إن ربي لم يأمرني بهذا، إنما أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٣] الآية. فقال له هارون: هذه ألف دينار خذها وانفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك. فقال: سبحان الله أنا أدلك على النجاة وتكافئني بمثل هذا سلمك الله، ثم صمت ولم يكلمه فخرجوا من عنده. فقال هارون للفضيل بن الربيع: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا سيد العالمين اليوم.

ويروى أن أعرابياً قام بين يدي هشام بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين أتت على الناس سنون ثلاث. أما الأولى: فأذابت الشحم. وأما الثانية: فأكلت اللحم. وأما الثالثة: فهاضت العظم. وعندك فضول أموال، فإن كانت لله تعالى فاقسمها بين عباده، وإن كانت لهم فلم تحظرها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا إن الله يجزي المتصدقين. فأمر هشام بمال فقسم بين الناس، وأمر للأعرابي بمال. فقال له: أكل المسلمين له مثل هذا؟ قال: لا يقوم بذلك بيت المال. قال: فلا حاجة لي بما يبعث لأئمة على أمير المؤمنين.

ويروى أن رجلاً قال لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين اذكر بمقامي هذا مقاماً لا

---

(١) كذا بالأصل وكذلك بالإحياء وفي المغني للحافظ العراقي «تنجيها».

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً بغير إسناد، ورواه البيهقي من حديث جابر متصلاً ومن رواية ابن المنكدر مرسلاً وقال: هذا هو المحفوظ مرسلاً.

(٣) سورة الذاريات الآية: ٥٦.

[٢٠٢/أ] يشغل الله عنك كثرة من تخاصم من الخلائق، يوم تلقاه بلا ثقة من العمل، / ولا براءة من ذنب. فبكى عمر بكاءً شديداً ثم استرده الكلام فجعل يردده وعمر يبكي وينتحب ثم قال: حاجتك؟ قال: عاملك بأذرجان أخذ مني إثنا عشر ألفاً. فقال: اكتبوا له حتى يردها عليه. قال: ولمّا دخل زياد على عمر بن عبد العزيز، قال: يا زياد ألا ترى ما ابتليت به من أمر أمة محمد ﷺ؟ فقال زياد: والله يا أمير المؤمنين لو أن كل شعرة منك نطقت ما بلغت كنه ما أنت فيه، فاعمل لنفسك بالخروج مما أنت فيه. يا أمير المؤمنين: كيف حال رجل له خصم ألد؟ قال: سيء الحال. قال: فإن كان له خصمان ألدّان؟ قال: أسوأ حالة. قال: فإن كانوا ثلاثة؟ قال: لا يهنيه عيش. قال: فوالله ما أحد من أمة محمد إلا وهو خصمك. قال: فبكى عمر حتى تمنيت أن لا أكون قلت له شيئاً. قال: وحضر رجل بين يدي بعض الملوك فأغلظ له السلطان فقال له الرجل: إنما أنت كالسماء إذا رعدت وأبرقت، فقد قرب خيرها فسكن ما به، وأحسن إليه.

ويروى أن رجلاً قال لعبيد الله العمري: هذا هارون الرشيد في الطواف وقد أخلى له المسعى. فقال له: لا جزاك الله خيراً؛ كلفتني أمراً كنت عنه في غِنَى. ثم جاء إليه فقال له: يا هارون. فلمَّا نظر إليه قال له: لبيك يا عم. فقال له: كم ترى هاهنا من الخلق؟! قال: لا يحصيهم إلا الله تعالى. فقال له: اعلم أيها الرجل إنّ كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلهم فانظر كيف تكون؟ قال: فبكى هارون وجعلوا يعطون له منديلاً يمسح به الدموع. ثم قال له: والله إن الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن أسرع في مال المسلمين فيقال: أن هارون كان يقول بعد ذلك إني لأحب الحج في كل [٢٠٣/أ] عام فما يمنعني إلا عبيد الله / العمري.

ويقال إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة وفد إليه الوفود من كل بلد، فوفد إليه الحجازيون، فتقدم غلام منهم للكلام وكان حدث السن فقال له عمر: ليتكلم من هو أسن منك. فقال له الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه، لسانه وقلبه، فإذا منح الله تعالى للعبد لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام وعلم من فضله من سمع خطابه، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك. فقال له عمر: صدقت قل ما بدا لك. فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين نحن وفد تهنية لا وفد مرزية، وقد أتيناك لمَنّ الله تعالى الذي مَنّ علينا بك لَمَ تقدمنا إليك رغبة ولا رهبة.

أما الرغبة فقد أتتنا منك في بلادنا، وأما الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك. فقال له عمر: عظني يا غلام. فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، إن ناساً من الناس غرهم حلم الله عليهم

ورضى الناس عليهم فزّلت بهم أقدامهم فهووا في النار، فلا يغرنك حلم الله عنك بطول أملك، وكثرة ثناء الناس عليك فتزل بك قدمك فتلحق بالقوم فلا جعلك الله تعالى منهم وألحقك بصالحي هذه الأمة. ثم سكت الغلام فسأله عمر عن سنه، فإذا هو ابن إحدى عشرة ثم سأل عنه فإذا هو من ولد الحسين بن علي فتمثل عند ذلك عمر بهذين البيتين:

تعلّم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وأنّ كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل

وفي مثل هذا قيل لعتابي، وكان لا يبالي بما لبس: ما لك لا تجيد الملبوس؟ فقال: إنما يرفع المرء أدبه وعقله لا حيلته وحلته لحى الله امرءاً يرضى أن ترفعه هيئته وجماله، لا واللَّهِ حتى يشرفه أصغراه: لسانه / وقلبه ويعلو به أكبراه همته ولبه. قال: ولما دخل ضمرة بن [٢٠٤/ب] ضمرة على المنذر بن المنذر وكان ملكاً وكان ضمرة ذا رداء وعقل حقرته عينه فقال: لأن تسمع بالمعيدي خيراً من أن تراه. فقال له ضمرة: أبيت اللعن وكانت تحية الجاهلية أن القوم ليسوا بجزر تجزر إنما المرء بأصغريه لسانه وقلبه، فإذا نطق نطق ببيان وإذا قاتل قالت بجنان، والرجال لا تكال، بالقفزان، ولا توزن بالقسطاس، فأعجب المنذر بكلامه.

وروي أن روح بن زنباع كان في طريق مكة في يوم شديد الحر مع أصحابه، فنزلوا فضربت عليهم الظلال والخيام، وقدم إليهم الطعام المجود والشراب المبرد، فبينما هم كذلك إذ مَرَّ بهم راع فدعاه إلى الطعام فأبى وقال: إني صائم. فقال روح: في مثل هذا اليوم الحار. فقال: أفأدع أيامي تمضي باطلاً فقال روح:

لقد ضننت بأيامك يا راع إذ جاء عفواً بها روح بن زنباع

وروي عن بعضهم أنه قال: حج الحجاج، فنزل ببعض المياه بين مكة والمدينة فدعى بالغداء فلما حضر قال لحاجبه: انظر من يتغذى معي واسأله عن بعض الأمر فنظر في الجبل، فإذا براع بين شملتين نائم فضربه برجله وقال: أئت الأمير. فقال له الحجاج: أغسل يدك وتغد معنا. قال: قد دعاني من هو خير منك فأجبته. قال: ومن هو؟ قال: الله سبحانه دعاني إلى الصيام فصمت. قال له: في هذا الحر الشديد. قال: نعم صمت ليوم هو أشد حراً منه. قال له: أفطر اليوم وتصوم غداً. فقال له: إن ضمنت لي البقاء إلى غد. قال: ليس ذلك إلي. قال: فكيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه. قال: لأنه طعام طيب. قال: لم تطيبه أنت وإنما طيبه الطباخ ولا الطباخ إنما طيبته العافية.

[٢٠٥/أ] ويحكى عن مالك بن أنس أنه قال: بعث إلى أبو جعفر المنصور فقال ابن / طاوس: فدخلنا عليه فإذا هو جالس على فرش قد نضدت وبين يديه انطاع قد بسطت، وبين يديه جلاوزة بين أيديهم السيوف يضربون الأعناق. فأومأ إلينا أن اجلسا فجلسنا، فاطرق عنا طويلاً، ثم رفع رأسه إلى ابن طاوس فقال: حدثني عن أبيك. قال: نعم، سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه فأدخل الجور في حكمه» فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه. قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني بدمه. ثم قال: يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة، فسكت عنه فقال: ما يمنعك أن تناولينها؟ قال: خشيت أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوما عني. فقال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي منك اليوم. قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاوس فضله.

ويروى عن بشر بن السري أنه قال: بينما الحجاج جالساً في الحجر إذ دخل رجل من أهل اليمن فجعل يطوف فوكل به بعض من معه. وقال: إذا فرغ من طوافه فأتني به. فلما فرغ أتاه به فقال: من أنت؟ فقال: من أهل اليمن. قال: ألك علم بمحمد بن يوسف؟ قال: نعم. قال: فأخبرني عنه؟ قال: قد تركته أبيض غضاً سميناً طويلاً عريضاً. فقال له: ويحك ليس عن هذا أسألك. قال: عن أي شيء تسألني؟ قال: عن سيرته وطعمته. قال: يا جود السيرة وأخبث الطعمة وأعدى الأعداء على الله تعالى في أحكامه. قال: فغضب الحجاج فقال: ويلك، أما علمت بأنه أخي. قال: بلى، فأنت أما علمت بأن الله ربي، وأن الله لهو أمنع لي منك وأكثر منك لأخيك.

وعن الأوزاعي[١] عبد الرحمٰن بن عمرو قال: بعث إلي أبو جعفر المنصور فأتيته فسلمت عليه بالخلافة فرد عليّ، واستجلسني ثم قال لي: ما الذي أبطأ بك علينا أوزاعي؟ [٢٠٦/أ] قال: قلت: وما الذي تريد / يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ منكم والاقتباس منكم. قال: قلت: فانظر يا أمير المؤمنين لا تجهل شيئاً مما أقول لك. قال: وكيف أجهل وأنا أسألك عنه

(١) حديث الأوزاعي مع المنصور موعظته له وذكر فيها عشرة أحاديث مرفوعة والقصة بجملتها رواها ابن أبي الدنيا في كتاب ـ مواعظ الخلفاء ـ ورويناها في مشيخة يوسف بن كامل الخفاف ومشيخة ابن طبرزد وفي إسنادها أحمد بن عبيد بن ناصح، قال ابن عدي يحدث بمناكير وهو عندي من أهل الصدق وقد رأيت سرد الأحاديث المذكور في الموعظة لنذكر هل لبعضها طريق غير هذا الطريق وليعرف صحابي كل حديث أو كونه مرسلاً فأولها قاله الحافظ العراقي في كتابه المغني.

وفيه وجهت إليك وأقدمتك له؟ قال: قلت: أن تسمعه ولا تعمل به. قال: فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف فانتهره المنصور. وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام. فقلت: يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما عبد جاءته موعظة من الله تعالى في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه، فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه يزداد بها إثماً ويزداد بها من الله سخطاً [عليه][(١)]»[(٢)]. يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما وال مات غاشاً لرعيته حرّم الله عليه الجنة»[(٣)]. يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله إن الله هو الحق المبين، إن الذي يلين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أموركم لقرابتكم من نبيكم ﷺ، وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً مواسياً لهم بنفسه وبذات يده محموداً عند الله وعند الناس.

فحقيق أن تقوم له فيهم بالحق وأن تكون له بالقسط فيهم قائماً، ولعوراتهم ساتراً لا تغلق عليك دونهم الأبواب ولا تقيم دونهم الحجاب تبتهج بالنعمة عندهم، وتبتئس بما أصابهم من سوء قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عام الناس الذين أصبحت تملك أحمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم، وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام ليس منهم أحد إلا ويشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه. يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال: كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويروع / بها [٢٠٧/ب] المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعباً. فكيف بمن شقق أبشارهم وسفك دماءهم وخرّب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه يا أمير المؤمنين.

حدثني مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن سلمة: أن رسول الله ﷺ دعى إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابي لم يتعمده، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً ولا متكبراً، فدعى النبي ﷺ الأعرابي فقال: «اقتص مِنِّي»[(٤)].

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وأثبتناه من الإحياء.
(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء.
(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه ابن أبي الدنيا فيه وابن عدي في الكامل في ترجمة أحمد بن عبيد.
(٤) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه ابن أبي الدنيا، وروى أبو داود والنسائي من حديث عمر قال: رأيت رسول الله ﷺ أقص من نفسه، وللحاكم من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه طعن رسول الله ﷺ في خاصرة أسيد بن حضير فقال: أوجعتني قال: «اقتص» الحديث. قال: صحيح الإسناد.

فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبي أنت وأمي لا أفعل ذلك أبداً ولو أنت على نفسي فدعا له بخير. يا أمير المؤمنين: رض نفسك بنفسك وخذ لها الأمان من ربك وارغب في جنة عرضها السموات والأرض التي يقول فيها ﷺ: «لقيد قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها»(١). يا أمير المؤمنين: إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك. يا أمير المؤمنين: أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك؟ ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾(٢). قال: الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك، وكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن؟! يا أمير المؤمنين: بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لو ضاعت سخلة على شاطىء الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها. فكيف بمن حُرِم عدلك وهو على بساطك؟! يا أمير المؤمنين: أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك؟ ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾(٣) الآية.

[٢٠٨/أ] قال: يا داود إذا قعد الخصمان بين يديك / فكان لك في أحدهما هوى فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه، فأمحوك عن نبوتي ثم لا تكون خليفتي ولا كرامة. يا داود إنما جعلت رسلي إلى عبادي رعاء كرعاء الإبل لعلمهم بالرعاية، ورفقهم بالسياسة، فيجبروا الكسير ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء. يا أمير المؤمنين: إنك بليت بأمر لو عرض على السمٰوات والأرضين لأبين أن يحملنه، وأشفقن منه. يا أمير المؤمنين: حدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمر الأنصاري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة فرءآه بعد أيام مقيماً. فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله؟ قال: لا. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «ما من وال يلي شيئاً من أمور المسلمين(٤) إلاّ أوتي به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه [لا يفكها إلاَّ عدله](٥) فيوقف على جسر من النار فينتفض به ذلك الجسر انتفاضة يزيل كل عضو منه عن موضعه ثم يعاد فيحاسب، فإن كان محسناً نجا بإحسانه،

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن أبي الدنيا من رواية الأوزاعي معضلاً لم يذكر إسناده ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ لقاب.

(٢) سورة الكهف الآية: ٤٩.

(٣) سورة صٓ الآية: ٢٦.

(٤) كذا بالأصل وجاء بالإحياء والمغني للحافظ العراقي «الناس».

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل. وأثبتناه من الإحياء.

وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فيهوي به في النار سبعين خريفاً»[١].

قال عمر: فممن سمعت هذا؟ قال: من أبي ذر وسلمان. فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا: نعم. وفي لفظ آخر: أي والله ومع السبعين خريفاً في واد يلتهب في النار إلتهاباً سمعناه من رسول الله ﷺ. فقال عمر: واعمراه إنا لله وإنا إليه راجعون من يتولاها بما فيها؟ فقال أبو ذر: من سلب الله أنفه، وألصق بالأرض خده. قال: فأخذ المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني. ثم قلت: يا أمير المؤمنين قد سأل جدك العباس النبي ﷺ الإمارة على مكة والطائف واليمن فقال له النبي ﷺ: «يا عباس يا عم النبي نفس / تنجيها خير من إمارة لا [٢٠٩/ب] تحصيها»[٢]. نصيحة منه لعمه وشفقة عليه وأخبر أنه لا يغني من الله شيئاً إذا أوحى إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٣]. فقال: «يا عباس عم النبي ويا صفية عمة النبي ويا فاطمة بنت محمد [إني][٤] لست أغني عنكم من الله شيئاً لي عملي ولكم عملكم»[٥].

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل أريب العقد لا يطلع منه على عورة، ولا يحنق منه على حرة، ولا تأخذه في الله لومة لائم. وقال: الأمراء أربعة: أمير قوي ظلف نفسه وعماله، فذلك كالمجاهد في سبيل الله باسطة عليه بالرحمة. وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه، فهو على شفا هلاك إن لم يرحمه الله. وأمير ظلف عماله وارتع نفسه، فذلك الحطمة الذي قال فيه النبي عليه السلام: «شر الرعاء الحطمة فهو الهالك وحده»[٦]. وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعاً. وقد بلغني

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه ابن أبي الدنيا فيه من هذا الوجه، ورواه الطبراني من رواية سويد بن عبد العزيز عن يسار بن أبي الحكم عن أبي وائل أن عمر استعمل بشر بن عاصم فذكر أخصر منه وأن بشراً سمعه من النبي ﷺ ولم يذكر فيه سليمان.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً بغير إسناده، ورواه البيهقي من حديث جابر متصلاً، ومن رواية ابن المنكدر مرسلاً وقال: هذا هو المحفوظ مرسلاً.

(٣) سورة الشعراء الآية: ١٤.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وأثبتناه من الإحياء.

(٥) هكذا جاء الحديث في الأصل، وجاء في الإحياء بلفظ «يا عباس ويا صفية عمي النبي ويا فاطمة بنت محمد إني لست أغني عنكم من الله شيئاً إن لي عملي ولكم عملكم». وقال الحافظ العراقي في المغني بلفظ: «يا عباس ويا صفية ويا فاطمة لا أغني عنكم من الله شيئاً لي عملي ولكم عملكم». وقال: رواه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً دون إسناده. ورواه البخاري من حديث أبي هريرة متصلاً دون قوله: «لي عملي ولكم عملكم».

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه مسلم من حديث عائذ بن عمر المزني متصلاً، وهو عند ابن أبي الدنيا عن الأوزاعي معضلاً كما ذكره المصف.

يا أمير المؤمنين أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: أتيتك حين أمر الله بمنافيخ النار فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة. فقال له: «يا جبريل صف لي النار». فقال: إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف سنة حتى احمّرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اصفّرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسوّدت فهي سوداء مظلمة لا يضيء لهيبها، ولا يخمد جمرها والذي بعثك بالحق لو أن ثوباً من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعاً، ولو أن ذنوباً من شرابها صب في مياه أهل الأرض جميعاً لقتل من ذاقه، ولو أن ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله وضع على جبال الأرض جميعاً لذابت واشتعلت، ولو أن رجلاً دخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقته وعظمه، فبكى رسول الله ﷺ، وبكى جبريل / لبكائه. فقال: أتبكي يا محمد وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: [٢١٠/أ] «أفلا أكون عبداً شكوراً؟ ولم بكيت يا جبريل وأنت الروح الأمين، أمين الله على وحيه»؟ قال: أخاف أن ابتلى بما بلي به هاروت وماروت فهو الذي منعني من اتكالي على منزلتي عند ربي، وأكون قد أمِنْت مكره، فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء: يا جبريل ويا محمد إن الله قد آمنكما أن تعصياه فيعذبكما. [وفضل محمد على الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة[١]][٢].

وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن: عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اللهم إن كنت تعلم أني أبالي إذا قعد الخصمان بين يدي على من قال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين. إن أشد الشدة القيام لله بحقه، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه، ومن طلب بمعصية الله أذله الله ووضعه. فهذه نصيحتي والسلام عليك. ثم نهضت فقال لي: إلى أين؟ قلت: إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله. فقال: قد أذنت وشكرت لك نصيحتك وقبلتها بقبولها. ويقال: أمر له بمال فلم يقبله وقال: أنا في غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا.

ويروى أن رجلاً من السياحين دخل على المأمون فسلم عليه ثم قال له: يا ظالم وأنا ظالم إن لم أقل لك يا ظالم، أستغفر الله من تقصيري فيك، أما تتقي الله عز وجل فيما ملكك وتكلم بكلام كثير. ثم أقبل يريد الخروج فقال له المأمون: من أنت؟ قال: أنا رجل من السائحين فكرت فيما عمل الصديقون قبلي فلم أجد نفسي فيه حظاً فتعلقت بموعظتك لعلي

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وأثبتناه من الإحياء.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: الحديث بطوله رواه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً بغير إسناد.

الحقهم. قال: فأمر بضرب عنقه، والله أعلم(١).

وفي كتاب الغزالي قال: كان أبو الحسن الثوري رجلاً قليل الفضول لا يسأل عما لا يعنيه، ولا يفتش عما لا يحتاج إليه. وكان إذا رأى منكراً غيّره ولو كان فيه تلف نفسه.

قال: فنزل ذات يوم /إلى مشرعة تعرف بمشرعة الفحامين فتطّهر للصلاة إذ رأى زورقاً [٢١١/ب] فيه ثلاثون دنا مكتوب عليها بالقار لطف فقرأ وأنكر؛ لأنه لم يعرف في التجارات ولا في البيوع شيئاً يعبر عنه لطف. فقال للملاح: أي شيء في هذا الدنان؟ فقال: وأي شيء عليك امض لشغلك فلما سمع منه هذا القول ازداد تعطشاً إلى معرفته. فقال: أحب أن تخبرني أي شيء في هذه الدنان؟ فقال الملاح: أنت والله صوفي فضولي، هذا خمر للمعتضد أراد أن يتم به مجلسه. فقال النوري: هذا خمر. قال: نعم. قال: أحب أن تعطيني هذا المردي. فاغتاظ الملاح عليه فقال لغلامه: أعطه المردي حتى أنظر ما يصنع. فلما صار المردي في يده صعد إلى الزورق فلم يزل يكسرها دناً دناً حتى أتى على آخرها إلا دناً واحداً، والملاح يستغيث إلى أن ركب صاحب الحبس وهو يومئذٍ مؤنس بن أفلح فقبض على الثوري وأشخصه إلى حضرة المعتضد، وكان المعتضد سيفه قبل كلامه، ولم يشك الناس أن سيقتله.

قال أبو الحسن: فأدخلت عليه وهو جالس على كرسي من حديد وبيده عمود يقلبه. فلما رآني قال: من أنت؟ قلت: محتسب. قال: من ولاك الحسبة؟ قلت: الذي ولاك الإمامة ولاني الحسبة يا أمير المؤمنين؟ قال: فأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إلي. وقال: ما حملك على ما صنعت؟ قلت: شفقة مِنيِّ عليك إذ بسطت يدي إلى صرف مكروه عنك. قال: فأطرف مفكراً في كلامي ثم رفع رأسه. فقال: كيف تخلص هذا الدن الواحد من جملة الدنان؟ فقلت: في تخلصه علة أخبر بها أمير المؤمنين إن أذن. فقال: هات خبرني. فقلت: يا أمير المؤمنين إني أقدمت على الدنان بمطالبة الحق لله سبحانه وغمر قلبي شاهد الإجلال للحق وخوف المطالبة فغابت هيبة الخلق عني فأقدمت عليها بهذا الحال إلى أن صرت إلى هذا الدن فحدثت نفس كبراً، أني قدمت على مثلك فمنعت ولو أقدمت عليها بالحالة الأولى، وكانت ملء الدنيا دناناً لكسرتها ولم أبال. فقال / المعتضد: اذهب فقد أطلقنا يدك غيّر ما أحببت أن [٢١٢/ب] تغيره من المنكر. حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض

(١) ما جاء في الباب منقول من كتاب الإحياء للإمام الغزالي الجزء الثاني كتاب ـ أمر الأمراء بالمعروف ونهيهم عن المنكر ـ طبعة دار إحياء الكتب العربية ص ٣٤٤.

أتيت. فقلت: يا أمير المؤمنين نقض التغيير؛ لأن كنت أغير عن الله فأنا الآن أغير شرطياً. فقال المعتضد: ما حاجتك؟ قال: تأمر بإخراجي سالماً، فأمر له بذلك فخرج إلى البصرة إلى أن توفي المعتضد، ثم رجع إلى بغداد والله أعلم. قال: وعن ابن المهاجر قال: قدم المنصور حاجاً وكان يخرج من دار الندوة في آخر الليل ليطوف ويصلي ولا يعلم به، فإذا طلع الفجر رجع إلى الدار فإذا أقيمت الصلاة صلى بالناس. فبينما هو ذات ليلة حين السحر يطوف إذ سمع رجلاً عند الملتزم وهو يقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع. فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله ثم خرج وجلس في ناحية من المسجد، فأرسل إليه فدعاه وقال: أجب أمير المؤمنين. فصلى ركعتين واستلم الركن فأقبل مع الرسول فسلم عليه. فقال له المنصور: ما هذا الذي سمعتك تقول من ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع، فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلعني. فقال: يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها وإلا اقتصرت على نفسي فلي فيها شغل شاغل. فقال له: أنت أمن على نفسك. فقال له: أنت الذي داخله الطمع. قال: ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء على يدي والحلو والحامض في قبضتي؟ قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم، فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم بحاراً من الجص والأجر، وأبواباً من الحديد، وحجبة معهم السلاح. ثم سجنت نفسك فيها عنهم وبعثت عمالك في جمع الأموال / [٢١٣/أ] وجبايتها واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة إن نسيت لم يذكروك، وإن أحسنت لم يعينوك، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح، ولم تأمر بأن لا يدخل عليك من الناس إلاّ فلان وفلان نفر أسميتهم، وما أمرت بايصال المظلوم، ولا الملهوف، ولا الجائع، ولا العاري، ولا الضعيف والفقير ولا أحد إلا وله في هذا المال حق. فلما رآه هؤلاء النفر الذين أخلصتهم لنفسك وأثرتهم على رعيتك وأمرتهم أن لا يحجبوا عنك تجبي الأموال ولا تقسمها، قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا فائتمروا على أن لا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا نقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره. فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقووا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذو الثروة والقدرة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية فامتلأت بلاد الله من الطمع بغياً وفساداً فصار هؤلاء شركاءك في سلطانك وأنت غافل. فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول، وإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك

وَجَدَكَ قد نهيت عن ذلك، وقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل وبلغ باطنتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته، فإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه ما يريد خوفاً منهم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به، ويشكو، ويستغيث، وهو يدفعه، ويعتل عليه، فإذا جهد وأخرج، وأطرح بين يديك فيضرب ضرباً عنيفاً، ليكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر فلا تنكر، ولا تغير فما بقاء الإسلام وأهله على هذا، وقد كانت بنو أمية. وكانت العرب لا ينتهي إليها المظلوم / إلا رفعت ظلامته إليهم فينصف. ولقد كان الرجل يأتي [٢١٤/ب] من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي: يا أهل الإسلام فيبادرونه ما لَك ما لَك، فيرفعون مظلمته لسلطانهم فينصف له. ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكي. فقال له وزراءه: ما لك تبكي لا بكت عيناك. فقال: أما أني لست أبكي على المصيبة إذ نزلت بي ولكن المظلوم بالباب يصرخ فلا أسمع صوته. ثم قال: أما إن كان سمعي ذهب فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس لا يلبس أحد ثوب أحمر إلا مظلوم. فكان يركب الفيل طرفي النهار هل يرى مظلوماً فينصفه. هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبته رأفته بالمشركين على شح نفسه في ملكه، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله ﷺ لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك، فإنك لا تجمع المال إلاّ لواحد من ثلاثة: إن قلت: أجمعها لولدي فقد أراك الله عبراً في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال وما من مال إلاّ ودونه يد شحيحة تحويه فلا يزال الله تعالى يلطف لذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست الذي تعطي بل الله يعطي من يشاء. وإن قلت: أجمع المال لأشيد سلطاني فقد أراك الله عبراً فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع وما ضرك وولديك وما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد. فإن قلت: أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا بمنزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل؟ قال: لا. قال: فكيف تصنع / بالملك الذي خولك الله به وما أنت ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل، وإنما [٢١٥/ب] يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الأليم؟ فما تقول إذا انتزع الحق المبين من ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب أيغني عنك شيئاً مما كنت فيه من ملك الدنيا؟ فبكى المنصور بكاءً شديداً وانتحب وارتفع صوته ثم قال: يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئاً. قال: كيف احتيالي فيما خولت ولم أر من الناس إلا خائناً؟ فقال: عليك بالأئمة الأعلام المرشدين. قال: ومن هم؟ قال: العلماء. قال: فروا مني. قال: هربوا منك مخافة أن تحملهم ما ظهر من طريقك من قبل

عمالك، ولكن افتح الأبواب وسهل الحجاب، وانتصر للمظلوم من الظالم، وامنع من الظالم، وخذ الشيء مما حل وطاب، وأقسمه بالعدل، فأنا ضامن عمن هرب عنك أن يأتيك ويعاونك على صلاح أمرك ورعيتك، فقال المنصور: اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل وجاء المؤذنون فسلموا عليه، وأقيمت الصلاة فخرج فصلى بهم. ثم قال للحرسي: عليك الرجل إن لم تأتي به لأضربن عنقك فاغتاظ عليه غيظاً شديداً إذ لم يوجد فخرج الحرسي يطلب الرجل فوجده يصلي في بعض الشعاب فطلبه أن ينطلق معه. فقال: ليس لي إلى ذلك من سبيل. قال: يقتلني. قال: ولا يقتلك. قال: فكيف؟ قال: فأخرج من زود كان معه رقاً فيه شيء مكتوب. قال: خذه، فإن فيه دعاء الفرج. قال: وما دعاء الفرج؟ قال: لا يرزقه إلا الشهيد وأن من دعا به مساء وصباحاً هدمت ذنوبه ودام سروره، واستجيب دعاءه وبسط له في رزقه، وأعطي مأموله وأعين على عدوه، وكتب عند الله صديقاً ولا يموت إلا شهيداً. تقول: اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء / وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك وكانت وساوس [٢١٦/أ] الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة بيدك اجعل لي من كل هم أمسيت وأصبحت فيه فرجاً ومخرجاً. اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا استوجبه بما قصرت فيه، أدعوك آمناً وأسألك متأنساً وإنك المحسن إلي وإني المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك تتودد إلي بالنعم مع استغنائك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع افتقاري إليك، ولكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك، فعد بفضلك وإحسانك إلي إنك أنت التواب الرحيم.

قال: فأخذته فَصَيّرته في جيبي فدخلت على أمير المؤمنين فنظر إليَّ وتبسم. قال: ويلك أتحسن السحر؟ فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين وقصصت عليه أمري مع الشيخ. فقال: هات الرق الذي أعطاك ثم جعل يبكي. وقال: قد نجوت وأمر بنسخه وأعطاني عشرة آلاف درهم والله أعلم[١]. فهكذا كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين، لكنهم اتكلوا على الله سبحانه أن يحرسهم ورضوا بحكمه أن يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا فيه النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فلينها وأزال قساوتها.

---

(١) هذه القصة منقولة من كتاب ـ أمر الأمراء بالمعروف ونهيهم عن المنكر ص ٣٤٦ من كتاب ـ الإحياء ـ للإمام الغزالي، طبعة دار إحياء الكتب العربية.

وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ولو قصدوا الله وعملوا بمقتضى العلم لأفلحوا ففساد الرعية بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه على قلوبهم ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الاحتساب على الأرذال فكيف على الملوك والأكابر / والله [٢١٧/ب] المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نجزت أبواب الأمر والنهي بحمد الله وحسن عونه والصلاة على سيدنا محمد نبيه عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

القنطرة السابعة
في ذكر التوبة وما تشتمل عليه من الأبواب

الحمد لله الذي جعل التوبة سترة لعورات الأعمال، وطهارة لنجاسة الأفعال، نعمة أنعم بها على عباده المؤمنين، ومنة أمتن بها على أوليائه التائبين، بعدما زلت بهم القدم، فإنه لا غرو فإن أذنب الأدمي واجترم، فهي شنشنة يعرف بها من اخترم، وشيمة اقتدى بها بأبيه آدم، ومن أشبه أباه فما ظلم، ولكن قرع آدم على خطئه سن الندم. وتاب مما سلف منه وتندم، فمن اتخذه قدة في الذنب دون الدتوبة فقد زلت به القدم. بل التجرد للخير دائماً هو دأب الملائكة المقربين، والتجرد للشر دائماً دون الإقلاع عنه من شيم الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الشعر من ضرورة الآدميين، فالمتجرد للشر دون الإقلاع شيطان.

والمقلع عن الشر إلى الخير هو في الحقيقة إنسان؛ لأنه قد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان، واصطحبت فيه سجيتان، فلا بد أن ينسب إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان، فالتائب قد أقام البرهان بصحة نسبه إلى آدم، حين لم يخرج من طبع الإنسان، بما قارف من العصيان، إذ أقلع عنه بالتوبة والإحسان، والمصر على المخالفة والطغيان قد صح نسبه في ذلك إلى الشيطان.

[٢١٨/أ] وأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد المحض / إلى الخير دائماً فأمر خارج من حيز الإمكان؛ فإن الشر معجون مع الخير في طينه آدم عجناً محكماً، لا يخلصه إلاّ إحدى نارين: نار الندم أو نار جهنم، فالاحتراق بالنار ضرورة في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان.

فعليك أيها المذنب باختيار أهون الشرين والمبادرة إلى أخف النارين قبل أن يطوى بساط الاختيار وإنسياق إلى دار الاضطرار، إما إلى الجنة أو إلى النار، والصلاة والتسليم على أكرم مبعوث من معد ونزار، محمد بن عبد الله النبي المختار وعلى آله وأصحابه الطاهرين الأبرار.

أما بعد فلّما كان شؤم الذنوب يورث الحرمان ويعقب الخذلان، وأنه قيد يمنع الإنسان من المسارعة إلى خدمة الرحمن، ويقسي قلبه حتى لا تؤثر فيه زواجر القرآن، وكانت التوبة حياة للقلوب بعد موتها بالإصرار على الذنوب وطهارة لها بعد نجاستها بأقذار العيوب. وجب علينا أن نبين فضيلة التوبة وحقيقتها ونوضح شروطها التي لا تتم إلاّ بها، فتشتمل هذه القنطرة على خمسة أبواب:

الأول منها: في فضل التوبة وبيان وجوبها.

والثاني: فيما عنه التوبة وهو الذنوب على اختلاف صفاتها.

والثالث: في شروط التوبة التي لا تقبل إلاّ بها.

والرابع: في بيان أقسام التائبين وفي دوام التوبة.

والخامس: في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار وبالله التوفيق.

الباب الأول
في فضل التوبة ووجوبها

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَىٰ ٱللَّهِ جَمِيعاً﴾[1] وهذا أمر على العموم.

وقال الله تعالى: ﴿تُوبُوا إِلَىٰ ٱللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾[2]. أي خالصة عن الشوائب / مأخوذ [٢١٩/ب] من النصح.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن التوبة النصوح فقال: أن يتوب المرء ثم لا يعود إلى الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

وعن معاذ بن جبل، وأبي بكر بن كعب رضي الله عنهما مثل ذلك. قال: وسئل ابن عباس عنها فقال: التوبة النصوح، أن يذنب الرجل الذنب، ثم يندم فيتوب منه، ولا يحدث نفسه بالرجوع إليه حتى يموت. قال: فإن عاد إلى الذنب عاد إلى التوبة وأجمع أنه عزم على أن لا يعود فيه، ويندم على ما أتى، فمن كان كذلك كانت توبته توبة نصوحاً. وقال الله تعالى:

---

(١) سورة النور الآية: ٣١.
(٢) سورة التحريم الآية: ٨.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[١].

ويقال: إن كل مذنب جاهل عند مواقعة الذنب وإن كان عالماً، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب. ومما يدل على فضل التوبة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٢].

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنبه»[٣]. ثم تلى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[٤] الآية.

وعنه عليه السلام أنه قال: «ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب». وقال سبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾[٥] الآية. وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٦].

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[٧]. وبسط اليد كناية عن طلب التوبة، والطالب وراء القابل قرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلاّ وهو قابل.

وعنه عليه السلام أنه قال: «لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم»[٨].

---

(١) سورة النساء الآية: ١٧.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٢٢.
(٣) قال العراقي عن الشطر الأول من الحديث. ـ وقد ذكر الغزالي الشطر الأول والثاني في كتاب الإحياء ـ (٥/٤): رواه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني دون الأول، وأما الشطر الأول فروى ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف: «إن الله يحب الشاب التائب». ولعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وأبي يعلى بسند ضعيف من حديث علي: «إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب».
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٢٢.
(٥) سورة غافر الآية: ٣.
(٦) سورة الشورى الآية: ٢٥.
(٧) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥٢٣/٨) وقال العراقي في المغني (١٣/٤): رواه مسلم من حديث أبي موسى بلفظ: «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار.....» الحديث، وفي رواية للطبراني: «لمسيء الليل أن يتوب بالنهار....» الحديث.
(٨) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ: «لو أخطأتم». وقال: «ثم تبتم». راجع =

وقال عليه / السلام: «إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة» قيل: وكيف ذلك [٢٢٠/أ] يا رسول الله؟ قال: «يكون نصب عينه تائباً باراً حتى يدخل الجنة»[١]. وعنه أيضاً أنه قال: «كفارة الذنب الندامة»[٢].

وروي أن حبشياً قال: يا رسول الله إني كنت أعمل بالفواحش فهل لي من توبة؟ قال: «نعم». فولى ثم رجع فقال: يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها؟ قال: «نعم». فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها نفسه[٣].

ويروى أن الله تعالى لما لعن إبليس سأله النظرة، فأنظره إلى يوم القيامة. فقال: وعزتك وجلالك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح. فقال الله: وعزتي وجلالي لا حجبت[٤] عنه التوبة ما دام فيه الروح. وقال: إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ[٥].

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: أنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾[٦]. في الرجل يذنب، ثم يتوب، ثم يذنب، ثم يتوب.

وعن الفضيل أنه قال: يقول الله عز وجل: بشّر المذنبين أنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذر الصديقين أني إن وضعت عدلي عذبتهم.

وعن طلق بن حبيب أنه قال: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

= المصدر السابق.

(١) رواه ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً، ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة: إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له.... الحديث وفيه صالح المري، وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث ولابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر: إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ. المصدر السابق.

(٢) رواه أحمد، والطبراني والبيهقي في الشُعب من حديث ابن عباس، وفيه يحيى بن عمرو بن مالك اليشكري. العراقي في المصدر السابق.

(٣) قال العراقي في المغني (٤/١٤): لم أجد له أصلاً.

(٤) في الأصل غير واضحة واستوضحتها من الإحياء (٤/١٤).

(٥) رواه أحمد، وأبو يعلى، والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد: أن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أزال أغوي عبادك، ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني، أورده المصنف ـ أي الغزالي ـ بصيغة ويروى تكذا ولم يعزه إلى النبي ﷺ، فذكرته احتياطاً. قاله العراقي في المغني (٤/١٤).

(٦) سورة الإسراء الآية: ٢٥.

وعن عبد الله بن عمر قال: من ذكر خطيئة أَلَمَّ بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب[١].

ويروى أن نبياً من بني إسرائيل أذنب فأوحى الله إليه: وعزتي وجلالي لئن عدت لأعذبنك. فقال: يا رب أنت أنت وأنا أنا وعزتك وجلالك لئن لم تعصمني لأعودن فعصمه الله.

وقال بعض السلف: إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة. فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب.

وعن حبيب بن ثابت أنه قال: تعرض علي الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنوب فيقول إني كنت مشفقاً منك فيغفر له.

[٢٢١/ب] ويروى أن رجلاً / سأل ابن مسعود رحمه الله عن ذنب أَلَمَّ به هل له من توبة؟ فاعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان فقال: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تغلق وتفتح إلاّ باب التوبة، فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق، فاعمل ولا تيأس.

وعن عبد الرحمٰن بن القاسم أنه قال: تذكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[٢]. فقال: إني لأرجو أن يكون المسلم أحسن حالاً عند الله تعالى، وقد بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام.

وعن عبد الله بن سالم أنه قال: لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل، وكتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين سقطت عنه أسرع من طرفة عين.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: اجلسوا إلى التوابين؛ فإنهم أرق أفئدة.

وقال بعض السلف: أنا أعلم متى يغفر الله لي. قيل: ومتى؟ قال: إذا تاب عليّ. وقال بعضهم: أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أُحْرِم المغفرة لأن المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة[٣].

وعن الفضيل بن عياض أنه قال: لما عاين قوم يونس عليه السلام العذاب قام رجل منهم

---

(١) ذكرهما الغزالي في الإحياء (٤/ ١٤).
(٢) سورة الأنفال الآية: ٣٨.
(٣) كل ما سبق ذكره الغزالي في الإحياء (٤/ ١٤).

فقال: اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت، وعفوك أعظم منها وأجل فافعل بنا من الخير ما أنت أهله ولا تفعل بنا من الشر ما نحن أهله. قال: فكشف الله عنهم العذاب.

ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة فنظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة وعصيتك عشرين سنة فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول: ولا يرى شخصاً أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، فإن رجعت إلينا قبلناك[١].

/ ومن كتاب حياة القلوب قال: وفيما يروى أنه كان في بعض من مضى رجل جرأ على [٢٢٢/أ] معاصي الله ثم إن الله تعالى أراد به خيراً وتوبة. فقال لزوجته: إني ملتمس شفيعاً إلى الله لأتوب إليه، فلعله يقبل توبتي فقالت له وكانت غير فقيهة: لا تذكر ربك؛ فإنك إن ذكرته عذبك عذاباً لم يعذبه أحداً من خلقه قال: فخرج الرجل إلى الصحراء يصيح يا سماء اشفعي لي يا جبال اشفعي لي يا أرض اشفعي لي يا ملائكة ربي اشفعوا لي، فما زال كذلك حتى أدركه الجهد فَخَرَّ مغشياً عليه، فبعث الله إليه ملكاً فأجلسه ومسح وجهه. فقال له: أبشر فقد قبل الله توبتك. قال: ومن كان شفيعي إلى الله؟ قال: خشيتك أشفعت لك. وينشد في المعنى:

بادر إلى التوبة الخلصاء مجتهداً ... ما الموت ويحك لم يمدد إليك يداً
فإنما المرء في الدنيا على خطر ... إن لم يكن ميتاً في اليوم مات غداً

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه»[٢].

وفي خبر آخر: «ما لم يغرغره الملك عند الموت».

ومن كتاب الضياء قال: ومن أمارات القيامة أن لا تقبل توبة كافر من كفره ولا صاحب كبيرة من كبيرته. ويقال: التوبة مبسوطة ما لم يؤخذ بخطمه، وكذلك المجنون ما لم يغير عقله من الجنون.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: التوبة مقبولة من كل تائب إلى يوم القيامة إلاّ من ثلاثة: إبليس رأس الكفار، وقابيل بن آدم الذي قتل أخاه هابيل ظلماً، ومن قتل نبياً فلا توبة لهؤلاء الثلاثة.

---

(١) راجع المصدر السابق.
(٢) رواه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث ابن عمر، قاله العراقي في المغني (٤/٤٤٦).

وعن كعب الأحبار أن الله عز وجل يقول: أيها العبد الخاطىء تب قبل موتك، وقل: لا إله إلا الله أجعلها لك نوراً أصلها في قبرك وفرعها في باب الجنة يهديك أصلها إلى فرعها.

وقيل لأعرابي: ما أفضل ما يلقى الله عز وجل به؟ قال: نصيحة من قلب وتوبة من ذنب. ويقال: إن العبد /إذا تاب توبة نصوحاً أنسى الله حفظته وبقاع الأرض ذنوبه وخطاياه [٢٢٣/ب] وينشد في هذا المعنى:

المرء يذنب والمولى يقوِّمه والعبد يجهل والمولى يعلِّمه
إني ندمت على ما كان من زلل وزلة المرء يمحوها تندمه

ويروى أن الله تعالى لما خلق القلم قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: أكتب أنا التواب أتوب على من تاب.

وقال بعض السلف: إنه كان شاب قد تنسك ثم خرج إلى الأرض فواقع فيها معصية، ثم ذكر فنظر الله فخرّ ساجداً، وجعل يقول في سجوده: لا أعود يا سيدي لا أعود يا سيدي، فنودي في سجوده: ارفع رأسك فأنت أنت، وأنا أنا، أنت العبد وأنا السيد الرب، تعود إلى الذنب بالجهل، وأعود إلى المغفرة بالفضل.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من صوت أحب إلى الله من صوت عبد مذنب تائب إذا قال: يا رب، قال الله عز وجل: عبدي ها أنا بين يديك وعن شمالك وعن يمينك ومن خلفك سل تعط، أنت عندي كبعض ملائكتي اشهدوا أني قد غفرت له»[١].

ويروى أنه كان بعض الصالحين يطوف بالبيت وهو يقول: اللهم اعصمني. فنودي: كل أحد يطلب منا العصمة فلو عصمناهم فعلى من يكون تفضلنا.

ومن كتاب حياة القلوب قال: وفيما يروى والله أعلم أن نبياً من أنبياء الله يسمى يورخ بن مارنا، أذنب ذنباً فأتى بحاراً فنادى أيتها البحار البعيدة غوراً، الكثيرة الأمواج، إني أذنبت لله ذنباً فهل أنت مغيثي عن الله ساعة؟ فأوحى الله إلى البحار أن تجيبه، فقالت له: يا يورخ بن مارنا أنت نبي بني إسرائيل تقول هذا ما فينا موجة إلاّ وعليها من الله حافظ، ولا قطرة إلاّ بعين الله، فأين تغيبك؟ فأتى جبالاً فنادى: أيتها الجبال الكثيرة الأدوية / والشعاب إني أذنبت ذنباً فهل [٢٢٤/ب]

---

(١) أطراف الحديث عند: أبي نعيم في حلية الأولياء (٨/٢١٦)، ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٧/٢٥٦١)، المتقي المسند في كنز العمال (١٠٢٨٠).

أنت مغيبتي عن الله ساعة؟ فأوحى الله إلى الجبال أن تجيبه فقالت: يا بورخ بن مارنا أنت نبي بني إسرائيل تقول هذا، ما فينا شجرة إلاّ وعليها من الله حافظ، وما تسقط من [ورقة][(١)] إلا يعلمها. فصرع بورخ فقال: اللهم اقبض روحي في الأرواح، وجسدي في الأجساد، واجعلني هملاً لا أحضر الحساب. فأوحى الله بل أتوفاك يا حبيبي وأسكنك جنتي.

وفيما يروى عن داود عليه السلام: أنه بكى عن خطيئته بكاءً شديداً، فلم ينفعه شيء، فلما ضاق ذرعه، واشتد غمه، قال: يا رب أما ترحم بكائي؟ قال: فأوحى الله إليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك؟ فقال: إلهي وسيدي فكيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه، وتسكن هبوب الريح، وأظلتني الطير على رأسي، وأنست الوحوش إلى محرابي. إلهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك؟ فأوحى الله إليه: يا داود ذلك أنس الطاعة، وهذه وحشة المعصية، يا داود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي، ونفخت فيه من روحي، وأسجدت له ملائكتي، وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري، فشكى إليّ الوحدة فزوجته حواء أَمَتي وأسكنته جنتي فعصاني، فطردته عن جواري عرياناً ذليلاً. يا داود اسمع مني ما أقول والحق أقول: أطعتنا فأجبناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك.

وقيل: أوحى الله عز وجل إلى آدم عليه السلام يا آدم أورثت ذريتك التعب والنصب، وأورثتهم التوبة، من دعاني منهم بدعوتك لبيته كتلبيتك يا آدم أحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب[(٢)]. فهذا القدر كاف في فضل التوبة، وأنها إذا صحت بشروطها مقبولة / لا محالة والله أعلم وأحكم. [٢٢٥/أ]

الباب الثاني
فيما عنه التوبة وهي الذنوب كلها

اعلم أن التوبة إقلاع عن الذنب وترك له، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته، وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلاّ به واجباً فمعرفة الذنوب إذاً واجبة.

والذنب عبادة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى من ترك أو فعل وتفسير ذلك يطول،

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من الأصل، وأثبت ما يناسب السياق.
(٢) ذكر الغزالي الخبر بأتم مما هنا في إحياء علوم الديني (٤/٥).

ولكن نشير إلى منابعها من أخلاق الإنسان على ما ذكره الغزالي في كتابه.

فنقول: إن مثارات الذنوب تنحصر في أربع صفات مركوزة في فطرة الإنسان:

إحداها: صفة ربوبية وتقتضي من الإنسان النزوع والتشبه بصفات الرب جل جلاله وذلك: كالكبر، والفخر، والجبروت، وحب المدح والثناء، والعز، والغنى، وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذه الصفة تنبعث[1] منها ذنوب كثيرة مهلكات وهي كالأمهات لأكثر المعاصي[2].

والثانية: صفة شيطانية وهي التي ينبعث[3] منها الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر، ويدخل فيها الغش، والمكر، والحقد، والنفاق، والدعوة إلى البدع، والضلال، وإضمار السوء للناس، وأشباه ذلك[4].

والثالثة: صفة بهيمية وهي الشهوة ومنها ينبعث الشره والتكالب على الدنيا، والحرص على قضاء شهوة الفرج والبطن، ومنه يثور المنكر والفحشاء من: الزنا، واللواط، والسرقة، وأكل أموال الأيتام، وارتكاب الآثام في جمع الحطام لأجل الشهوات[5].

والرابعة: صفة سبعية: ومنها ينبعث الغضب، والحقد، والجرأة، والتهجم على الناس [٢٢٦/ب]/ بالضرب، والشتم، والقتل، واستهلاك الأموال[6]، وتمزيق الأعراض، وأشباه ذلك. وإنما كانت هذه الصفات مركوزة في الإنسان؛ لأن طينته معجونة من أربعة أشياء: من اليبوسة، والرطوبة، والحرارة، والبرودة، وذلك أنه خلق من تراب وماء، ثم جعل فيه نفس وروح، فيبوسته من التراب، ورطوبته من الماء، وحرارته من النفس، وبرودته من الروح، فثارت من هذه الطبائع المختلفة أخلاق غير متفقة كما قدمنا.

وقد يقال في كتاب الطب: وما من أحد إلا وفيه من كل طبيعة وسوء غريزة، وإنما التفاضل بين الناس في مقابلة الطبائع السوء بأضدادها، وأما أن يسلم أحد من أن لا يكون فيه شيء منها فلا، ولكن الرجل القوي الحليم العاقل يغلبها بالقمع لها بإذن الله تعالى؛ فكلما

---

(١) في الإحياء: يتشعب.
(٢) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٥) بنصه.
(٣) في الإحياء: يتشعب.
(٤) راجع المصدر السابق (٤/ ١٥، ١٦).
(٥) راجع المصدر السابق وكل هذا بنصه فيه.
(٦) راجع المصدر السابق كل هذا بنصه فيه.

تطلعت قمعها حتى تصير كأنها ليست فيه خاملة ولن ينال ذلك إلاّ بعون الله.

وهذه الصفات التي قدمنا لها تدريج في فطرة الإنسان، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً، ثم تتولها الصفة السبعية، ثانياً، ثم إذا اجتمعتا استعملتا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية، ثم الصفة الربوبية أخرها وهي الكبر والفخر والعز وأمثالها فهذه الصفات أمهات الذنوب ومنابعها. ومنها تنفجر على الجوارح فبعضها في القلب كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وغيرها وبعضها على العين والسمع، وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج، وبعضها على اليدين والرجلين، وذلك واضح لا يحتاج إلى تفصيل[١].

فصـــل

اعلم أن الذنوب على وجهين:

أحدهما: ذنوب بين العبد وبين الله وذلك: كترك الصلاة والصوم / وغيرهما مما يتعلق [٢٢٧/أ] به من الواجبات.

والثاني: ما يتعلق به حق العباد وذلك كترك الزكاة والكفارات، والنفاق الواجبات، وقتل النفس، وغصب الأموال، وتمزيق الأعراض، وأشباه ذلك، ـ مما يطول به الكتاب ـ فكل ما يتعلق به مظلمة العباد فالأمر فيه أغلظ، وما بين العبد وبين الله فالعفو فيه أرجى وأقرب مع التوبة والاستغفار.

وقد جاء في الخبر: «أن الذنوب ثلاثة: ذنب يغفر، وذنب لا يغفر، وذنب لا يترك، فالذنوب التي تغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى، والذي لا يغفر الشرك بالله تعالى، والذي لا يترك ذنوب العباد»[٢]. إن لم يتخلص منها في الدنيا أخذ بها في أشد الحالات.

فصـــل

ثم تنقسم الذنوب إلى صغائر وكبائر، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[٣]. يعني الصغائر، وقال الله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا﴾[٤].

---

(١) راجع الإحياء وهو فيه غير أن المؤلف أضاف بعض الفقرات فصل بها بين الكلام (٤/١٦).
(٢) عن نحوه قال العراقي في المغني (٤/١٦): رواه أحمد، والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره وله شاهد من حديث سلمان، ورواه الطبراني.
(٣) سورة الشورى الآية: ٣٧.
(٤) سورة الكهف الآية: ٤٩.

وقال الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[(١)].

وقال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر»[(٢)].

وقد اختلف الناس في هذا فقال بعضهم: كل مخالفة لله تعالى فهي[(٣)] كبيرة. ولذلك قيل: لا تنظر إلى المعصية ولكن انظر إلى من عصيت.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «ليس فيما يعصي الله به صغيرة». وهذا ضعيف لما قدمناه من الآيات والأخبار، وقال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين بإثبات الكبائر والصغائر.

واختلفوا في عددها من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة إلى ما فوق ذلك، وقال بعض السلف: كل ما وجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة.

[٢٢٨/ب] وقال أصحابنا ومن وافقهم: الكبيرة كل / ما يجب عليه النكال في الدنيا والعذاب في الآخرة، والصغيرة ما سوى ذلك، والكبائر منها معلوم ومنها غير معلوم، والصغائر كلها غير معلومة؛ إذ ليس من الحكمة تبيينها بعد ورود الاستثناء فيها.

وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الكبائر ما ذكر الله من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[(٤)] الآية.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنه قال: الكبائر ما ذكر الله من أول سورة النور إلى قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً﴾[(٥)] الآية.

وروي عن ابن عمر: أن الكبائر سبع فبلغ ذلك ابن عباس فقال: هي إلى سبعين أقرب منها إلى السبع.

وقيل: إنها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر، وساعة يوم الجمعة.

---

(١) سورة النساء الآية: ٣١.
(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة. قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١٦/٤).
(٣) في الأصل: فهو. وهو لحن، أو سهو من الناسخ.
(٤) سورة النساء الآية: ٣١.
(٥) سورة النور الآية: ٣١.

وفي كتاب الغزالي قال: وقال أبو طالب المكي: الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار من قول ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وغيرهم، وهي: أربعة في القلب وهو: الشرك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكره.

وأربعة في اللسان: وهي شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغاموس وهي التي يحقَ بها باطلاً ويبطل بها حقاً، وقيل: هي التي يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلاً ولو سواكاً من أراك، وسميت غموساً؛ لأنها تغمس صاحبها في النار. والسحر هو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة.

قال: وثلاثة في البطن وهي: شرب الخمر، والمسكر من كل شراب، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا وهو يعلم. واثنتان في الفرج وهما: الزنا واللواط. واثنتان في اليدين وهما: القتل والسرقة، وواحدة في الرجلين: وهي الفرار من الزحف، يفر الواحد من اثنين، والعشرة من العشرين. / وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين. [٢٢٩/أ]

هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ تمكن الزيادة عليه. والصحيح ما قاله المسلمون: أن الكبير كل ما أوجب الله عليه الحد في الدنيا والعذاب في الآخرة؛ لأنه معلوم أن: فقؤ العين، وقطع اليدين، وتعذيب المسلمين بالضرب، وأنواع العذاب، وأكل أموالهم ظلماً، والحكم بغير ما أنزل الله، وترك الصلاة، ومنع الزكاة، وقطيعة الرحم، والغيبة والنميمة، وقسمة المواريث بغير ما أنزل الله، وأشباه هذا كله من الكبائر.

وقد قال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر[١]. وقال بعض السلف: كل عمد كبيرة.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: من هو مستكبر، ومنان بعطيته، ومنفق سلعته بيمينه، وثلاثة لا تجاوز أعمالهم أذانهم: صاحب رياء وسمعة، ومسبل إزاره إذا مشى، وبائع الحكم بالرشا»[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثة مقتهم الله تعالى، وثلاثة خصمهم الله: فأما الذين

---

(١) رواه أحمد، والبزار بسند صحيح، وقال من الموبقات بدل الكبائر، ورواه البخاري من حديث أنس، وأحمد، والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الإسناد. المغني (١٨/٤).

(٢) بنحو طرفه الأول عند الطبراني في الكبير (٣٩١/١٢).

مقتهم الله: فالضاحك من غير عجب، والآكل من غير جوع، والمعلم لما لا يعلم، والذين خصمهم الله: يتيم أُكل ماله ظلماً، وامرأة ظُلمت في صداقها وعبد ضربه مالكه بلا ذنب».

وقال عليه السلام: «سبعة من أمتي لا تطفىء نيرانهم يوم القيامة ولا ينظر الله إليهم: أعمى كذوب، وشيخ زان، ومؤذن مراء، ووال غشوم، وإمام يؤم بقوم وهم له كارهون، وامرأة خانت زوجها بالغيب، وعبد أبق من مولاه لا يرجع إليه أبداً».

وقال عليه السلام: «أكبر الكبائر الشرك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، ومن حلف يميناً فأدخل منها مثل جناح بعوضة، ثم لم تزل في قلبه نكتة إلى يوم القيامة، وقتل النفس، وقول الزور». ثم اسْتَوْفَزَ ﷺ فقال: «اليمين الغموس، والفرار من الزحف، / [٢٣٠/ب] وقذف المحصنات، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم»[1].

وقال عليه السلام: «اشتد غضب الله على عبد ستر الله عليه ذنباً فأفشاه إلى غيره». وقال: «ما من إنسان يستمع كلام قوم وهم له كارهون إلاّ وضع الله في أذنه الآنك يوم القيامة». وقال: «من استمع قينة صب في أذنه الآنك يوم القيامة» والآنك الرصاص المذاب. وقال: «من كذب وأصر فهو في النار مخلد». وقال: «أعتى الناس على الله: من قتل غير قاتله، أو طلب بدمه من الجاهلية في الإسلام»[2].

وعنه عليه السلام أنه قال: «خمسة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم إلا أن يتوبوا: النائمون عن العتمات، والغافلون عن الغدوات، والشاربون القهوات، والمتفكهون بسب الأمهات، والقاذفون المحصنات المؤمنات».

فهذه الأحاديث وأمثالها تدل على أن الكبائر غير محصورة بعدد جامع، فلا مطمع في حصرها إلاّ بالسماع من رسول الله ﷺ بأن يقول: الكبائر تسع أو عشر ويفصلها وما قدمنا من عدد الكبائر في الأحاديث لم يقصد إبهامه ليكون العباد منه على وجل. نعم يمكن لنا أن نعرف أجناس الكبائر وأما أعيانها فتعرف بالظن والتقريب، وينحصر أكثرها في ثلاث مراتب:

---

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٩/ ١٤، ١٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٠)، (١٠/ ١٢١)، أحمد في المسند (٣/ ٤٩٥)، ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ١٩١).

(٢) أطراف الحديث عند: البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٦)، ابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث (١٣٤٠).

إحداها: ما يسد باب المعرفة لله تعالى فهو أكبر الكبائر وذلك هو الشرك بالله تعالى، والإنكار لرسله، وما جاءت به من عند الله، فلا كبيرة فوق الشرك والجحود، وهو عين الجهل بالله تعالى، ويتلوه الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمته، فإن هذا عين الجهل أيضاً، فمن عرف الله تعالى لم يتصور أن يكون آمناً ولا أن يكون آيساً، ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله على حسب تفاوتها، وعلى تعلقها بذات الله تعالى وأفعاله / وشرائعه [٢٣١/أ] وأوامره ونواهيه، ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل وإلى ما يشك فيه.

المرتبة الثانية: ما يفسد حياة النفوس: وهو القتل لها وذلك لا محالة من الكبائر، وإن كان دون الشرك، ويتلو ذلك قطع اليدين والرجلين وغير ذلك من كل ما يفضي إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض. ويقع في هذه المرتبة تحريم الزنا؛ لأنه يشوش الأنساب ويبطل التوارث، وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلاّ بها، وكذلك اللواط؛ لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات لانقطع النسل، ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحاً في شريعة.

وينبغي أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل؛ لأنه ليس يفوت دوام الوجود للنفوس ولا يمنع أهله ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل. وينبغي أن يكون أشد من اللواط؛ لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرة هكذا في كتاب الغزالي[(١)].

المرتبة الثالثة: الأموال فإنها معائش الخلق فلا يجوز إباحتها، بل تحفظ لتبقى ببقائها النفوس إلاّ أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها، وإن أكلت أمكن غرمها، وأخذها بالباطل متفاوت بعضها أكبر من بعض؛ لأن أخذها بطريق يعسر استرجاعها أكبر من غيرها، أعني أن تتناول بالخفية، وهي السرقة فكيف يتدارك إذا لم يطلع عليها. وكذلك الولي أو القيّم إذا أكل مال اليتيم وهو صغير لا يعرف فيعظم الأمر فيه بخلاف الغضب، فإنه ظاهر، وكذلك تفويت الأموال بشهادة الزور أو أخذ الوديعة أو غيرها باليمين الغموس؛ لأن / هذه الطريقة لا يمكن [٢٣٢/أ] فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلاً وبعضها أشد من بعض.

وأما الربا فهو: أكل مال الغير بالتراضي مع إسقاط شرط وضعه الشرع، فلا يبعد أن

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١٩/٤، ٢٠) على غير ترتيب أو اتصال في الباب من أوله.

تختلف الشرائع في مثله، لكن عظم الشرع الربا بالزجر عنه، كما عظم الظلم والغضب والخيانة أو أشد والله أعلم.

وأما الشرب للخمر، وما يزيل العقل، فهو حقيق أن يكون من الكبائر الموبقات، وقد دلّ عليه تشديدات الشرع، وطريق النظر أيضاً؛ لأن العقل محفوظ كالنفس بل لا خير في النفس بعد إزالة العقل. وكذلك تناول الأعراض بالقذف والشتم والغيبة واللعن لمن لا يستحق، فهو من الكبائر أيضاً دل عليه تشديدات الشرع أيضاً.

وكذلك السحر، والعقوق، والفرار من الزحف، والكبر، والحسد، وتبديل الحكم، وأكل الميتة، والأنجاس، والإفطار في صوم رمضان، وغير ذلك مما يطول به الكتاب فذلك كله عندنا من الكبائر، دلت عليه قواطع القرآن وصحيح الأخبار وما أدرى إليه النظر والله أعلم[١]. وأما غير هؤلاء من الذنوب فهي في محل الشك إذ يجوز أن تكون من الكبائر ويجوز أن تكون من الصغائر، وذلك كالنظر إلى بيوت الناس أو أبدانهم بشهوة ما خلا العورات والتجسيس عن بعض أحوال الناس، وسوء الظن بمن هو في الوقوف والكذب بالزيادة في الأخبار، وما لا تأخذه القيمة من أموال الناس، أو وطىء أبدانهم ولباسهم، وضرب الدف بغير التغني عليه، والاستماع إلى الغيبة، وترك الأمر بالمعروف، وأكل الشبهات وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائد على حد المصلحة، وإكرام السلاطين الظلمة، ومصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الأهل والولد / ما يحتاجون إليه من أمر الدين، والاهتمام بالمعصية [٢٣٣/ب] وتشهي القلب بها، وما أشبه ذلك مما يطول به الكتاب فهذا كله عندي في محل التوقف والله أعلم إلا أن أصر الإنسان على شيء منها، فيكفر بالإصرار، والصغيرة باقية على حالها؛ لأن الكبيرة لا تكفرها الصلاة، والصغيرة تكفرها.

وقد جاء في الحديث: أن رجلاً قال: يا رسول الله عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلّا المسيس فاقض علي بحكم الله فقال عليه السلام: «أو ما صليت معنا الغداة»؟ فقال: بلى. فقال عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٢]. فإن صح الحديث فإنه يدل على أن ما دون الزنى من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين فهو فيه بتوسع (٤/ ٢١).

(٢) سورة هود الآية: ١١٤ والحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله: «أو ما صليت معنا صلاة الغداة»، ورواه مسلم من حديث أنس وفيه: «هل حضرت معنا الصلاة»؟ قال: نعم. ومن حديث أبي أمامة وفيه: «ثم شهدت الصلاة معنا»؟ قال: نعم. الحديث. قاله العراقي في المغني (٤/ ٤٧).

وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[١] الآية.

ولكن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر إذا اجتنبتها مع القدرة والإرادة كمن يتمكن من مواقعة امرأة فيكف نفسه عن الجماع ويقتصر على نظر ولمس لغير العورة.

وأما إن كان عنيناً فامتنع بالعجز أو كان قادراً فامتنع لخوف أو لأمور أخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً، وكذلك من لا يشتهي الخمر فاجتنابه لا يكفر الصغائر التي هي من مقدماته، وكل هذا أحكام أخروية يجوز أن يكون بعضها من المتشابهات ولا يعرف تفصيلها إلا بالنص وقد ورد في بعضها أنها كبائر، وبقي الباقي على عمومه والله أعلم[٢].

الباب الثالث
في شروط التوبة التي لا تقبل إلا بها

اعلم أن الكف عن الذنوب فرض واجب على الإنسان قال الله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾[٣]. فإن قارف منها ذنباً فالفرض عليه التوبة منه والإقلاع؛ وذلك لأمرين:

أحدهما: ليحصل له توفيق الطاعة، / لأنه كيف يوفق للخدمة من هو مصر على [٢٣٤/أ] المعصية، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو فزع واستغفر صفت، وإن هو عاد زيد فيها حتى يغلق قلبه»[٤]. وهو الران الذي ذكره الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٥].

وفي حديث عمر رضي الله عنه: «الطابع معلق بقائمة العرش، فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم، أرسل الله الطابع فطبع على القلوب بما فيها»[٦].

---

(١) سورة النساء الآية: ٣١.
(٢) راجع إحياء علوم الدين (٤/ ٢٢).
(٣) سورة الأنعام الآية: ١٢٠.
(٤) أطراف هذا الحديث عند: الترمذي في الجامع الصحيح (٣٣٣٤)، المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٤٦٩)، (٤/ ٩٢)، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٢٢٩)، المتقى الهندي في كنز العمال (١٠١٨٩).
(٥) سورة المطففين الآية: ١٤.
(٦) أخرجه ابن عدي، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر، وهو منكر. قاله العراقي في المغني (٤/ ٥٢).

وفي حديث مجاهد: «القلب مثل الكف المفتوحة، فكلما أذنب [العبد][(١)] ذنباً انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فتشتد[(٢)] على القلب فذلك هو الطبع[(٣)]»[(٤)].

وعن الحسن أنه قال: إن بين العبد وبين الله حداً في المعاصي معلوماً إذا بلغه العبد طبع على قلبه فلم يوفقه بعدها بخير.

وعن جابر بن زيد رحمه الله أنه قال: كل كبيرة يختم بها على قلب صاحبها، قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾[(٥)]. قيل: معناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن تندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فيعسر محوه، ولذلك قال عليه السلام: «اتبع السيئة الحسنة تمحها»[(٦)].

وقال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة؛ فإن الموت يأتي بغتة. وقال الله تعالى: ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[(٧)].

وفي كتاب محجة السعادة قال: سارعوا بالتوبة عن عصياني واعرفوا مني إحساني تستوجبوا جنتي ورضواني.

قال: وفي بعض الأثر: أن الله تبارك وتعالى لما أمر الماء أن يخرج لهلاك قوم نوح عليه السلام، فالذي بادر من الماء وسارع جعله الله عذباً ينتفع به إلى يوم القيامة، والذي لم يبادر ولم يسارع جعله الله أجاجاً وزعاقاً. ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين.

[٢٣٥/ب] أحدهما: أن تتراكم ظلمة المعاصي على قلبه حتى / يصير ريناً وطبعاً فيعسر محوه.

---

(١) ما بين المعقوفين من الإحياء (٤/ ٥٢).
(٢) في الإحياء: يسدّ.
(٣) في الأصل: القفل. والتصويب من الأحياء.
(٤) قلت: هكذا قال المصنف - الغزالي - وفي حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع، وقد رويناه في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة، قاله العراقي في المغني (٤/ ٥٢).
(٥) سورة النساء الآية: ١٧.
(٦) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ٢٢٨، ٢٣٦)، والدارمي في السنن (٢/ ٣٢٣)، أبي نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٣٧٦)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥/ ٥١٢)، (٧/ ٣١٩).
(٧) سورة آل عمران الآية: ٣٣.

والثاني: أن يعاجله المرض والموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ: إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔانَ﴾[1] الآية.

وفي الخبر: إن أكثر صياح أهل النار من التسويف فما هلك من هلك إلاّ بالتسويف.

والثاني من الأمرين تلزمه التوبة لتقبل طاعته عنه فإن رب الدين لا يقبل الهدية، وذلك أن التوبة من المعاصي، وارضاء الخصوم فرض لازم، فمتى ما أصر على المعصية فهو كافر مردود عليه عمله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2]. فمن ركب كبيرة كفر في وقت ركوبه، ومن ركب ما دونها فإنما يكفر بالإصرار وترك التوبة لا بركوبه.

وقد قال عليه السلام: «هلك المصرون». وتحبط بذلك جميع طاعته، ولكنه إذا تاب رجونا أن يرد الله عليه صالح عمله، وأيضاً فإن التوبة منجاة من عاجل العقوبة في الدنيا.

وقد روي عنه ﷺ من طريق علي بن أبي طالب أنه قال: «الذنوب التي تغير النعم البغي، والتي توجب الندم القتل، والتي تعجل النقم الظلم، والتي تذهب الفهم شرب الخمر، والتي تحبس الرزق الزنا، والتي تعجل الفناء قطيعة الرحم، والتي تحجب الدعاء عقوق الوالدين، والتي تبتر العمر ترك الصلاة، والتي تورث الذل ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». والله أعلم.

فصـــل

وأما توبة اللسان فبالاستغفار، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾[3]. وقال: ﴿وأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[4].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار، وهو إستغفار بالقلب واللسان. ويقال: لكل شيء نور، ونور المذنبين الاستغفار.

وعنه ﷺ أنه قال لزوجته زينب: «هل أعلمك كلمات / تجوزين بهن يوم القيامة على [٢٣٦/أ] الصراط». قالت: هذا الذي أريده منك يا رسول الله. قال: «قولي اللهم إني استغفرك من كل

---

(١) سورة النساء الآية: ١٨.
(٢) سورة المائدة الآية: ٢٧.
(٣) سورة نوح الآية: ١٠.
(٤) سورة هود الآية: ٣.

ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه، واستغفرك مما أعطيتك من نفسي ثم لم أوف به لك، واستغفرك من كل خير أردت به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك، واستغفرك من النعمة التي أنعمت بها عليّ فتقويت بها على معصيتك». فإن كان أحد من الناس اطلع على ذلك الذنب منه، فعليه إظهار التوبة له حتى يحسن به الظن ويتولاه.

وقد قال عليه السلام لمعاذ بن جبل في بعض عهوده إليه يعرفه التوبة ويبين له صفاتها: «السر بالسر والعلانية بالعلانية»[١]. فهذا يدل على أن التائب من الذنب الذي لم يطلع الناس عليه لا يجور له إظهاره لغيره ويعترف بينه وبين خالقه بالاستغفار منه والندم عليه والاعتقاد لترك العودة إلى مثله، ويعني بالاستغفار طلب الغفران بصحة الإرادة والله أعلم.

فصــل

والتوبة في نفسها ومعناها: الانقلاع عن الذنب، وترك العودة إليه، وتوطين النفس على تركه، ويجمعها ستة شروط، كما روي أن ابن المبارك سمع رجلاً يقول: استغفر الله. فقال له: أما علمت أن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين. قال له: وكيف ذلك؟ قال: إن للاستغفار ست علامات:

أولها: الندم على ما مضى.

والثانية: أن تعتقد بقلبكم أن لا تعود إلى ذنب أبداً.

والثالثة: أن تؤدي إلى كل ذي حق حقه.

والرابعة: أن تعيد الفرائض التي ضيعتها.

والخامسة: أن تعمد إلى البدن الذي ربي بالسحت فتذيبه بالهموم والأحزان.

والسادسة: أن تذيقه ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك قل: استغفر الله.

أما الندم فهو توجع القلب على ما فرط في الطاعة وفرط منه من الغفلة والانهماك في الخطيئات، فكلما طال خوفه وكثر / تألمه كان ذلك أقرب لتنظيفه من أوساخ السيئات. [٢٣٧/ب]

وعلامات صحة الندم: رقة القلب وغزارة الدمع، وفي الحديث: «جالسوا التوّابين فإنهم أرق أفئدة»[٢]. فإذا صح الندم أورث ترك الذنوب في الحال وعزم على أن لا يعود إليها في

---

(١) رواه البيهقي في الشعب من حديث معاذ، وفيه رجل لم يسم، ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه، بلفظ: «أو ما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر. . . .» الحديث. قاله العراقي في المغني (٤/٤٧).

(٢) لم أجده مرفوعاً، وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة، قال: «جالسوا التوابين فإن=

المال. وأما عقد القلب على ترك الذنب في المستقبل فغرض لازم، وهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها كما لا يعود اللبن إلى الضرع، وهذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الأحوال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال. فعلى العبد العزم والصدق، وعلى الله الإتمام، فإن تم على عزمه في الاستقبال فهو الموفق حقاً، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول مرة إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم.

وقال بعض علماء السلف: من صدق في ترك شهوته، وجاهد نفسه لله تعالى سبع مرات لم يبتل بها.

وقال بعضهم: من تاب من ذنب واستقام عليه سبع سنين لم يعد إليه أبداً، وإن نقض التوبة مرة أو مراراً، ثم حملته الإرادة على تجديدها، فقد يكون مثل هذا كثيراً فلا ينبغي أن يقطع رجاؤه عن التوبة، وقد قال النبي عليه السلام: «ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة». وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب.

وعن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أذنب ثم أتوب. قال: «إذاً يتوب الله عليك». قال: ثم أذنب، ثم أتوب؟ قال: «إذا يتوب الله عز وجل عليك». قال: ثم أذنب ذنباً آخر، ثم أتوب. قال: «إذاً يتوب الله عليك، ولن يمل الله حتى تملوا».

وعنه ﷺ من طريق علي أنه قال: «خياركم كل مفتن تواب»[١]. أي كثير الابتلاء بالذنب كثير التوبة منه.

وقال سبحانه: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾[٢] الآية. وأما الخروج من الذنوب والتخلص منها فهي بالجملة ثلاثة أقسام:

/ أحدها: ذنوب بين العبد وبين الله تعالى مما لا يتعلق به حق مخلوق ولا ترك فرض [٢٣٨/أ] كالنظر إلى المحرم، والكذب الذي لا مظلمة فيه لأحد، وضرب المزامير واستماع الملاهي، وكالحسد والكبرياء والعصبية، وأكل الحرام من: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والأنجاس،

= رحمة الله إلى النادم أقرب»، وقال أيضاً: «فالموعظة إلى قلوبهم أسرع، وهم إلى الرقة أقرب»، وقال أيضاً: «التائب أسرع دمعة وأرق قلباً». قاله العراقي في المغني (٤/ ٣٤).

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف، قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (٤/ ٤٤).

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٣٥.

ودخول المسجد، وهو جنب ومس مصحف وقراءة القرآن مع جنابة، واعتقاد بدعة وأشباه ذلك من شرب الخمر وغيرها مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة منها بالندم والتحسر على ما مضى، والنزوع عنه في الحال، والاضمار ألا يعود، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها ليمحوها، لقوله عليه السلام: «اتبع السيئة الحسنة تمحوها»(1).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(2).

ويكفر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه على العبادة، ويكفر مس المصحف جنباً بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه، وبأن يكتب مصحفاً ويجعله وقفاً، وهكذا سائر الذنوب يكفر كل معصية بما يناسبها من الطاعات.

وفي بعض آثار مشايخنا من أهل الجبل رحمهم الله أن إذا عمل كبيرة فعليه مغلظة مع التوبة والاستغفار والله أعلم.

القسم الثاني من الذنوب: هو ترك واجبات الله تعالى من صلاة أو صوم أو زكاة أو كفارة أو غيرها فإن ترك صلاة واحدة، أو أكثر، أو صلى بثوب نجس، أو على غير وضوء، أو قبل الوقت، أو بغير نية، أو بإخلال شرط من شروطها أو ركن من أركانها مما يطول شرح تلك النواقض والمفسدات فعليه قضاء ذلك كله مع الكفارة المغلظة إذا تركها عمداً.

[٢٣٩/ب] وأما الصوم: فإن كان تركه في سفر، ولم يقضه، أو أفطر عمداً، أو ترك الغسل / من الجنابة عمداً حتى أصبح أو في النهار مقدار ما يغتسل فيه أو أفسد بالجماع نهاراً أو بالاستمناء عمداً ولم يعقد له نية، فعليه قضاء مع الكفارة إن أفسده بالإفطار، أو بالجماع، أو بالاستمناء عمداً والله أعلم.

وأما الزكاة: فإن لم يؤدها جهلاً، أو تسويفاً، أو أداها إلى غير مستحقها، أو أخرج من ماله بما لا يجزي عنه في الزكاة فعليه الإعادة إلى مستحقها في جميع ذلك، وإن حضره الموت فليوص بها.

وكذلك الحج: إن تركه بعد الاستطاعة أو أفسده ببعض مفسداته من جماع، أو ترك

---

(1) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٥/١٥٣)، الدارمي في السنن (٢/٣٢٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/٣٧٦)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥/٥١٢).

(2) سورة هود الآية: ١١٤.

وقوف بعرفة، أو طواف بالبيت فعليه الحج إن فرّط فيه بعد اللزوم، أو أفسده بعدما دخل فيه، وإن حضره الموت فليوص به. وكذلك ما لزمه من كفارات الأيمان أو المغلظات أو الحنث بماله أو غير ذلك مما يطول شرحه.

والقسم الثالث: ذنوب بين العبد وبين غيره من الناس، وهي المظالم، وذلك أصعبها على الإنسان، وهي في خمسة أشياء: في المال والنفس والعرض والدين فلا تقبل توبته إلا بالتنصل من هذه المظالم إلى صاحبها باتفاق العلماء، ولقول رسول الله ﷺ: «لو أخطأ أحدكم خطايا حتى تملأ ما بين السماء والأرض ثم تاب تاب الله عليه إلا من كانت معه مظلمة لأحد من الناس فإنه لا يستجيب له حتى يردها»[1].

أما المال فما لزمه من غصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع غش أو تلبيس لتجويز درهم زائف، أو ستر عيب من المبيع أو منع أجرة أجير أو غير ذلك من أكل مال الغير بالباطل. وليحاسب نفسه على الحبات والذرات من أول يوم جنايته إلى يوم توبته، قبل أن يحاسب في القيامة، وليناقشها قبل أن يناقش، فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه، فإذا عرف مجموع ما عليه بظن غالب فليؤد إلى كل ذي حقه حقه فإن /لم يعرف أرباب المظالم [٢٤٠/أ] فليتصدق بما عليه على الفقراء، وإن كان معدماً فعليه الاعتراف لأرباب المظالم ويسعى ويجتهد وينوي الرد متى يجد.

وأما النفس فإن قتلها خطأ فتوبته تسليم الدية إلى ولي المقتول، إما منه أو من عاقلته وتحرير قبة، وإن كان عمداً موجباً للقصاص فعليه التوبة، والتعريف إلى ولي الدم وتحكيمه في روحه فإن شاء عفى عنه وإن شاء قتله، وإن عفى عنه على أن يعطى الدية فليؤدها له مع تحرير رقبة مؤمنة، وإن عفى عن الدية فعليه تحرير رقبة مؤمنة، ولا يجوز له أن يخفى ذلك عن ولي الدم.

وليس هذا كما لو زنا أو سرق، أو قطع الطريق، أو شرب الخمر أو باشر ما يجب به حد الله، فإنه لا يلزمه فيه أن يفضح نفسه ويهتك ستره، بل عليه أن يستتر بستر الله ويقيم حداً لله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب، فالعفو في محض حقوق الله قريب من التائبين المحسنين، وإن أبى ولي الدم أن يقتص منه ولا أن يعفو عنه فليعتق رقبة مؤمنة، وليبتهل إلى الله تعالى أن يرضيه عنه يوم القيامة.

---

(١) أطراف الحديث عند: ابن ماجه في السنن (٤٢٤٨)، أحمد في المسند (٣/٢٣٨)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٩٠)، العجلوني في كشف الخفا (٢/٢١٧)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ٥٢٤).

وقد ابتلى بعض أصحابنا من المسلمين بمثل ذلك حين قتلوا إخوانهم من الموالي بأمر الفاسق ابن زياد، فطلبوا أولياء الموالي أن يستفيدوا منهم فأبوا وقالوا: تلقونهم عند الله وقد كان منهم قريب والزحاف، فلما أعياهما الأمر خرجا في سبيل الله فكانا فيما يزعمون يقول أحدهما كلما ضرب منه عضو: اللهم عضو بعضو حتى قتلا رحمهما الله.

وأما العرض: فإن قذف أحداً، أو شتمه، أو اغتابه، أو بهته وهو لا يستحق ذلك، فالتنصل من ذلك أن يكذب نفسه بين يديه، ويستحله إن لم يخف من ذلك زيادة شراً وتهيج غيظ، وإن خاف من ذلك فليتودد إليه بأحسن الثناء وإظهار المحبة له والشفقة عليه حتى يستميل قلبه ونسخو نفسه بالاحلاك، فإن أبى وامتنع كان تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته. وليكثر من ذلك حتى يجبر مظلمته يوم القيامة كمن اتلف مالاً فجاء بمثله فامتنع صاحبه عن القبول له وعن الإبراء، فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أو أبى كذلك يحكم يوم القيامة أحكم الحاكمين والله أعلم.

وأما الحرمة: فإن خانه في أهله أو ولده أو أمته أو دابته أو نحو ذلك فلا وجه لإظهار ذلك والاستحلال منه؛ لأنه يوّلد فتنة وشراً ويهتك عن نفسه ستراً، بل يغرم الصداق للمرأة البالغة إن كانت مكرهة، وعقر الأمة لسيدها، وصداق الصبية أو المجنونة لوليهما على الرضى والكراهية. وقد قال بعض: تذبح البهيمة ويغرم الناكح قيمتها والله أعلم بذلك.

وقيل: ناكح الصبي في الدبر يغرم صداق الثيب والله أعلم فإذا تاب وأدّى ذلك رجونا له التوبة إن شاء الله تعالى.

وأما الدين: فإن أكفره أو ضلله بإتباعه إياه على بدعته فهو أصعب الأمر فلا بد له أن يكذب نفسه بين يدي من شرع له بدعته ويستحل منه إن أمكنه وإلا فالابتهال إلى الله سبحانه والتضرع إليه جداً، والتندم إليه لعله يرضيه عنه يوم القيامة.

وفي كتاب الغزالي قال: وفي الإسرائيليات أن عالماً كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهراً فأوحى الله إلى نبيهم: قل له: إن ذنبك لو كان بيني وبينك لغفرته لك، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه: ويل للعالم من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها فيتحملها الناس فيذهبون بها في الأفاق بهذا يبين لك أن أمر العلماء مخطر فعليهم في الذنب خصلتان:

أحدهما: ترك الذنب.

والآخر: إخفاؤه، فكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب والبدع إذا اتبعوا عليها كذلك تتضاعف حسناتهم إذا اتبعوا عليها والله أعلم[(١)].

فصـــل

ومن كتاب حياة القلوب ويروى أن النبي ﷺ / من طريق الفضل بن عباس أنه خطب [٢٤٢/أ] الناس فقال: «أما بعد فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأنه قد دنا مِني خفوق بين أظهركم فمن كنت جلدت له ظهراً فليستقدمني، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذه، ولا يقولن رجل إني أخشى من قبل رسول الله ﷺ إلا وأن الشحناء ليست من طبيعتي ألا وأن أحبكم إلي من أخذ إن كان له أو حاللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس وقد أرى أن هذا غير مغن عني شيئاً حتى أقوم فيكم مراراً».

قال الفضل: ثم نزل فصلى الظهر، ثم عاد لمقالته. فقام رجل فقام: يا رسول الله إن لي عليك ثلاثة دراهم. فقال: «أما أنا أكذب قائلاً ولا أستحلفه، فبم كانت لك عندي»؟ فقال: يا رسول الله أتذكر يوم مر عليك مسكين فأمرتني فأعطيته ثلاثة دراهم. فقال: «أعطه يا فضل». وأمره فجلس ثم قال: «أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقول: فضوح الدنيا ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة». فقام رجل فقال: يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله وكنت إليها محتاجاً. فقال: «خذ منه يا فضل»[(٢)].

وبالجملة فأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد؛ لأنه الذنب الذي لا يترك. وأما غيرها من الذنوب فمرجوة مغفورة إن شاء الله لمن استعمل التوبة والاستغفار وسلم مذهبه من البدعة والإصرار، قال الله تعالى سبحانه وتعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّءً عَسَىٰ ٱللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[(٣)].

وأما مظالم العباد فلا بد من التخلص منها، وقد جاء في الحديث: «إن العبد ليوقف بين يدي الله سبحانه وتعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لدخل الجنة، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا، وأخذ مال هذا حتى لا تبقى له حسنة»[(٤)].

---

(١) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣١، ٣٢).
(٢) أطراف الحديث عند: الذهبي في ميزان الاعتدال (٦٨٥٥)، وابن حجر في لسان الميزان (٤/ ١٤٥٤).
(٣) سورة التوبة الآية: ١٠٢.
(٤) طرفه عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ٥٦٢)، (١٠/ ٢٧).

وهذا الحديث موجود عن ضمام بن السائب رحمه الله، وفيه زيادة في كتب قومنا، [٢٤٣/ب] وذلك أن الملائكة / تقول: يا ربنا قد فنيت حسناته وبقي الطالبون كثير. فيقال: «ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا به صكاً إلى النار» والله أعلم.

فصـــل

وفي الأثر ما يدل على أن الذنب إذا اتبع بثمانية أشياء كان العفو عنه مرجواً أربعة من القلب وهي: التوبة والعزم عليها، وحب الإقلاع عن الذنب وخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له بعد التوبة. وأربعة من أعيان الجوارح: وهو أن يصلي عقب الذنب ركعتين بعد الغسل لثيابه والتطهر لبدنه في موضع خال.

وفي بعض الأثر أربع ركعات ثم يستغفر الله بعدها سبعين مرة، ويقول: سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ثم يتصدق بصدقة ويصوم شهرين أو ما قدر عليه.

وفي الخبر: «فإذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تكفرها السر بالسر، والعلانية بالعلانية»[١].

ولذلك قيل: صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار. وينبغي أن يكثر البكاء، ويتمرغ في التراب، ويذكر ذنوبه واحداً واحداً، ويوبخ نفسه عليها، ويقول: أما تستحين يا نفسي، أما آن لك أن تتوبين؟ ألك طاقة بعذاب الله؟ ألك حاجة بسخط الله؟ في مثل هذا كثير. ويقول: إلّهي عبدك الآبق رجع إلى بابك، عبدك العاصي رجع إلى الصلح، عبدك المذنب أتى بالعذر، فاعف عني بجودك، وتقبلني بفضلك، وانظرني برحمتك، اللهم اغفر لي ما سلف من ذنوبي، واعصمني فيما بقي من الأجل، فإن الخير كله بيدك، وأنت بنا رؤوف رحيم ثم يدعو بدعاء ذكر أنه دعاء الشدة وهو: يا مجلي عظائم الأمور، ويا منتهي همة المهمومين، ويا من إذا أراد أمراً فإنما يقول له: كن فيكون، أحاطت بي ذنوبي، أنت المدخور لها يا مدخور كل شدة كنت ادخرتك لهذه الساعة، فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم.

فصـــل

ويقال: التوبة النصوح لا تبقي على صاحبها أثراً من المعصية لا سراً ولا جهراً.

[٢٤٤/ب] ويقال: علامتها / ثلاثة أشياء: مخالفة الهوى، وكثرة البكاء، ومكابدة الجوع والظمأ.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم، ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ: «وما عملت من سوءٍ فأحدث لله فيه توبة السر بالسر. . . .» الحديث. قاله العراقي في المغني (٤/٤٧).

ولا تقبل التوبة ما لم تكن فيها ثلاثة شروط: خوف أن لا تقبل، ورجاء أن تقبل، وإدمان الطاعات، ولها ثلاث مقامات: الندم والاستغفار والحقيقة.

ومعنى الندم: هو عزم التحول بوجود مرارة المعاصي. والاستغفار: طلب الغفران بصحة الإرادة. والحقيقة: في الرجوع إلى الله عز وجل.

ويقال: من علامات التوبة النصوح أن يتمكن العبد من ذنب تاب منه عشر مرات مع وجود الأسباب ثم يعتصم من ركوبه.

وعن أبي المؤثر أنه قال: إذا قال العبد لا إلٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، رب إني عملت سوء وظلمت نفسي، فإن لم تغفر لي وترحمني لأكونن من الخاسرين، لا إله إلا أنت، تبت إلى الله، واستغفر الله من كل سيئة مكروهة عند الله تعالى.

قال أبو المؤثر: إذا قال هكذا فقد تاب كما وصفنا ثم نقض التوبة هو والله أعلم.

مسألـة

فإن تاب كما وصفنا ثم نقض التوبة فأعاد إلى الذنب ثانياً، فليعد التوبة مبادراً، وليقل لنفسه: توبي لعلك أن تموتي قبل أن تعودي إلى الذنب هذه المرة، وكذا ثالثاً ورابعاً، فكما اتخذ الذنب والعودة إليه حرفة، فليتخذ التوبة والعودة إليها حرفة، ولا ييأس ولا يمنعه الشيطان من التوبة بسبب ذلك؛ فإنه دلالة الخير أما تسمع قوله ﷺ: «خياركم كل مفتن تواب»[1]. أي كثير الابتلاء بالذنب كثير التوبة منه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدُ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[2].

وعن يحيى بن معاذ أنه كان يقول: إلٰهي لا أقول لا أعود لما أعرف من خلق، ولا أضمن ترك الذنوب لما أعلم من ضعفي، ثم أنا أقول: لا أعود لعليّ أموت قبل أن أعود والله أعلم.

ويقال: إن من علامة التوبة الصادقة أن تتمكن مرارة تلك الذنوب من قلب التائب كما تتمكن فيه قبل ذلك حلاوتها فيستبدل / بالميل كراهية وبالرغبة نفرة. [٢٤٥/أ]

ويروى في الإسرائيليات: أن الله تعالى قال لبعض أنبيائه عليهم السلام وقد سأله عن

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف، قاله العراقي في المغني (٤/ ٤٤).
(٢) سورة النساء الآية: ١١٠.

قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة، ولم ير قبول توبته، فقال: وعزتي وجلالي لو شفع في أهل السمٰوات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه[١].

وقال بعض علماء السلف: أول ما يؤمر به التائب بعد الندامة والإقلاع أن يتحول عن الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة الموجودة في العلم. قال: ولا تصح له التوبة مع ذلك حتى يلزم نفسه الخلوة، ولا تصح له الخلوة إلاّ بأكل الحلال، ولا يصح له أكل الحلال إلاّ بأداء حق الله، ولا يصح له أداء حق الله إلاّ بحفظ الجوارح، ولا يصح له ما ذكرنا إلاّ بعون الله وتوفيقه.

وعن يحيى بن معاذ[٢] أنه قال: من أراد إدامة التوبة إذا ظفر بها فليلزم ثلاثة أشياء وليدم عليها أن لا يأخذ من الدنيا إلا حلالاً، وليلزم صيام النهار وقيام الليل، وليلزم رجلاً عالماً دليلاً مشفقاً والله أعلم. وينبغي له أن يهجر إخوان السوء وإن لم يفعل أو شك أن يشوشوا عليه صحة عزمه ويردوه على عقبيه ناقضاً توبته وما عزم عليه والله المستعان.

الباب الرابع
في بيان أقسام التائبين في دوام التوبة

قال الله تعالى: ﴿تُوبُوا إِلَىٰ ٱللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾[٣]. ويقال: الناس في التوبة على أربع طبقات:

الطبقة الأولى: أن يتوب كما قدمنا ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ولا يحدث نفسه بالعودة إلى ذنوبه إلا الزلاّت التي لا ينفك العبد عنها في العادة. فهذه هي التوبة النصوح

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤).

(٢) يحيى بن معاذ الرازي الواعظ من كبار المشايخ له كلام جيد ومواعظ مشهورة.
وعنه أنه قال: لست أبكي على نفسي إن ماتت إنما أبكي على حاجتي إن فاتت.
- لا يُفلح من شممت رائحة الرئاسة منه.
- مسكين ابن آدم، قلع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار.
- لا تستبطىء الإجابة وقد سدد طريقها بالذنوب.
- الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وهو يسألك عن جناح بعوضه.
- الدرجات سبع: التوبة، ثم الزهد، ثم الرضى، ثم الخوف، ثم الشوق، ثم المحبة، ثم المعرفة.

(الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٥).

(٣) سورة التحريم الآية: ٨.

وصاحبها هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «سبق المفردون المستهترون بذكر الله / تعالى وضع الذكر [عنهم][1] أوزارهم فوردوا [٢٤٦/ب] القيامة خفافاً»[2]. وهذه إشارة إلى أنهم تحت أوزارهم وضعها الذكر عنهم.

الطبقة الثانية: أن يتوب ويسلك سبيل الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر المعاصي إلاّ أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتحرير قصد، ولكن يبتلى بها في مجاري بعض أحواله، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على التشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها. فهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، والأولى هي النفس المطمئنة، فهؤلاء أيضاً لهم حسن الوعد من الله سبحانه لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ونُدْخِلكُمْ مَدْخَلاً كَرِيماً﴾[3]. وإلى هؤلاء الإشارة بقوله عليه السلام: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون»[4].

وقال أيضاً: «المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعة»[5]. أي واه بالذنوب راقع بالتوبة.

وفي خبر آخر: «المؤمن كالسنبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً»[6].

وفي خبر آخر: «لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفنية بعد الفنية»[7] أي الحين بعد الحين قال الله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾[8]. فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً والله أعلم[9].

---

(١) ما بين المعقوفين من الإحياء (٤/٤٣).

(٢) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه. قاله العراقي في المغني (٤/٤٣).

(٣) سورة النساء الآية: ٣١.

(٤) رواه الترمذي واستغربه، والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال: «التوابون» بدل: «المستغفرون». قلت: فيه علي بن مسعدة ضعفه البخاري. قاله العراقي في المغني (٤/ ٤٤).

(٥) رواه الطبراني، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث جابر بسند ضعيف، وقالا: فسعيد بدل فخيرهم. العراقي في المصدر السابق.

(٦) رواه أبو يعلى، وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث عمار بن ياسر، والبيهقي في الشُعب من حديث مرسلاً وكلها ضعيفة، وقالوا: «تقوم» بدل: «تفيء». وفي الأمثال للرامهرمزي إسناد جيد لحديث أنس. المصدر السابق.

(٧) رواه الطبراني، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإسناد حسن. المصدر السابق.

(٨) سورة القصص الآية: ٥٤.

(٩) راجع في الطبعة الإحياء وهي فيه بتوسع (٤/٤٣، ٤٤).

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب فيفارقها عمداً لعجزه عن قهر الشهوة إلاّ أنه مع ذلك مواظب على الطاعة، وتاركاً جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة، وهو عند الفراغ يتندم عليه ويقول يا ليتني لم أفعله، وسأتوب عنه، وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسول له نفسه، ويسوق لذلك التوبة، فهذا إذا كان الذنوب كبير فقد حبط عمله. وإن كانت صغيرة أصر عليها فقد هلك بالإصرار / ولم يبادر إلى التوبة والاستغفار لكنه تمادى على التسويف للتوبة، ويخشى [٢٤٧/أ] أن يلقى الله تعالى قَبل النزوع عن الخطيئة، فهذا هو التمادي الذي اتفق عليه المسلمون أنه من أهل الخزي والعقوبة إن اختطف قبل التوبة، وعلق أمره أهل الخلاف وحكمه على مشيئة الله، ولا يقطعون فيه بالتوبة ولا بالعقوبة ويشبه أن يكون هذا حال إخوة يوسف عليه السلام حين قالوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾[١] أي تائبين والله أعلم[٢].

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويمضي على الاستقامة مدة، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة والتأسف على ارتكاب خطيئة بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهوته.

فهذا جملة من المصرين؛ لأن الفرق بين المتمادي والمصر أن المتمادي لم يعتقد أن يلقى الله تعالى على غير توبة، ولكنه يرجوها يوماً ما، والمصر هو الذي عزم أن يلقى الله تعالى بغير توبة وكلاهما عند المسلمين هالكان، والمصر أعظم في القياس، وإن كان المتمادي مصراً أيضاً بظاهر اللغة؛ لأن الإصرار على الشيء التمادي عليه، وقد قال عليه السلام: «هلك المصرون»[٣]. فَعمَّ ولم يخص والله أعلم[٤].

الباب الخامس
في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار

اعلم أن السبب الباعث على التوبة هو الإيمان بأصل الشريعة، ومعناها: هو أن يعلم

---

(١) سورة يوسف الآية: ٩.
(٢) راجع في هذه الطبقة الإحياء (٤/٤٤، ٤٥) وهي أوسع مما هنا.
(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/٢٠٤).
(٤) ذكر هذه الطبقة أيضاً الغزالي بأوسع مما هنا (٤/٤٥، ٤٦).

الإنسان علماً يقيناً أن للسعادة في الآخرة سبباً وهو الطاعة، وللشقاوة سبباً وهو المعصية، ويعلم أنه لا بد من دليل يدله على فعل الطاعة وترك المعصية وهو الرسول عليه السلام، ويعتقد أن كل ما يقوله الرسول عليه السلام هو حق وصدق لا خلل فيه / ولا كذب. فإذا [٢٤٨/ب] اعتقد ما قلنا فليلق سمعه إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى، والتحذير من الذنوب واتباع الهوى، وليصدق بجميع ذلك تصديقاً لا يخالطه شك، وليكثر التفكر فيه حتى ينبعث منه الخوف الذي يقوى به على الصبر، وليكن أكثر استماعه إلى الآيات المشتملة على الذنوب التي ارتكبها ثم إلى الآيات التي تدله على الصبر على تركها. ثم العلم بكيفية تكفير ما سبق منها، وهذه علوم يختص بها أطباء الدين، وهم العلماء ورثة الأنبياء عليهم السلام، والعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم، وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم الذي شاهد ذلك منه أن يعرفه ذلك وينكره عليه.

بل لا ينبغي له أن يصبر إلى أن يُسأل عنه، لكنه يتصدر لدعوة الناس وإرشادهم اقتداءً بالأنبياء عليهم السلام، الذين يطلبون الناس واحداً واحداً في الإبتداء ويرشدونهم إلى طريق الاهتداء؛ لأن مريض القلب بالجهل والذنوب لا يعرف مرضه. كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره، وهذا فرض عين على العلماء، فإن العلماء لا يولدون إلاّ جهالاً فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع؛ فالدنيا دار مرض إذ ليس في بطن الأرض إلاّ ميت، ولا على ظهرها إلا سقيم. ومرض القلب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل:

إحداهن: أن المريض فيه لا يدري أنه مريض لاستيلاء الجهل عليه.

الثانية: أن عقوبته غير مشاهدة في الدنيا، بخلاف مرض البدن؛ فإن عاقبته موت تنفر منه النفوس وما بعد الموت غير مشاهد، فقَلَّت النفرة عن الذنوب، وإن علمها مرتكبها فلذلك تراه يتكل على فضل الله ويجتهد في علاج مرض البدن من غير إتكال.

الثالثة: فقد الطبيب؛ فإن الأطباء هم العلماء وقد / غلب عليهم اليوم الداء المهلك الذي [٢٤٩/ب] هو حب الدنيا، فلم يقدروا على تحذير الخلق منه؛ خوفاً من أن يقال لهم: ما بالكم تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم. فبهذا السبب عمّ الداء، وعظم الوباء، وانقطع الدواء، وهلك الخلق لفقد الأطباء، بل اشتغال الأطباء بفنون الإغواء، فصاروا فتنة على الخلق إلاّ من عصمة الله منهم وقليل ما هم، فَلَيْتَهُم إذ لم ينصحوا، ولم يصلحوا، لم يغشوا، ولم يفسدوا، والله نسأله السلامة والتوفيق، وأنّى نجدهما بغير سلوك الطريق.

وأما كيفية العلاج في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على التوبة من الذنوب فذلك أمر يتسع شرحه ولا يمكن استقصاءه ولكنا نشير إلى أربعة أنواع هي النافعة في ترك المعاصي لمن سبق له التوفيق.

النوع الأول: أن يعظه العالم الذي هو من أهل الدين، ويخوفه بما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين وينذره بما ورد من الأحاديث وآثار الصالحين مثل قول النبي عليه السلام: «ما من يوم طلع فجره، ولا ليلة غاب شفقها، إلاّ وملكان متجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا، ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خلقوا عملوا بما علموا»[١].

وفي حديث آخر: «تجالسوا فتذاكروا ما عملوا، فيقول الآخر: ويا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا».

وقال بعض السلف: إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمين عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه، وإن لم يستغفر كتبها.

وقال بعضهم: ما من عبد يعصي الله إلاّ استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن / يسقط عليه كسفاً. فيقول الله تعالى للأرض والسماء: كُفّا عن عبدي [٢٥٠/أ] وأمهلاه، فإنكما لم تخلقاه، ولو خلقتماه لرحمتماه لعله يتوب إليّ فاغفر له لعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات.

قال: فذلك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[٢] الآية.

والأخبار والآثار في ذم العاصيين ومدح التائبين كثيرة لا تحصى، فينبغي أن يستكثر الوعاظ منها على العاصي الجاهل حتى يرق قلبه لعله يوفق للتوبة على يديه، فيكون له أجر سبعين صديقاً كما ورد في الخبر والله أعلم[٣].

النوع الثاني: حكايات الأنبياء عليهم السلام وغيرهم من السلف الماضين وما جرى

(١) غريب لم أجده هكذا، وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردذوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف: «إن لله ملكاً ينادي في كل ليلة: أبناء الأربعين، زرع قد دنا حصاده....» الحديث وفيه: «ليت الخلائق لم يخلقوا، وإذ خلقوا علموا لماذا خلقوا، فتجالسوا بينهم فتذاكروا....» الحديث. قاله العراقي في المغني (٥١/٤).

(٢) سورة فاطر الآية: ٤١.

(٣) راجع إحياء علوم الدين (٥١/٤).

عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم عليه السلام في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة.

حتى روي أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته، فأخرج هو وزوجته من جوار رب العالمين إلى الدنيا دار التعب والهوان البيّن بعدما قيل له في الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1].

وكذلك ما روي أن نوحاً عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ﴾[2] الآية. ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[3] إلى قوله: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[4].

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[5].

وقد روي أنه لم يرفع رأسه إلى السماء بعد ذلك أربعين سنة حياءً من الله تعالى.

وروي أن سليمان عليه السلام عوقب على خطيئته، وقد اختلفوا فيها ما هي؟ فقيل: لأجل التمثال.

وقد روي أنه عبد في داره أربعين يوماً، وقيل: أن امرأة سألته أن يحكم لأبيها. فقال: نعم ولم يفعل. وقيل: / بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها، فسلب [٢٥١/ب] ملكه أربعين يوماً فهرب تائهاً على وجهه، وكان يسأل بكفه ولا يطعم فإذا قال: أطعموني فإني سليمان بن داود شُجَّ وضرب وحكي أنه استطعم من بيت امرأة فطردته وبزقت في وجهه.

وفي رواية أخرى: فأخرجت عجوز جَرَّة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج له الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين (أيام العقوبة) قال: فجاءت الطيور فعكفت على رأسه، وجاءت الشياطين والإنس والوحوش فاجتمعت حوله، واعتذر إليه بعض من جنى عليه. فقال: لا ألومكم فيما فعلتم من قبل، ولا أحمدكم في عذركم؛ لأن هذا أمر كان من السماء لا بد منه.

---

(١) سورة طه الآية: ١١٨.
(٢) سورة هود الآية: ٤٥.
(٣) سورة هود الآية: ٤٦.
(٤) سورة هود الآية: ٤٧.
(٥) سورة هود الآيتان: ٤٥، ٤٧.

وروي في الإسرائيليات أن رجلاً تزوج امرأة من بلد، فأرسل عبده إليها يحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم. قال: فنبأه الله ببركة تقواه، فكان نبياً في بني إسرائيل.

وفي قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام: بم أطلعك الله على علم الغيب؟ قال: بترك المعاصي لأجل الله.

وروي أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام، فنظر إلى قميصه نظرة، وكان عليه قميص جديد فكأنه أعجبه، فوضعته الريح فقال: لِمَ فعلت ولم آمرك؟ قالت: إنما نطيعك إذا أطعت الله. وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر: كالذي جرى ليونس وغيره من الأنبياء عليهم السلام، والمراد بها الاعتبار والاستبصار؛ ليعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار، وكيف يتجاوز عن غيرهم في الموبقات الكبار.

نعم كانت سعادتهم بأن عوجلوا بالعقوبة في الدنيا ولم يؤخروا إلى الآخرة، والأشقياء إنما يمهلون ليزدادوا إثماً، فإن عذاب الآخرة أشد وأبقى.

فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرّين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة لمن أراد الله إرشاده / وهداه[1]. [٢٥٢/أ]

النوع الثالث: أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنب، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو سبب خطاياه، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله تعالى في الدنيا أكثر؛ لفرط جهله.

فينبغي أن يخوف به، فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر كما تقدم في قصة سليمان عليه السلام.

وكما حكى الله تعالى في قصة يونس عليه السلام في قوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2]. إلى قوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[3].

ثم ذكر القصة إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[4] الآية. فكل ذلك من

---

(١) راجع النوع الثاني كله في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٥٢، ٥٣) بأوسع مما هنا.
(٢) سورة الصافات الآية: ٣٩.
(٣) سورة الصافات الآية: ١٤٧.
(٤) سورة الصافات الايات: ٣٩، ١٤٧.

شؤم الذنب، وقد يبلغ من شؤمه حتى قد يضيق على العبد رزقه بشؤم ذنوبه، وقد تسقط منزلته عن القلوب ويستولي عليه أعداءه قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[١].

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[٢].

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بذنب يصيبه.

وفي الأثر: وذكر بعض العلماء أن ذلك هو معنى ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً».

وفي الأثر أن بعض القراء نظر إلى غلام بشهوة، فعوقب بنسيان القرآن.

وقال بعض السلف أيضاً: ليست اللعنة سواداً في الوجه، ونقصاناً في المال، وإنما اللعنة الطرد، والإبعاد، فإذا لم يوفق للخير، ويسر له الشر فقد أبعد والحرمان من زرق التوفيق أعظم حرماناً، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف الوزر عليه، فيحرم العبد به التوفيق ومجالسة الصالحين، فتراكم الذنوب على قلبه فيطبع عليه بطابع الهالكين.

وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي في وسط الوحل جامعاً ثيابه متحرزاً حتى زلقت رجله وسقط، فقام وهو يمشي في وسط / الوحل ويبكي ويقول: هذا مثل العبد لا يزال [٢٥٣/ب] يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين فعندها يخوض الذنوب[٣] خوضاً وهو إشارة إلى أن الذنب يتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر.

وقال بعض العلماء: ما انكرت من تغيير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك أورثتك ذلك.

وقال بعضهم: إني لأعرف العقوبة حتى في فاريتي، وبعضهم يقول: أعرف العقوبة من ذنبي في سوء خلق حماري.

وقال بعض العلماء: إن العبد ليذنب ذنباً إلاّ ويسود وجه قلبه، فإذا كان سعيداً ظهر السواد على ظاهره لينزجر، وإن كان شقياً أخفي عنه حتى ينهمك ويستوجب النار.

---

(١) سورة الشورى الآيات: ٣٠.

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظ له إلاّ أنه قال: «الرجل». بدل: «العبد». من حديث ثوبان. قاله العراقي في المغني (٤/٥٣).

(٣) في الأصل: الذنب وهو تحريف من الناسخ والتصويب من الإحياء.

والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره، بل من شؤم الذنب في الدنيا، على الجملة أن يكتسب به العبد ما يبعده عن ربه، فإن ابتلي بشيء كان عقوبة عليه ويحرم جميل الصبر فيتضاعف شقاؤه، فإن أصابته نعمة كان إستدراجاً له، ويحرم جميل الشكر فيعاقب بقرائن الأحوال على خفايا الصفات فيتعرض لما وقف عليه من ذلك اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال له رجل: أوصني ولا تكتم علي. قال: «لا تغضب»[١]. وقال الآخر: أوصني. فقال: «عليك باليأس بما في أيدي الناس، فإن ذلك هو الغنى، وإياك والطمع، فإنه الفقر الحاضر، / وصل صلاة مودع، وإياك وما تعتذر منه»[٢]. وقال رجل [٢٥٤/أ] لمحمد بن واسع: أوصني. فقال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة. فقال: كيف لي بذلك؟ فقال: إلزم الزهد في الدنيا. فكأن النبي عليه السلام توسم في السائل الأول مخائل الغضب، فنهاه عنه، وفي الآخر مخائل الطمع في الناس وطول الأمل، فأمره بترك ذلك، وتخيل محمد بن واسع في السائل مخائل الحرص في الدنيا. وقال رجل لمعاذ: أوصني. فقال: كن رحيماً أكن لك بالجنة زعيماً. فكأنه تفرس فيه أثر الفظاظة والغلظة.

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: أوصني. فقال: إياك والناس، وعليك بالناس، ولا بد من الناس؛ فإن الناس هم الناس، وليس كل الناس بالناس، ذهب الناس وبقي النسناس وما أراهم بالناس، بل غمسوا في ماء الناس. وكأنه تفرس فيه آفة المخالطة، أو أخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته، أو كان أذاه بالناس، فالكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل.

وروي أن معاوية كتب إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه، فكتبت إليه: من عائشة إلى معاوية سلام عليك.

أما بعد، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضى الناس بسخط الله وكّله الله إلى الناس، ومن التمس رضي الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس»[٣]. والسلام عليك.

انظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاة مشتغلة بها، وهو مراعات الناس وطلب مرضاتهم.

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/ ١٦١) تعليقاً على نحوه في الإحياء: رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن.

(٢) رواه ابن ماجه. قاله العراقي في المغني (٤/ ٥٤).

(٣) رواه الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يسم، قاله العراقي في المغني (٤/ ٥٥).

وكتبت مرة أخرى: أما بعد فاتق الله؛ فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً، والسلام عليك. فإذا على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية، وتوسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم، فإن حكاية جميع مواعظ / الشرع مع كل أحد غير ممكن. والاشتغال بالوعظ بما هو مستغنى عنه تضييع زماناً، [٢٥٥/ب] وإن كان الواعظ يتكلم في جمع[1]، أو سأله من لا يدري باطن حاله إن يعظه، فليقصد إلى المواعظ التي تشترك كافة الخلق في الحاجة إليها. إما على العموم وإما على الأكثر فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية، فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل.

ومثاله ما روي أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري: أوصني. فقال: عليك بتقوى الله؛ فإنه رأس كل خير، وعليك بالجهاد؛ فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء، وعليك بالصمت إلاّ من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان. وقال رجل للحسن: أوصني. فقال: أعز أمر الله يعزك الله. وقال لقمان لابنه: يا بني زاحم العلماء بركبتك، ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك، وأنفق فضول تكسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً؛ وعلى أعناق الرجال كلاً، وصم صوماً يكسر شهوتك ولا تصم صوماً يضر صلاتك؛ فإن الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه، ولا تخالط ذا الوجهين. وقال أيضاً لابنه: لا بني لا تضحك من غير عجب، ولا تمش من غير أرب، ولا تسأل عما لا يعنيك، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك؛ فإنه مالك ما قدمت، ومال غيرك ما تركت. يا بني إن من يَرحم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم. وقال رجل لأبي حازم: أوصني. فقال: كل ما لو جاءك الموت عليه رايته غنيمة فالزمه، وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه. وقال موسى للخضر عليهما السلام: أوصني. فقال له: كن بساماً ولا تكن غضاباً، وكن نفاعاً ولا تكن ضراراً، وانزع عن اللجاجة، ولا تمش من غير حاجة، ولا تضحك من غير /عجب، ولا تعير الخاطئين بخطاياهم، وابك على خطيئتك يا ابن عمران. وقال رجل [٢٥٦/ب] لمحمد بن حازم ـ فيما بلغنا ـ: أوصني. فقال: اجتهد في رضاء خالقك بقدر ما تجتهد في رضاء نفسك.

ويروى أن رجلاً قال لحامد اللفاف: أوصني. فقال: اجعل لدينك غلافاً كغلاف

---

(١) في الأصل: جميع. وهو سهو من الناسخ والتصويب من إحياء علوم الدين (٤/ ٥٥).

المصحف لئلا تدنسه الآفات. قال: وما غلاف الدين؟ قال: ترك طلب الدنيا إلاّ ما لا بد منه، وترك كثرة الكلام إلاّ ما لا بد منه، وترك مخالطة الناس إلاّ فيما لا بد منه.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فخف ما خوفك الله، واحذر ما حذرك الله، وخذ مما في يدك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن أيضاً يسأله أن يعظه، فكتب إليه. . . . أما بعد، فإن الهول العظيم، والأمور المفظعات أمامك، ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب.

واعلم أن من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجى، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف أمن، ومن أمن اعتبر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فإذا زللت فارجع، إذا ندمت فاقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فامسك. قال: وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى علي بن أرطأة.

أما بعد، فإن الدنيا عدوة أولياء الله، وعدوة أعداء الله، أما أولياء الله فغمتهم، وأما أعداؤه فغرقتهم.

وكتب أيضاً إلى بعض عماله: أما بعد. فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك.

[٢٥٧/أ] واعلم أنك لا تأتي / إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، واعلم أن الله تعالى آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام. فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة، ووعظ من لا يدري وخصوص واقعته، فهذه المواعظة، كالأغذية التي تشترك الكافة في الانتفاع بها، وإذا كان طلب الطبيب أول علاج المرض، فطلب العلماء أول علاج العاصين، فهذا أحد أصول العلاج وأركانه(١).

الأصل الثاني: الصبر فإنه لا بد للعاصي أن يعالج مرارة الصبر على المعاصي فإن كان

---

(١) راجع النوع الثالث بأتم مما هنا في إحياء علوم.الدين (٤/٥٣، ٥٦).

شاباً لا يقدر على حفظ جوارحه من غلبة الشهوة عليه، فإنه ينبغي له أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يتفكر في الآيات والأخبار المخوفة التي جاءت فيه من كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام. فإذا اشتد خوفه فليتباعد عن الأسباب المهيجة لشهوته.

ومهيج الشهوة من خارج: هو حضور المشتهي والنظر إليه، وعلاجه الهرب والعزلة. ومن داخل: هو تناول لذائذ الأطعمة، وعلاجه الجوع والصوم الدائم كما قال عليه السلام: «معاشر الشبان من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فليصم؛ فإنَّ الصوم له وجاء»[1].

وهو كناية عن كسر الشهوة، والعزلة، والصوم لا يتمان إلاّ بصبر، ولا يصبر إلاّ عن خوف، ولا يخاف إلاّ عن علم، ولا يعلم إلاّ عن بصيرة وافتكار، وعن سماع وتقليد، فأول الأمر حضور مجالس الذكر، ثم الاستماع من قلب مجرد عن الشواغل، مصروف إلى السماع، ثم التفكر فيه لتمام الفهم، وينبعث من تمام الفهم الخوف. فإذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر، ويسهل عليه، وانبعثت الدواعي لمطلب العلاج، وتوفيق الله عز وجل وتيسيره من وراء ذلك، فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء، واستشعر الخوف فاتقى، وانتظر الثواب، وصدّق بالحسنى، فسييره الله لليسرى.

وأما من بخل واستغنى وكذب / بالحسنى فسييسره للعسرى، ثم لا يغني عنه ما اشتغل [٢٥٨/ب] به من لذة الدنيا مهما هلك وتردى، وما على الأنبياء عليهم السلام إلاّ شرح طريق الهدى، وإنما الآخرة والأولى لله سبحانه العلي الأعلى، فهذا علاج الشهوة.

وأما علاج تسويف التوبة: فإنما ينبغي أن يعالج بالفكر في أكثر صياح أهل النار من التسويف؛ لأن المسوف يبقي الأمر على ما ليس إليه وهو التقى، ولعله لا يبقى فإن بقي فلا يعذر على الترك غداً كما لا يعذر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة، والشهوة ليست تفارقه، غداً، بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتياد فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها، وعن هذا هلك المسوفون؛ لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون في أن الأيام متشابهة فإن ترك الشهوات فيها شاق شديد على النفس أبداً.

---

(١) بنحو هذا الطرف عند البخاري في الصحيح (٣/٧)، مسلم في الصحيح (النكاح ١، ٢)، والنسائي في المجتبى (١٦٩/٤، ١٧١)، ابن ماجه في السنن (١٨٤٥)، أحمد في المسند (٣٨٧/١، ٤٢٤، ٤٢٥)، البيهقي في السنن (٢٩٦/٤)، والدارمي في السنن (١٣٢/٢)، الحميدي في المسند (١١٥).

وما مثال المسوف إلاّ مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف، فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف، والله تعالى أعلم[(١)].

وقد روي في الحديث أن عمار بن ياسر رحمه الله سأل علي بن أبي طالب عن[(٢)] الكفر: فقال: على ماذا بني؟ فقال: على أربع دعائم: على الجفاء، والغفلة، والعمى، والشك. فمن جفى احتقر الحق، وجاهد بالباطل، ومقت العلماء، ومن عمى نسي الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، وغرته الأماني، فأخذته الحسرة والندامة، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب. والله تعالى نسأله العون والتوفيق تمت قنطرة التوبة بحمد الله تعالى وحسن عونه والصلاة والسلام على نبيه محمد عليه السلام تتلوها قنطرة العلائق، وهي أربع: [٢٥٩/أ]

إحداهن: قنطرة الدنيا، وسنشير إلى شرحها إن شاء الله تعالى وبالله التوفيق.

---

(١) راجع في هذا الأصل إحياء علوم الدين (٤/٥٦، ٥٨) وهو فيه كما هنا مع تفاوت يسير.

(٢) في الأصل: على. والتصويب من الإحياء (٤/٥٩).

القنطرة الثامنة

قنطرة الدنيا

الحمد لله الذي عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها، فنظروا إليها فإذا هي في الظاهر كأنها صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها تتزين لطلابها، حتى إذا صاروا من أحبابها، كشرت لهم عن أنيابها، فأذاقتهم قواتل سمها، ورشقتهم بصوائب سهمها، بينما أصحابها في سرور وإنعام، إذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام، ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد، ووارتهم في أكفانها[1] تحت الصعيد، إن ملكت واحداً منهم جميع ما طلعت عليه الشمس، جعلته حصيداً كأن لم تغن بالأمس، تمني أصحابها سروراً، وتعدهم غروراً. ثم يأملون كثيراً، فيبنون قصوراً، فتصبح قصورهم قبوراً، وجمعهم بوراً وسعيهم هباء منثوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، والصلاة على سيدنا محمد عبده ورسوله المبعوث إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى من كان من آله وأصحابه له في الدين ظهيراً وعلى الظالمين نصيراً، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن الدنيا دار غرور، وموطن ثبور، تزينت / لأولياء الله بزينتها ونضارتها حتى [٢٦٠/ب] تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها، واستدرجت أعداء الله مكرها ومكيدتها، واقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها فعولوا عليها، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها، فاجتنوا[2] منها حسرة تنقطع دونها الأكباد، ثم حرمتهم عن السعادة أبد الآباد. فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكايدها يستغيثون فلا يغاثون، بل يقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[3]، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[4].

(١) في الأصل: واورتهم في أكنافها. والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/١٩٧).
(٢) في الأصل: فاجتنبوا ـ والتصويب من المصدر السابق.
(٣) سورة المؤمنون الآية: ١٠٨.
(٤) سورة البقرة الآية: ٨٦.

وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها، فلا بد أولاً من معرفة حقيقة الدنيا ما هي؟ وما الحكمة في خلقها مع غرورها، وشرورها؟ فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه، ويوشك أن يقع فيه. ونشرح ذلك في خمسة أبواب:

الأول: في ذم الدنيا.

والثاني: في مدحها.

والثالث: في ذكر أمثالها.

والرابع: في حقيقتها وتفصيل معانيها.

والخامس: في تركها والزهد فيها. وبالله التوفيق.

الباب الأول
في ذم الدنيا

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ﴾(١). وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾(٢).

في أمثالها من الآيات، وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا، وصرف الخلق عنها، بل هو مقصود الأنبياء، ولم يبعثوا إلاّ بذلك فلما حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»(٣).

وعنه ﷺ أنه قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»(٤).

[٢٦١/أ] وعنه /ﷺ أنه مر بشاة ميتة فقال: «أترون هذه الشاة هينة على صاحبها؟». قالوا: نعم. قال: «الذي نفسي بيده الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على صاحبها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافر شربة [ماء]»(٥).

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨٥.

(٢) سورة النساء الآية: ٧٧.

(٣) رواه أحمد والبزار والطبراني، وابن حبان والحاكم وصححه. المغني (٣/١٩٧).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا، والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلاً. قاله العراقي في المغني (٣/١٩٧).

(٥) رواه ابن ماجة والحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذي وقال حسن صحيح =

وعنه ﷺ أنه قال: «من أشرب قلبه حب الدنيا، وركن إليها التاط منها بشغل لا ينفك عنه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وحرص لا يبلغ مداه»(١).

وروي عنه ﷺ أنه قال: «من تكن الدنيا همه يجعل الله فقره بين عينيه ويشتت عليه أمره في الدنيا ويفارقها أرغب ما كان فيها، ومن تكن الآخرة همه يجعل الله غناه في قلبه، ويكفيه حاجته من الدنيا ويفارقها أزهد ما كان فيها»(٢).

وعن زيد بن أرقم أنه قال: كنا مع أبي بكر رضي الله عنه فدعى بشراب فأُتي بماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه فسكتوا وسكت، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته. قال: ثم مسح عينيه. قالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ، ما أبكاك؟ قال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحد، فقلت: يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: «هذه الدنيا مثلت لي، فقلت لها: إليك إليك عني، ثم رجعت فقالت: إنك إن أفلتت مني، لم يفلت مني من بعدك»(٣).

وعنه ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون، إن بني إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا، ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب»(٤). وينشد:

أرى الدنيا لمن هي في يديه ... هموماً كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر ... وتكرم كل من هانت عليه
/ إذا استغنيت عن شيء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج إليه [٢٦٢/ب]
إن التقوى من الدنيا بلاغ ... ورزق المرء مبعوث إليه

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: الدنيا لإبليس مزرعة وأهلها له حراث.

= ورواه الترمذي، وابن ماجة من حديث المستورد بن شديد دون هذه القطعة الأخيرة، ولمسلم نحوه من حديث جابر. المصدر السابق. وما بين المعقوفين من الإحياء.

(١) أطراف الحديث عند: أبي نعيم في الحلية (٨/ ١٢٠)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٧٦)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٢٩٥، ٣٣٢)، والطبراني في معجمه الكبير (١/ ٢٠١).

(٢) طرفه عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٨)، أبي نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٣٤٥).

(٣) رواه البزار بسند ضعيف بنحوه، والحاكم وصحح إسناده، وابن أبي الدنيا والبيهقي من طريقه بلفظه. المغني (٣/ ١٩٨).

(٤) رواه الترمذي، وابن ماجة من حديث أبي سعيد دون قوله: إن بني إسرائيل... الخ، والشطر الأول متفق عليه، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث الحسن مرسلاً بالزيادة التي في آخره ـ (المغني ٣/ ١٩٨).

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال: «لا تتخذوا الدنيا رَبًّا فتتخذكم عبيداً اكنزوا كنزكم من لا يضيعه؛ فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفات وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفات».

وعنه ﷺ أنه قال: «يا معشر الحواريين إني قد اكببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي؛ فإن من خبث الدنيا أن الله يعصى فيها وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها فاعبروا الدنيا ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً».

وقال أيضاً: بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا تنازعكم فيها النساء والملوك. أما الملوك: فلا تنازعوهم الدنيا؛ فإنهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم. وأما النساء: فاتقوهن بالصوم والصلاة.

وقال أيضاً: الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه. وقال بعض الشعراء:

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم ... وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا ما نلت بالأمس لذة ... فأفنيتها هل أنت إلا كحالم
فمن غافل عنها وليس بغافل ... ومن نائم عنها وليس بنائم

وروي عنه ﷺ أنه قال: «من هوان الدنيا على الله ألا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها».

وفي الخبر: أن الخضر قال لموسى عليهما السلام: يا موسى أعرض عن الدنيا وأنبذها وراءك؛ فإنها ليست لك بدار، ولا فيها محل قرار، وإنما جعلت بلغة للعباد / ليتزودوا منها للمعاد. [٢٦٣/أ]

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها»[1].

وروي أن سليمان عليه السلام مر في مركبه والطير تظله، والجن والإنس عن يمينه

(١) أطراف الحديث عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ٣٨)، والمتقى الهندي في الكنز (٦١٠٢)، السيوطي في جمع الجوامع (٤٩٦٧)، وفي الدر المنثور (٦/ ٣٤١).

ويساره. قال: فمر بعابد من عباد بني إسرائيل فقال: والله يا ابن داود لقد أتاك الله ملكاً عظيماً. فقال له سليمان عليه السلام: تسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطي ابن داود، فإن ما أعطي ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى.

وعنه ﷺ أنه قال: «لما نزل قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾[1] يقول ابن آدم: مالي مالي وهل لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت».

وعنه ﷺ أنه قال: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له ولها يسعى من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم عنده، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له»[2].

وعنه ﷺ أنه قال: «من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربع خصال: همّاً لا ينقطع عنه أبداً، وشغلاً لا ينفك منه أبداً، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً»[3].

وعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعاً ما فيها؟». قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بيدي وأتى بي وادياً من أودية المدينة، فإذا مزبلة فيها رؤس ناس وعذرات، وخرق، وعظام بلا جلد. ثم قال: «يا أبا هريرة هذه الرؤوس تحرص كحرصكم وتأمل كأملكم، ثم هي اليوم عظام بلا جلد ثم هي صائرة رفاتاً وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها، ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس / يتحامونها، [٢٦٤/ب] وهذه الخرق البالية. كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا يتعجبون بها ويقطعون عليها أطراف البلاد[4]، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك»[5]. قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا.

---

(١) سورة التكاثر الآية: ١، والحديث رواه مسلم من حديث عبد الله بن الشخير قاله العراقي في المغني (١٩٨/٣: ١٩٩).

(٢) رواه أحمد من حديث عائشة مقتصراً على هذا «ولها يجمع من لا عقل له». دون بقيته، وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه: «ومال من لا مال له» وإسناده جيد. المغني (١٩٩/٣).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر دون قوله: «وألزم الله قلبه»... الخ، وكذلك رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس بإسناد ضعيف، والحاكم من حديث حذيفة، وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٤) في الإحياء: ينتجعون عليها أطراف البلاد.

(٥) لم أجد له أصلاً. قاله العراقي في المصدر السابق.

ويروى أن الله عز وجل لما أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض قال له: يا آدم ابن للخراب، ولد للفناء واجمع للذهاب.

ويقال: مكتوب في صحف إبراهيم عليه السلام يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم، إني قد قذفت في قلوبهم بغضك والصدود عنك، وما خلقت خلقاً أهون علي منك، كل شأنك صغير، وإلى الفناء تصيرين، قضيت عليك يوم خلقتك ألا تدومي لأحد ولا يدوم لك أحد، وإن بخل بك صاحبك وشح عليك، بغضتك يوم خلقتك، طوبى للأبرار الذين أطلعوك من قلوبهم على الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة، طوبى لهم ما لهم عندي من الجزاء إذا وفدوا إلي من قبورهم [إلا](١) لنور يسعى أمامهم، والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي. وقال بعض العلماء: يؤتى بالدنيا يوم القيامة فيؤخذ منها ما كان لله خالصاً ويلقى ما بقي في النار.

وقال لقمان لابنه: يا بني الدنيا بحر عَميق قد غرق فيها ناس كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها إيمان بالله، وشراعها التوكل على الله، لعلك تنجو ولا أراك ناجياً.

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر إليها وتقول يوم القيامة: يا رب اجعلني لأدنى أوليائك نصيباً اليوم، فيقول: اسكتي يا لا شيء إن لم أرضك لهم في الدنيا فكيف أرضاك لهم اليوم»(٢). وأنشد:

[٢٦٥/أ] / تسمَّع من الأيام إن كنت حازماً ... فـإنـك فيهـا بيـن نـاه وآمـر

فلن تعدل الدنيا وجناح بعوضة ... ولا وزن ذر من جناح لطائر

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منها فليس بضائر

فما رضي الدنيا ثوابا لمؤمن ... ولا رضي الدنيا عقاباً لكافر

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدنيا يومان يوم فرح، ويوم هم، وكلاهما زائل عنك، فدعوا ما يزول، وأتعبوا أنفسكم في العمل لما لا يزول».

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: لا تنازعوا أهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم، فلا دنياهم أصبتم ولا على دينكم أبقيتم.

وقال بعض الحكماء: الدنيا إما مصيبة موجعة، وإما منية مفجعة. وأنشدوا:

---

(١) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (١٩٩/٣).

(٢) قال العراقي في المغني (١٩٩/٣): الحديث تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار ولم أجد باقيه.

كـــل دنيــــا فـــإنهـــا يعقـــب الخيـــر شـــرهـــا
هـــي أم تعـــق مـــن نسلهـــا مـــن يبـــرهـــا
كـــل نفـــس فـــإنهـــا تتقـــي مـــن يضـــرهـــا
والمنـــايـــا تســـوقهـــا والأمـــانـــي تغـــرهـــا
وإذا استحلـــت الجنـــا أعقـــب الحلـــو مـــرهـــا
يستـــوي فـــي ضـــريحهـــا عبـــد أرض وحـــرهـــا

ويروى في الأخبار: أن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة تحركت معدته بخروج الثفل، ولم يكن ذلك مجعولاً في شيء من أطعمة الجنة إلاّ في هذه الشجرة؛ فلذلك نهى عن أكلها. قال فجعل يدور في الجنة، فأمر الله ملكاً يخاطبه. قال: قل له أي شيء تريده. فقال آدم: أريد أن أضع ما في بطني من الأذى. فقيل للملك: قل له في أي موضع تضعه؟ أعلى العرش أم على السرير؟ أم على الأنهار؟ أم تحت ظلال الأشجار؟ هل ترى ها هنا موضعاً يصلح لذلك؟ ولكن أهبط إلى الدنيا.

ويروى عن رسول الله ﷺ / أنه قال: «ليجيئن أقوام يوم القيامة لهم من الحسنات أمثال [٢٦٦/ب] جبال تهامة فيجعلها الله هباء منثوراً ويصيرهم إلى النار». قالوا: يا رسول الله يصلون؟ قال: «نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون وهناً من الليل ولكنهم إذا لاح لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه فأحبط الله أعمالهم إذ لم تكن لهم سريرة»[1].

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد.

ويروى أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام: يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ قال: كداً ولها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر.

وقيل لعيسى عليه السلام: لو اتخذت بيتاً؟ قال: يكفينا خلقان من قبلنا.

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «أحذروا الدنيا؛ فإنها سحر من هاروت وماروت»[2].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية من حديث سالم مولى أبي حذيفة بسند ضعيف، وأبو منصور الديلمي من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً. قاله العراقي في المغني (٣/ ٢٠٠).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب من طريقه من رواية أبي الدرداء الرهاوي مرسلاً، وقال البيهقي إن بعضهم قال عن أبي الدرداء عن رجل من الصحابة. قاله الذهبي لا يدري من أبو الدرداء قال: وهذا =

وعن الحسن أنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم فقال: «هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً؟».

وفي حديث آخر أنه قال لأصحابه: «ألا هل فيكم أحد يريد أن يعطيه الله علماً بغير تعلم، وهدى بغير هداية ويذهب العمى عن قلبه ويجعله بصيراً». قالوا: كلنا يريد ذلك بآبائنا أنت وأمهاتنا يا رسول الله. قال: «من زهد في الدنيا وقصر أمله فيها، أعطاه الله علماً بغير تعلم، وهدى بغير هداية، وأذهب العمى عن قلبه، وجعله بصيراً، ومن رغب في الدنيا، وقصر أمله فيها، أعطاه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية، وأذهب العمى عن قلبه، وجعله بصيراً، ومن رغب في الدنيا وأطال أمله فيها أعقبه الله جهلاً، وأعمى قلبه على قدر ذلك، ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلاّ بالقتل والتجبر، ولا الغنى إلاّ بالعجز والبخل، ولا المحبة إلاّ باتباع الهوى، إلا من أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل، وهو يقدر على العز، لا يريد بذلك إلاّ وجه الله أعطاه الله ثواب سبعين[1] صدّيقاً»[2].

[٢٦٧/أ] ويروى أن عيسى عليه السلام اشتد به المطر والرعد / والبرق يوماً فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه، فرفعت له خيمة من بعيد، فأتاها، فإذا فيها امرأة، فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل، فأتاه، فإذا فيه أسد، فوضع يده على رأسه فقال: إلهي جعلت لكل شيء مأوى، ولم تجعل لي مأوى. فأوحى الله إليه مأواك في مستقر رحمتي لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف سنة، يوم منها كعمر الدنيا، ولآمرن مناديا ينادي أين الزهاد في الدنيا؟ زوروا عرس الزاهد عيسى بن مريم.

وقال عليه السلام: ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها، ويأمنها وتغره، ويثق بها وتخذله[3]، ويل للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون، وفارقتهم ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون، ويل لمن أصبحت الدنيا همه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غداً بذنبه؟

وقيل: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى ما لك ولدار الظالمين إنها ليست

= منكر لا أصل له. العراقي في المصدر السابق.

(١) في الإحياء (٣/ ٢٠٠) خمسين بدل سبعين.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه هكذا مرسلاً، وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم قاله العراقي في المغني (٣/ ٢٠٠).

(٣) في الأصل: تخلد له. والتصويب من الأحياء (٣/ ٢٠٠).

لك بدار، أخرج منها همك، وفارقها بعقلك، فبئست الدار، هي إلاّ لعامل[١]، يعمل فيها فنعمت الدار هي يا موسى: إني مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم.

وروي أن رسول الله ﷺ: بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاءه بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافق صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلى عليه السلام انصرف فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة يقدم بشيء». قالوا: أجل يا رسول الله. قال: «فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فتهلكم كما أهلكتهم»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج لكم من بركات الأرض». قيل: ما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا»[٣]. [٢٦٩/أ]

وعنه ﷺ أنه قال: «لا تشغلوا / قلوبكم بذكر الدنيا»[٤]. فنهى عن ذكرها فضلاً عن [٢٦٨/ب] إصابة عينها، وأنشد الماوردي عن أبي العتاهية:

هـي الـدار دار الأذى والقـذى ... ودار العنـاء ودار الغيـر
فلـو نلتهـا بحـذافـرهـا ... لمت ولـم تقـض منهـا الـوطـر
أيـا مـن يـؤمـل طـول الحيـاة ... فطـول الحيـاة عليـه ضـرر
إذا مـا كبـرت وبـان الشبـاب ... فلهـا خيـر فـي العيـش بعـد الكبـر

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بقرية فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق. فقال: يا معشر الحواريين إن هؤلاء ماتوا عن سخطه ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا. فقالوا: يا روح الله وددنا أننا علمنا أخبارهم. فسأل ربه فأوحى الله تعالى إليه إذا كان الليل فنادهم فيجيبوك، فلما كان الليل أشرف على نشز، ثم نادى: يا أهل القرية، فأجابه مجيب: لبيك يا روح الله. فقال: ما حالكم وما قصتكم؟ قالوا: بتنا في العافية فأصبحنا في الهاوية. قال: وكيف ذلك؟ قالوا:

---

(١) في الأصل: فبئست الدار هي دار الأعمال. وفي الإحياء فبئست الدار هي إلاّ العمال. فضبط العبارة وحذفت الزائد.

(٢) متفق عليه من حديث عمرو بن عوف البدري. العراقي في (المغني (٣/ ٢٠١).

(٣) متفق عليه. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٤) رواه البيهقي في الشعب، من طريقه وابن أبي الدنيا من رواية محمد بن النضر الحارثي مرسلاً. المصدر السابق.

بحبنا الدنيا وطاعتنا لأهل المعاصي. قال: وكيف كان حبكم للدنيا؟ قال: حب الصبي لأمه، إذا أقبلت فرحنا وإذا أدبرت حزنا وبكينا. قال: فما بال أصحابك لم يجيبوني. قال: لأنهم ملجمون بلجام من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد. قال: فكيف أجبتني أنت من بينهم. قال: لأني كنت فيهم ولم أكن معهم. فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم فأنا معلق على شقير جهنم، لا أدري أنجو منها أم أكبكب فيها؟ فقال المسيح عليه السلام للحواريين: لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الله في الدنيا والآخرة. وأنشِدوا:

يـا راقـد الليـل مسـروراً بـأولـه	إن الحـوادث قـد يطـرقـن أسحـارا
أفنـى القـرون التـي كـانـت منعمـة	كـر الجـديـديـن إقبـالاً وإدبـارا
يـا مـن يعـانـق دنيـا لا بقـاء لهـا	يمسي ويصبـح فـي دنيـاه سفـارا
/ هـلا تـركـت مـن الـدنيـا معـانقـة	حتـى تعـانـق فـي الفـردوس أبكـار
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها	فينبغـي لـك أن لا تـأمـن النـار

وعن أنس قال: كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق، فجاء أعرابي بناقة له فسبقتها، فشق ذلك على المسلمين فقال رسول الله ﷺ: «حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلاّ وضعه»[1]. وأنشدوا:

يـا خـاطـب الـدنيـا إلـى نفسهـا	تنـح عـن خطبتهـا تسلـم
إن التـي تخطـب غـدارة	قـريبـة العـرس مـن المـأتـم

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: من ذا الذي يبني على موج البحر داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً.

وقيل لعيسى عليه السلام: علمنا عملاً واحداً يحبنا الله تعالى به. قال: ابغضوا الدنيا يحبكم الله.

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة»[2]. ثم قال أبو داود: من قبل نفسه لو تعلمون ما

---

(١) رواه البخاري. قاله العراقي في المغني (٣/٢٠١).

(٢) رواه الطبراني دون قوله: «لهانت...» الخ، وزاد: «ولخرجتم إلى الصعدات..» الحديث. وزاد الترمذي، وابن ماجة من حديث أبي ذر: «وما تلذذتم بالنساء على الفرش».. وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس، وأفراد البخاري من حديث عائشة. قاله العراقي في المصدر السابق.

أعلم لخرجتم إلى الصعداء تبكون على أنفسكم ولتركتم أموالكم لا حارس لها، ولا راجع إليها إلا ما لا بد لكم منه، ولكن تغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة، وحضرها الأمل، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم، وصرتم كالذين لا يعلمون، فبعضكم شر، من البهائم التي لا تدع هواها مخافة ما في عاقبته ما لكم لا تتحابون ولا تتناصحون وأنتم إخوان على دين واحد، فما فرق بين أهوائكم إلاّ خبث سرائركم، ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: يا معشر الحواريين ارضوا بدنى الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا، وفي معناه قيل:

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
/ فاستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين [٢٧٠/ب]

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: يا طالب الدنيا لتبرّ تركك الدنيا أبر، وعن النبي ﷺ أنه قال: «لتأتينكم الدنيا بعدي تأكل أيمانكم كما تأكل النار الحطب الرقيق»(١).

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: أن يا موسى لأتركنن إلى حب الدنيا فلا تأتيني بكبيرة هي أشد عليك منها.

ويروى أن موسى عليه السلام مر برجل وهو يبكي. فقال موسى: يا رب عبدك يبكي من مخافتك. فقال: يا ابن عمران لو نزل دغامه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى تسقط، لم اغفر له وهو يحب الدنيا.

وأما الآثار: وعن علي أنه قال: من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلباً، ولا عن النار مهرباً: من عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الأخوة فطلبها.

وعن الحسن أنه قال: رحم الله أقواماً كانت الدنيا وديعة عندهم، فأدوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا خفافاً.

وعنه أيضاً: من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره. وينشد:

طلق الدنيا ثلاثاً وأطلبن زوجاً سواها
إنها قحبة سوء لا تبالي من أتاها

(١) لم أجد له أصلاً. العراقي في المغني (٣/ ٢٠٢).

أنـــت تعطيهـــا منـــاهـــا وهـــي تعطيـــك قفـــاهـــا

وعن الفضيل أنه قال: طالت فكرتي في هذه الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾[١] إلى قوله: ﴿صَعِيداً جُرُزاً﴾[٢].

وقال بعض الحكماء: إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلاّ عشاء ليلة وغداء يوم فلا تهلك نفسك في أكلة وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة. فإن رأس مال الدنيا / الهوى وربحها النار. [٢٧١/أ]

وقيل لبعض الرهبان: كيف ترى الدهر؟ قال: يهلك الأبدان، ويجدد الآمال، ويقرب المنية، ويبعد الأمنية. قيل: فما حال أهلها؟ قال: من ظفر به تعب، ومن فاته نصب. وقد قيل:

ومـن يحمـد الـدنيـا بعيـش يسـره فسوف لعمري عن قليـل يلـومهـا
وإذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلـت كـانـت كثيـر همـومهـا

وقال بعض الحكماء: لو كانت الدنيا ولم أكن فيها، وذهبت الدنيا ولم أكن فيها، فلا أسكن إليها، فإن عيشها نكد، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل، أما نعمة زائلة، أو بلية نازلة، أو منية قاضية.

وقال بعضهم: من عيب الدنيا أنها لا تعطي أحد ما يستحق لكنها إما أن تزيده أو تنقصه.

وقال بعض العلماء: أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها.

وعن أبي سليمان أنه قال: من طلب الدنيا على المحبة لها لم ينل منها شيئاً إلاّ أراد أكثر، وليس لها غاية، ولا لهذا نهاية.

وروي أن رجلاً قال لأبي حازم: إني أشكو إليك حب الدنيا وليست لي بدار. فقال: انظر ما أتاك الله منها فلا تأخذه إلاّ من حله، ولا تضعه إلاّ في حقه، ولا يضرك حب الدنيا. قال: وإنما قال هذه لأنه لو أخذ نفسه بذلك لأتعبه حتى يتبرم ويطلب الخروج منها.

وعن يحيى بن معاذ أنه قال: الدنيا حانوت شيطان فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيء فيأخذك.

---

(١) سورة الكهف الآية: ٧.
(٢) سورة الكهف الآية: ٨.

عن الفضيل أنه قال: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة بخزف يبقى لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى فكيف وقد أخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى. وينشد:

إنما الدنيا غرور ليس في الدنيا ثبوت
إنما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت
/حاجة العاقل فيها ستر عورات وقوت [٢٧٢/ب]

وعن أبي حازم أنه قال: إياكم والدنيا، فإنه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظماً للدنيا. فيقال: هذا عظم ما حقره الله. وعن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع، وأعوذ بك من شر هؤلاء الأربعة هل ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغياً، أو فقراً منسياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر».

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: أوحى الله سبحانه إلى الدنيا من خدمني فأخدميه، ومن خدمكي فاستخدميه. وقال أبو العتاهية:

إن الزمان وإن لا ن لأهله لمخاشن
تخطو به المتحركا ت كأنهن سواكن

وقال: وسمع رجل رجلاً يقول لصاحبه: لا أراك الله مكروهاً. فقال له: كأنك دعوت عليه بالموت إن صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد أن يرى مكروهاً وينشد:

تروح لك الدنيا بغير الذي غدت وتحدث من بعد الأمور أمور
وتجري الليل باجتماع وفرقة وتطلع فيها أنجم وثغور
فمن ظن أن الدهر باق سروره فذاك محال لا يدوم سرور
عفى الله عن من صير الهم واحد وأيقن أن الدائرات تدور
فسيرك يا هذا كسير سفينة بقوم جلوس والقلوع تطير

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مردودة. ويُنشد للبيد بن ربيعة:

وما المال والأهلون إلا وديعة فلا بد يوماً أن ترد الودائع

/ وعن ابن السماك أنه قال: من جرعته الدنيا بحلاوتها بميله إليها، جرعته الآخرة [٢٧٣/ب] مرارتها بتجافيه عنها.

وقيل لزاهد: قد خلعت الدنيا فكيف سجنت نفسك عنها؟ فقال: إني أيقنت أني أخرج منها كارهاً فرأيت أن أدعها طائعاً.

وقال لقمان لابنه: يا بني بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً.

وقال مطرف بن الشخير: لا تنظر إلى خفض عيش الملوك وليث رياشهم، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم.

وعن ابن عباس أنه قال: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمنين، وجزء للمنافقين، وجزء للكافرين، فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

وقال بعضهم: الدنيا جيفة، فمن أراد شيئاً منها فليصبر على معاشرة الكلاب. وقيل لإبراهيم ابن أدهم: كيف أنت؟ فقال:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه ... وجاد بدنياه لما يتوقع[1]

وعن مالك بن دينار أنه قال: اتقوا السحارة؛ فإنها تسحر قلوب العلماء ـ يعنى الدنيا ـ.

وقال بعض البلغاء: من نكد الدنيا ألا تبقى على حالة، ولا تخلو من استحالة تصلح جانباً بإفساد جانب وتسر صاحباً بمساءة صاحب، فالكون فيها خطر، والثقة فيها غرر.

ويروى أن أبا جعفر المنصور كان نائماً فأتاه آت في منامه فقال:

كأني بهذا القصر قد باد أهله ... وأوحش منه أهله ومنازله
وصار عميد القصر من بعد بهجة ... إلى حدث تبنى عليه جنادله
فلم يبق إلا ذكره وحديثه ... تنادي بليل معولات تواكله

قال: فاستيقظ مرعوباً ثم أنشد:

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت ... سنوك وأمر الله لا بد واقع
/فهل كاهن أعددته أو منجم ... أبا جعفر عنك المنية دافع [٢٧٤/أ]

وعن أبي أمامة الباهلي أنه قال: لما بعث محمد عليه الصلاة والسلام أتت إبليس

(١) راجع في كل الآثار والأشعار الواردة هنا إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (٣/٢٠٢: ٢٠٣ وما بعدها) وأكثر مما هنا.

جنوده. فقالوا: قد بعث نبي وأخرجت أمة. قال: هل يحبون الدنيا؟ قالوا: نعم. قال: لئن كانوا يحبونها ما أبالي أن لا يعبدوا الأوثان، وأنا أغدوا عليهم وأروح بثلاثة: أخذ المال من غير حله، وإنفاقه في غير حله، وإمساكه في غير حقه، والشر كله لهذا اتبع.

وقيل لعلي بن أبي طالب: صف لنا الدنيا. قال: وما أصف، من دار أولها عناء، وآخرها فناء، حلالها حساب، وحرامها عقاب، من صح فيها سقم، ومن مرض فيها ندم، ومن استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن سعى إليها فاتته، ومن قعد عنها أتته، ومن نظر إليها أعمته، ومن نظر بها أبصرته.

وقال وهب بن منبه: مثل الدنيا والآخرة مثال ضرتين إن أرضيت أحدهما أسخطت الأخرى: وأنشدوا:

أيها المرء إنّ دنياك بحر ... طامح موجه فلا تأمننها
وسبيل النجاة فيها منير ... وهو أخذ الكفاف والقوت منها

وقال وهب بن منبه: أصيب على عمدان وهو قصر يوسف بن ذيزان[1] بأرض صنعاء باليمن، وكان من الملوك الجلة مكتوب القلم السرياني فترجم بالعربية فإذا هي هذه الأبيات الجليلة والمواعظة العظيمة:

باتوا على قلل الجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا من أعالي عز معقلهم ... وأسكنوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل
فافصح القبر عنهم حين سائله ... تلك الوجوه عليها الدود تقتتل
قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

وعن الحسن البصري أنه قال: الدنيا مطية المؤمن، عليها يرتحل إلى ربه فأصلحوا مطاياكم تبلغوا إلى إلى ربكم.

وقال يحيى بن معاذ[2]: إذا أصبحت نفسك بالدنيا مشغوفة، أصبحت الخيرات عنك مصروفة. وقال بعض الحكماء: الدنيا وإن بقيت لك لم تبق لها. وقال بعضهم: الدينا دار

(١) كذا في الأصل، واحسبه سيف بن ذي يزن.
(٢) سبق أن ترجمت له وهذه الآثار أغلبها من كتاب الإحياء غير أن الأشعار أغلبها ليس منه.

تجارة، فالويل لمن تزود منها الحسرات. ويُنشد:

إن الـذيـن اشتـروا الـدنيـا بـآخـرة لـم يربحـوا في افتراق البيع بـل خسروا
بـاعـوا جـديـداً جميـلاً بـاقيـا حسنـاً بيـابـس خلـق يـا بئـس مـا اتجـروا

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: الدنيا من ظفر بها مات عليها.

وعن الحسن البصري: نعمت الدار والله كانت الدنيا للمؤمن عمل فيها قليلاً، وأخذ منها زاده إلى الجنة، وبئست الدار، والله كانت الدنيا للكافر تمتع فيها قليلاً وأخذ منها زاده إلى النار.

وعن أبي سليمان أنه قال: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة؛ لأن الآخرة كريمة، والدنيا لئيمة.

وهذا تشديد عظيم، ونرجو أن يكون ما ذكره بعض السلف صحيحاً وذلك أنه قال: الدنيا والآخرة يجتمعان في القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعاً له.

وعن مالك بن دينار أنه قال: بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك.

وروي أن رجلاً قال للحسن: ما تقول في رجل أتاه الله مالاً فهو يتصدق، ويصل منه، ويحسن فيه أله أن يتعيش منه يعني بالنعم. قال: لو كانت الدنيا كلها له ما كان له منها إلا الكفاف، ويقدم ذلك ليوم فقره[1]. ويُنشد:

أيهـا المتعـب جهـلاً نفسـه تطلـب الـدنيـا حـريصـاً جـاهـداً
لا لـك الـدنيـا ولا أنـت لهـا فـاجعـل الهميـن همـاً واحـداً

[٢٧٦/أ] / وعن الفضيل أنه قال: لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت عليَّ حلالا لا أحاسب بها في الآخرة، لكنت أقذرها كما يقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه. وقيل: قدم عمر رضي الله عنه الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بناقة مخطومة بحبل فسلّم وسأله، ثم أتى منزله ولم ير فيه إلا سيفه وترسه ورمحه، فقال له عمر: لو اتخذت متاعاً. فقال له: يا أمير المؤمنين إن هذا يبلغنا المقيل.

وقال بعض العلماء: خذ من الدنيا لبدنك، ومن الآخرة لقلبك. وعن الحسن قال: والله

---

(١) الأثر في الإحياء (٣/ ٢٠٤) بنحو مما هنا.

لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام، بعد عبادتهم الرَّحمٰن، بحبهم الدنيا.

وعن وهب أنه قال: قرأت في بعض الكتب: الدنيا غنيمة الأكياس وعقبة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها، فسألوا الرجعة فلم يرجعوا.

وقال لقمان لابنه: يا بني إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها أقرب إلى دار تباعد منها.

وعن سعيد بن مسعود[١] أنه قال: إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته، وهو بذلك راضٍ، فذلك المغبون الذي يلعب بوجهه ولا يشعر.

وعن عمرو بن العاص أنه قال على المنبر: والله وما رأيت قوماً قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ أزهد فيه منكم، والله ما مر برسول الله ﷺ ثلاث إلاّ والذي عليه أكثر من الذي له[٢].

وعن الحسن أنه تلى هذه الآية: ﴿لَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾[٣]. فقال: من قال هذه؟ فقال: من خلقها فهو أعلم بها، إياكم إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الأشغال لا يفتح الرجل على نفسه باب شغل إلاّ أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب. وقال أيضاً: مسكين ابن أدم رضي بدار حلالها حساب، وحرامها عقاب، إن أخذه من حله حوسب بنعمته، وإن أخذه من حرام عذب /به ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله يفرح بمصيبة في [٢٧٧/ب] دينه، ويجزع عن مصيبة في دنياه.

ويروى أنه قدم على معاوية رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله: عن الدنيا كيف وجدها؟ فقال: سنيات بلاء وسنيات رخاء، يوم فيوم، وليلة فليلة، يولد ولد ويهلك هالك، فلولا المولود لباد الخلق، ولولا الهلاك ضاقت الدنيا بمن فيها. قال له: سل ما شئت. قال: عمر مضى فترده أو أجل حضره فتدفعه؟ قال: لا أملك ذلك. قال: لا حاجة لي إليك.

وقال داود الطائي: يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بإنقضائه أجلك، ثم سوفت بعملك كأن منفعته لغيرك.

---

(١) هو سعيد بن مسعود بن عبد الرحمٰن أبو عثمان المروزي المحدث المسند أحد الثقات. توفي سنة إحدى وسبعين ومائتين وكان من أبناء التسعين. الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٠٤).

(٢) رواه الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه. قاله العراقي في المغني (٣/ ٢٠٤).

(٣) سورة لقمان الآية: ٣٣.

وقال بعض العلماء: من سأل الله الدنيا فإنه يسأله طول الوقوف بين يديه.

وعن أبي حازم أنه قال: ما في الدنيا شيء يسرك إلاّ وقد ألصق به شيء يسؤك.

وعن الحسن أنه قال: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: أنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أمل ولم يحسن الزاد لما قدم عليه، وقيل لبعض العباد: قد بلغت الغنى. قال: إنما نال الغنى من أعتق من رق الدنيا.

وعن أبي سليمان أنه قال: لا يصبر عن شهوات الدنيا إلاّ من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة.

وعن مالك بن دينار أنه قال: اصطلحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضه بعضاً، ولا يدعنا الله تعالى أنه قال: إصطلحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضاً، ولا يدعنا الله تعالى على هذا فليت شعري، أي عذاب الله ينزل بنا.

وعن أبي حازم أنه قال: يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة.

وعن الحسن أنه قال: أهينوا الدنيا فوالله ما هي لأحد بأهنأ منها لمن أهانها.

وقال أيضاً: إذا أراد الله بعبد خيراً أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسك فإذا نفذ عاد عليه، وإذا هان عليه عبد خيراً أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسك فإذا نفذ عاد عليه، وإذا هان عليه عبد بسط له بسطاً، وكان بعضهم يدعو: يا ممسك السماء أن تقع على الأرض أمسك عني الدنيا.

[٢٧٨/أ] وعن محمد بن المنكدر قال: أرأيت لو أن رجلاً صام الدهر/ لا يفطر، وقام الليل لا يفتر، وتصدق بماله وجاهد في سبيل الله، وأجتنب محارم الله، غير أنه يؤتي به يوم القيامة، فيقال: هذا عظم في عينيه ما صغره الله، وصغر في عينيه ما عظمه الله[١]. وقال بعض الشعراء:

ألا إنما الدنيا مقيل لراكب ... قضى وطراً من منزل ثم هجرا
فراح ولا يدري عَلامَ قدومه ... ألا كل ما قدمت تلقى موفراً

وقيل ليحيى بن معاذ: لمن الدنيا؟ قال: لمن تركها. قيل: فلمن الآخرة؟ قال: لمن طلبها، ومن ادعى أنه يجتمع في قلبه حب الدنيا وحب خالقها فقد كذب.

وقال بعض السلف: رجلان يعذبان على الدنيا. رجل أُعطي الدنيا فهو فيها متعب

(١) الأثر في الإحياء بنحو مما هنا والشعر لم يورده (٣/ ٢٠٥).

مشغول، ورجل زويت عنه الدنيا فنفسه تتقطع عليها حسرات. ويُنشد في ذم الدنيا:

ومنتظر للموت في كل ساعة يشيد ويبني دائماً ويحصن
له حين يبنيه حقيقة موقن وأفعاله أفعال من ليس يُقن
عياناً كإنكار وكالجهل علمه بمذهبه في كل ما يتيقن

وقد قال لقمان لابنه: يا بني لا تركن إلى الدنيا تشغل قلبك بحبها؛ فإنك لم تخلق لها، ولم تخلق لك، وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها؛ لأنه لم يجعل نعيمها ثوباً للمطيعين، ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين.

وقال الحسن البصري: الدنيا مطية إن ركبتها حملتك، وإن حملتها قتلتك. وقيل له: ما بال الناس يكرمون صاحب الدنيا، ولا فضل له عليهم؟ قال: لأن معشوقهم عنده. ويُنشد في ذم الدنيا:

لولا شماتة أعداء ذوي حسد وإن أنال ينفع من يرجيني
لما خطبت إلى الدنيا محاسنها ولا بدلت لها عرضي ولا ديني
لكن منافسة الأكفاء تحملني على أمور أراها سوف ترديني
وقد خشيت بأن أبقى بمنزلة لا دين عندي ولا دنيا تواتيني

[٢٧٩/ب] / وقال آخر:

عيني لحين تدير مقلتها تطلب ما سواها لترضيني
أف لدنيا أبت تواتيني إلاّ ينقضي لها عرى ديني

وقيل لمحمد بن واسع: إنك لترضى بالدون. فقال: إنما يرضى بالدون من رضي بالدنيا. وعن شقيق البلخي أنه قال: عملت في القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا من الآخرة فوجدت ذلك في حرفين وهو قوله عز وجل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[١].

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: ألا إن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، وإلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، فإذ أتوا منها ما خشوا أن يميت قلوبهم، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم.

---

(١) سورة القصص الآية: ٦٠.

وعنه أيضاً أنه قال: لا يستقيم حُب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد.

وقال بعضهم[١]: الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نحبها فكيف لو تحببت إلينا؟!!

وقال بعض الحكماء: الدنيا دار خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها. وأنشدوا:

ألا إنما الدنيا غداة أيكة إذا أخضر منها جانب جف جانب

هي الدار ما الآمال إلا فجائع عليها ولا اللذات إلا مصائب

ولا تكتحل عينيك منها بعبرة على ذاهب منها فإنك ذاهب

وقال أبو حازم: اشتدت علينا مؤنة الدنيا والآخرة، أما الآخرة فإنك لا تجد عليها أعواناً، وأما الدنيا فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلاّ وجدت فاجراً سبقك إليها.

وعن أبي هريرة أنه قال: الدنيا موقوفه بين السماء والأرض كالسقاء البالي، تنادي ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها. يا رب لم تبغضني؟ فيقول لها: اسكتي يا لا شيء/ اسكتي يا لا شيء. [٢٨٠/أ]

وقال ابن المبارك: حب الدنيا والذنوب في القلب قد احتشوته فمتى يصل الخير إليه.

وقال وهب بن منبه: من فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرّ الشيطان من ظله، ومن غلب علمه على هواه فهو الغالب.

وعن يحيى بن معاذ أنه قال: العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه[٢].

وقال بعض السلف: من أراد أن يستغنى، بالدنيا عن الدنيا كان كمن يطغى النار بالتبن.

وقال بعضهم: من أقبل على الدنيا أحرقته[٣] نيرانها يعني الحرص حتى يصير رماداً. ومن أقبل على الآخرة صفته نيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به. ومن أقبل على الله أحرقته نيران التوحيا. فصار جوهراً لا حدّ لقيمته.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال في بعض خطبه: «أيها الناس ألا إن الأيام تطوى، والأعمال

---

(١) في الأصل: بعض. والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/ ٢٠٥).

(٢) الأثر والآثار السابقة قبله وردت كلها بإحياء علوم الدين في المواضع التي أشرت فيها إلى بعض التصويبات وقبلها وبعدها غير أن الأشعار أتى بها المؤلف من غيره أو قد تكون منه من مواضع متفرقة.

(٣) في الأصل: احترقته. والتصويب من الإحياء (٣/ ٢٠٦).

تحصى، والأبدان في الثرى تبلى، وإن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد ويأتيان بكل موعود».

وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات. وأنشد لعبد الله بن المعتز:

نسير إلى الآجال في كل ساعة　　وأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم أر مثل الموت حقاً كأنه　　إذا ما تخطته الأماني باطل
فما أقبح التفريط في زمن الصبا　　فكيف به والشيب في الرأس شامل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى　　فعمرك أيام تعد قلائل

ويروى أن الله تعالى لما بعث موسى وهارون إلى فرعون قال: لا يروعكما لباسه الذي لبس؛ فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرق ولا يتنفس إلا بإذني، ولا يعجبنكما ما متع به منها، فإنما هي زهرة الحياة الدنيا، وزينة المترفين، ولو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون / حين يراها أن مقدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت، ولكني أرغب بكما عن ذلك فأزوي [٢٨١/ب] ذلك عنكما. وكذلك أفعل بأوليائي إني لأذودهم كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مواضع الهلكة وإني لأجنبهم سلوتها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن منازل الغرة وما ذلك لهوانهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً، إنما يتزين لي أوليائي بالذل والخشوع والخوف والتقى ينبت في قلوبهم فيظهر على أبدانهم، فهي ثيابهم التي يلبسون، ودثارهم الذي يظهرون، وضميرهم الذي يستشعرون، وتجارتهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الذي إياه يأملون، ومجدهم الذي به يفتخرون، وسيماهم التي بها يعرفون. فإذا ألقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل لهم قلبك ولسانك، واعلم أنه من أخاف لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ثم أنا الثائر له يوم القيامة والله أعلم وبه العون والتوفيق[١].

الباب الثاني
في مدح الدنيا

قال الله سبحانه لنبيه عليه السلام: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنْصَبْ﴾[٢].

(١) راجع في هذا الفصل إحياء علوم الدين (٣/ ١٩٧ : ٢٠٦).
(٢) سورة الشرح الآية: ٧.

قال بعض أهل التأويل: يعني إذا فرغت من أمر دنياك فانصب في عبادة ربك.

قال تعالى ممتناً على عباده: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[٢]. الآية.

وليس هذا منه تعالى ترغيباً في الدنيا ولكن حثّ وترغيب في أخذ البلغة منها. وعلى هذا المعنى ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه»[٣].

وفي حديث آخر: «ولكن خيركم من لا تشغله دنياه عن آخرته ولا آخرته عن دنياه»[٤].

[٢٨٢/أ] وروي عنه ﷺ أنه قال: «نعمت المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم / الآخرة».

ويروى أن رجلاً ذم الدنيا عند علي بن أبي طالب فقال علي: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها. وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الدنيا فنعمة مطية المؤمن عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر، إنه إذا قال العبد: لعن الله الدنيا، قالت الدنيا: لعن الله أعصانا لربه»[٥].

وحكي عن مقاتل أنه روى أن إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه وعلى نبينا قال: يا رب حتى متى أتردد في طلب الدنيا. فقيل له: أمسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا.

وفي خبر آخر: أنه لام نفسه ورمى المسحة من يده، فأوحى الله تعالى إليه أما علمت أن طلب الحلال ليس هو من الدنيا في شيء.

وعن سفيان الثوري أنه قال: مكتوب في التوراة إذا كان في البيت بر فتعبد وإن لم يكن فتطلب، يا ابن آدم حرّك يدك يسبب لك رزقك.

---

(١) سورة نوح الآية: ١٢.

(٢) سورة الكهف الآية: ٨٢.

(٣) أطرافه عند: أبي نعيم في تاريخ أصبهان (٢/١٧٩)، العجلوني في كشف الخفا (٢/٢٣٨)، السيوطي في الحاوي للفتاوي (٢/٨٩، ١١٠).

(٤) أطرافه عند: أبي نعيم في تاريخ أصبهان (٢/١٧٩)، العجلوني في كشف الخفا (٢/٢٣٨)، السيوطي في الحاوي للفتاوي (٢/٨٩، ١١٠).

(٥) أورده ابن عدي في الكامل في الضعفاء (١/٣٠٤) وأطراف الحديث عند: الزبيدي في الإتحاف (١/١١٠)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/٤٩٦).

وقال بعض الحكماء: ليس من الرغبة في الدنيا اكتساب ما يصون العرض فيها.

وقال بعض الأدباء: ليس من الحرص اجتلاب ما يقوي البدن وينشد لمحمود الوراق:

لا تتبع الدنيا وأيامها ذما وإن دارت بك الدائرة
من شرف الدنيا ومن فضلها إن بها تستدرك الآخرة

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إلتمسوا الرزق في خبايا الأرض»[1]. يعني الزرع.
وحكي عن المعتضد أنه قال: رأيت علي بن أبي طالب في المنام فناولني مسحة. فقال: خذها فإنها مفتاح خزائن الأرض. وقال رجل لزهري: دلني على ما أعالجه. فقال:

تتبع خبايا الأرض وادع مليكها لعلك يوماً أن تجاب فترزقا
فيؤتك مالاً واسعاً ذا مشابة إذا ما مياه الأرض فارت تدفقا

/ فصل

[٢٨٣/ب]

واعلم أن الدنيا هي الليل والنهار بجميع ما فيهما من كل ما للإنسان فيه غرض ونصيب وشهوة وحظ عاجل، وهي حالة من أحوال القلب.

فالقريب الداني منها يسمى: دنيا، وهي كل ما قبل الموت، وللمتراخي المتأخر يسمى: آخرة، وهو ما بعد الموت، فالدنيا اسم عام يتناول كل حظ عاجل قال الله سبحانه: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾[2].

فالمال بعض أجزاؤه الدنيا، والجاه بعضها، واتباع شهوة البطن أخرج بعضها، وتشهى الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها، والكبر بعضها وطلب العلو والرئاسة بعضها.

أولها: أبعاض كثيرة يجمعها كل ما للإنسان فيه حظ عاجل. ونحن نشير هاهنا إلى مدح المال ثم إلى ذمه ثم إلى وجه الحكمة في الجمع بين مدحه وذمه.

وأما المدحة: فقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[3]. يعني مالاً فسماه خيراً.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «نِعْمَ المال[4] الصالح للرجل الصالح». وكل ما جاء في

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/٢٠٣)، والمتقي الهندي في كنز العمال (٩٣٠٣).
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٦٩.
(٣) سورة البقرة الآية: ١٨٠.
(٤) في الأصل: نعما بالمال. والتصويب من الأحياء (٣/٢٢٨)، وقال العراقي في هذا الموضع بالمغنى تعليقاً على الحديث: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند =

ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال إذ لا يمكن الوصول إليهما إلاّ به.

ويروى أن لقمان الحكيم قال لابنه: يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر؟ فإنه ما افتقر أحد إلاّ أصابته ثلاثة خلل: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مرؤته، وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به.

وقال بعض الحكماء: حفظك لما في يدك أولى بك من طلب ما في يد غيرك.

وقال بعض الحكماء: خصلتان لا تزال بخير ما حفظتهما درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «نَعْمَ العون على تقوى الله المال»[١].

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: لا دين لمن لا دنيا له.

وعن قيس بن عاصم أنه قال لبنيه: يا بني عليكم بالمال واصطناعه، فإنه منبهة للكريم، ويستغنى به عن اللئيم، وإياكم ومسألة الناس؛ فإنها أخزى كسب الرجال.

وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني عليك بطلب المال؛ فإنه يرفع الكريم ويغنى عن اللئيم، / ويكسب الحمد ويورث المجد، وينقى من دنس العرض وأنشدوا: [٢٨٤/أ]

أرى ذا الغنى في الناس يسعون حوله ... وإن قال قولاً بايعوه وصدقوا

فذلك دأب المرء ما كان في غنى ... فإن زال عنه المال يوماً تفرقوا

وقال آخر:

يغطي عيوب المرء كثرة ماله ... يصدقه الأقوام وهو كذوب

ويزري بعقل المرء قلة ماله ... يحمقه الأقوام وهو مصيب

وقيل لبعضهم إنك تحب الدراهم وحبها يدنيك من حب الدنيا. فقال: إنها وإن أدنتني إليها فقد صانتني عن أهلها.

وقيل لابن عون: إنك تحب الدراهم. فقال: من نفعه شيء أحبه، ولو لم تحبها لم تسألني عن حبي لها.

= صحيح: «نعما» وقالا: «للمرء». قلت إنا محققه سيد كسروى ـ وزاد في موضع آخر (١٠١/٤) على رواته أبي يعلى.

(١) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد ابن المنكدر عن جابر، ورواه أبو القاسم البغوى من رواية ابن المنكدر مرسلاً من طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب هكذا مرسلاً ـ قاله العراقي في المغنى (١٠١/٤).

وقال بعض العلماء: المال في زماننا هذا صلاح المؤمن.

وعن وهب بن منبه أنه قال: الدنانير والدراهم خواتم رب العالمين، وضعها في الدنيا لمعاش الناس لا تؤكل ولا تشرب، أينما توجهت بخاتم منها قضيت حاجتك. ويقال: إن المأمون قال يوماً لجاريته.

هــل تعلميــن وراء الحــب منــزلــة تــدنينـي إليك فـإن الحب أقصانـي

فأجابته فقالت:

اجعــل شفيعــك منقــوشــاً تقــدمــه فلم يزل مدنياً من ليس بالداني

وقيل لبعض الحكماء: لِمَ يقتني الرجل المال وهو شيخ كبير؟ فقال: لأن يموت فيخلف مالاً لأعدائه خير له من أن يحتاج لأصدقائه.

وعن سفيان الثوري أنه قال: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إلي من أحتاج إلى الناس..

وقيل لابن سيرين: إنك تحب الدراهم. قال: لأنها تنفعني.

وكان عبد الرحمٰن بن عوف رحمه الله يقول: حبذا المال أصون به وجهي وأتقرب به إلى ربي.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق»[١].

ويروى أن عيسى / عليه السلام لقي رجلاً فقال له: ما تصنع؟ فقال: أتعبد. قال: فمن [٢٨٥/ب] يعولك؟ قال: أخي. قال: أخوك أعبد منك.

وعن إبراهيم بن أدهم أنه قال: بلغني أن من أوقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة.

وعن أبي سليمان أنه قال: من بات تعباً من كسب الحلال بات والله راض عنه.

وفي حديث النبي ﷺ أنه قال: «من طلب الحلال تغنياً وتعففاً جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر»[٢].

---

(١) بنحو هذا الطرف عند: الزبيدي في الإتحاف (٥/٤١٦) المتقى الهندي في الكنز (٩٣٤٢)، ابن حجر في المطالب العالية (١٣٦٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٤٤).

(٢) أطراف نحو هذا الحديث عند: ابن أبي شيبة في المصنف (٧/١٦)، وأبي نعيم في الحلية (٣/ ١١٠)، =

وقال أبو سليمان: ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يُقَوّتك، ولكن ابدأ برغيفك، فاحرزها.

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أحساب أهل الدنيا هذا المال»[1].

وعن مجاهد أنه قال: الخير في القرآن كله المال: ﴿إِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾[2]. يعني المال. ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾[3]. يعني المال.

وقال شعيب عليه السلام: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾[4]. يعني الغنى والمال، وإنما سمى الله المال خيراً إذا كان في الخير مصروفاً؛ لأن ما أدى إلى الخير فهو في نفسه خير.

وعن السدي وابن زيد في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾[5]. قال: هي المال. ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[6]. قال: هي الجنة.

وقال بعض الحكماء: من أصلح مالاً فقد صان الأكرمَيْن الدِّين والعرض.

وفي منثور الحكم: من استغنى كرم على أهله. قال: ومر رجل من أرباب الأموال ببعض العلماء فتحرك له وأكرمه. فقيل له بعد ذلك: أكانت لك إلى هذا من حاجة؟ قال: لا ولكن رأيت ذا المال مهيباً.

وقيل في منثور الحكم، الفقر مخدعة، والغنى مجدلة، والبؤس مرذلة، والسؤال مبذلة. وكان يقال: الدراهم كالمراهم؛ لأنها تداوي كل جرح ويطيب بها كل صلح. وأنشد لأوس بن حجر:

أقيم بدار الحزم ما دام حزمها ... وأحرى إذا حالت بأن أتحولا
فإني وجدت الناس إلاّ أقلهم ... خفاف العمود يكثرون التنقلا
بنى أم ذي المال الكثير يسرونه ... وإن كان عبداً سيا.اً لأمر جحفلاً

= (٨/ ٢١٥)، والمتقى الهندي في الكنز (٩٢٤٥)، والزبيدي في الإتحاف (٥/ ٤١٤)، (٨/ ١٢٢).

(١) أطرافه عند: أحمد في المسند (٥/ ٣٦١)، والبهقي في السنن (٧/ ١٣٥).

(٢) سورة العاديات الآية: ٨.

(٣) سورة صٓ الآية: ٣٢.

(٤) سورة هود الآية: ٨٤.

(٥) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

(٦) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

/ وهم لقليل المال أولاد علة وإن كان محظاً في العشيرة مخولا [٢٨٦/ب]

وقال أخر:

أجلك قوم حين صرت إلى الغنى وكل غني في العيون جليل

ليس الغنى إلا غنى زين الغنى عشية يغدى أو غداه ينيل

وعن أبي قلابة قال: ذكر عند النبي ﷺ رجل فذكر فيه خير. فقالوا: يا رسول الله خرج حاجاً معنا فإذا نزلنا منزلاً لم يزل يصلي حتى ترتحل فإذا رحلنا لم يزل يذكر الله حتى ينزل. قال: «فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه». فقالوا: كلنا. قال: «فكلكم خير منه»(١). والله أعلم.

وأما مذمة المال وكراهية حبه: فقد ورد في ذلك من الآي والأخبار والآثار ما لا يحصى كثرة، قال الله تعالى: ﴿لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾(٢).

وقال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ﴾(٣) الآية. وقال: ﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ﴾(٤) الآية. وقال: ﴿أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾(٥). وقال: ﴿إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ ٱسْتَغْنَىٰ﴾(٦). في أمثالها من الآيات.

وأما الأخبار: فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حب المال والشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل»(٧).

وعنه ﷺ أنه قال: «ما ذئبان ضاربان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساد فيها من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم»(٨).

---

(١) بنحو هذا الطرف عند ابن حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (برقم ١٩١٢).
(٢) سورة المنافقون الآية: ٩.
(٣) سورة الكهف الآية: ٤٦.
(٤) سورة التوبة الآية: ٥٥.
(٥) سورة التكاثر الآية: ١.
(٦) سورة العلق الآيتان: ٦، ٧.
(٧) طرفه عند: ابن الجوزي في تذكرة الموضعات (١٧٧) الزبيدي في اتحاف السادة المتقين (٨/ ١٤١).
(٨) أطرافه عند: الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٢٠)، (أبي نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٢١٠)، ابن أبي حاتم في العلل (١٧٩٩)، ابن حجر في المطالب (٣٢٧٢)، الطبراني في الكبير (١٠/ ٣٨٨)، العقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٨٧)، الزبيدي في الإتحاف (٨/ ١٤٤).

وعنه ﷺ أنه قال: «هلك الأكثرون مالاً إلاّ من قال فيه في عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم»(١). وقيل: يا رسول الله أفي أمتك الشر؟ قال: «الأغنياء»(٢).

وعنه ﷺ أنه قال: «سيأتي بعدي قوم يأكلون أطايب الأطعمة وألوانها، وينكحون أجمل النساء وألوانها، ويلبسون ألين الثياب وألوانها، ويركبون فرّه الخيل / وألوانها، لهم بطون من [٢٨٧/أ] القليل لا تشبع، وأنفس بالكثير لا تقنع عاكفين على الدنيا، يغدون إليها ويروحون، اتخذوها آلهة من دون إلٰههم، ورباً من دون ربهم إلى أمرها ينتهون وهواهم يتبعون فعزيمة من محمد بن عبد اللَّه لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم، وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم، ولا يعود مرضاهم، ولا يتبع جنائزهم، ولا يوقر كبيرهم، ومن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام»(٣).

وعنه عليه السلام قال: «دعوا الدنيا لأهلها، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر»(٤).

وروي أن رجلاً قال: يا رسول الله ما لي لا أحب الموت. قال: «هل معك من مال»؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: «قدم مالك فإن قلب المرء مع ماله أن قدمه أحب أن يلحقه وإن خلفه أحب أن يتخلف معه»(٥).

وعنه عليه السلام أنه قال: «أخلاء ابن آدم ثلاثة؛ واحد يتبعه إلى قبض روحه، والثاني

---

(١) رواه الطبراني من حديث عبد الرحمٰن بن أبزي بلفظ: «المكثرون»، ولم يقل: «في عباد الله» ورواه أحمد من حديث أبي سعيد بلفظ: «المكثرون»، وهو متفق عليه من حديث أبي ذر: «هم الأخسرون» فقال أبو ذر: من هم؟ فقال: «هم الأكثرون أموالاً إلاّ من قال هكذا» الحديث. قاله العراقي في المغنى (٢٢٦/٣).

(٢) غريب لم أجده بهذا اللفظ، وللطبراني في الأوسط والبيهقي في الشُعب من حديث عبد اللَّه: «شرار أمتي الذين ولدوا في النعيم وغذوا به يأكلون من الطعام ألواناً». وفيه أصرم بن حوشب ضعيف، ورواه هناد بن ابن السري في الزهد من رواية عروة بن رويم مرسلاً، وللبزار من حديث أبي هريرة بسند ضعيف: «إن من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم وتنبت عليه أجسامهم. قاله العراقي في المغنى (٢٢٦/٣).

(٣) رواه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة: «سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام، ويشربون ألوان الشراب، ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون في الكلام أولئك شرار أمتي». وسنده ضعيف، ولم أجد فيه أصلاً. قاله العراقي في المغنى (٢٢٧/٣).

(٤) رواه البزار من حديث أنس وفيه هانىء بن المتوكل ضعفه ابن حبان، راجع المصدر السابق.

(٥) لم أقف عليه ـ العراقي في المصدر السابق.

إلى قبره، والثالث إلى محشره، فالذي يتبعه إلى قبض روحه فماله، والذي يتبعه إلى قبره فأهله، والذي يتبعه إلى محشره عمله»(١).

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: ما لك تمشي على الماء، ولا نقدر نحن على ذلك؟ قال لهم: ما منزلة الدنانير والدراهم عندكم؟ قالوا: حسنة. قال: لكنهما عندي والمدر سواء.

وروي أن سلمان رحمه الله كتب إلى أبي الدرداء يا أخي إياك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدي شكره، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه، فكلما تكفى به الصراط قال له: امضي قد أديت حق الله فيّ ثم يجاء بصاحب الدنيا الذي لم يطع الله فيها، وماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له: ويلك ألا أديت حق الله فيّ فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور»(٢) وكل ما تقدم من الأخبار في ذم الدنيا فهو يتناول / ذم المال بحكم العموم؛ لأن المال أعظم أركان الدنيا. [٢٨٨/ب]

وقد قال ﷺ فيما بلغنا: «لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا»(٣).

وقال أيضاً: «إذا مات العبد قالت الملائكة: ما قدم؟ وقالت الناس: ما خلف»(٤)؟.

وأما الآثار: فقد روي عن الحسن البصري أنه قال: والله ما أعز الدنانير والدراهم أحد إلا أذله الله عز وجلا.

وقيل: أول ما ضرب الدنانير والدراهم رفعهما إبليس ووضعهما على جبهته [ثم قبلهما](٥)، فقال: من أحبكما فهو عبدي حقاً. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾(٦) الآية. ويقال: إنها لما نزلت هذه الآية، قال النبي ﷺ: «تباً للذهب، تباً للفضة».

---

(١) رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير بإسناد جيد نحوه، ورواه أبو داود الطيالسي، وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضاً وفي الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد الحديث ـ قاله العراقي في المغني (٣/ ٢٢٧).

(٢) قلت ليس هو من حديث سلمان إنما هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان كذا رواه البيهقي في الشُعب وقال بدل الدنيا المال وهو منقطع. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) رواه الترمذي والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ فترغبوا قاله العراقي في المغنى (٣/ ٢٢٨).

(٤) رواه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة يبلغ به. (المغنى ٣/ ٢٢٧).

(٥) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (٣/ ٢٢٨).

(٦) سورة التوبة الآية: ٣٤.

فشق ذلك على أصحابه، فقالوا: وأي مال نتخذ؟ فقال ﷺ: «لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه»[١].

وعن أبي أمامة قال: مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره ديناران. فقال عليه السلام: «كيتان»[٢].

وروي أن رجلاً نال من أبي الدرداء وأراه سوءاً فقال: اللّهم من فعل فيّ سوءاً فأصح جسمه، وأطل عمره، وأكثر ماله. فانظر كيف رأى مع كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر؛ لأنه لا بد أن يفضي به ذلك إلى الطغيان.

وروي أن علياً بن أبي طالب وضع في كفه ذهباً ثم قال: أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني.

وروي أن عمر رضي الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش زوجة النبي ﷺ بعطائها، فقالت: ما هذا؟ قالوا: أرسل إليك عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قالت: غفر الله له. ثم حلت ستراً كان لها فقطعته صرراً، وقسمته بين أهل رحمها وأيتامها، ثم رفعت يديها وقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا. فكانت أول نساء رسول الله ﷺ لحقت به.

[٢٨٩/أ] وقال بعض العلماء: إن الدنانير والدراهم أزمة / المنافقين يقادون بها إلى النار. وينشد:

النار آخر دينار نطقت به ... والهم آخر هذا الدرهم الجاري

والمرء بينهما إن لم يكن ورعا ... ماذا يكابد بين الهم والنار

وذلك أن الدينار والدرهم هما الدنيا كلها إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها، فمن صبر عنها صبر على الدنيا ولذلك قيل:

إني وجدت فلا تظنن غيره ... هذا التورع بين هذا الدرهم

وإذا ظفرت بدرهم فتركته ... فاعلم بأن تقواك تقوى مسلم

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة عجل يعبدونه، وعجل أمتي هذان الحجران: الذهب والفضة»[٣].

---

(١) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٥/٣٦٦). المتقى الهندي في الكنز (٦١١٢، ٦٣١٢، ٦٣١٣). وابن كثير في التفسير (٤/٨١).

(٢) رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه، قاله العراقي في المغنى (٤/٢٧١).

(٣) رواه أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمٰن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة. قاله =

وعن يحيى بن معاذ أنه قال: الدرهم عقرب فإن أحسنت رقيته فخذه، وإلا فلا تأخذه؛ فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل: وما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه في حقه. وينشد:

لا يغـرنـك مـن المـرء قميـص رقعـه وإزار فـوق كعـب السـاق منـه رفعـه
ولـدى الـدرهـم فـانظـر غيـه أو ورعـه

وعنه ﷺ أنه قال: «ما من أحد غني ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلاّ قوتاً»[1].

وعنه عليه السلام أنه قال: «طوبى لمن رزق الإسلام وهدى له وكان عيشه كفافاً ورزق القنوع فقنع»[2]. وكان الأوزاعي كثيراً يتمثل بهذه الأبيات:

المـــال ينفـــد حلـــه وحـــرامـــه يـــومـــاً وتبقـــى بعـــد أثـــامـــه
ليـــس المتقـــي بمتـــق لإلاهـــه حتـــى يطيـــب طعـــامـــه وشـــرابـــه
ويطيـب مـا يجنـي ويكسـب أهـل ويطيـب مـن لفـظ الحـديـث كـلامـه

وعن يحيى بن معاذ أنه قال: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته. قيل: وما هما؟ قال: / يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله وأمثال هذه الآثار كثيرة. [٢٩٠/ب]

بيان وجه الحكمة في الجمع بين مدح المال وذمه

اعلم أن الله سبحانه قد سمى المال خيراً في مواضع من كتابه وسماه فتنة أيضاً، وجعل الدنيا دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار جزاء وقرار وخلق الإنسان للعبادة، وجعله محتاجاً إلى أمور لا تقوم البنية إلاّ بها، ولا يعيش الإنسان إلا من أجلها من الطعام، والشراب، واللباس، والمسكر. وجعله محتاجاً عاجزاً فجعل لنيل حاجته أسباباً ولدفع عجزه حيلاً دله بالعقل عليها وأرشده بالفطنة إليها، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[3]. فقال مجاهد: قدر أحوال خلقه فهدى إلى أسباب سبل الخير والشر.

= العراقي في المغني (٤/ ١٩٨).

(١) رواه ابن ماجة من رواية نفيع بن الحارث عن أنس، ونفيع ضعيف. قاله العراقي في المغني (٣/ ٢٣٢).

(٢) رواه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى من حديث فضالة بن عبيد، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»، قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) سورة الأعلى الآية: ٣.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[(١)]. قال: يعني الطريقين، طريق الخير وطريق الشر، ثم لما كان العقل دالاً على أسباب ما تدعو الحاجة إليه، جعل تعالى الأمور والأرزاق موقوفة على ما قسم وقدر لكيلا يعتمدوا في الأرزاق على عقولهم، وفي العجز على فطنهم لتدوم له الرغبة والرهبة ويظهر منه تعالى الغنى والقدرة ولذلك قيل:

كم من حريص عليها لا تساعده ... وعاجز نال دنياه بتقصير
لم يرزقوها بعقل عندما قسمت ... لكنهم رزقوها بالمقادير
لو كان عن حيلة وعن مغالبة ... طار البزاة بأرزاق العصافير

وقيل لبزرجمهر: تعال نتناظر في القدر. قال: وما أصنع بالقدر والمناظرة فيه، رأيت ظاهراً فاستدللت به على باطن، رأيت جاهلاً مرزوقاً وعاقلاً محروماً، فعلمت أن التدبير ليس إلى العباد.

فلما كان الإنسان مضطراً كما قدمنا لزمه أن يصرف إلى دنياه حظاً من عنايته؛ لأنه لا غنى به عن التزود منها لآخرته، ولا له به عن سد الخلة فيها عند حاجته.

[٢٩١/أ] وليس / في هذا الكفاية عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم، وطالب فضولها مذموم والرغبة إنما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول إنما ينطلق على ما زاد على الكفاية.

ومقصد الأكياس وأرباب البصائر وسعادة الآخرة التي هي النعيم الدائم، والملك المقيم، إذ قال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»[(٢)].

وفي خبر آخر: سئل عن أكرم الناس وأكيسهم. فقال: «أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم له استعداداً». فهذه السعادة لا تنال إلا بثلاثة أشياء: في الدنيا وهي الفضائل النفسية: كالعلم، وحسن الخلق، والفضائل البدنية. كالصحة، والسلامة، والفضائل الخارجة عن البدن: كالمال، وسائر أسباب التمتع فأعلاها النفسية، ثم البدنية، ثم الخارجة وهي أخسها، والمال من جملة الخارجات، وأدناها الدنانير والدراهم؛ لأنهما خادمان لدرك حاجات النفس المطلوب سعادتها ولا خادم لهما؛ لأنهما ممن أدان لغيرهما لا لذاتهما، إذ هما حجران لا يؤكلان ولا يشربان والنفس تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق، لتحصلها صفه في ذاتها،

---

(١) سورة البلد الآية: ١٠.

(٢) رواه الترمذي، وابن ماجة من حديث شداد بن أوس. قاله العراقي في المغني (٣/ ٣٦٨).

والبدن يخدم النفس بالأعضاء والحواس والمطعم والملبس والمنكح يخدمن البدن.

أما المطعم والملبس فلبقاء البدن، وأما المنكح فلبقاء نسله، فالبدن يخدم النفس لتزكيتها وتزينها بالعلم والعمل، فمن عرف هذا الترتيب فقد عرف. قدر المال، ووجة شرفه، وأنه خير من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة بقاء النفس التي تطلبه لها السعادة. فتبين مما ذكرنا أن المال خير، ويصلح أن يتخذ إلٰه وعدة للمعاصي التي هي الصارفة للإنسان عن سعادة الآخرة فهو إذاً فتنة وشر فمن اتخذ من الدنيا أكثر ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر كما / ورد به الخبر، ولما كانت الطباع مائلة إلى إتباع [٢٩٢/ب] الشهوات القاطعة عن طريق الآخرة، وكان المال مسهلاً لها وعدة لها عظم الخطر فيما يزيد على الكفاية، فاستعاذ الأنبياء من شره حتى قال نبينا عليه السلام: «اللهمّ اجعل قوت آل محمد كفافاً»[(١)]. فلم يطلب من الدنيا إلا ما لا بد منه. وكان خيراً له فلما كان المال يحتوي على فوائد منجية وغوائل مهلكة كان ينبغي لنا أن نشير إلى مجموع فوائده وتفصيل غوائله، وبالله التوفيق[(٢)].

فصـــل: في بيان تفصيل غوائل المال وفوائده

اعلم أن المال مثل الحية فيها سم ناقع، وترياق نافع، ففوائدها ترياقها الذي يعمل من لحمها وآفاتها سمومها، فمن عرف غوائلها وأفاتها أمكنه أن يحترز من شرها، وينتفع بخيرها.

وأما الفوائد فهي تنقسم إلى: دنيوية يشترك الناس في معرفتها ولولا ذلك لم يتهالكوا في طلبها، وإلى دينية تنحصر بجميعها في ثلاث أنواع:

الأول: أن ينفقه على نفسه، إما في عبادة يؤديها كالحج والجهاد، وهما من أمهات القربات، والفقير المحروم من فضلهما. وأما أن ينفقه فيما يقويه على العبادة، وذلك هو المطعم، والملبس، والمنكح، وضرورات المعيشة، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية، ولا يدخل فيها التنعم، لأنه من حظوظ الدنيا.

الثاني: ما يصرف إلى الناس وهو أربعة أقسام:

أحدها: الصدقة، ولا يخفى ثوابها؛ فإنها تطفىء غضب الرب تعالى.

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ١٥٢)، (٩/ ٢٨٣). وقال العراقي في المغني (٣/ ٢٢٩): متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) راجع معظم الباب في الإحياء (٣/ ٢٢٩).

الثاني: المروءة ونعني به صرف المال في الأغنياء والأشراف في هدية، وضيافة، وإعانة، وما يجري مجراه؛ فإنها أيضاً من الفوائد الدينية إذ به يكسب العبد الإخوان والأصدقاء [٢٩٣/أ] / ويتصف بالسخاء والجود، وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه، فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات، وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها.

والثالث: وقاية العرض ونعني به[1] بذل المال لقطع ألسنة السفهاء ودفع شرهم واغتنابهم إذا قال ﷺ: «ما وقى به المرء عرضه فهو صدقة»[2]. فكيف لا وفيه منع المغتاب من معصية الغيبة، وإحتراز عما يؤثر من كلامه من العداوة التي تحمل على المكافأة والانتقام.

الرابع: الاستخدام وذلك أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسباب المعيشة كثيرة لو تولاها الإنسان بنفسه ضاعت أوقاته، ولم يصل إلى العلم والعمل فضلاً عن الفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين لطريق الآخرة، ومن لا مال له فيحتاج إلى خدمته بنفسه من كسب القوت وعلاجه وغير ذلك فيشتغل عن العلم والعمل والذكر والفكر.

النوع الثالث: ما لا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام: كبناء المساجد، والمدارس، والرباطات، ونصب الأخباب في الطرق، وحفر الأنهار والآبار للآجر، وما أشبه ذلك من الخيرات المؤبدة الدائمة بعد الموت المستجلبة أدعية بركة الصالحين إلى أوقات متمادية، وناهيك بها خيراً، فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الإخلاص: من ذل السؤال، وحقارة الفقر، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء، والتوقير والكرامة في القلب، وكل ذلك مما يقتضيه المال في الحظوظ الدنيوية. وأما آفات المال أيضاً فتنقسم إلى: دينية ودنيوية.

أما الدينية: فثلاثة:

[٢٩٤/أ] **الأولى**: أن يجر إلى المعاصي بإتباع الشهوات؛ لأن المال نوع من / القدرة يحرك داعية المعاصي وإرتكاب الفجور، فإن اقتحم ما اشتهاه هلك، وإن صبر وقع في شدة، إذ الصبر مع القدرة أشد وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أن يجر إلى التنعم في المباحات هذا أقل الدرجات، فإن اعتاد التنعم واشتد أنسه

---

(١) في الأصل: بها. وهو لحن أو سهو من الناسخ والتصويب من الإحياء (٣/ ٢٣٠).

(٢) رواه أبو يعلي من حديث جابر. قاله العراقي في المغني (٣/ ٢٣٠).

بها ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات وسائر الأخلاق الردية لينتظم له أمر دنياه، ويتيسر له التنعم فيها، فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس فينافقهم ويداريهم ويداهنهم، ويعصي الله تعالى في طلب مرضاتهم ليسلم له ماله، وإن قل ماله، وهو قد اعتاد التنعم فلا بد من مباشرة المحضورات ليتيسر له من الناس قضاء الحاجات، ومن الحاجات إلى الخلق تثوّر العداوة والصداقة، وينشأ عليها الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والغيبة والنميمة وسائر معاصي القلب واللسان، ويتعدى ذلك أيضاً إلى معاص الجوارح، وكل ذلك من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه.

والثالثة: يشغله إصلاحه عن ذكر الله وقد قال تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[١].

وكل ما شغل العبد عن ذكر الله فهو حسرات، ولذلك قال عيسى عليه السلام: من المال ثلاثة: أن تأخذه من غير حله. قيل: إن أخذه من حله[٢]؟ قال: أن يضعه في غير حقه. قيل: إن وضعه في حقه؟ قال: يشغله إصلاحه عن ذكر الله تعالى وفي خبر آخر قال عليه السلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة والمال فيها داء كبير».

قيل: فما دواءه؟ قال: «يأخذه من حله ويضعه في حقه». قيل: فإن فعل؟ قال: «يشغله إصلاحه عن ذكر الله تعالى»[٣] وهذا هو الداء العضال، فإن أصل العبادة ومخها ذكر الله/ تعالى [٢٩٥/ب] والتفكر في أفعاله ويستدعى ذلك قلباً فارغاً، وصاحب المال مشغول القلب بالتفكر في إصلاح ماله وأسباب حفظه، وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها، والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك إذا رزق القناعة.

وأما الآفات الدنيوية: فهي ما يقاسيه أرباب الأموال من الأخطار والأهوال والهم والتعب وخوف القطاع والسلاطين الظلمة ودفع الحساد وأصحاب الطمع عنه وغير ذلك من تجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه، فإذا ترياق المال أخذ القوت وصرف الباقي إلى الخيرات وما عداه هموم وآفات، وبالله التوفيق[٤].

---

(١) سورة المنافقون الآية: ٩.
(٢) في الأصل: من غير حله. ولفظ غير زائد على السياق فحذفته والتصويب من الإحياء (٣/ ٢٣١).
(٣) قال العراقي عن الشطر الأول منه في المغنى (٣/ ١٩٧): رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا، والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلاً.
(٤) راجع الباب في إحياء علوم الدين ٣/ ٢٣٠: ٢٣١). وفيه تفصيل أكثر.

فصـــل

ومن كتاب الضياء وغيره قال: وقد اختلف الناس في تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم إن ما أحوج إلى الفقر فمكروه، وما أبطر من الغنى فمذموم، فذهب قوم إلى تفضيل الغنى على الفقر؛ لأن الغنى مقتدر والفقر عاجز، والقدرة أفضل من العجز. قال: وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «كاد الحسد أن يغلب القدر، وكان الفقر يكون كفراً»[١].

وقال بزرجمهر: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة وإن كان شيء مثلها فالغنى وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثله فالفقر. وقال في منثور الحكم: القبر خير من الفقر. قال: وجد في نيل مصر مكتوب على حجر: عاقبة الصبر نجاح، وغنى ورداء الفقر من نسج الكسل. وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الفقر الموت الأحمر». وقال في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر»[٢]. وقد تقدم من الأدلة على فضل الغنى ما يكفي قال: وذهب أخرون إلى تفضيل / الفقر على الغنى. قالوا: لأن الفقير تارك، والغني ملابس وترك الدنيا أفضل من ملابستها. قال: وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة. [٢٩٦/أ]

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أول من يقرع باب الجنة فقراؤكم، وأهل الجنة ضعفائكم، وشرار أمتي من يساق إلى النار بالأقماع». قيل: ما الأقماع؟ قال: «الذين إذا أكلوا بعوا»[٣].

وعنه عليه السلام: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم من أيام الآخرة». وذلك خمسمائة سنة، والفقير أفضل من الغني لأن النبي ﷺ عرضت عليه خزائن السموات الأرض فاختار تركها، فصبر على الفقر، فمحال أن يختار أدنى الحالتين بل اختار أفضلها والله أعلم. قال: وعيّرت اليهود عيسى عليه السلام بالفقر. فقال: من الغنى أُتيتم.

---

(١) أطراف الحديث عند: الزبيدي في الإتحاف (٨/٥٢)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٧٤)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/١٥٩)، العقيلي، في الضعفاء (١/٢٥٤) (٤/٢٠٦)،ابن أبي شيبة في المصنف (٩/٩٤)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٣٢٠).

(٢) أطراف الحديث عند: النسائي في المجتبى (٨/٢٦٧)، أحمد في المسند (٥/٣٦، ٣٩، ٤٢)، الحاكم في المستدرك (١/٣٥، ٢٥٢)، وابن السن في اليوم والليلة (٦٧، ٨٥، ٩٨).

(٣) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (١/٤)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٢٧)، وأبي نعيم في الحليلة (٣/٤٩)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٢٦٤).

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: من نيل الفقراء أنك لا تجد أحداً يعصي الله ليفتقر، فأخذه محمود الوراق فقال:

يـا عـايـب الفقـر ألا تـزدجـر عيـب الغنـى أكثـر لـو تعتبـر
مـن شـرف الفقـر ومـن فضلـه على الغنى لـو صـح منـك النظر
إنـك تعصـي كـي تنـال الغنـى ولسـت تعصـي الله كـي تفتقـر

وقال ابن المقفع:

دليلـك أن الفقـر خيـر مـن الغنـى وأن قليـل المـال خيـر مـن المثر
لقـاءك مخلـوقـاً عصـى الله بـالغنـى ولـم تـر مخلـوقـاً عصـى الله بـالفقر

وعن أبي الدرداء قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وعلى جنبها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين، يا أيها الناس هلموا إلى ربكم / إن ما قل [٢٩٧/ب] وكفى خير مما كثر وألهى»(١). وقد تقدم أيضاً من دليل الفقر ما فيه كفاية.

وقد روى أبو ذر رحمه الله: كان يقال: أوحى الله إلى موسى عليه السلام لا تنساني على كل حال؛ فإن نسياني يقسي القلوب، وإن كثرة المال تكثر العيوب يا موسى إذا رأيت المال مقبلاً فذلك ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا الدرهم والدنيا أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم»(٢). قال: وسئل عبد اللّه بن عباس عن الدرهم والدنيار. فقال: أما الدرهم فدار هم، وأما الدنيار فدار نار. والأخبار في مثل هذا كثيرة.

قال: وذهب أخرون إلى تفضيل التوسط بين الأمرين بأن يخرج من حد الفقر إلى أدنى مراتب الغنى ليصل إلى فضيلة الأمرين، ويسلم من مذمة الحالين، وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وأن خير الأمور أوسطها وبذلك نطق القرآن قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً﴾(٣).

---

(١) أطراف الحديث عند: المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٤٩)، (٤/١٩٩)، والزبيدي في الإتحاف (٨/ ٦١٢)، والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٦)، والمتقى في الكنز (٤٣ ١٦٢).
(٢) أطراف الحديث عند: أبي نعيم في الحلية: (٤/ ١١٢)، الطبراني في الكبير (١٠/ ١١٧)، الهيثمي في المجمع (٣/ ١٢٢)، والمتقى الهندي في الكنز (٦١٠٧).
(٣) سورة الفرقان الآية: ٦٧.

قال لنبيه عليه السلام: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾[١]. فتبين أن الاعتدال في الإنفاق خير من الإسراف والإقتار هذا مع ما وردت به السنة عن النبي عليه السلام أنه قال: «خير الأمور أوسطها»[٢].

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: خير الأمور النمط الأوسط إليه يرجع العالي وبه يلحق الداني وينشد:

لا تـذهبـن فـي الأمـور فـرطـا لا تسـألـن إن سـألـت شططـا
وكـن من الناس جميعـاً وسطـا

وقال آخر:

عليـك بـأوسـط الأمـور فـإنهـا نجاة ولا تـركـب ذلـولاً ولا صعبـاً

[٢٩٨/أ] وحكي عن أبي المعتمر السلمي أنه قال: الناس ثلاثة أصناف: أغنياء، / وفقراء وأوساط.

فالفقراء: موتى إلا من أغناه الله بعز القنوع، والأغنياء: سكارى إلاّ من عصمه الله، بتوقع الخير، وأكثر الخير مع أكثر الأوساط، وأكثر السوء مع أكثر الفقراء والأغنياء، لسخف الفقر وبطر الغنى. وقال بعض الشعراء:

أعـوذ بـك اللهـم مـن بطـر الغنـى ومـن نهكـة البلـوى ومـن ذلـة الفقـر
ومـن أمـل يمتـد فـي كـل شـارق ويـرجعنـي منـه بحـظ يـد صفـر
إذا لـم تـدنسنـي الـذنـوب بعـارهـا فلسـت أبـالـي بمـا تشعـب مـن أمـر

وهذا القول عندي في أعدل الأقاويل؛ لأن النبي عليه السلام إستعاذ من الفقر المدقع ومن الغنى المبطر وسأل ربه الكفاف وهي النجاة والعفاف، وبالله التوفيق.

الباب الثالث
في أمثلة الدنيا

اعلم أن الدنيا سريعة الفناء، وشيكة الانقضاء، تعد بالبقاء، ثم تغلف في الوفاء، تنظر

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٢٩.

(٢) رواه البيهقي في شُعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلاً. قاله العراقي في المغنى (٣/ ٥٦)، (٣/ ١٦٥).

إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيراً عنيفاً، ومرتحلة ارتحالاً سريعاً. ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها، فيطمئن إليها، وإنما يتحسر عند إنقضائها، ومثالها في ذلك كالظل، فإنه متحرك في الحقيقة ساكن في الظاهر، لا تدرك حركتها بالبصر الظاهر بل بالبصيرة الباطنة.
ويروي أنه ذكرت الدنيا عند الحسن فقال:

أحـلام نـوم أو كظـل زائـل ... إن اللبيـب بمثلهـا لا يخـدع

ومن كتاب سراج الملوك: وقال وهب بن منبه: صحب رجل بعض الرهبان سبعة أيام يستفيد منه شيئاً فوجده مشغولاً عنه بذكر الله، والفكر لا يفتر، ثم التفت إليه في اليوم السابع. فقال: يا هذا قد علمت ما تريد، حب الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد في الدنيا رأس كل /خير، والتوفيق تاج كل بر. فقال: كيف أعرف ذلك؟ قال: كان جدي رجلاً من الحكماء قد [٢٩٩/ب] شبه الدنيا بسبعة أشياء: بالماء المالح يغر ولا يروي، يضر ولا ينفع، وبالبرق الخلب يغر ولا ينفع، وبسحاب الصيف يغر ولا يمطر، وبظل الغمام يغر ويخذل، وبزهر الربيع يغر بنظرته ثم يصفر فتراه هشيماً، وبأحلام النائم يرى السرور في منامه فإذا استيقظ لم يجد إلا الحسرة، وبالعسل المشوب بالسم الزعاف يغر ويقتل. قال: فتدبرت هذه الأحرف السبعة سبعين سنة، ثم زدت عليها حرفاً آخر فشبهتها بالغول التي تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها. ثم رأيت جدي في المنام فقال لي: يا بني أنت مني وأنا منك هي والله كالغول تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها قال: فبأي شيء يكون الزهد في الدنيا؟ قال: باليقين، واليقين بالصبر، والصبر بالعبر، والعبر بالفكر. ثم وقف الراهب فقال: خذها ولا أراك خلفي متجرداً بقول دون فعل. فكان ذلك آخر العهد. وكان الحسن بن علي يتمثل ويقول:

يـا أهـل لـذة دار لا بقـاء لهـا ... إن إغتـراراً بظـل زائـل حمـق

وكان يرى أنه من قوله. ويقال: نزل أعرابي بقرم فقدموا له طعاماً، فأكل ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه وقام وهو يقول:

ألا إنمـا الـدنيـا كظـل بنيتـه ... ولا بـد يـومـاً أن ظلـك زائـل

وعن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون أو معاقبون»(١). وقيل لحكيم: أي شيء أشبه بالدنيا؟ قال: أحلام النائم.

---

(١) لم أجد له أصلاً. قاله العراقي في المغنى (٣/ ٢١٠).

وقال بعض العلماء: ما شبهت نفسي في الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك إذا انتبه فكذلك / الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، فإذا ليس بأيديهم شيء [٣٠٠/أ] مما ركنوا إليه وفرحوا به(١).

مثال آخر للدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها بنيها: اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولاً، والتوصل إلى الهلاك آخراً، وهي كامرأة تتزين للخطاب حتى إذا نكحتهم ذبحتهم.

وقد روي أن عيسى عليه السلام: كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة فقال لها: كم تزوجت؟ فقالت: لا أحصيهم. فقال: أو كلهم مات عنك أو كلهم طلقوكِ؟ فقالت: بل كلهم قتلت. فقال عيسى: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين؟ كيف تهلكينهم(٢) واحداً واحداً فلا يكونون منك على حذر؟

مثال آخر: وقد روي عن علي بن أبي طالب كتب إلى سلمان الفارسي رحمه الله بمثال الدنيا فقال: مثل الدنيا مثل الحية يلين مسها، ويقتل سمها، فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك هموماً، لما أيقنت من فراقها، وكن أسر ما تكون فيها، أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما إطمأن منها إلى سرور أشخصه عنها إلى مكروه والسلام. وينشد:

هي الدنيا كحية تنفث السم ... وإن كانت المحسَّة لانت

مثال آخر، في تعذر الخلاص من تباعاتها بعد الخوض فيها: وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي على الماء هل يتسطيع الماشي على الماء أن لا تبتل قدماه»(٣). وينشد:

ألقوه في اليم مكتوفاً فقالوا له: ... إياك إياك أن تبتل بالماء

فهذا يعرفك جهالة أقوام ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم، وقلوبهم عنها مطهرة، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة / ذلك مكيدة الشيطان، بل لو اخرجوا مما هم فيه لكانوا [٣٠١/أ] أعظم المتفجعين بفراقها، كما أن الماشي في الماء يقتضي بللاً يلتصق بالقدم لا محالة،

---

(١) في الأصل: بها - والتصويب من الإحياء (٣/ ٢١٠).
(٢) في الأصل: تهلكم. وهو تحريف. والتصويب من المصدر السابق.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشُعب من رواية الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال، فذكره، ووصله البيقهي في الشعب، وفي الزهد من رواية الحسن عن أنس، قاله العراقي في المغنى (٣/ ٢١١).

فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب لا محالة بل علاقة القلب مع الدنيا تمنع حلاوة العبادة.

وقد روي عن عيسى عليه السلام أنه قال: بحق أقول لكم كما ينظر المريض إلى طعامه ولا يستلذ به من شدة الوجع، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا، بحق أقول لكم: إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن تصعبت وتغير خلقها، كذلك القلوب إذا لم ترفق بذكر الموت، وتنصب بالعبادة تقسو وتغلظ.

وبحق أقول لكم: إن الزقاق ما لم تنخرق أو تنحل توشك أن تكون وعاء للعسل، كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوة، أو يدنسها الطمع، أو يقسها النعيم، يوشك أن تكون أوعية للحكمة.

وقال نبينا عليه السلام: «إن ما بقى من الدنيا بلاء وفتنة، وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله»[١].

مثال آخر لما بقي من الدنيا: وقلته بالإضافة إلى ما سبق عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «مثل هذه الدنيا كثوب شق من أوله إلى آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع»[٢].

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض لدرجة الهلاك: وعن عيسى عليه السلام أنه قال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها لنضارة أوائلها وخبث عواقبها: اعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذيذة كشهوة الأطعمة في المعدة، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهية / والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها، وكما أن [٣٠٢/ب] الطعام كلما كان ألذ طعماً وأكثر دسماً، وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتناً وكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ فتنتها وكراهيتها، والتأذى بها عند الموت أشد، بل هي في الدنيا مشاهدة، فإن من نهبت داره وأخذ ماله وأهله فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقده بقدر لذته فيها وحبه لها وحرصه عليها فكل ما كان عند الوجود أشهى وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر، وما للموت معنى إلا فقد ما في الدنيا.

---

(١) رواه ابن ماجة من حديث معاوية، فرّقه في موضعين ورجاله ثقات المرجع السابق.

(٢) رواه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب، وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف. المصدر السابق.

وقد روي أن النبي ﷺ قال، للضحاك بن سفيان الكلابي: «ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه اللبن والماء؟». قال: بلى. قال: «فإلى ما يصير؟». قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله، قال: «فإن الله ضرب مثل الدنيا إلى ما يصير إليه طعام ابن آدم»(١).

وعن أُبي بن كعب أو غيره قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلاً وإن قزحه وملحه»(٢).

قال الحسن: قد رأيتهم يطيبونها بالأفاويه والطيب ثم يرمون بها حيث رأيتم. وينشد:

ولقد سألت الدار عن أخبارهم فتبسمت عجباً ولم تبدى
حتى وقفت على الكنيف فقال لي: أموالهم بكمالها عندي

وقال الله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾(٣).

وعن ابن عباس قال: إلى رجيعه. وقال رجل لابن عمر: أريد أن أسألك وأستحي. قال: لا تستحي واسأل. قال: إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه؟ قال: نعم إن الملك يقول له: انظر هذا ما بخلت به صار إلى ما صار.

[٣٠٣/أ] وكان فيما بلغنا بعض السلف يقول: انطلقوا /بنا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

مثال آخر لي نسبة الدنيا إلى الآخرة: وعن النبي ﷺ أنه قال: «ما الدنيا في الآخرة إلاّ كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلنيظر بماذا يرجع إليه»(٤).

مثال آخر: لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم بقوله تعالى في تحذيره إياهم بغوائل الدنيا. قال الحسن: بلغني أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي، وقد أنفدوا الزاد وأحسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة، لا زاد ولا حمولة، فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه فقالوا: قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلا

---

(١) رواه أحمد، والطبراني بنحوه وفيه: علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه. قاله العراقي في المغنى (٣/ ٢١٢).

(٢) رواه الطبراني، وابن حبان بلفظ: «إن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلاً. رواه عبد الله بن أحمد في زياداته بلفظ: «جعل» ـ المصدر السابق.

(٣) سورة عبس الآية: ٢٤.

(٤) رواه مسلم من حديث المستورد بن شداد المصدر سابق.

من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء. قالوا: ما هذا؟ قال: على ما أنتم؟ قالوا: على ما ترى. قال: أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً. قال: عهودكم ومواثيقكم بالله. فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله أن لا يعصوه شيئاً. قال: فأوردهم ماءً رواءً ورياضاً خضراء فمكث فيهم ما شاء الله. ثم قال لهم: يا هؤلاء. قالوا: ما هذا؟ قال: الرحيل. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، ورياض ليست كرياضكم. فقال أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لا نجده وما نصنع بعيش خير من هذا؟ قال: وقالت طائفة وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله أن لا تعصوه شيئاً وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم، فبدر بهم العدو فأصبحوا من بين أسير وقتيل[1].

/ **مثال آخر لتنعم الناس في الدنيا ثم تفجعهم على فراقها:** اعلم أن مثل الناس فيما [٣٠٤/ب] أعطوا من الدنيا مثل رجل هيأ داراً وزينها، وهو يدعو إلى داره قوماً على الترتيب واحداً بعد واحد فدخل واحد الدار فقدم إلى طبق ذهب عليه بخور ورياحين يشمه ويتركه لمن يلحقه، لا لمن يتملكه ويأخذه فجعل رسمه فظن أنه قد وهب ذلك منه فتعلق قلبه به لما ظن أنه له. فلما استرجع منه ضجر وتفجع، ومن كان عالماً رسمه انتفع به فشكره ورده بطيب قلب واستراحة صدر، فكذلك من عرف سنة الله في الدنيا، علم أنها دار ضيافة سبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منه، وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري فلا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها.

مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم في نعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة، وخسرانهم لها:
واعلم أن أهل الدنيا في غفلتهم مثلهم كمثل قوم ركبوا سفينة وإنتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحوائج وحذرهم المقام فيها وخوفهم مرور السفينة وإستعجالها، فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم الحاجة وبادر إلى السفينة، فصادف المكان خالياً، فأخذ أوسع الأماكن وأوفقها لمراده، وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أزهارها، وأنوارها العجيبة، وغياضها الملتفة، وطيورها الطيبة، فصار يلحظ من زينة أحجارها، وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش، ثم تنبه لخطر فوات

(١) رواه ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لأحمد والبزار والطبراني من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان.. الحديث وفيه: فقال: أي أحد الملكين إن مثل هذا وكمثل قوم سفر انتهوا إلى مفازة فذكر نحوه أخصر منه وإسناده حسن. قاله العراقي في المغنى (٣/ ٢١٣: ٢١٤).

السفينة، فرجع إليها ولم يصادف فيها إلاّ مكاناً ضيقاً حرجاً فاستقر فيه، وبعضهم أكب على [٣٠٥/أ]تلك الأصداف والأحجار فأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه / بإهمالها، فاستصحب منها جملة فلم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً وزادته الحجارة ضيقاً وصارت ثقلاً عليه ووبالاً، فندم على أخذه ولم يقدر على رميه، ولم يجد مكاناً لوضعه، فحمله في السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذه، وليس ينفعه التأسف، وبعضهم تولج الغياض ونسي المركب، وقعد في متفرجه، ومتنزهه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار، والنسيم لتلك الأنوار، والتفرج بين تلك الأشجار، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع غير خال من السقطات والنكبات، ولا ينفك عن شوك ينتشب بثيابه، وغصن يجرح بدنه، وصوت هائل يفزع منه، فلما بلغهم نداء السفينة انصرف بعضهم مثقلاً بما معه، ولم يجد في المركب موضعاً وبقي على الشط حتى مات جوعاً. وبعضهم لم يبلغه النداء، فسارت السفينة، فمنهم: من افترسته السباع، ومنهم: من تاه فهام على وجهه حتى هلك، ومنهم من مات في الأوحال، ومنهم: من نهشته الحيات وتفرقوا كالجيف المنتنة، وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الحجارة المزبرجة، فقد استرقته وشغله الحزن لحفظه، والخوف من فواته، وقد ضيق عليه مكانه، فلم يلبث إلى أن ذبلت تلك الأزهار، وكمدت ألوان الأحجار، فظهر نتن ريحتها، فصارت مع عفنها مضيقة عليه، ولم يجد حيلة إلاّ أن ألقاها في البحر هرباً منها، وقد أثر فيه ما أكل منها، فلم ينته إلى الوطن إلاّ بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيماً. ومن رجع قريباً، ولم يسعه المكان فتأذى بضيقه مدة ولكن لما وصل إلى الوطن استراح، ومن رجع أولاً وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالماً.

فهذا مثال أصناف أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم عاقبة أمرهم، وما أقبح بمن يزعم أنه بصير عاقل أن تغره حجارة الأرض وهي الذهب والفضة وهشيم النبات وهي [٣٠٦/أ]زينة الدنيا / وشيء منه لا يصحبه عند الموت بل يصير كله وبالاً عليه وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه وهذه حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله منهم وقليل ما هم[(١)].

مثال آخر للدنيا ولابن آدم: وقد ضرب حكماء الهند مثلاً للدنيا ولابن آدم فقالوا: مثل ابن آدم، والدنيا، وملك الموت كمثل رجل طرده الفيل فدخل له بستاناً فإذا فيه بئر فيه ثعبان فاتح فاه فدلى رجليه في البئر، فاستقرت على رؤوس أربع حيات صغار، وقد اعتمد هو على قصبة يخرج منها شيء حلو يمتصه، وفي أصل القصبة جرذان يقرضانها: أحدهما أبيض

---

(١) راجع المثال في إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢١٢: ٢١٣).

والآخر أسود فشغله ذلك الشيء الحلو الذي يمتصه عن الفيل الذي خلفه والثعبان الذي تحته، فبينما هو كذلك إذ ثار عليه بعض تلك الحيات فنهشته فوقع في فم الثعبان. قالوا: فالفيل ملك الموت يطرد الإنسان لقبض روحه منذ خرجه من بطن أمه، والبستان مثل الدنيا، والبئر مثل القبر، والحيات الأربع الطبائع الأربع التي ارتكبت عليها الأجسام وهي المرة السوداء والصفراء والدم والبلغم، والقصبة عمره، والشيء الحلو رزقه والجرذان الليل والنهار يقطعان عمره، فإذا ثارت عليه إحدى الطباع كان ذلك سبب إنقطاع أجله فيموت فيقع في البئر وهو القبر والله أعلم.

وقال بعض العلماء: الناس في الدنيا على ثلاث درجات:

إحداها: درجة الفائزين وهم الذين لم تدنسهم الدنيا بأهل ولا مال يحاسبون عليها.

والثانية: درجة المخاطرين وهم المقتصدون في الأهل والمال في الدنيا، فإن نوقشوا عذبوا، وإن سومحوا نجوا.

والثالثة: درجة الهالكين وهم الذين رضوا بالحياة الدنيا وإطمأنوا بها: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾[1]. ومثال هؤلاء الثلاثة والدنيا: كمثل ثلاثة نفر اجتازوا في سفر على بستان قد تزخرفت أنواره، وأينعت فواكهه، واطردت أنهاره، فاتمروا فيما بينهم على أخذ الزاد منه، فاعتذر أحدهم بحاجة واستمر في طريقه / فمال الإثنان إلى البستان فأخذ أحدهما منه [٣٠٧/ب] زاده ولحق بصاحبه الأول بعد أن كابد مشقة، وبقي الثالث في البستان يتنعم بالفواكه والأنهار، حتى دخل عليه الخريف فغارت تلك الأنهار، ويبست تلك الفواكه والأزهار فهلك ولم يصل إلى المقصود.

فالأول: من الفائزين.

والثاني: من المقتصدين.

والثالث: من الراغبين وبالله التوفيق.

فهذه أمثلة الدنيا وغوائلها، وقد ضرب الله مثلاً للدنيا هو أعم من هذه الأمثلة بعد أن وصفها بخمس صفات مذمومات: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد. فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرٞ﴾[2]. إلى قوله: ﴿حُطَٰمٗا﴾[3].

---

(١) سورة هود الآية: ١٦.
(٢) سورة الحديد الآية: ٢٠.
(٣) سورة الحديد الآية: ٢٠.

والكفار هاهنا الزراع فكما أن الزرع يكون في أوله ناعماً أخضر أحسن ما يكون في مرئي العيون، ثم يهيج فتراه مصفراً، يعني: يجف، ثم يصفر ويحترق، ثم يدرس فيكون حطاماً أي تبناً مكسوراً، فكذلك مثل بني آدم يخرجون صغاراً، ثم يصيرون شباباً يعجبون الآباء، ويفتنون ذوي العقول والأحلام، ثم يهرمون فيصيرون شيوخاً منكسة رؤوسهم مقصوفة ظهورهم، قد ذهب حسنهم ونضارتهم، وتغير شبابهم وجمالهم، فيموتون؛ ثم يصيرون حطاماً في القبور كفتات الزرع، لأنهم مخلوقون من الأرض، وإليها مرجعهم، ومنها مبعثهم.

وقد روي في الخبر: رجلين تنازعا في أرض فانطق الله لبنة من جدار تلك الأرض فقالت: إني كنت ملكاً من الملوك، ملكت الدنيا ألف سنة فأخذني خزاف وصيرني لبنة، فأنا في هذا الجدار كذا وكذا سنة فلم تتنازعان في هذه الأرض. والله أعلم وأحكم وبه العون والتوفيق.

وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: الدنيا ستة أشياء: مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومركوب، ومنكوح، ومشموم. فأشرف المطعومات العسل وهو مدقة الذباب، وأشرف المشروبات الماء يتسوى فيه البر والفاجر، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة، وأشرف المركوبات الفرس وعليها يقتتل / الرجال وأشرف المنكوحات المرأة وهي [٣٠٨/أ] مبال في مبال. والله إن المرأة لتزين أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها، وأشرف المشمومات المسك وهو دم حيوان.

ويروى عن النبي ﷺ: ضرب للدنيا مثلاً، ولابن آدم عند الموت كمثل رجل له ثلاث أخلاء فلما حضره الموت قال لأحدهم: كنت لي خلا موثراً مكرماً وقد حضرني من أمر الله ما ترى فماذا عندك؟ فيقول: هذا أمر الله لا استطيع أن أنقض عنك، ولا أكشف كربك، ولكن ها أنا بين يديك فخذ مني زاد ينفعك. ثم يقول للثاني: كنت عندي أبر الثلاثة وقد نزل بي من أمر الله ما ترى فماذا عندك؟ فيقول: هذا من أمر الله غلبني عليك ولا أقدر أن أنقض كربك، ولكن سأقوم عليك في مرضك فإذا مت اتقنت غسلك وسترت جسمك وعورتك. وقال للثالث: قد نزل بي من أمر الله ما تراه وقد كنت أهون الثلاثة عليَّ فماذا عندك؟ فقال: إني قرينك وحليفك في الدنيا والآخرة ولا أدخل معك قبرك حتى تدخله ولا أخرج منه دونك ولا أفارقك أبداً». فقال عليه السلام: «الأول ماله، والثاني أهله، والثالث عمله» والله أعلم[١].

---

(١) راجع الأمثال الواردة في الدنيا في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي فقد ذكرها وزاد عما هنا =

الباب الرابع
في حقيقة الدنيا وتفصيل جملة معانيها

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا يكفيك ما لم تعرف المذموم منها والمحمود المندوب إلى الأخذ منها، فنقول: دنياك وآخرتك عبارة[1] عن حالتين من أحوال قلبك، فالقريب الداني منها يسمى: دنيا، وهو كل ما قبل الموت، والمتراخي المتأخر يسمى: آخرة، وهي ما بعد الموت، فكل ما لك[2] فيه حظ ونصيب وشهوة في عاجل الحال قبل / الوفاة فهي الدنيا في [٣٠٩/ب] حقك إلاّ أن جميع ما لك إليه ميل وشهوة فليس بمذموم بل هو على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يصحبك في الآخرة وتبقى ثمرته معك بعد الموت وهو شيئان: العلم والعمل فقط؛ ونعني بالعلم: العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه، والعلم بشريعته.

وأعني بالعمل: العبادة الخالصة لوجهه تعالى وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده، وكذلك العباد، وقد يأنس بالعبادة لله تعالى فيستلذها، حتى لو منع منها لكان أعظم العقوبة عليه، حتى قال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بني وبين قيام الليل. وكان آخر يقول: اللهم ارزقني قوة الصلاة والركوع والسجود في القبر. وقد قال النبي ﷺ: «حبب إليَّ من دنياكم ثلاثة: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[3]. فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا، وذلك لأن كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من الدنيا والتلذذ تحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون في الدنيا. فذلك أضافها إلى الدنيا فقد صار العلم والعمل من الحظوظ العاجلة في الدنيا ولكن إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعن هذين منها أصلاً.

القسم الثاني: وهو المقابل للأول، وهو الطرف الأقصى وذلك كل ما للإنسان فيه حظ في الدنيا ولا ثمرة له في الآخرة، أصلا كالتلذذ بالمعاصي كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والمرغوبات كالتنعم بالقناطير[4] المقنطرة من الذهب

= (٣/ ٢٠٩: ٢١٤).

(١) في الأصل: عبارتان. والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/ ٢١٤).

(٢) في الأصل: ملك. والتصويب من المصدر السابق.

(٣) رواه النسائي، والحاكم من حديث أنس دون قوله: «ثلاث». العراقي في المغنى (٣/ ٢١٤).

(٤) في الأصل: القناطر. والتصويب من الإحياء (٣/ ٢١٤).

والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث والجواري والنساء والقصور والدور، ورفيع الثياب ولذائذ الأطعمة، فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة، وفيما يعد منها من الفضول / نظر [٣١٠/أ] طويل.

إذ روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استعمل أبا الدرداء على حمص فاتخذ كنيفاً أنفق عليه درهمين فكتب إليه، من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر، قد كان لك في بناء فارس والروم ما تكتفي به من عمران الدنيا حين أذن الله بخرابها، فإذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك أنت وأهلك إلى دمشق[١] فلم يزل بها حتى مات. فهذا رآه فضولاً في الدنيا فتأمل فيه.

القسم الثالث: وهو متوسط بين الطرفين وذلك كل حظ للإنسان في عاجل الدنيا معين على أعمال الآخرة كالقوت من الطعام والثوب الواحد الخشن وكل ما لا بد منه ليتأتى منه للإنسان البقاء والصحة التي تتوصل إلى العلم والعمل، فهكذا ليس من الدنيا كالقسم الأول لأنه معين عليه.

فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولاً للدنيا ولم يصير به من أبناء الدنيا، وإن كان باعثه وقصده قضاء شهوته دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثاني فصار من جملة الدنيا، فلا يبقى عند العبد بعد الموت إلاّ ثلاث صفات؛ صفاء القلب، أعني طهارته من أدناس الدنيا، وأنسه بذكر الله تعالى، وحبه لله تعالى، فصفاء القلب وطهارته لا يحصل للعبد إلاّ بالكف عن شهوات الدنيا، والأنس لا يحصل له إلاّ بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه، والحب لا يحصل له إلاّ بالمعرفة، ولا تحصل له معرفة الله إلاّ بدوام الفكر، وهذه الصفات هي المنجيات المسعدات عند الموت، وهي الباقيات الصالحات.

فإذاً سلوك طريق الآخرة هي المواظبة على أسباب هذه الصفات الثلاث؛ وهي الذكر، والفكر، والعمل الذي يعصم العبد عن شهوات الدنيا ويبغض إليه لذاتها ويقطعه عنها، وكل ذلك لا يمكن إلاّ بصحة البدن، وصحة البدن لا تنال إلاّ بقوتٍ وملبس ومسكن، وكل ذلك يحتاج إلى أسباب. فالعذر الذي لا بد منه من هذه الثلاثة / إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم [٣١١/أ] يكن من أبناء الدنيا، وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة، وإن أخذ ذلك الحظ للنفس وقصد التنعم صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها، إلا أن الرغبة في حظوظ الدينا تنقسم إلى ما

---

(١) في الأصل: ذي مشق. والتويب من المصدر السابق.

يعرّض صاحبه للعذاب في الآخرة ويسمى ذلك حراماً، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلى ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالاً، والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضاً عذاب إذ: «من نوقش في الحساب فقد عذب»(١).

وقال عليه السلام: «حلالها حساب وحرامها عقاب»(٢). بل لو لم يكن الحساب لكان ما يفوته من الدرجات العلى في الجنة، وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها لحظوظ خسيسة هو أيضاً عذاب، وقس به حالك في الدنيا إذا نطرت إلى أقرانك وقد سبقوك إلى سعادة دنيوية كيف يتقطع عليه قلبك حسرة؟ مع علمك بأنها سعادة منصرفة لا بقاء لها، ومنغصة بكدورة لا صفاء لها، فما حالك في فوات سعادة لا يحيط الوصف بعظمتها، وتنقطع الدهور دون غايتها، فكل من تنعم في الدنيا ولو بسماع صوت طائر وبالنظر إلى خضرة أو بشربة ماء بارد فإنه ينقص من حظه في الآخرة أضعافه، وهو المعنى بقوله عليه السلام لعمر: «هذا من النعيم الذي تُسئل عنه يوم القيامة»(٣). أشار إلى الماء البارد.

وللتعرض لجواب السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وإنتطار، وكل ذلك من نقصان الحظ. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: اعزلوا عني حسابها حيث كان به عطش، فعرض عليه ماء بارد بعسل فاداره في كفه، ثم امتنع عن شربه، فالدنيا قليلها وكثيرها حلالها وحرامها مذمومة إلاّ ما أعان على تقوى الله تعالى، فإن ذلك القدر / ليس(٤) من الدنيا، فكل من كانت [٣١٢/ب] معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدنيا أشد.

حتى روي أن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام، ثم رماه(٥) إذ تمثل له إبليس وقال: رغبت في الدنيا.

وحكي أن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتحانا وشدة فإن الصبر على لذائذ الأطعمة أشد مع وجودها.

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة. قاله العراقي في الغنى (٣/ ٢١٥).

(٢) رواه البيهقي في الشُعب من طريقه موقوفاً على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع، بلفظ: «وحرامها النار» ولم أجده مرفوعاً. المصدر السابق.

(٣) أطرافه عند: أحمد (٣/٣٣٨)، والنسائي في المجتبى (الوصايا ب ٤)، الطبراني في الصغير (١/٦٩)، في الكبير (١٩/ ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٨)، السهمي في تاريخ جرجان (٣٦٠).

(٤) في الأصل: تكرر اللفظ في الأصل. فحذفت التكرار.

(٥) في الأصل: رماها. والتصويب من الإحياء (٣/٢١٦).

فلهذا زوى الله الدنيا على نبينا محمد ﷺ فكان يطوي أياماً[(١)]، وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع. ولهذا سلط البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل كل ذلك نظر لهم وأمتنان عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكة ويلزمه ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحباً له لا بخلاً عليه.

وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس الله فهو من الدنيا وما لله تعالى فذلك ليس من الدنيا فإن قيل: فما الذي هو لله تعالى؟ فاعلم إن الأشياء ثلاثة أقسام:

منها: ما لا يتصور أن يكون لله، وهو الذي يعبر عنه بالمعاصي والمحظورات وأنواع التنعمات في المباحات وهي الدنيا المحضة المذمومة صورة ومعنى.

ومنها: ما صورته لله تعالى ويمكن أن يجعل لغير الله وهي ثلاثة؛ الذكر، والفكر، والكف عن الشهوات، فإن هذا الثلاثة إذا جرين سراً ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهي لله وليست من الدنيا، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للشرف وطلب القبول من الخلق باظهار المعرفة، أو كان / الغرض من ترك الشهوات. حفظ المال، أو المحبة لصحة البدن، أو لاشتهار بالزهد فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى، وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى. [٣١٣/أ]

ومنها: ما صورته لحظ النفس، ويمكن أن يجعل معناها لله تعالى وذلك كالأكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده، فإن كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا، وإن كان القصد للاستعانة على التقوى فهو لله تعالى بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا.

وقد قال عليه السلام: «من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً لقي الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر»[(٢)].

انظر كيف اختلف ذلك بالقصد والنية، فإذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ويعتبر عنه بالهوى وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[(٣)].

---

(١) رواه محمد بن خفيف في شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال: قلت: يا رسول الله، عجباً لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك... الحديث وهو من طريق إسحاق معنعناً، وللترمذي وابن ماجة من حديث ابن عباس: أن النبي ﷺ كان يبيت الليالي المتابعة طاوياً وأهله. الحديث قال الترمذي حسن صحيح. العراقي في المعنى (٣/٢١٦).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف. قاله العراقي في المغنى (٣/٢١٧).

(٣) سورة النازعات الآية: ٤٠.

الآية. ومجامع الهوى خمسة أمور: وهي؛ ما جمعه الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ﴾(١).

والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة هي سبعة فجمعها تعالى في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾(٢). إلى قوله تعالى: ﴿مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٣).

وقد عرفت أن كل ما هو لله تعالى فليس من الدنيا وقدر ضرورة القوت لا بد منه وما لا بد منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله تعالى والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة ولها طرفان وواسطة طرف يقرب من حظ الضرورة فلا يضر، فإن الاقتصار على حد الضرورة غير ممكن وطرف يزاحم حيز التنعم ويقرب منه وينبغي أن يحذر وبينهما وسائط متشابهة ومن يحوم حول الحمى يوشك أن يقع فيه والحزم في الحذر والتقوى والتقريب من حد الضرورة ما أمكن للاقتداء بالأنبياء والأولياء إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة.

حتى روي أن أويس القرني رحمه الله / كان يظن أهله أنه مجنون لشدة تضييقه على نفسه [٣١٤/ب] فبنوا له بيتاً على باب دارهم فكان تأتي عليه السنة والسنتان والثلاثة ولا يرون له وجهاً، وكان يخرج أول الأذان ويأتي إلى منزله مراراً بعد العشاء الأخيرة، وكان طعامه أن يلقط النوى، فكل ما أصاب من الحشف خبأه لإفطاره، فإن أصاب ما يقوته من الحشف تصدق بالنوى فإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى واشترى ما يقوته، وكان لباسه مما يلقطه من المزابل من قطع الأكسية فيغسلها في الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ثم يلبسها فكان ذلك لباسه، وكان ربما مر بالصبيان فيرجمونه ويظنون أنه مجنون، فيقول لهم: يا أخوتاه إن كنتم ترجموني فارموني بحجارة صغار فإني أخاف أن تدموني فتحضر الصلاة ولا أصيب الماء. فهكذا كانت سيرته ولهذا أعظم النبي ﷺ أمره، وأمر أبا بكر وعمر رضي الله عنهما أن يقرآه عنه السلام. وقد روي أن النبي ﷺ قال: «يدخل شفاعته مثل ربيعة ومضر»(٤).

---

(١) سورة الحديد الآية: ٢٠.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٤.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٤.
(٤) يريد أويساً، ورويناه في جزء ابن السماك من حديث أبي أمامة: «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة» وإسناده حسن، وليس فيه ذكر لأويس بل في آخره، فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان. العراقي في المغني (٣/٢١٧).

وقصته مع عمر رضي الله عنه مشهورة وكذلك مع هرم بن حيان. وفي أثر أصحابنا أن أويساً قتل مع أهل النهروان رحمهم الله. فهذه كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا، وقد عرفت بما سبق في بيان الدنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء أن حد الدنيا كل ما أظلته الخضراء وما أقلته الغبراء إلّا ما كان لله عز وجل من ذلك. وضد الدنيا الآخرة، وهو كل ما أريد به الله عز وجل مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لأجل[1] قوة طاعة الله تعالى ليس من الدنيا لأن البدن مركب النفس يقطع به مسافة العمر، فتعهد البدن، فما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة وليس من الدنيا، نعم إذا قصد تلذذ البدن وتنعمه بشيء من هذه الأشياء كان منحرفاً عن الآخرة بقدر ذلك، ويخشى عليه القسوة والله أعلم فهذه حقيقة الدنيا في حقك وبالله التوفيق»[2].

[٣١٥/أ] / فصـــل: في بيان هيئة الدنيا وتفصيل أعيانها

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، وللإنسان فيها حظ، وله في إصلاحها شغل، فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن أحدها وليس كذلك.

أما الأعيان الموجودة التي هي الدنيا عبارة عنها فهي: الأرض وما عليها: قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[3] الآية. فالأرض فراش الآدميين، ومهاد، ومسكن، ومستقر، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح. ويجمع على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن، والنبات، والحيوان.

أما النبات: فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي.

وأما المعادن: فيطلبها للآلات والأواني كالنحاس والحديد والرصاص، وللنقد كالذهب والفضة، وغير ذلك من المقاصد.

وأما الحيوان: فينقسم إلى؛ الإنسان، والبهائم.

وأما البهائم: فتطلب لحومها للأكل وظهورها للمركب والزينة.

وأما الإنسان: فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان، أو ليتمتع بهم كالجواري، والنسوان، أو يطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها

---

(١) في الأصل: لأجر. والتصويب من الإحياء (٣/٢١٩).
(٢) راجع الباب في إحياء علوم الدين بأوسع مما هنا (٣/ ٢١٤: ٢١٩).
(٣) سورة الكهف الآية: ٧.

التعظيم والإكرام، وهو الذي يعبر عنه بالجاه إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين، فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا، وقد جمعه الله تعالى في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ﴾. إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾[1]. وهما من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرهما من اللآلىء واليواقيت وغيرهما، والخيل الموسومات والأنعام؛ وهي البهائم والحيوانات، والحرث وهو النبات والزرع، فهذه أعيان الدنيا إلاّ أن لهما مع العبد علاقتين:

إحداهما: علاقة مع القلب؛ وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها حتى يصير قلبه كالعبد أو كالمحب المستهتر الذي غلب عليه حب الدنيا. ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات / القلب المتعلقة بالدنيا: كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة [٣١٦/ب] وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر فهذه هي الدنيا الباطنة. وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها.

العلاقة الثانية: مع البدن وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون مبها، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومثابهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين؛ علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل، ولو عرف الإنسان نفسه، وعرف ربه، وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا لم تخلق إلاّ لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى؛ وأعني بالدابة البدن، فإنه لا يبقى إلا بمطعم وملبس ومسكن كما لا تبقى الإبل في طريق الحج إلاّ بعلف وماء وجلال.

ومثال العبد في نسيانه نفسه ومقصده مثل الحاج الذي يقف في بعض منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة ويتعهدها وينظفها ويحمل إليها أنواع الحشيش ويسقيها حتى تفوته القافلة، وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته، والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل إلاّ بالقدر الذي يقدر به على المشي فيتعهده وقلبه إلى الكعبة.

والحج إنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة، فكذلك البصير في سفر الآخرة لا يشتغل بتعهد البدن إلاّ بالضرورة كما لا يدخل المرحاض إلاّ بالضرورة، ولا فرق بين إدخال الطعام في الجوف وبين إخراجه من البطن في أن كل واحد منهما ضرورة البدن، فمن همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه.

وأكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن، فإن القوت ضروري، وأما المسكن

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٤.

والملبس فهو أهون فلو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور وأقتصروا عليها لم تستغرقهم أشغال الدنيا، وإنما / استغرقتهم بجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظها، ولكنهم جهلوا وغفلوا [٣١٧/أ] وتتابعت أشغال الدنيا واتصل بعضها ببعض، فتداعت إلى غير نهاية محدودة فتاهوا في كثرة الاشتغال ونسوا مقصورها وبالله التوفيق(١).

الباب الخامس
في ترك الدنيا والزهد فيها

قال الله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنهُم﴾ إلى قوله: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾(٢).

وعن أبي رافع قال ضاف رسول الله ﷺ ضيفاً فلم يلق عنده ما يصلحه فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال لي: «قل له قال لك محمد أسلف لي أو بعني دقيقاً إلى هلال رجب». قال: فأتيته فقال: لا والله إلاّ برهن. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «أما والله إني لأمين في أهل السماء، وأمين في أهل الأرض، ولو باعني أو أسلفني لأديت إليه، اذهب إليه بلدرعي هذه». فلما خرجت نزلت هذه الآية(٣): ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية. فأمر النبي ﷺ منادياً فنادى: «من لم يتأدب بأدب الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات»(٤).

وفي خبر آخر قال: «ومن لم ير لله عليه نعمة إلاّ في مطعم أو مشرب أو ملبس فقد قصر علمه، وحضر عذابه، ومن نظر إلى ما في يد غيره طال حزنه، ولم يشف غيظه». قال الله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾(٥) الآية. فأمر الله تعالى بفراقهن إن آثرن الدنيا على الآخرة.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أوحى إليَّ كلمات، فدخلن في أذني، ووقرن في قلبي: من أعطى فضل ماله فهو خير له، ومن أمسك فهو شر له، ولا يلوم الله على

---

(١) راجع في هذا الباب إحياء علوم الدين (٢١٩/٣: ٢٢٥) بتفصيل أكثر.
(٢) سورة طه الآية: ١٣١.
(٣) سورة طه الآية: ١٣١.
(٤) أطراف الحديث عند: الطبراني في الكبير (٣١٢/١)، المتقى الهندي في الكنز (٣١٩٣٧)، السيوطي في الدر المنثور (٣١٣/٤).
(٥) سورة الأحزاب الآية: ٢٨.

الكفاف»[١] وعن معاوية بن حيدة قال: قلت يا رسول الله ما يكفي من الدنيا؟ قال: «ما سد جوعتك، وستر عورتك، فإن كان دار فذاك، وإن كان حمار،/فبخٍ بخٍ، فلق من خبز، وجزء [٣١٨/ب] من ماء، وأنت مسؤول عما فوق الأزار»[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾[٣]. قال مجاهد: كل من ملك بيتاً، وزوجة، وخادماً فهو ملك.

وروي مثل ذلك عن النبي ﷺ وهو في المعنى صحيح، لأنه بالزوجة، والخادم مطاع في أمره، وبالبيت محجوب إلاّ بأمره.

وعنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده ليدخلن فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بخمس مائة سنة، يأكلون فيها ويشربون ويتمتعون، والآخرون جاثون على ركبهم، وليقولن لهم الجبار جل جلاله: أنتم كنتم ملوك الناس وحكامهم، وأهل الغنى فأروني ماذا صنعتم فيما أعطيتكم»[٤].

وروي عنه أنه قال: «ألتقى مؤمنان على باب الجنة فقير، وغني كانا في الدنيا، فأدخل الفقير الجنة واحتبس الغني ما شاء الله أن يحتبس، ثم دخل الجنة، فلقيه الفقير، فقال: يا أخي إني احتبست بعدك محتبساً فظيعاً كريهاً، وما وصلت إليك حتى سال مني من العرق ما لو ورده ألف بعير كلها أكلت خمطاً لصدرت منه رواة»[٥].

وروي أن موسى عليه السلام قال: يا رب أي عبادك أغني؟ قال: أقنعهم بما أعطيته. وينشد علي بن أبي طالب:

أفـــادتنـــي القنـــاعـــة كـــل عـــز وهـــل عـــز أجـــل مـــن القنـــاعـــة

(١) راجع كنز العمال للمتقى الهندي (١٦١٦٥).
(٢) أطرافه عند: الحاكم في المستدرك (٤/١٦٣)، ابن حجر في المطالب (٣٢٧٥)، المنذري في الترغيب (٣/١١٥).
(٣) سورة المائدة الآية: ٢٠.
(٤) أطراف الحديث عند: الطبراني في الكبير (٣٠٢١)، الزبيدي في الإتحاف (١٠/٥٧١)، المتقى الهندي في الكنز (١٠٣٥٩)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢١٦).
(٥) عن نحوه قال العراقي في المغنى (٤/٢٢١): رواه أحمد من حديث ابن عباس: «التقى مؤمنان على باب الجنة مؤمن غني ومؤمن فقير..». الحديث وفيه: إني حبست بعدك محبساً فظيعاً وما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لو ورده ألف بعيراً كله حمض لصدرت عنه رواة وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد حديثه مثله.

فصيرها لنفسك رأس مال ... وصير بعدها التقوى بضاعة
تحرز حين تغنى عن لئيم ... وتنعم في الجنان بصبر ساعة

وعن النبي ﷺ أنه قال: «طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به»[(١)]. وقال: «ما من أحد غني ولا فقير إلاّ وَدّ يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا»[(٢)].

وقال: «ليس الغنى من كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس»[(٣)].

العيش ساعات تمر ... وخطوب أيام تكرّ
/ اقنع بعيشك ترضه ... واترك هواك وأنت حرّ [٣١٩/أ]
فلرب حتف ساقه ... ذهب وياقوت ودرّ

وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ فقال: قلة تمنيك، ورضاك بما يكفيك وقيل لحكيم: ما مالك؟ قال: الغني في الظاهر، والقصد في الباطن، والإياس مما في أيدي الناس.

وروي أن الله عز وجل قال: يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلاّ القوت وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فإنا لك محسن. وينشد:

حتى متى أنا في حل وترحال ... وطول سعي وإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفك مغترباً ... عن الأحبة لا يدرون ما حال
بمشرق الأرض طوراً [ثم] مغربها[(٤)] ... لا يخطر الموت من حرص على بال
لو قنعت أتاني الرزق في دعة ... إن القنوع الغنى لا كثرة المال

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى: حلتان لشتائي وقيظي، وما يسعني من الظهر لحجي وعمرتي، وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش، لست بأرفعهم ولا بأوضعهم، والله لا أدري أيحل ذلك أم لا، كأنه شك في أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها والله أعلم[(٥)].

---

(١) رواه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى من حديث فضالة بن عبيد، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو «وقد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»، قاله العراقي في المغنى (٣/ ٢٣٢).
(٢) رواه ابن ماجة من رواية نفيع بن الحارث عن أنس، ونفيع ضعيف، المصدر السابق.
(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة. المصدر السابق.
(٤) في الأصل: عشرق، وعغربها. والتصويب والزيادة من الإحياء (٣/ ٢٣٤).
(٥) راجع الخبر، وغيره من الأخبار والأحاديث في إحياء علوم الدين (٣/ ٢٣٠: ٢٣٤).

فصـــل: في حكايات تدل على الزهد في الدنيا

وعن وهب بن منبه أنه قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل إن أردت أن تسكن في حظيرة الفردوس فكن في الدنيا فريداً وحيداً مهموماً وحيشاً بمنزلة الطائر الوحداني الذي يظل النهار في الفلوات، ويأكل من رؤوس الأشجار ويشرب من ماء العيون فإذا كان / الليل [٣٢٠/ب] آوى وحده ولم يأو مع الطير استئناساً بربه. ولبعضهم:

كم للحوادث من صروف عجائب ونـوائـب مـوصـولـة بنـوائـب
ولقـد تقطـع مـن شبـابـك وانقضـى مـا لـيـس أعلمـه إليـك بـآيـب
تبغـي مـن الـدنيـا الكثيـر وإنمـا يكفيـك منهـا مثـل زاد الـراكـب

وروي عن عمر بن الخطاب أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مزمول بشريط فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه فدمعت عيناه فقال رسول الله ﷺ: «ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب».

قال: ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك، وذكرتك وأنت رسول الله وحبيبه وصفيه نائم على سرير مزمول بشريط، فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولا تكون لهم الآخرة»؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: «فذلك كذلك». ثم قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سافر في يوم صائف فرفعت له شجر فأستظل تحتها ثم راح وتركها»[1].

وفي كتاب سراج الملوك: قال مالك بن أنس: بلغني أن عيسى بن مريم عليه السلام انتهى إلى قرية قد خربت حصونها ونسفت أشجارها فنادى يا خراب أين أهلك ثلاثاً؟ فنودي بادوا وتضمنتهم الأرض، وعادت أعمالهم قلائد في رقابهم إلى يوم القيامة، عيسى بن مريم فجد. قال: ومر بعض الملوك ببقراط الحكيم وهو نائم فركضه برجله فقال: قم، فقام غير مرتاع منه ولا ملتفت إليه. فقال له الملك: إلا تعرفني؟ قال: لا، ولكن أرى فيك طبع الدواب لأنها تركض برجلها. فغضب فقال: أتقول لي هذا وأنت عبدي؟ فقال بقراط له: بل أنت عبد عبدي. قال: وكيف ذلك؟ لأن شهواتك ملكتك وأنا ملكت الشهوات. فقال: أنا الملك/ ابن [٣٢١/ب] الأملاك أملك من البلاد كذا وكذا ومن الرجال كذا وكذا ومن الأموال كذا وكذا. فقال: أراك

---

(١) أطراف الحديث عند: مسلم في الصحيح (١١٠٧)، البيهقي في السنن الكبرى (٧/٤٦) ابن ماجة في السنن (٤١٥٣).

تفتخر عليّ بما ليس من جنسك وإنما سبيلك أن تفتخر علي بجنسك، ولكن تعال نخلع ثيابنا ونترامى في هذا النهر فنتكلم فحينئذٍ يتبين الفاضل من المفضول. فانصرف الملك خجلاً.

وروي أن الإسكندر[1] مر بمدينة قد ملكها سبعة أملاك فبادوا، فقال: هل بقي من نسل الأملاك الذين ملكوا هذا المدينة أحد؟ قالوا: رجل يكون بالمقابر، فدعا به فأتاه. فقال له: ما دعاك إلى لزوم المقابر؟ قال: أردت أن أعزل عظام الملوك من غيرهم فوجدت ذلك سواء لا يتميز لي. فقال له: هل لك أن تتبعني فأحي بك شرف آبائك إن كانت لك همة. فقال: إن همتي لعظيمة إن كانت بغيتي عندك. قال: وما بغيتك؟ قال: حياه لا موت، وشباب لا هرم معه، وغنى لا يتبعه فقر، وسرور لا يغيره مكروه. فقال له الإسكندر: لا أقدر على هذا. فقال: فانفذ لشأنك وخلني أطلب بغيتي ممن هي عنده. فقال الإسكندر: هذا أحكم من رأيت.

قال وروى الجاحظ قال: وجدت في حجر: يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجو من أملك ولرغبت في الزيادة من علمك ولقصرت في حرصك وحيلتك، وإنما يلقاك غداً ندمك، وقد زلت بك قدمك، وأنصرفت عنك أهلك، وحشمك، وتبرأ من صحبتك القريب، وانصرف عنك الحبيب، فلا أنت في عملك زائد، ولا إلى أهلك عائد. وقال بعض الشعراء:

من كان يعلم أن الموت مدركه ... والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستبهجه ... يوم القيامة أو نار ستنضجه
كل شيء سوى التقوى به سمج ... وما أقام عليه فهو أسمجه
يرى الذي اتخذ الدنيا له وطناً ... لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

[٣٢٢/أ] / وقيل لبعض الزهاد: ما لك تمشي على عصا ولست بكبير ولا مريض؟ قال: لأعلم أني مسافر، وأنها دار بلغة، وأن العصا من آلات السفر. فنظمه بعض الشعر فقال:

حملت العصى لا لضعف أوجب حملها ... عليّ ولا إلى تحنَّيت من كبر
ولكنني أكرهت نفسي حملها ... لأعلمها أن المقيم على سفر

وعن وهب بن منبه أنه قال: خرج عيسى عليه السلام ذات يوم مع جملة من أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أمكن من الفرك. فقالوا: يا بني الله إنا جياع. فأوحى الله تعالى إليه أن أئذن لهم في قوتهم فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون، فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب

(١) في الأصل: الاسكندري. وذكر بعد قليل على الصواب.

الزرع، وهو يقول: زرعي وأرضي ورثتها من أبي، بإذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال: فدعا عيسى عليه السلام ربه، فبعث الله عز وجل جميع من ملك تلك الأرض من لدن آدم عليه السلام، فإذا عند كل سنبلة أو ما شاء الله رجل وامرأة، كلهم ينادي: أرضي وزرعي ورثتها من أبي، ففزع الرجل منهم، وكان قد بلغه أمر عيسى عليه السلام وهو لا يعرفه، فلما عرفه قال: معذرة إليك يا رسول الله إني لم أعرفك، زرعي ومالي لك حلال فبكى عليه السلام وقال: ويحك لا أرض لك ولا مال لك. وينشد لأبي العتاهية:

وعظتك أجداث صمت ... ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن أوجه ... تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك في القبور ... وأنت حي لم تمت
يا شامتا[1] بمنيتي ... إن المنية لم تفت
ولربما اتصل الشمات ... فحلَّ بالقوم الشمت

/ وعن الأصمعي قال: لما زخرف الرشيد مجالسه وذوقها ووضع فيها طعاماً كثيراً، [٣٢٣/ب] وأرسل إلى أبي العتاهية فقال: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال:

عش ما بدا لك آمنا ... في ظل شاهقة القصور

قال: أحسنت ثم ماذا؟ قال:

يسعى عليك بما اشتهيت ... لدى الرواح وفي البكور

فقال: أحسنت ثم ماذا؟ قال:

فإذا النفوس تقطعت ... في ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ... هل كنت إلاّ في غرور

قال: فبكى هارون بكاءً رحمه من حوله فقال الفضل بن يحيى: بعث إليك[2] أمير المؤمنين لتسره فأحزنته، فقال هارون: دعه فإنه رآنا في عمى كثير فكره أن يزيدنا عمى وينشد:

إن كنت تسمو إلى الدنيا وزينتها ... فانظر إلى ملك الأملاك هارون
رام الأمور فأعطته مذاقها ... وسخر الناس بالتشديد واللين

---

(١) في الأصل: يا شاتماً. واحسبه تحريف والسياق بعده يؤكد ما أثبت. والله أعلم.
(٢) قوله: فقال الفضل بن يحيى: بعث إليك. مكرره من الأصل، وحذفت التكرار.

حتـى ظـن أن لا شـيء غـالبـه ومكنـت قـدمـاه أي تمكيـن
راحت عليه المنايا روحة تركت ذا الملك والعز تحت الماء والطين

وعن الأصمعي أنه قال: إن النعمان بن امرؤ القيس، الأكبر الذي بني الخورنق، أشرف عليه يوماً فأعجبه ما أوتي من الملك والسعة في الدنيا، ونفوذ الأمور وإقبال الخلق والوجوه نحوه، فقال لأصحابه: ما أوتي أحد مثل ما أوتيت. فقال حكيم من أصحابه: أيها الملك هذا الذي أوتيت شيء لم يزل أو لا زال أو شيء كان لمن قبلك زال عنه وصار إليك؟ قال: بلى، [٣٢٤/أ]شيء كان لمن قبلي زال عنه وصار إليّ وسيزول. /قال: أفسررت بشيء تزول عنك لذته وتبقى تبعاته؟! قال: فأين المهرب؟ قال: إما أن تقيم وتعمل بطاعة الله أو تلبس مسوحاً وتلحق بجبل تعبد ربك فيه وتفر من الناس حتى يأتيك الموت. قال: فإذا فعلت ذلك فما لي؟ قال: حياة لا تموت، وشباب لا يهرم وصحة لا تسقم وملك جديد لا يبلى. قال: فأي خير فيما يغني والله لأطلبن عيش لا يزول أبداً. فانخلع عن ملكه، ولبس المسوح وسار في الأرض، وتبعه الحكيم يسبحان ويعبدان الله حتى ماتا وفيه يقول عدي بن زيد:

وتـذكـر أخـا الخـورنـق إذا أشـ رف يـومـاً وللهـدى تفكيـر
سـره حـالـه وكثـرة مـا يمـ لـك والبحـر معـرضـاً والسـديـر
فـارعـوى قلبـه فقـال ومـا غبـ ـطـة حـي إلـى الممـات يصيـر
أين كسرى كسرى الملوك أنو شر وان أم أيـن قبلـه سـابـور؟
وأخـو الحصـن إذ بنـاه وازدجـ لـة تجبـا إليـه الخُبـور
شـاده مـرمـراً وجللـه كلـ ـساً فـالطيـر فـي داره وكـور
لـم يهبـه ريـب المنـون فباد المـ ـلـك عنـه وبـابـه مهجـور

وروي أن عيسى عليه السلام كان مع صاحب له يسبح الله تعالى؛ فأصابهما الجوع وقد أتيا إلى قرية، فقال عيسى عليه السلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاماً في هذه القرية، فقام عيسى يصلي، فجاء رجل بثلاثة أرغفة، فأبطأ عليه انصرف عيسى من الصلاة فأكل رغيفاً. فلما انصرف عيسى قال: أين الرغيف الثالث؟ فقال: ما كان إلاّ اثنان. قال فمرا على وجوههما حتى مرا بظباء فدعى عيسى عليه السلام ظبياً منها فذكاه فأكلا منه، ثم قال له عيسى: ثم بإذن الله محيي الموتى فإذا يشتد، فقال الرجل: سبحان الله! فقال عيسى عليه السلام: بالذي أرك هذه الآية من صاحب الرغيف؟ فقال: ما كان إلا اثنان.

[٣٢٥/أ] فمضيا/ على وجوههما فمرا بنهر عجاج عظيم فأخذه عيسى عليه السلام فمشيا على

الماء حتى جاوزاه. فقال الرجل: سبحان الله. فقال عيسى عليه السلام: بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف؟ فقال: ما كانا إلاّ اثنان، فمشيا حتى أتيا قرية عظيمة خربت فإذا قريب منها لبن ثلاثة من ذهب. فقال الرجل: ما هذا؟ فقال عيسى عليه السلام: أجل هذا مال واحدة لي وواحدة لك وواحدة لصاحب الرغيف. فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف. فقال عيسى: هي لك كلها.

ثم فارقه، فأقام هو عليها ليس معه من يحملها عليه فمر ثلاثة نفر فقتلوه فأخذوا اللبن. فقال اثنان لواحد منهم: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام فذهب. فقال أحد الباقين: نقتل هذا الرجل إذا جاء فنقسم المال بيننا. فقال الذي ذهب: اجعل لهما في الطعام سماً، فأقتلهما وأخذ اللبن فلما جاء قتلاه، وأكلا من الطعام الذي جاء به، فماتا، فمر بهم عيسى عليه السلام وهم حول اللبن قتلى. فقال: هكذا تصنع الدنيا بأهلها.

وعن محمد زيد قال دخلت على المأمون وكان يومئذٍ وزيره فرأيته قائماً وبيده رقعة فقال: يا محمد أقرأت ما فيها؟. فقلت: هي في يد أمير المؤمنين، فرمى بها إلي فإذا بها مكتوب:

إنــك فــي دار لهــا مهلــة ... يقبــل فيهــا عمــل العــامــل
مــا تــرك المــوت محيطــاً بهــا ... تقطــع فيهــا أمــل الآمــل
تعجــل الــذنــب لمــا تشتهــي ... وتــأمــل التــوبــة مــن قــابــل
والمــوت يــأتــي بــك ذا غفلــة ... مــاذا يفعــل الحــازم العــاقــل

فلما قرأتها، قال المأمون: هذا أحكم شعر قرأته والله أعلم.

فصــل

اعلم رحمك الله أن الدنيا إذا وصلت تباعات موبقة، وإذا فارقت فجعات محرقة، تقبل إقبال الطالب، وتدبر إدبار الهارب، وتصل وصال الملول، وتفارق فراق العجول، فخيرها / وعيشها قصير، وإقبالها خديعة، وإدبارها فجيعة، ولذاتها فانية، وتباعاتها باقية، فاغتنم غفوة [٣٢٦/ب] الزمان، وانتهز فرصةُ الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزود من يومك لرمسك.

حكاية من كتاب حياة القلوب

قال: وروي عن مالك بن دينار أنه كان ماشياً في أزقة البصرة، وإذ هو بجارية من جواري الملوك راكبة ومعها الخدم والحفدة، فسمع مالك حسها خلفه فالتفت، فرأى زهوها

وهيئتها وجمالها، فأثبت فيها بصره، ثم ناداها: يا جارية أيبيعك مولاك فلما فجأتها منه هذه الكلمة، وهو في هيئته تلك في عباءته وتواضعه. قالت: أمسكوا مطيتي، كيف قلت يا شيخ؟! قال: أقول لك هل يبيعك مولاك؟ قالت: ويلي عليك ولو باعني هل لمثلك ما يبتاعني به؟ قال: نعم، وخير منك. فاستضحكت، وقالت لغلمانها: سيروا به. قال: فحفوا به. قال: خلوا عنى أنا أسير إليكم فسار معهم حتى أتت قصرها، فقام حجبة الدار لها، فدخلت فأنزلوها، فبقى مالك بالباب، فدخلت إلى مولاها فقالت: يا مولاي ألا تتعجب لشيخ لقيني فكان من شأنه كذا وكذا، فحدثته فأضحكته. فقال: أين هو، ويلك؟ قالت: قد جئت به هو بالباب. قال: ادخلوه، فدخل مالك ولم يعرفه الرجل فلما وقف بباب مجلس إذا ببيت منجد بضروب سرية من الوطىء والمتكأ، فإذا هو قاعد على فراش من قدره وشأنه فشخص مالك ينظر. فقال: أدخل أيها الشيخ. فقال: لا أدخل، أو ترفع هذا الوطىء بشرفه وفتنته عني حتى لا أطأ منه شيئاً ولا أنظر إليه. قال: فألقى الله له الهيبة والطاعة في قلبه، فأمر برفع الوطىء والبسط حتى كشف الرخام، فقعد ورب البيت على كرسيه. قال: اجلس أيها الشيخ كما أحببت. قال: لا والله أن تنزل معي على هذا المرمر، وتنزل عن كرسيك. قال فجلس وجلس الملك معه. فقال له الرجل: قل حاجتك يا شيخ. قال: جاريتك التي دخلت عليك آنفاً [٣٢٧/أ] اتبيعنيها. قال: وهل لك ما تبتاعها به؟ قال: وما ثمنها؟ قال: إن من شأنها وقدرها وحالها كذا وكذا إنها تساوي كذا وكذا ألفاً. قال: ما بيني وبينك من قيمتها إلاّ يسير، ثمنها عندي نواتان مسوستان. قال: فضحك وضحكت الجارية من وراء الستر وضحك خدمة الدار. قال مالك: ما أضحككم؟ قال: وكيف كان ثمنها عندك بهذه الخساسة؟ قال: لكثرة عيوبها. قال: وما أعلمك بها؟ قال: أنا أعلمك بعيبها ما تعلم به علمي بها. قال: فقل. قال: فإنها إن لم تتعطر دفرت، وإن لم تستك بخرت، وإن لم تغتسل وضرت، وإن لم تمشط وتدهن قمّلت وشعثت، وإن تعمر عما قليل هرمت، فذات بخر، ودفر، وبصاق، ومخاط، وقمل، وشعث، وهرم، وحيض، وبول، وغائط، وأقذار جمة، وآفات بينات كيف لا تغلـو عليّ بنواتين مسوستين فلعلها لا تودك إلاّ لنفسها، ولا تحبك إلا لتنعمها بك وتنعمك بها، لا تفى بوعدك، ولا تصدق في ودك، ولا يخلف عليها أحد إلاّ رأته مثلك، وأجدُ بدونِ ما سألت في جاريتك من الثمن جارية خلقت من سلاله الكافور، ولو مزج بريقها الأجاج لطاب، ولو دعي ميت بكلامها لأجاب، ولو بدا معصمها للشمس لأظلمت دونه، ولو برز لسواد الليل لسطع فيه نوره، ولو واجهت الآفاق بحليها وحللها لتزخرفت، ولو نفخ ريح ذوائبها الأرض لأرجت العطر ولم تتعطر الشكلة، ولو تصنعت لقسمت المتعشقة التي نشأت بين رياض المسك والزعفران

وقصرت في أكنان النعيم، وغديت بماء النسيم، فلا يكسف بالها، ولا يتوقع ضُدها، فأيهما أحق برفعة الثمن أيها المغبون؟

قال: التي والله وصفت. قال: فإنها الموجودة بالثمن القريب الخطب. قال: فما ثمنها رحمك الله؟ قال: اليسير المبذول إن تتفرغ ساعة / من ليلك فتقوم بركعتين تخلصهما لربك، [٣٢٨/ب] وأن يوضع طعامك وتذكر جائعاً وتؤثره لله على شهوتك، وأن تخطر بالطريق فتعزل منه حجراً أو مدراً، وأن تحرك لسانك بطيب من الكلام ذاكراً، وأن تقطع أيامك بالبلغة، وترفع همك عن دار الغفلة، فتعيش في الدنيا بعز القنوع ربحاً، وتأتي غداً إلى موقف الكرامة آمناً، وتنزل على الملك الكبير مخلداً.

قال: فما برح الرجل أن قال: يا جارية. قالت: لبيك يا مولاي. قال: أسمعت ما قال شيخنا هذا؟ قالت: نعم سمعت. قال: أصدق أم كذب؟ قالت: بلى والله صدق، وبر، ونصح. قال: فأنت إذاً حُرة لوجه الله تعالى، وضيعة كذا وكذا عليك صدقة، وأنتم أيها الخدام أحرار، وضيعة كذا وكذا، وهذه الدار صدقة بما فيها، وجميع مالي في السبيل، وبسط يديه إلى ستر خشن كان على بعض أبوابه فأجتذبه فرمى به عليه فاستتر به. قالت الجارية: لا عيش لي دونك فرمت بكسوتها ولبست ثوباً خشناً فخرجت معه فودعها مالك ودعى لهما. قال: وأخذا طريقاً، وأخذ مالك آخر. قال ناقل الحكاية فذكر أنهما لم يزالا متعبدين لله تعالى عاملين حتى لقيا الله تعالى على ذلك والله أعلم.

فصل في الزهد

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً أزهده في الدنيا وأرغبه في الآخرة وبصره عيوب نفسه»[1].

وعنه ﷺ أنه قال: «أزهد في الدنيا يحبك الله وأزهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس».

وعنه ﷺ أنه قال: «من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعليم وهدى بغير هداية فلزهد في الدنيا»[2].

وعنه ﷺ أنه قال: «من إشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن خاف النار لهى عن

---

(١) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله: «ورغبه في الآخرة» وزاد: «فقهه في الدين». وإسناده ضعيف. العراقي في المغنى (٤/٢١٩).

(٢) لم أجد له أصلاة. المصدر سابق.

[٣٢٩/أ] الشهوات، ومن ترقب الموت ترك اللذات، ومن زهد / في الدنيا هانت عليه المصائب»[١].

قال ابن عيينة: الزهد ثلاثة أحرف: زاي، وهاء، ودال. فالزاي: أن تترك زينة الدنيا، ومعنى الهاء: أن تترك هواها، ومعنى الدال: أن تترك الدنيا بأثرها، فإذا كان هكذا فحينئذ يسمى زاهداً. وقال إبراهيم بن أدهم: الزهد: ثلاثة أصناف: فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة.

فإما الزهد الفرض: فالزهد في الحرام، والزهد الفضل: فالزهد في الحلال، والزهد السلام: فالزهد في الشبهات.

وقيل لبعض العلماء: ما الزهد؟ قال: التقى. وقال: لما يزهد الرجل في الدنيا إلاّ نطقت الحكمة على لسانه.

وقال بعض الحكماء: الزهد زهدان: زهد في الدنيا، وزهد في الرئاسة فمن زهد في الدنيا ولم يزهد في الرئاسة لم ينفعه زهده في الدنيا، ومن زهد في الرئاسة كان في الدنيا أزهد.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الزهد في الدنيا راحة القلب والجسد. وعن أبي سليمان الداراني قال: ليس الزاهد من نفى هموم الدنيا واستراح منها، وإنما الزاهد من زهد في الدنيا وتعب فيها للآخرة.

وقيل لبعض العلماء: ما رأس الزهادة؟ قال أخذ الأشياء من حلها، ووضعها في حقها.

وقال بعض الحكماء: الزهد في الرئاسة أشد من الزهد في الذهب والفضة لأنه يبذل الذهب والفضة في طلب الرئاسة.

وعن أبي سليمان قال: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال فهو مشؤم. وقال: الزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل.

وقال رجل لسفيان بن عيينة: أشتهي أن أرى عالماً زاهد، قال سفيان: ويحك تلك ضالة لا توجد.

وعن وهب بن منبه أنه قال: إن للجنة ثمانية أبواب فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون: وعزة الله لا يدخلها أحد قبل الزاهدين والعاشقين للجنة.

---

(١) رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب. قاله العراقي في المصدر السابق.

وعن يحيى بن معاذ أنه قال: إذا رأيت الزاهد يستريح إلى الرخص / فاعلم أنه قد بدا له [٣٣٠/ب] في طلب الزهد.

وقيل له متى يكون الرجل زاهداً؟ قال: إذا بلغ حرصه في ترك الدنيا كحرص الحريص على طلبها. وقال بعض السلف: إني أشتهي من الله ثلاث خصال؛ أن أموت يوم أموت ولي في ملكي درهم، ولا يكون على دين، ولا على عظمي لحم. فقيل: إنه أعطى ذلك.

وعن عبيدة بن عمير أنه قال: كان عيسى بن مريم عليهما السلام يأكل الشجر ويلبس الشعر وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد أينما أدركه المساء نام.

وقيل: لو اتخذت حماراً. فقال: أنا أكرم على الله أن يشغلني بحمار.

وروي أنه كان ماشياً في يوم صائف وقد مسه حر الشمس والعطش فجلس في ظل خيمة فخرج إليه صاحب الخيمة. فقال له: يا عبد الله قم من ظلنا. فقام عيسى عليه السلام: فقال لست أنت الذي أقمتني إنما الذي لم يرد أن أصيب منها شيئاً. وقال: يا معشر الحواريين أنه من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير[١].

وعن ابن عباس قال: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول:

إذا أردت شريف الناس كلهم ... فانظر إلى ملك في زي مسكين

ذاك الذي حسنت في الناس سيرته ... وكان يصلح للدنيا وللدين

ويروى أن رسول الله ﷺ سأل عن الزهد فقال: «أما إنه ليس بإضاعة المال، ولا بتحريم الحلال، ولكن إنما تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يدك، وأن يكون ثواب المصيبة أرجع عندك من بقائها».

وقال بعض السلف: من ضبط بطنه ضبط دينه، وكان بلية أبيكم آدم من أكله وهي بليتكم إلى يوم القيامة.

وقد اختلف علماء السلف في الزهد ما هو؟، فمنهم من قال: الزهد إنما هو الحرام لأن الحلال مباح من قبل الله سبحانه.

وقيل: / الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد. وقال آخرون: الزهد في الدنيا إنما هو [٣٣١/ب] قصر الأمل. وقيل: الزهد الثقة بالله مع الفقر.

(١) راجع إحياء علوم الدين (٤/ ٢٢٥).

وهذان القولان من أمارات الزهد لا الزهد نفسه لأنه لا يقوى العبد على[(١)] الزهد إلا بقصر الأمل والثقة بالله عز وجل.

وعن يحيى بن معاذ أنه قال: لا يبلغ أحدكم حقيقة الزهد حتى تكون فيه ثلاثة: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رئاسة.

وقال بعضهم: الزهد ثلاثة أوجه؛ ترك الحرام وهو زهد العوام، وترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص، والثالث زهد ما يشغل القلب عن الله تعالى وهو زهد العارفين. وفي مثلهم قيل:

فما صحبوا الأيام إلا تعففا ... وما وجدوا من حب سيدهم بُدا
أفاضيل صديقين أهل ولاية ... إلى سيد السادات قد جعلوا القصدا
تحلل عقد الصبر من كل صابر ... وما حلل الأيام من عقدهم عقدا

وقال بعض الحكماء: الزاهد: نظره في الدنيا عبرة، وكلامه فيها حكمة، وسكوته فيها فكرة، يصبر عند البلاء ويشكر عند الرخاء ويرضى بجميع القضاء.

وعن يحيى بن معاذ قال: الزاهد الصادق قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه والقبر مضجعه، والخلوة مجلسه، والأعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والزهد قرينه، والحزن شأنه، والتقوى إرادته والصمت غنيمته، والصبر معتمده، والتوكل حسبه، والعقل دليله، والعبادة حرفته، والجنة مبلغه.

فصل

اعلم أرشدك الله أن الزهد في الدنيا يفيد الإنسان أمرين:

أحدهما: كثرة العبادة فإن الرغبة في الدنيا يشغل ظاهر الإنسان بالطلب وباطنه بالمحبة لها، وحديثه النفس باشتغالها فالنفس واحدة والقلب واحد وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فمهما اشتغل القلبُ بشيء انقطع عن ضده.

[٣٣٢/أ] وعن أبي الدرداء أنه قال حاولت الجمع بين/ العبادة والتجارة فلم يجتمعا فاقبلت وتركت التجارة. وعن عمر رضي الله عنه قال: لو كانتا مجتمعتين لأحد غيري لاجتمعتا[(٢)] إليّ لما أعطاني الله من القوة فإذا كان الأمر هكذا فاضرر بالفانية والسلام.

---

(١) في الأصل: عن وهو تحريف. والسياق يقتضي ما أثبت.
(٢) في الأصل: لاجتمعت. وهو لحن أو سهو من الناسخ.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته من أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»(١).

وقد روي عن سليمان الفارسي رحمه الله أنه قال: إن العبد إذا زهد في الدنيا استنار قلبه بالحكمة وتعاونت أعضاؤه في العبادة. فبان بهذا أن العبادة لا تكثر ولا تستقيم إلاّ بالزهد.

والأمر الثاني: الذي يفيد الزهد هو شرف العمل وعظم قدره به.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ركعتان من رجل زاهد قلبه خير وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين إلى أخر الدهر أبداً سرمداً»(٢).

فإذا كانت العبادة تشرف وتكثر بذلك فحق لمن طلب العبادة أن يزهد في فضول الدنيا ويتجرد عنها.

وقد قال بعض العلماء: الزهد زهدان زهد مقدور للعبد، وزهد غير مقدور؛ فالذي هو مقدور ثلاثة: أشياء ترك طلب المفقود من الدنيا، وتفريق المجموع منها، وترك إرادتها.

وأما الزهد الذي هو غير مقدور للعبد: فهو برودة الدنيا على قلب الزاهد. ولكن الزهد الذي هو مقدور للعبد هو مقدمات الزهد الذي هو غير مقدور له، فإذا أتى به العبد بأن لا يطلب ما ليس عنده من الدنيا، ويفرق ما عنده فيها، ويترك بالقلب إرادتها أورثه برودة الدنيا على قلبه. لأجل الله تعالى وعظم ثوابه، وهذا هو الزهد الحقيقي. والشأن كله في الإرادة قال الله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾(٣). الآية. وقال: ﴿مَنْ كَان يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾(٤) الآية. في أمثالها أما ترى الإشارة كلها إلى الإرادة فالأمر المهم إذاً حب الدنيا / وإرادتها لأن [٣٣٣/ب] حب الشيء يعمي ويصمّ، لكن العبد إذا إستقام على الأولين ـ أعني الترك والتفريق ـ فمأمول من فضل الله تعالى دفع هذه الإرادة والحب عن قلبه إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٥). الآية.

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/١٩٧): حديث أبي موسى الأشعري: «من أحب دنياه أضر بأخرته...» الحديث ـ رواه ـ أحمد، والبزار والطبراني، وابن حبان، والحاكم وصححه.

(٢) أطراف الحديث بنحوه عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥/ ٢٩٠)، أبي نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٢١٢).

(٣) سورة هود الآية: ١٥.

(٤) سورة الإسراء الآية: ١٨.

(٥) سورة العنكبوت الآية: ٦٩.

ثم الذي يبعث على الترك والتفريق، ويهون ذلك على قلبه ذكر آفات الدنيا، وعيوبها. إذ قال بعضهم: تركت الدنيا لقلة غنائها، وكثرة عنائها، وسرعة فنائها، وخسة شركائها.

وقال بعضهم: إن الدنيا عدوة الله عز وجل، ومن أحب أحداً أبغض عدوه ـ والله أعلم إن كان يجوز هذا القول على الدنيا مجازاً أم لا[1]؟ والأصل أن الدنيا في حقيقتها وسخة جيفة إذ كان آخرها إلى الغدر والتلاشي والاضمحلال لكنها جيفة ضمخت بطيب، وكسيت بزينة، فأعزت بظاهرها الغافلون، وزهد فيها العاقلون، أما الصالحون فزهدوا في حرامها ورأوه عذاباً.

وأما الصدِّيقون: فزهدوا في حلالها ورأوه كالميتة لا يتناولونها إلا بالضرورة.

فإن قيل: كيف تصير الدنيا في شهواتها ولذاتها بمنزلة النار أو الميتة فطباعنا تقتضي حبها؟

فاعلم أن من وفق التوفيق وعلم آفاتها على التحقيق فإنها تصير عنده كذلك وإنما يتعجب بهذا الراغبون العميان عن[2] آفاتها المغترون بظاهرها.

ويتبين لك هذا بمثال، وذلك لو أن إنساناً صنع طعاماً لذيذاً، ثم طرح فيه قطعة سم قاتل فأبصر ذلك رجل ولم يبصر آخر ووضع بين أيديهما طيباً مزيناً فالذي أبصر ذلك السم يكون عنده بمنزلة النار ولما يعلم من آفاته لا يتناول منه على حال، والرجل الجاهل بالسم يحرص عليه ويتعجب من صاحبه بل ربما سفهه. فهذا مثل حرام الدنيا مع البصراء المستقيمين، والجهال الراغبين، فإن لم يطرح فيها السم، ولكن بزق فيه وامتخط ثم ضمخه وزينه، فالذي [٣٣٤/أ]شاهد منه ذلك الفعل يستقذره، وينفر عنه ولا يكاد /يتقدم عليه إلاّ عند الضرورة وشدة الحاجة، والذي لم يشاهد ذلك فهو بآفاته مغتراً بظاهره حريص عليه، فهذا مثل حلال الدنيا مع أهل البصيرة والاستقامة، وأهل الرغبة والغفلة، وإنما إختلف حال الرجلين مع تساويهما في الطبع لعلم كان لأحدهما، وجهل كان مع الأخر.

فإن قيل: لا بد لنا من قوت يكون لنا قواماً فكيف نزهد في الدنيا؟ فاعلم أن الزهد في الفضول مما لا يحتاج إليه في قوام البنية، وإنما المقصود بالقوة التقوية على العبادة فإن سكنتك

---

(١) هذه إشارة طيبة منه والتفاتة جيدة قد تفوت على كثير من الناس إلاّ من رحم الله فالله أسأل أن يجعلها له في ميزان حسناته وأن يرحمنا وإياه برحمته أمين.

(٢) في الأصل: على. وهو تحريف لسهو من الناسخ، والله أعلم.

إرادتك فالله تعالى يقويك على العبادة بما شاء كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾[1]. الآية.

وإن لم تتقو على ذلك وطلبت وأردت، فأنو بذلك العدة والتقوى والطاعة دون الشهوة واللذة فإنك إذا نويت ذلك كان الطلب والإرادة منك خيراً وطلبا للآخرة، بالحقيقة لا للدنيا، ولا يقدح ذلك في الزهد والتوكل على الله تعالى. نسأله العون والتوفيق لما يحبه ويرضاه.

تمت القنطرة الثامنة بحمد الله وحسن عونه
والصلاة على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

(١) سورة الطلاق الآية: ٢.

القنطرة التاسعة
من الكتاب قنطرة الخلق

اعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق ابن آدم لعبادته، كلفه العمل بطاعته، فكان مفتقراً إلى الاجتماع مع جنسه، محتاجاً إلى الاستماع بأنسه، لتدوم به الألفة الجامعة، وتحدث بسبب اجتماعهم الذرية النافعة، فافتقروا إلى أبنية محكمة، وبيوت متميزة لينفرد كل إنسان [٣٣٥/ب] بأهله، ويتميز من غيره ما كان من /نسله، فاضطروا إلى الخلطة والتآلف. ولمن يصلح إلّا على التعاون والتعفف، لأن الإنسان مقصود بالأذية، محسود بالنعمة، فإذا لم يكن ألفاً مألوفاً، وبالمعونة معروفاً، تخطته أيدي حاسديه، وتحكمت فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمة، ولم تصف له مودة، فإذا كان ألفاً مالوفاً، وببذل المعونة موصوفاً، انتصر بالإلفة على أعدائه، واستظهر بأهل معروفه على حساده، فسلمت نعمته منهم وصفت مودة عنهم، وإن كان صفو الزمان عسيراً، وسلمة خطر.

وقد روي عن جابر بن زيد رحمه الله أن النبي ﷺ قال: «المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس»[١] وإذا كانت الإلفة بها يجمع الله الشمل، ويظهر من أجلها التعاون، والوصل، والتناصر، والبذل، ويمتنع بها الإنسان من الذل، ويكسب بها أنواع الفضل اقتضت الحكمة ذكر أسبابها مشروحة بأبوابها وأسبابها. الألفة ثمانية وهي؛ الدين، النسب والمصاهرة، والجوار، والملك، والإخاء، والمروة، والإفضال، ونحن نشرحها إن شاء الله في ثمانية أبواب.

الباب الأول
فــي الــديــن

وهو الأول من أسباب الألفة فإنه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغنى: رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد، والحاكم من حديث أبي هريرة. لكن لم تذكر فيه «وخير الناس أنفعهم للناس» وجاء الإحياء دون ذكر هذه الزيادة.

قال الله سبحانه ممتناً على نبيه عليه السلام: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ...﴾[1] الآية.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً / وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم [٣٣٦/أ] ثلاثاً قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال».

وكل هذا منه حث على الألفة. والعرب تقول: من قل ذل. وينشد لقيس بن عاصم:

إن القداح إذا اجتمعن فرامها ... بالكسر ذو حنق وبطش أيد

عزت ولم تكسر وإن هي بددت ... فالهون والتكسير للمتبدد

فلما كان غير الدين يقتضي الألفة، كان الدين أولى وأحق، وبمثل ذلك وصى النبي ﷺ أصحابه فقال: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله أخوانا»[2].

قد كان بين الأوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثر ما كان في غيرهم إلى أن أسلموا فذهبت إحنَهم وأنقصعت عداوتهم فصاروا بالإسلام إخواناً متواصلين وبالألفة الدين أعواناً متناصرين قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾[3].

يعني في الجاهلية: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾[4]. بالإسلام.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[5]. يعني محبة في قلوب الناس.

وعلى حسب التآلف على الدين تكون العداوة فيه إذا اختلف بأهله فإن المسلم قد يقطع

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٦٣.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني في حديث نصه «لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم» رواه مسلم من حديث أبي هريرة وأوله متفق عليه من حديثه وحديث أنس «لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً» متفق عليه من من حديث أبي هريرة.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٠٣.

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٠٣.

(٥) سورة مريم الآية: ٩٦.

في الدين من كان به باراً وعليه مشفقاً هذا أبو عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر وأتى برأسه إلى الرسول ﷺ طاعة لله ورسوله حين بقي على شركه تغليباً للدين على النسب وطاعة الله على طاعة الأب.

وفيه أنزل الله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله وَٱليوم ٱلآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِروحٍ مِنهُ﴾[1]. فلما كان الدين بهذه المنزلة اقتضى بين أهله حقوقاً لا محالة. ونحن نجمع ذلك في ستة فصول:

[٣٣٧/ب] الفصل الأول: في /الولاية والمحبة لهم والعداوة والبغض لمن خالفهم

وهما من أوثق عرى الإسلام قال الله سبحانه: ﴿اسْتَغْفِر لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[2]. وقال أيضاً: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنهَوْنَ عَنِ ٱلمُنكَرِ﴾[3] الآية.

فكما تجب الولاية لهم فكذلك تجب العداوة والبراءة ممن خالفهم قال الله سبحانه: ﴿لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[4]. وقال: ﴿لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾. إلى قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾[5].

وقال مخبراً عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾. إلى قوله: ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ﴾[6]. في أمثالها من الآيات. وأما الآخبار:

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا ابن مسعود أي عرى الإسلام أوثق» قال: الله ورسوله أعلم. قال عليه السلام: «الحب في الله والبغض في الله»[7]. وهما حقيقة الإيمان عند أصحابنا ومن لم يدن بهما عندهم فلا دين عنده.

---

(١) سورة المجادلة الآية: ٢٢.
(٢) سورة الآية: .
(٣) سورة التوبة الآية: ٧١.
(٤) سورة الممتحنة الآية: ١.
(٥) سورة التوبة الآية: ٢٣.
(٦) سورة الشعراء الآية: ٧٠.
(٧) قال الحافظ العراقي في المغني في حديث نصه «أوثق عرى الإسلام الحب في الله والبغض في الله» رواه أحمد من حديث البراء بن عازب وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء: أما زهدك في الدنيا فقد استعجلت الراحة، وأما انقطاعك إليَّ فقد تعززت بي ولكن هل واليت لي ولياً أو غاديت لي عدواً.

وعن عبد اللَّه بن عمر أنه قال: والله لو صمت النهار ولا أفطرت وقمت الليل ولا أنامه وأنفقت مالي في سبيل الله علقاً علقا أموت يوم أموت وليس في قلبي حباً لأهل طاعته وبغض لأهل معصيته ما نفعني ذلك شيئاً.

وقال بعض العلماء: من هجر في ذات الله الأقرباء عوضه صحبة الأولياء.

وقال ابن السماك عند موته: اللهم إنك تعلم إن كنت عصيتك كنت أحب من يطيعك فاجعل ذلك قربة مني إليك.

وقال بعض السلف في بعض كلامه: هل تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمٰن في دار مع النبيين والصديقين والشهداء / والصالحين بأي عمل عملته بأي شهوة تركتها بأي غيظ [٣٣٨/أ] كظمته، بأي رحم قاطع وصلته، بأي زلة لأخيك غفرتها، بأي قريب باعدته في الله، بأي بعيداً قاربته في الله.

وقال النبي ﷺ في بضع خطبه: «أنه من أعطى لله ومنع لله وأحب في الله وأبغض في الله فقد استكمل خصائل الإيمان».

ويروى أن الله عز وجل أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام هل عملت لي عمل قط؟ قال: اللهم صليت لك وصمت لك وتصدقت: قال الله عز وجل: إن الصلاة لك برهان، والصوم لك جنة، والصدقة ظل، والذكر نور، فأي عمل عملت لي؟

قال موسى عليه السلام: إلٰهي دلني على عمل هو لك حتى أتيه. قال: يا موسى هل أوليت لي ولياً أو عاديت لي عدواً قط فاعلم يا موسى إن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله.

وعن الحسن قال: مصارمة الفساق قربة إلى الله تعالى.

وعنه أيضاً قال: لا يغرنك قول من يقول المرء مع من أحب فإنك لا تلحق الأبرار إلا بأعمالهم وإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم.

وروي أن الله عز وجل أوحى إلى عيسى عليه السلام لو أنك عبدتني عبادة أهل السموات وأهل الأرض وحب في الله ليس معك وبغض في الله ليس معك ما أغنى ذلك عنك شيئاً.

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: لو أن رجلاً أقام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب.

ويروى عن كعب الأحبار أنه قال: أن الله عز وجل كتب كلمتين ووضعهما تحت العرش قبل أن يخلق لم تعلم الملائكة بهما وأنا أعلم قال: يا أبا إسحاق ما هما؟

قال إحداهما: كتب لو أن رجلاً يعمل عمل جميع العالمين بعد أن تكون صحبته من الفجار أنا الذي أجعل عمله إثماً وأحشره مع الفجار والأخرى لو أن رجلاً يعمل عمل جميع الأشرار بعد أن تكوِن / صحبته مع الصالحين والأبرار. ومحبتهم فأنا الذي أجعل إثمه حسنات [٣٣٩/ب] واحشره يوم القيامة مع الأبرار والصالحين.

ويروى عن عيسى عليه السلام أنه قال: تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي وتقربوا إلى الله بالتباعد عنهم والتمسوا رضا الله بسخطهم. قالوا: يا روح الله فمن نجالس؟ قال: جالسوا من تذكر الله رؤيته ويزيد في علمكم منطقه ويرغبكم في الآخرة عمله. ولا بد في الولاية للمسلمين من اعتقاد الحب لهم في القلوب وإظهار الاستغفار لهم باللسان، وكذلك في البراءة من الكفار لا بد فيها من إعتقاد البغض لهم في القلوب وإظهار الشتم لهم باللسان.

وقد ذكرنا شروط الولاية والبراءة وأقسامهما في كتاب قواعد الإسلام فاقتصرنا في هذا الكتاب على ذكر الحقوق وبالله التوفيق.

الفصل الثاني: في السلام

وهو من حقوق أهل السلام والإبتداء به سنة ورده واجب[1].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[2].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: هو أن يسلم عليه إذا لقيه، فذكر عشر خصال رواه الشيخان من حديث أبي هريرة «حق المسلم على المسلم خمس رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس»، وفي رواية لمسلم «حق المسلم على المسلم ست إذا لقيته تسلم عليه» وزاد عليه «إذا استنصحك فانصح له» وللترمذي وابن ماجة من حديث عليّ «للمسلم على المسلم». فذكر منها «ويحب له ما يحب لنفسه» وقال: «وينصح له إذا غاب أو شهد». ولأحمد من حديث معاذ «وأن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك» وفي الصحيحين من حديث البراء «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع فذكر منها وإبرار القسم ونصر المظلوم».

(٢) سورة النساء الآية: ٨٦.

تؤمنون حتى تحابوا أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم؟». قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «أفشوا السلام بينكم»(١).

وفي حديث آخر: «ألا أدلكم على شيئين إذا فعلتموهما تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم وتهادوا»(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ثلاثة يثبتن الود في قلب أخيك؛ تسلم عليه إذا لقيته، وتزحزح له في المجلس، تدعوه بأحب اسمائه إليه.

وعن رسول الله صلى الله عليه / وسلم أنه قال: «إذا سلم المسلم على المسلم ورد عليه [٣٤٠/أ] صلت عليه الملائكة سبعين مرة»(٣).

عنه ﷺ أنه قال: «الملائكة تتعجب من المسلم يمر على المسلم فلا يسلم عليه»(٤).

وعنه ﷺ أنه قال: «يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم من القوم واحد أجزأ عنهم»(٥).

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: السلام اسم من اسماء الله عز وجل وضعه في الأرض فأفشوه بينكم، فإن المسلم إذا مر بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كانت له عليهم فضيلة ودرجة لأنه ذكرهم السلام، فإن لم يردوا عليه رد عليه من هو خير منهم وأطيب الملائكة عليهم السلام.

وعن قتادة أنه قال: تحية من كان قبلكم السجود فأعطى الله عز وجل هذه الأمة السلام، وهي تحية أهل الجنة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾(٦). وقال أيضاً: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني رواه مسلم من حديث أبي هريرة.
(٢) ذكر الحافظ العراقي حديثاً بنحوه في المغني وقال رواه البيهقي من حديث أبي هريرة.
(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة ولم يسنده ولده في المسند.
(٤) قال الحافظ العراقي في المغني لم أقف له على أصل.
(٥) قال الحافظ العراقي المغني: رواه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم مرسلاً ولأبي داود من حديث علي «يجزي عن الجماعة إذ مروا أن يسلم أحدهم ويجزي عن الجلوس أن يرد أحدهم». وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «يسلم الراكب على الماشي».
(٦) سورة إبراهيم الآية: ٢٣.

﴿عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[١].

وكان بعض السلف يمر بالقوم ولا يسلم عليهم، فقيل له في ذلك؟ فقال: أخشى أن لا يردوا فتلعنهم الملائكة، وذلك عن جابر بن زيد أنه لا يسلم على من لا يرد السلام من الجبابرة، فقيل له في ذلك قال؟ لئلا يكون مني سبب، تضييع الفريضة.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أنهو السلام إلى حيث أنهته الملائكة». يريد إلى قوله: ورحمه الله وبركاته. وروي أن رجلاً قال: السلام عليكم. قال عليه السلام: «عشر حسنات». فجاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله فقال: «عشرون حسنة». ثم جاء ثالث فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال عليه السلام: «ثلاثون حسنة[٢]»[٣].

ويقال أيضاً: إذا رُدَ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته كتب للراد ثلاثون حسنة.

[٣٤١/ب] ويقال: من سلم على المسلم فهو كمن أعتق رقبة / ويقال السلام بين الناس أمان يطمئنون به فيما بينهم. وذكر في معنى السلام عليك: أي الله شهيد رقيب عليك فاتقه.

وكذلك معنى قول الآخر إذا رد عليه أي عليك بالله فاتقه. ويجوز أن يسلم الإنسان على جميع أهل التوحيد البلغ العقلاء إلا ما استخصوه من أهل المعاصي والملاهي في حالتهم تلك، ومانع الحق والطاعن في الدين، أو المرأة العاصية لزوجها، والعبد الآبق، وأهل الفتنة كلهم، والمبتدع في الدين.

ولا يسلم على أهل الشرك، وإن سلم أحد من اليهود فليرد عليه وليقل عليك مثلما قلت. ومن سلم على ذمي وهؤلاء يعلم فلا شيء عليه وقيل يقول له: رد علي سلامي ولا يسلم على من كان مشتغلاً بالخلاء أو بالأذان، أو بالإقامة أو بالصلاة، أو بقراءة القرآن أو الكتاب، أو كان في مجلس الذكر، أو في المسجد ومن سلم على هؤلاء فليس عليهم أن يردوا عليه، وقيل من أمكنه الرد منهم مثل من كان في المسجد أو في المجلس فليرد.

وقيل: إن أحق بالسلام من كان في المسجد، أو في المجلس، أو في ذكر الله تعالى. واختلف في السلام على الأطفال وقيل: إن عمر رضي الله عنه كان يسلم عليهم، وأما العبيد

---

(١) سورة الرعد الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٢) هذه زائدة عن ما جاء في الإحياء والمغني فلم ترد بهما.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني رواه أبو داود والترمذي من حديث عمران بن حصين قال الترمذي غريب وقال البيهقي في الشعب إسناده حسن.

وذوات المحارم من النساء فلا بأس بالسلام عليهم، وأما غير ذوات المحارم من النساء فلا يسلم عليهن الرجل في غير المنزل لما يخاف من الريبة، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سلم على امرأة فنهرته فقالت له: إن كلام الرجال إلى النساء كصهيل الخيل إلى الرماك، ولكن إن لم يسترب كل واحد من الرجل والمرأة صاحبه فليسلم عليه.

والسلام إنما يكون قبل الكلام وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجبه حتى يبدأ بالسلام»(١).

وقال بعضهم: دخلت على رسول الله ﷺ ولم أسلم فقال عليه السلام. «إرجع / وقل [٣٤٢/أ] السلام عليكم أأدخل(٢)»(٣)(٤).

الفصل الثالث: في الاستئذان

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾، إلى قوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾(٥).

وروي أن النبي ﷺ أنه كان إذا أراد أن يدخل دار من دار المسلمين سلم ثلاثاً من خارج يقول: «السلام عليكم أأدخل؟»(٦). فإن أذنوا له وإلا رجع.

وقال عليه السلام: «الاستئذان ثلاثة فإن أذنوا لك وإلاّ فارجع فالأول يستنصتون والثاني يستصلحون والثالث يأذنون أو يردون»(٧).

ولا يجوز لأحد من العقلاء أن يدخل بيتاً مسكوناً حتى يستأذن، وإن كان غير مسكون

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في اليوم والليلة واللفظ له من حديث ابن عمر بسند فيه لين.

(٢) جاءت بالأصل «وادخل». والتصويب من المغني للحافظ العراقي وفي الأحياء «وادخل».

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث كلدة بن الحنبل وهو صاحب القصة.

(٤) ما ذكر في هذه الباب جاء بمعناه من كتاب الإحياء كتاب حقوق المسلم للإمام الغزالي الجزء الثاني ص ٢٠٠ طبعة دار إحياء الكتب العربية.

(٥) سورة النور الآيتان ٢٦: ٢٧.

(٦) الحديث في قوله ﷺ للرجل الذي دخل بدون إذن رواه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث كلدة بن الحنبل وهو صاحب القصة. قاله الحافظ العراقي في المغني.

(٧) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الدارقطني في الإفراد بسند ضعيف وفي الصحيحين من حديث أبي موسى «الاستئذان ثلاث فإن أذن لك وإلاّ فارجع».

فلا بأس. قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾[١]. يعني منفعة من الحر والبرد، فكل من دخل بيت غيره بغير إذن فقد عصى ربه، وعلى من دخل عليه بغير إذن أن ينهاه عن الدخول بغير إذن، ويأمره أن يخرج، ثم يستأذن وإن لم ينهه عن ذلك فقد عصى ربه، وإن دخل بغير إذن ناسياً فليخرج ثم يستأذن، وكذلك إن نسي المدخول عليه بغير إذن أن ينهاه، فإذا ذكر ذلك فليأمره بالخروج ثم يستأذن، وكل بيت لا يدخل إلا بإذن لا يجوز أن ينظر إلى داخله.

وقد قال عليه السلام: «إنما جعل الاستئذان لأجل النظر». وقال: «من نظر من صير باب فقد دمر»، أي دخل ويقال: النظر في بيوت الناس بغير إذن من الذنوب التي تحجب الدعاء.

وكل بيت لا تقطع يد السارق إذا سرق منه لا يحتاج الإنسان في دخوله إلى الاستئذان وذلك مثل المسجد، والمدرسة، وقصر العامة، والفندق والحمّام والمعصرة، وبيت الطاحونه [٣٤٣/ب]/ والحانوت ومجلس الذكر، والصلاة ومجلس الحكم، وبيت الصانع، وما أشبهه ذلك.

وكل من اضطر بالعدو والسباع، أو البرد أو الثلج أو بمعنى يخاف منه تلف نفسه فوجد بيتاً لغيره فإنه يستأذن ثم يدخل أذنوا له، أو لم يأذنوا. واختلفوا إذا خاف تلف ماله.

وكل بيت كان فيه منكر مثل المخمر والنبيذ المسكر، أو خائن فيه، أو كان فيه مانع لحق، أم من يضرب عياله جزافاً، فإنه يجوز لمن أراد أن يغير ذلك المنكر أن يدخل بغير استئذان وإن أغلقوه فليكسره عليهم أو منعوه فليدخله على كره منهم وكذلك يدخل بغير إذن إلى تنجية الأنفس، والأموال، وتجهيز الميت، وأشباه ذلك، ويجوز الدخول بإذن كل من كان في بيت غيره حراً كان أو عبداً، طفلاً كان أو بالغاً، ذكراً كان أو أنثى، وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: في زيارة الإخوان

ويروى أن رسول الله ﷺ قال: «أن رجلاً زار أخاه في الله فأرسل الله له ملكاً فقال: أين تريد فقال: أريد أخي فلاناً قال: لحاجة لك عنده قال: لا، قال: فلقرابة بينك وبينه قال: لا قال فلنعمة لك عنده، قال: لا قال: فبما قال: أحبه في الله قال فإن الله أرسلني إليك أبشرك فإنه يحبك بحبك إياه وأوجب لك الجنة»[٢].

---

(١) سورة النور الآية: ٢٩.

(٢) ورد بمعناه في المغني للحافظ العراقي قال: رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

ويروى أنه: «ما زار رجل أخاً له في الله شوقاً إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً»[(١)].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل وجبت محبتي للذين يتزاودون من أجلي وحقت محبتي للذين يتعارفون من أجلي وحقت محبتي للذين يتصافحون من أجلي / وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي»[(٢)]. [٣٤٤/أ]

وذكر عن الشيخ أبا مسور عمن حدّث عنه أنه قال: إذا كان التزاور بين قوم فقد تم لهم العزم والاجتهاد فيها بينهم وبين خالقهم، وإذا لمن يكن بينهم التزاور فقد تم عليهم الكسل فيما بينهم وبين خالقهم فنعوذ بالله من الكسل والترك بعد الاجتهاد.

وعن بعض المشايخ أنه قال: تزاوروا فإنكم إذا تزاورتم تعارفتم، وإذا تعارفتم تحاببتم، وإذا تحاببتم تواليتم، فإذا تواليتم دخلتم الجنة، فإذا لم تتزاوروا لن تتعارفوا، فإن لم تتعارفوا لم تتحاببوا، فإن لم تتحاببوا تتعادوا، فإذا تعاديتم دخلتم النار.

وعن ابن صالح أنه قال: ثلاثة لا توجد في أهل آخر الزمان التزاور في الله، وقرآءة القرآن لما عند الله، وكثرة الدعاء إلى الله والتضرع إليه.

ويقال: من مشى لزيارة توزن له سبعة أميال من ست جهات إلى السماء السابعة ومن فوق إلى الأرض السابعة من تحت.

ويقال: من زار أخاه في الله ففرش له فراشاً فرش الله له سبعين فراشاً في الجنة، وإذا أطعمه طعاماً أطعمه الله في الجنة سبعين طعاماً، وإذا علف دابته فله بكل حبة حسنة، وإذا أمسك له الركاب ركبه الله على سبعين مهراً في الجنة وغفر له أربعين كبيرة والله أعلم.

وقد روي عن داود الطائي أن رجلاً زاره فقال له: ما جاء بك؟ قال: زيارتك. قال: أما أنت فقد علمت خير حين رزت، ولكن انظر ماذا ينزل بي، أنا إذا قيل لي: من أنت فتزار من العباد، أنت لا والله أمن الزهاد أنت؟ لا والله أمن الصالحين؟ أنت لا والله، ثم أقبل على نفسه

---

(١) ذكره الحافظ العراقي في المغني بمعناه وقال: رواه ابن عدى من حديث أنس دون قوله: «شوقاً إليه ورغبة في لقائه» ورواه الترمذي وابن ماجة من حديث أبي هريرة وقال الترمذي غريب ((٣٢١/٤) ح ٢٠٠٨) سنن الترمذي وقال حسن غريب.

(٢) ذكره الحافظ العراقي في المغني بمعناه وقال: رواه أحمد من حديث عمرو بن عنبسة وحديث عبادة بن الصامت ورواه الحاكم وصححه.

يوبخها ويقول: كنت في الشبيبة فاسقاً فلما شخت صرت مراءياً والله للمراءى أشد من الفاسق
[٣٤٥/ب] قال رسول الله ﷺ: «الأرواح أجناد / مجندة فما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها اختلف»(١).
وأخذه بعض الشعراء فقال:

إن القلــوب لأجنــاد مجنــدة ... لله فـي الأرض بـالأهـواء تعتـرف
فمــا تعـارف منهـا فهـو متـألـف ... فمـا تنـاكـر منهـا فهـو مختلـف

وبالله التوفيق.

فصل: في إخوان السوء

وعن الأعمش قال: أدركت أقواماً كان رجل منهم لا يلقى أخاه شهراً أو شهرين فإذا لقيه لم يزده كيف أنت؟ وكيف الحال؟ ولو سأله شطر ماله لأعطاه إياه ثم أدركت أقواماً لو كان أحدهم لا يلقى أخاه يوماً لسأله عن الدجاجة في البيت ولو سأله حبة من ماله لمنعه إياها. وعن يحيى بن معاذ أنه قال: بئس الصديق صديقاً يحتاج معه إلى المداراة، وبئس الصديق صديقاً يلجئك إلى الاعتذار وبئس الصديق صديقاً تحتاج أن تقول له اذكرني في دعائك.

وسأل رجل الثوري عن الإخوة في الله فقال: يا أخي تلك الطريق نبت عليها العوسج.
وقال مالك بن دينار: وجدت أخوة زماننا مثل مرقة الطباخ طيبة الريح لا طعم لها.

وهكذا إخوة زماننا وليتهم كانوا هكذا ولكنهم إخوان العلانية أعداء السريرة إن رضوا فظاهرهم الملق وإن غضبوا فباطنهم الحنق والله المستعان.

الفصل الخامس: في عيادة المرضى

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عاد مريضاً قعد في مخاريف الجنة حتى إذا قام [٣٤٦/ب] وكل به سبعون ألف ملك / يصلون عليه حتى الليل»(٢).

وقال عليه السلام: «إذا عاد الرجل المريض ـ إبتغاء وجه الله ـ خاض في الرحمة فإذا

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه مسلم من حديث أبي هريرة والبخاري تعليقاً من حديث عائشة.
(٢) قال الحافظ العراقي: رواه أصحاب السنن والحاكم من حديث علي «من أتى أخاه المسلم عائدا مشى في خرافة الجنة حتى يجلس فإذا جلس غمرته الرحمة فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي وإن كان مساء». الحديث لفظ ابن ماجة وصححه الحاكم وحسنه الترمذي. ولمسلم من حديث ثوبان «من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة».

قعد عنده استنقع فيها استنقاعاً»[١]. وعنه ﷺ أنه قال: «إذا مرض العبد بعث الله ملكين فقال انظرا ماذا يقول لعواده فإن هو إذا جاؤه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك [إلى الله][٢] وهو أعلم فيقول قولا[٣] لعبدي عليّ إن توفيته أن أدخله الجنة وإن أنا شفيته[٤] أن أبدله لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه وأن أكفر عنه سيئاته»[٥].

وعنه ﷺ أنه قال: «أنه قال من يرد الله به خيراً يصب منه»[٦]. وعنه ﷺ أنه قال: «لا تسبو الحمى فإنها والذي نفسي بيده تذهب بذنوب المؤمن كما تذهب النار بخبث الحديد».

ويروى أن «من وعك يوماً فلم يشتك به ربه سقى يوم الظمأ، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وستر الله عليه في الآخرة كما ستر على بلاء الله عنده في الدنيا».

وعنه ﷺ أنه قال: «إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء». وعن عثمان بن عفان أنه قال: مرضت فعادني رسول الله ﷺ فقال: «بسم الله الرحمٰن الرحيم أعيذك بالله الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد والذي لم يكن له كفواً أحد من شر ما تجد»[٧] مراراً.

وروي أنه ﷺ دخل علي بن أبي طالب وهو مريض فقال له: «قل اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك أو صبراً على بلائك[٨] أو خروجاً من الدنيا إلى رحمتك فإنه ستعطى إحداهن»[٩].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني في حديث بنحوه: رواه الحاكم والبيهقي من حديث جابر وقال «انغمس فيها» قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وكذا صححه ابن عبد البر وذكره مالك في الموطأ بلاغاً بلفظ «قرت فيه» ورواه الواقدي بلفظ «استقر فيها» وللطبراني في الصغير من حديث أنس «فإذا قعد عنده غمرته الرحمة» وله في الأوسط من حديث كعب بن مالك وعمرو بن حزم «استنقع فيها».

(٢) ساقط من الأصل وأثبتناه من الإحياء.

(٣) لم ترد إلاّ في الأصل والأرجح أنها زائدة.

(٤) جاءت في الأصل «اشفيته» وبالإحياء «شفتيه» فاثبتناه.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه مالك في الموطأ مرسلاً من حديث عطاء بن يسار، ووصله ابن عبد البر في التمهيد من روايته عن أبي سعيد الخدري وفيه عباد بن كثير الثقفي ضعيف الحديث، وللبيهقي من حديث أبي هريرة وإسناده جيد.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٧) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه ابن السنى في اليوم والليلة والطبراني والبيهقي في الأدعية من حديث عثمان بن عفان بإسناد حسن.

(٨) جاءت بالأصل هكذا وبالإحياء «بليتك».

(٩) قال الحافظ في المغني: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب المرضى من حديث أنس بسند ضعيف أن رسول =

وعن الربيع بن خيثم أنه قال: ليس للمريض عندنا إلاّ العسل، ولا للنفساء إلاّ الرطب.

وأظن هذا مأخوذ من قوله تعالى في النحل: ﴿يَخرُجُ من بُطونِهَا شَرَابٌ مخُتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ للنَّاسِ﴾(١). وقال في النفساء وهي مريم إذ نفست بعيسى عليه السلام: ﴿وَهُزِّي إِلَيكِ بِجِذعِ ٱلنَّخلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيكِ رُطَباً جَنِيًّا﴾(٢). [٣٤٧/أ]

وعن عليّ بن أبي طالب أنه قال: إذا اشتكى أحدكم بطنه فليسأل امرأة شيئاً من صداقها فليشتر به عسلاً بماء السماء فيجمع الله له الهنيء والمريء والشفاء المبارك.

وروي عن جعفر بن محمد أنه دخل على عليل فقال له: قل اللهم إنك عيرت قوماً فقلت: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمتُم مِن دُونِهِ فَلاَ يَملِكُونَ كَشفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمُ وَلا تَحوِلاً﴾(٣). واعلم أنك القادر على كشف ضري فأكشفه عني وحوله إلى أعدائك الجاحدين فقالها العليل فعفى من ساعة.

وروي أن رسول الله ﷺ عاد مريضاً من وعك كان به فقال له: «أبشر فإن الله عز وجل يقول هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا ليكون حظه في الآخرة من النار».

وعنه ﷺ أنه قال: «إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل فإن ذلك لا يرد شيئاً وهو يطيب نفس المؤمن».

وعنه ﷺ أنه قال: «أنين المريض تسبيح وصياحه تهليل ونفسه صدقة وفومه عبادة ويكتب له أحسن ما كان يعمل في صحته ويقوم ولا ذنب له».

وعن سليمان الفارسي رحمه الله أنه قال: مرضت فعادني رسول الله ﷺ فقال: «يا سليمان كشف الله ضرك إلى مدة أجلك أما إن لك في مرضك ثلاث خصال: أما أولهن فذكر الله تعالى لك. وأما الثانية فتكفير الخطايا عنك وأما الثلاثة فادعو الله يا سليمان يجب دعوتك».

وعنه ﷺ أنه قال: «إذا دخلتم على مريض فمروه يدعو لكم فإن دعاء المريض كدعاء الملائكة».

= الله ﷺ دخل على رجل وهو يشتكي ولم يسم علياً. وروى البيهقي في الدعوات من حديث عائشة أن جبرئيل علمها للنبي ﷺ وقال: إن الله يأمرك أن تدعو بهؤلاء الكلمات.

(١) سورة النحل الآية: ٦٩.

(٢) سورة مريم الآية: ٢٥.

(٣) سورة الإسراء الآية: ٥٦.

وروي أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ بهذه الرقية: «بسم الله أرقيك والله يشفيك / من كل داء يؤذيك ومن عين تبغيك خذها فلتهنيك». [٣٤٨/ب]

وروي عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا عاد مريضاً مسح بيده المباركة على وجهه وصدره يقول: «أذهب الباس رب الناس أشف أنت الشافي لا شفاء إلاَّ شفاءك شفاء لا يغادر سقماً».

ويروى عنه ﷺ أنه قال: «من عاد مريضاً فقال: بسم الله أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك شفاء» عوفي إن لم يكن حضر أجله.

وكان عبد اللَّه بن المبارك يقول: أقسمت عليك أيتها العلة بعزة عزة الله، وبعظمة عظمة الله وبجلال جلال الله وبقدرة قدرة الله، وبسلطان سلطان الله وبلا إله إلا الله، وبما جرى به القلم من عند الله، وبلا حول ولا قوّة إلاَّ بالله وبحمد رسول الله إلاَّ ما انصرفت إلى من كفر بالله.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن ربكم يطعمهم ويسقيهم».

وقال بعض السلف: إذا مرض العبد المؤمن قيل لصاحب الشمال لا تكتب عليه سيئة وإن عملها وقيل لصاحب اليمين اكتب له أحسن ما كان يعمل في الصحة.

ويقال: إن الرجل إذا اشتكى ثم عوفي فلم يحدث خيراً ولم يكف عن سوء لقيت الملائكة بعضها بعضاً فقالت: إن فلاناً داويناه فلم ينفعه الدواء.

ويروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قيل له في مرضه: ألا ندعوا لك طبيباً؟ فقال: قد رآني الطبيب. قالوا له: فأي شيء قال لك؟ قال: قال لي: (إني فعال لما أريد). قال: فمرض أبو الدرداء فعادوه فقالوا له: أي شيء تشتهيه؟ قال: الجنة. قالوا: ندع لك طبيباً؟ قال: هو أضجعني. قال له رجل من أصحابه: أتريد أن أسامرك الليلة؟ فقال له أبو الدرداء: أنت معافى وأنا مبتلى فالعافية / لا تدعك أن تسهر والبلاء لا يدعني أن أنام أسأل الله [٣٤٩/ب] الذي لا إله إلاّ هو أن يهب لأهل العافية الشكر ولأهل البلاء الصبر.

قال: ودخل رسول الله ﷺ على شاب مريض فقال له: «كيف تجدك». قال يا رسول الله: أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال له ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموضع إلاَّ أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف».

وعن عبيد الله بن عبيد قال: عدت مريضاً فقلت له كيف تجدك؟ فأنشأ يقول:

خرجت من الدنيا وقامت قيامتي غداة أقل الحاملون جنازتي
وعجل أهلي حفر قبري وصيروا خروجي وتعجيلي إليه كرامتي
كأنهم لم يعرفوا قط صورتي غداة أتى يوم عليَّ وساعتي

وقيل للربيع بن خثيم في مرضه ألا ندعو لك طبيباً؟ فتفكر ساعة. فقال: أين عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون بين كثيراً قد كانت فيهم الأدواء وكانت لهم الأطباء فلا أرى المداوى بقي ولا المداوي كل قد فنى ومضى والله لا أدعو طبيباً أبداً والله أعلم.

وآداب العائد خمسة: وهي خفة الجلسة، وقلة السؤال، وإظهار الرقة والدعاء له بالعافية، وغض البصر عن عورات الموضع.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على يده ويسأله كيف هو». وقال: «تمام تحيتكم المصافحة»(١). والله أعلم.

الفصل السادس: في جملة من حقوق المسلم

منها النصحية: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصحية». قالها ثلاثاً. قيل: يا رسول الله لمن؟ قال: «لله ولرسوله ولكتابه ولدينه ولأئمة / المسلمين وعامتهم وخاصتهم». [٣٥٠/أ]

وعنه ﷺ أنه قال: «المؤمن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه»(٢).

وعنه ﷺ أنه قال: «المؤمن مرآة أخيه فإذا رأى به شيئاً فليمطه عنه»(٣).

وعنه ﷺ أنه قال: «من قضى لأخيه المؤمن حاجة فكأنما خدم الله عمره»(٤).

وعنه ﷺ أنه قال: «من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة»(٥). وقال: «من مشى في

---

(١) ذكر الحافظ العراقي أحاديث بنحو هذا وقال: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق وهو عند الترمذي من حديث أبي أمامة وضعفه وذكر أحاديث في المصافحة وعزاها إلى ابن عدي من حديث أنس وقال غير محفوظ، ومن حديث عمر عند البزار في مسنده والخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وفي إسناده نظر. ومن حديث أنس «إذا التقى المسلمان فتصافحا...» رواه الخرائطي بسند ضعيف والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وفيه الحسن بن كثير بن أبي يحيى بن كثير. وهو مجهول.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: لم أره بهذا اللفظ.

(٣) قال الحافظ العراقي في نحوه رواه أبو داود والترمذي.

(٤) قال الحافظ العراقي المغني: رواه البخاري في التاريخ والطبراني والخرائطي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف مرسلاً.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق بإسناد ضعيف مرسلاً.

حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها وجبت له الجنة»[١] أو نحوها.

وعنه ﷺ أنه قال: «من فرج عن مكروب أو أعان مظلوماً غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة»[٢].

وعنه ﷺ أنه قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». فقال: يا رسول الله هذا أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم»[٣].

وعنه ﷺ: «من حمى مؤمناً من غيبة منافق بعث الله ملكاً يحمي لحمه من النار يوم القيامة»[٤].

وعنه ﷺ أنه قال: «لا يحل للمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه».

وعنه ﷺ أنه قال: «إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره»[٥].

وعنه ﷺ أنه قال: «من استمع [خبر][٦] قوم وهم له كارهون صب في أذنه الآنك يوم القيامة»[٧].

وعنه ﷺ أنه قال: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضرر لعباد الله وخصلتان ليس فوقهما شيء من البر الإيمان بالله والنفع لعباد الله»[٨].

---

(١) قال الحافظ العراقي في حديث نحوه: دون ذكر : «وجبت له الجنة». وذكر «كان خيراً له من اعتكاف شهرين» قال رواه الحاكم وصححه من حديث ابن عباس «لأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته» وأشار بأصبعه «أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين». وللطبراني في الأوسط «من مشى في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكافه عشر سنين». وكلاهما ضعيف.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني في معناه: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وابن عدي من حديث أنس بلفظ «من أغاث ملهوفاً».

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: متفق عليه.

(٤) قال الشارح: لم يذكر العراقي ورواه ابن المبارك وأحمد وأبو داود وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة والطبراني عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه ـ في معنى هذا الحديث.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديثه ابن مسعود بإسناد ضعيف ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية أبي بكر بن حزم مرسلاً، والحاكم وصححه من حديث ابن عباس «إنكم تجالسون بينكم بالأمانة».

(٦) ما بين المعقوفين جاء بالأصل إلى «سر قوم» وما أثبتناه من الإحياء.

(٧) قال الحافظ العراقي: البخاري من حديث ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً عليه وعلى أبي هريرة.

(٨) قال الحافظ العراقي في المغني: ذكره صاحب الفردوس في مسنده من حديث علي ولم يسنده ولده في مسنده. =

وعنه ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم بالله حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وعنه ﷺ أنه قال: «من لم يهتم للمسلمين فليس منهم»[١].

[٣٥١/ب] وعنه ﷺ أنه قال: «إن من أحب الأعمال إلى إدخال / السرور على المؤمن أن يفرج عنه غماً أو يقضي عنه ديناً أو يطعم من جوع»[٢].

ومنها تشميت العاطس إذا حمد الله تعالى لقوله عليه السلام: «إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين فإذا قال ذلك فليقل من عنده يرحمك الله وليرد عليه يهديكم الله ويصلح بالكم»[٣]. وقال: «تشميت العاطس إذا عطس ثلاثاً وإذا زاد فهو زكام»[٤]. ومنها تشييع جنازته لقوله عليه السلام: «من شيع جنازة فله قيراط وإن أقام حتى يدفن فله قيراطان»[٥].

وفي الخبر: «القيراط: مثل جبل أحد»[٦].

ومنها أن يزور قبره والمقصود في ذلك الدعاء والاعتبار لقوله ﷺ: «ما رأيت منظر إلاّ والقبر أفظع منه»[٧].

ومنها أن يعزيه عن ميته والتعزية سنة. ومنها توقير الكبير في الإسلام، ورحمة الصغير لقوله صلى الله: «ليس منا من لا يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا»[٨] وقال: «من إجلال الله إجلال ذي الشيبة في الإسلام»[٩].

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الحاكم من حديث حذيفة والطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر وكلاهما ضعيف.

(٢) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في الصغير الأوسط من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٣) ذكر الحافظ العراقي أحاديث بمعناه وطعزاها إلى البخاري وأبو داود من حديث أبي هريرة، والنسائي في اليوم والليلة وقال حديث منكر من حديث ابن مسعود. وورواه أبو داود والترمذي من حديث سالم بن عبد الله واختلف في إسناده.

(٤) ذكر الحافظ العراقي في معنى هذا الحديث حديثاً وقال: رواه أبو داود من حديث أبي هريرة «شمت أخاك ثلاثاً» وإسناده جيد.

(٥) ذكر الإمام الغزالي هذا الحديث بلفظ «من شيع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان» وقال الحافظ العراقي في المغني رواه الشيخان من حديث أبي هريرة.

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه مسلم من حديث ثوبان وأبي هريرة وأصله متفق عليه.

(٧) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم من حديث عثمان وقال صحيح الإسناد وقال الترمذي حسن غريب.

(٨) قال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف وهو عند أبي داود والبخاري في الأدب من حديث عبد الله بن عمرو بإسناد حسن.

(٩) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو داود من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن.

ومنها أن يستر عورات المسلمين لقوله عليه السلام: «من ستر عورات المسلمين ستر الله عليه في الدنيا والآخرة»[١].

ومنها إصلاح ذات البين بين المسلمين لقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٢]. وقوله: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[٣].

وقال عليه السلام: «أفضل الصدقات إصلاح ذات البين»[٤] ومنها المواساة لقوله عليه السلام: «ليس المؤمن ما بات شبعان وجاره جائع».

وقال عليه السلام: «الإسلام أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك»[٥].

وليس كف الأذى يقضي ما لزم من الحق في النصيحة وإسداء الخير، فمن قنع بكف الأذى والسكوت عن الإخوان فليصحب أهل القبور. ومنها أن لا يقبل في المسلم ما يسمعه من أهل النميمة والحسد فيه لقوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[٦] الآية.

ومنها أن / لا يسيء الظن بالمسلم لقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ [٣٥٢/أ] إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[٧]. وقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[٨].

وقال عليه السلام: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[٩] ومنها أن لا يزيد في هجرات المسلم مهما غضب عليه أكثر من ثلاثة أيام لقوله عليه السلام: «لا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام».

---

(١) ذكر نحوه الحافظ العراقي في المغني وقال: رواه مسلم من حديث أبي هريرة وللشيخين من حديث ابن عمر.
(٢) سورة الحجرات الآية: ٩.
(٣) سورة النساء الآية: ١١٤.
(٤) قال الحافظ العراقي رواه الطبراني في الكبير والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو فيه عبد الرحمٰن بن زياد الإفريقي ضعفه الجمهور.
(٥) قال الحافظ رواه أحمد من حديث عمرو بن عنبسة بإسناد وصحيح.
(٦) سورة الحجرات الآية: ٦.
(٧) سورة الحجرات الآية: ١٢.
(٨) سورة النور الآية: ١٢.
(٩) قال الحافظ العراقي في المغني: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

والخصلة الجامعة لهذه الآداب والحقوق أن يستصغر أحداً من المسلمين ولا ينظر إلى أهل الدنيا بعين التعظيم لدنياهم.

وهذا الذي قدمناه في أهل الولاية من أهل الوفاق دون الفساق وأهل الخلاف ما خلا أدب المعاشرة فإنها عامة لجميع الناس لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسناً﴾[١].

فهذه جملة من حقوق الإسلام اختصرناها مخافة التطويل وبالله التوفيق[٢].

الباب الثاني
في حق النسب

وهو الثاني من أسباب الألفة فإن تعاطف الأرحام وحماية القرابة يبعثان على التناصر والألفة ويمنعان من التخاذن والفرقة أنفة من إستيلاء الأباعد على الأقارب.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الرحم إذا تناست تقاطعت». ولذلك حفظت أنسابها لما امتنعت من سلطان يقهرها ويكف الأذى عنها لتكون بها متناصرة على من عادها حتى بلغت بإلفة الأنساب وتناصرها عن الأقوياء ذوي السلطنة من الأمراء وقد أعذر نبي الله لوط نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال: //﴿لَو أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكنٍ شَدِيدٍ﴾[٣]. [٣٥٣/ب] يعني إلى عشيرة مانعة.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال «رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد» ـ يعني الله ـ قال: «فما بعث الله بعده نبياً إلاَّ في ثروة من قومه».

وعن وهب بن منبه قال: ولقد جاءت الرسل على لوط وقالوا: إن ركنك لشديد وروي عن النبي ﷺ كان لا يترك المرء مفرد حتى يضم إليه قبيلة يكون منها، كل ذلك منه حث على الألفة وكف على الفرقة فإذا كان النسب بهذه المنزلة اقتضى بين أهله حقوق لا بد من مراعتها وقد تعرض لهذا عوارض تبعث على قطيعتها وجملة الإنسان ثلاثة أقسام:

أحدها: والدون وهم الأباء والأمهات.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٨٣.
(٢) ما جاء في هذا الباب منقول من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي. كتاب آداب الألفة والأخوة. باب حقوق المسلم. الجزء الثاني ص ١٥٤ طبعة دار إحياء الكتب العربية.
(٣) سورة هود الآية: ٨٠.

والثاني: مولدون وهم البنون والبنات.

الثالث: مناسبون، وهم القرابة والأرحام.

ونحن نذكر ذلك إن شاء الله في ثلاثة فصول.

الفصل الأول: في حقوق الآباء والأمهات وما ينافيها من العقوق والآفات

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[(١)]. يعني برّهما.

وقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[(٢)].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الجنة يوجد ريحها مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق لوالديه ولا قاطع رحم»[(٣)].

وعنه ﷺ أنه قال: «من أصبح مريضاً لأبويه أصبح له بابان مفتوحين إلى الجنة ومن أمسى مثل ذلك وإن كان واحداً فواحداً أو من أصبح مسخطاً لأبويه أصبح له بابان / مفتوحين [٣٥٤/أ] إلى النار ومن أمسى مثل ذلك ولو كان واحداً فواحد وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما»[(٤)].

وعن ابن عباس عنه ﷺ أنه قال: «إلاَّ من أسخط والديه فقد أسخط الله ومن أغضبهما فقد أغضب الله إلاَّ أن يأمراك بمعصية الله وإن أمراك أن تخرج من ملك وأهلك بحق الله فاخرج وما من مسلم أعتقهما من الرق فإنه إن كان مسلماً يرجى له أن يعتقه الله من النار».

وعنه ﷺ أنه قال: «لا يجزىء ولد عن والده إلا أن يجده مملوكاً [فيشتريه][(٥)] فيعتقه»[(٦)].

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ أنه قال: «من أقام الصلوات الخمس ولم يركب الكبائر السبع نودي أن يدخل الجنة من أي باب شاء بسلام».

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٣.

(٢) سورة لقمان الآية: ١٤.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الطبراني في الصغير من حديث أبي هريرة دون ذكر القاطع وهي في الأوسط من حديث جابر إلاَّ أنه قال: «من مسير ألف عام» وإسنادهما ضعيف.

(٤) ذكر الحافظ العراقي نحوه في المغني وقال: رواه البيهقي من الشعب من حديث ابن عباس ولا يصح.

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وأثبتناه من الإحياء.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

فقال رجل لابن عمر: أهن من رسول الله؟ قال: نعم. عقوق الوالدين، والشرك بالله، وقذف المحصنات، وقتل النفس التي حرم الله إلاَّ بالحق، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتم وأكل الربا.

وروي عن جبريل عليه السلام قال: من أدرك أحد والديه فدخل النار أبعده الله قل يا محمد آمين. فقال: «آمين».

وروي عن أنس بن مالك قال: قلت: يا رسول الله رغيف اتصدق به أحب إليك أم مائة ركعة تطوعاً؟ قال: «رغيف تتصدق به أحب إليّ من مائتي ركعة تطوعاً». قلت: يا رسول الله قضاء حاجة للمسلم أحب إليك أم مائتي ركعة تطوعاً؟ قال: «قضاء حاجة للمسلم أحب إليّ من ألف ركعة تطوعاً». قلت: ترك لقمة من الحرام أحب إليك أم ألف ركعة تطوعاً؟ قال: «ترك لقمة من الحرام أحب إلي من ألفي ركعة». قال: قلت: يا رسول الله ترك الغيبة أحب إليك أم ألفي ركعة؟ قال: «ترك الغيبة أحب إليّ من عشرة آلاف ركعة». قال: قلت: قضاء حاجة أرملة أحب عندك أم عشرة ألاف ركعة؟ قال: / «قضاء حاجة أرملة أحب إلي من ثلاثين [٣٥٥/ب] ألف ركعة». قال: قلت: يا رسول الله الجلوس مع العيال أفضل أم الجلوس في المسجد؟ قال: «بل الجلوس مع العيال أفضل من الاعتكاف في مسجدي هذا». قلت: يا رسول الله النفقة على العيال أحب إليك أم النفقة في سبيل الله؟ قال: «إنفاق درهماً على العيال أحب إلي من إنفاق ديناراً في سبيل الله». قال: قلت: يا رسول الله بر الوالدين أحب إليك أم عبادة ألف سنة؟ قال: «يا أنس قد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً بر الوالدين أحب إليّ من عبادة ألفي سنة».

وقال عليه السلام: «من أحزن والديه فقد عقهما». ومن عقهما وجفاهما إلى مماتهما فيقال: إن توبته أن يستغفر ربه من ذلك ويندم وأمره إلى الله.

وروي أن رجلاً جاء إلى ابن عباس أو غيره من الصحابة فسأله عن مثل ذلك فقال: انظر إن كان لأمك أخت فبرها أو أمها يعني جدته أم أمه فبرها.

وقيل إذا أدى عنهما ديناً أو وصية بعد الموت فهو من برهما ويتوب إلى الله تعالى وينشد:

زر والديك وقف على قبريهما ... وكأنني بك قد نقلت إليهما
لو كنت في القبر وكانوا في البقاء ... زارك حبواً لا على قدميهما

مـا كـان ذنبهمـا إليـك وطـالمـا منحـاك محض الـود من نفسيهمـا
كـانـا إذا سمعـا أنينـك أسبـلا دمعيهمـا جـريـاً علـى خـديهمـا
وتمنيـا لـو صـادفـاك راحـة بجميـع مـا يحـويـه ملـك يـديهمـا
فلتلحقنهمـا غـداً أو بعـده حتمـاً كمـا لحقـا همـا أبـويهمـا
ولتقـدمـن علـى فعـالـك مثلمـا قـدمـا همـا أيضـاً علـى فعليهمـا

ويروى أن يعقوب عليه السلام لما دخل على يوسف عليه السلام لم يقم له فأوحى الله إليه تتعاظم أن تقوم لأبيك فعزتي وجلالي / لا أخرجت من صلبك نبياً. [٣٥٦/أ]

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «ماذا على أحدكم إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لأبويه إذا كانا مسلمين فيكون لوالديه أجرها ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيء»[١].

وقال عليه السلام: «بر الوالدة على الوالد ضعفان ودعوة الوالدة أسرع إجابة»[٢]. وقيل: يا رسول الله لما ذلك؟ قال: «هي أرحم من الأب دعوة الرحم لا تسقط».

ويروى أن الله سبحانه لما بعث موسى عليه السلام إلى فرعون قال له: قل له قولاً ليناً. قال: يا رب أقول له قولاً ليناً وهذا قال فيك ما قال: إنه الذي رباك وأنا أولى من كعايته عنك. وينشد:

خـلـل خليـل أبـاك وأرعـى أخـاه وأعلـم بـأن أخـا أبيـك أخـاك
وبنينـك ثـم بني بنينك فكـن بهـم بـراً فـإن بنـي بنيـك بنـوك
وألطـف بجـدك رحمـة وتعطفـاً وارحـم فـإن أبـا أبيـك أبـوك

واعلم بأن الآباء والأمهات موصون على سلامة أحوالهم بخلقين:
أحدهما: لازم بالطبع؛ وهو الحذر والاشفاق وذلك لا ينتقل عن الولد بحال.
والثاني: حادث باكتساب؛ وهو المحبة تنمى مع الأوقات وتتغير مع تغير الحالات.
أما الذي هو لازم بالطبع: فقد يكسب للوالدين أوصافاً وقد قال عيسى عليه السلام: الولد مبخلة مجهلة مجنبة محزنة.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الطبراني في الأوسط من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند ضعيف دون قوله: إذا كانا مسلمين.
(٢) قال الحافظ في المغني: غريب بهذا اللفظ وقال في «دعوة الوالدة أسرع إجابة» لم أقف له على أصل.

فأخبر أن الحذر عليه يكسب هذه الأوصاف وقال أيضاً: لكل شيء ثمرة وثمرة القلب الولد. وأما المحبة فقد قال عليه السلام: «الولد أنوط». يعني أن حبه يتعلق بنياط القلب فإن انصرف الوالد عن حب ولده فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلوى حدثت من عقوق أو تقصير مع بقاء الحذر والاشفاق الذي لا يزول عنه.

[٣٥٧/ب] واختلف المشايخ أيهما أعظم حقاً فقال / بعضهم: الأب أعظم حقاً ويمكن أن تكون حجتهم قوله عليه السلام: «أنت ومالك لأبيك».

وقال عليه السلام: «أفضل ما آكل الرجل كسبه وإن ولده من كسبه» ولم يقل ذلك للأم.

وقد روي أن رجلاً كلم أباه وهو شيخ كبير عند رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن هذا يعني أباه يأخذ مالي وينفقه على عياله فبكى الشيخ أي عيال هو يا رسول الله إنما هي أمه وإخناه فأنشاء يقول مخاطباً لابنه:

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً ... تعل بما أجبى عليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت ... لشكوى إلاَّ ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني فعيني تهمل
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل
وواليتني حق الجوار ولم تكن ... عليَّ بمال دون مالك تبخل
وسميتني باسم المفند رأيه ... وفي رأيك التفنيد لو كنت تعقل

فرق له النبي ﷺ فقال: «أنت ومالك لأبيك». وقال الآخرون: الأم أعظم حقاً لما باشرت من الولادة وقاست من التربية وقد حملته في بطنها وغذته بلبنها وأفرشته حجرها وأولته الخير والشفقة حين لا يطيق لنفسه دفعاً ولا حيلة ولا نفعاً. وأنها أرق قلباً وألين نفساً وبحسب ذلك يجب أن يكون التعطف من الولد عليها أوفر جزءاً لفعلها وكفاء لحقها وإن كان الله تعالى قد أشركهما في البر وجمع بينهما في الوصية فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[1].

[٣٥٨/ب] وقد روي أن رجلاً أتى النبي ﷺ / فقال: إن لي أماً أن امطيتها اقعدها على ظهري ولا

(١) سورة العنكبوت الآية: ٨.

أصرف عنها وجهي وأرد إليها كسبي فهل جازيتها قال: «لا ولا بزفرة واحدة». قال: ولما؟ قال: «لأنها كانت تخدمك وتحب حياتك وأنت تخدمها وتحب موتها».

وعن الحسن البصري أنه قال: حق الوالد أعظم وبر الوالدة الزم.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أنهاكم عن عقوق الإمهات ووأد البنات وعن منع وهات».

وعن خالد بن معد المقداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يوصيكم بإمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب».

وعن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله ﷺ من أحق الناس مني بحسن الصحبة؟ قال: «أمك». فقلت: ثم من؟ قال: «أمك». فقلت: ثم من؟ قال: «أمك». قلت: ثم من؟ قال: «أبوك»[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «نمت فرأيت الجنة فسمعت صوت قارىء يقرأ فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا حارثة بن النعمان وكان من أبر الناس بأمه فقلت: كذلكم البر كذلكم البر».

ويروى أن أبا هريرة كان إذا غدا من منزله لبس ثيابه ووقف على أمه فقال: السلام عليكم يا أماه ورحمة الله وبركاته جزاك الله خير كما ربيتني صغيراً وترد عليه وأنت يا بني جزاك الله عني خيراً كما بررتني كبيراً ثم يخرج وإذا رجع فعل مثل ذلك.

وقيل لعمرو بن دينار: كيف كان بر ابنك لك قال: ما مشيت نهاراً قط إلا مشى خلفي وما مشيت ليلاً قط إلا مشى أمامي ولا رقي سطحاً وأنا تحته.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «هل تعلم أي نفقة أفضل من نفقة في سبيل الله». قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «نفقة الولد على الوالدين».

وكان يقول: «من وقر أباه أطيل في أيامه ومن وقر أمه / رأى في بيته ما يسره وَمنْ أحد [٣٥٩/أ] النظر إلى أبويه فقد عقهما».

وقيل إذا صلح قميص الوالد على الولد تمنى موته، وذكر أن امرأة برت أباها في كبره

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه مسلم والبخاري واللفظ لمسلم.

كانت تحمله على ظهرها فمرت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لها: من هذا؟ قالت: أبي. قال لها: لو مهدت له لمكان أوطى عليه. قالت: فالصبي إذا جاع انطفى، وإني لأكره أن أودعه في المنزل فيجوع ولا أعلم به، وإني لأصغر أولاده، وإن له لمائة سنة، وإني لبكر وقد أدر الله عز وجل ثديي لبناً، فإذا جاع أرضعته من قريب فقال عمر لأصحابه: أترون ما بلغت هذه المرأة من بر أبيها؟ قالوا: نعم. قالت: يا عمر: ما بلغت بره. قال: وكيف؟ قالت: إني كنت في مثل حاله صغيرة يتمنى بقائي وأتمنى موته. قال عمر: أنت أفقه من عمر والله أعلم.

وجملة حقوق الوالدين: أن يبرهما أحياءً وأمواتاً، وأبراراً كانا أو فجاراً.

أما في الحياة: فلزوم طاعتهما وإجابة دعوتهما وخفض جناح الرحمة لهما وتعاهدهما بالسلام عليهما والقيام بحوائجهما، ولا يخرج من أمرهما ورأيهما إلاّ أن تبين لهما الرشد، في خلاف رأيهما، وإن كانا فقيرين أعانهما بنفسه وواساهما بماله ويأثرهما على نفسه، وتولهما إن كانا أهلاً للولاية، وإلاّ فلا يظهر البراءة في وجوههما، ولا ينظر شزراً إليهما، ولا يمسك على أنفه إن شم سوء رائحة من هما، ويمتثل أوامرهما إلاّ إن أمراه بمعصية من ترك صلاة، أو صوم، أو ترك تعلم ما يلزمه من أمر دينه بارتكاب محرم، أو أمره بترك ما يحل له من النكاح، والبيع، والشراء، وكسب ما لا بد منه من الحلال، فلا يضيق عليه خلافهما لقول رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

وقال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾[1] الآية.

[٣٦٠/ب] وعنه عليه السلام لأبي هريرة / «لا تشتم والديك حيين ولا ميتين» قال قلت: يا رسول الله ﷺ كيف أشتمهما ميتين ولا أراهما؟ قال: «إذا شتمت إمهات الرجال شتموهما فأنت إذا شتمتهما إذا تعرضت لشتمهما».

وأما حقهما بعد موتهما: فهو ما روي أن رجلاً[2] سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل بقى عليَّ من بر أبوي شيء أبرهما به؟ قال: «نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما».

هذا إن كانا متواليين قال: «وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا توصل إلاّ بهما»[3].

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٨.

(٢) هو رجل من بني سلمة.

(٣) قال الحافظ العراقي: حديث مالك بن ربيعة رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد.

فإن عقهما في حياتهما وأدى عنهما هذه الحقوق بعد موتهما فقد برهما بعد التوبة والاستغفار من تضييع واجب الحق لهما والله أعلم.

الفصل الثاني: في حقوق الأولاد

اعلم أن الأولاد وبنيهم مختصون أيضاً مع سلامتهم بخلقين:

أحدهما: لازم. وهو الألفة للآباء وذلك في مقابلة إشفاقهم على الأبناء وقد لحظ هذا المعنى أبو تمام فقال:

فأصبحت يلقاني الزمان من أجله   بإعظام مولود وإشفاق والد

والثاني: خلق متنقل:

وهو الإذلال على الأباء وذلك في مقابلة محبتهم للأبناء لأن المحبة بالآباء أخص والإذلال بالأبناء أمس.

وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله ما بالنا نرق على أولادنا ولا يرقون علينا قال: «لأنا ولدناهم ولم يلدونا».

ثم الإذلال في الأبناء قد ينتقل مع الكبر إلى أحد الأمرين إما إلى البر والإعظام، وإما إلى الجفاء والعقوق فإن كان الولد رشيداً وكان الوالد باراً عطوفاً صار الإذلال براً وإعظاماً، وإن كان الولد غاوياً والوالد جافياً صار الإذلال قطيعة وعقوقاً. فلما كان الأمر بين الوالد والولد / على ما [٣٦١/أ] وصفنا وجب على الوالد حق ولده حتى يعطفه عليه.

وقد روي عن عمر بن شرحبيل أن النبي ﷺ قال لجرير بن عبد اللّه: «إن حق الوالد على ولده أن يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند السعاية والنصب».

وقد تقدم في ذلك ما يكفي ووجب على الوالد أيضاً حق ولده حتى يبره الولد فيكون رشيداً باراً.

وقد روي أن رجلاً قال: يا رسول الله ﷺ من أبر؟ قال: «بر والديك». قال: ليس لي والدان. قال: «بر ولدك كما أن لوالديك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق»[١].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو عمر التوقاني في كتاب معاشرة الأهلين من حديث عثمان بن عفان دون قوله فكما أن لوالديك الخ وهذه القطعة رواها الطبراني من حديث ابن عمر، قال الدارقطني في العلل إن الأصح وقفه على ابن عمر.

وقال عليه السلام: «رحم الله والداً أعان ولده على بره»[1]. قيل: يعطيه ويحسن إليه حتى يبره. وقال بعض العلماء: إنما سموا الأبرار أبراراً لأنهم بروا الآباء والأبناء.

وقد بشر عمر رضي الله عنه بمولود فقال: ريحانة أشمها ثم هي عن قريب ولد بار أو عدو ضار. وقال بعض الحكماء: ولدك ريحانة سبعاً، وخادمك سبعاً، ووزيرك سبعاً، ثم هو صديق أو عدو. وفي منثور الحكم: العقوق ثكل من لم يثكل.

وفي الحديث: «بروا آباءكم يبركم أبناءكم».

ويقال: الأدب من الآباء والصلاح من الله. وقيل في منثور الحكم: من أدب ولده أرغم حاسده ومن أدب ولده صغيراً سربه كبيراً.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ابتلى بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له ستراً من النار».

وعنه ﷺ أنه قال: «إن للجنة باباً يسمى باب الفرح لا يدخله إلاّ من يفرح الصبيان».

قال ﷺ: «أكثروا قبل صبيانكم فإن لكل قبلة أجراً». وقال ﷺ: «من حمل طرفة من السوق إلى ولده كان كحامل صدقة وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإن الله يرق للبنات وللإناث ومن رق للأنثى كان كم بكى من خشية الله ومن بكى من خشية الله غفر الله له».

[٣٦٢/ب] / «ومن فرح أنثى فرحه الله يوم الحزن». «من كان له ثلاث بنات أو مثلهن من الأخوات فكفلهن وأعانهن وسترهن وجبت له الجنة». قيل: يا رسول الله واثنتان؟ قال: «واثنتان».

وقال: «إذا نظر الوالد إلى ولده فسره كان له بكل نظرة ثلاثمائة حسنة». قيل: فإن نظر إليه في اليوم ثلاثمائة نظرة؟ قال: «ذلك أكثر وأطيب لك».

وقال عليه السلام: «لا تدع على ولدك بالموت لأنه يورث الفقر».

وقيل: شكا رجل إلى ابن المبارك ولده فقال: هل دعوت عليه؟ فقال: نعم. قال: أنت أفسدته.

وقال عليه السلام: «يلزم الوالدين من العقوق ما يلزم الولد من عقوقهما». وروي أن معاوية سأل الأحنف بن قيس عن الولد. فقال: يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغنى: رواه أبو الشيخ بن حبان في كتاب الثواب من حديث علي بن أبي طالب وابن عمر بسند ضعيف ورواه التوقاني من رواية الشعبي مرسلاً.

فنحن لهم أرض ذلولة وهم لنا سماء ظليلة وبهم حصول كل جليلة وبهم نصل إلى كل فضيلة فإن طلبوا فأعطهم وإن غضبوا فأرضهم يمنحونك ودهم ويحبونك جهدهم ولا تكن عليهم ثقلاً فيملوا حياتك ويحبوا وفاتك. فقال معاوية: أنت والله يا أحنف لقد دخلت علي وأنا مملوء غيظاً على يزيد وقد أصلحت له من قلبي. فلما خرج الأحنف من عنده رضي عن يزيد وبعث إليه بألف درهم ومائتين ثوب فبعث يزيد إلى الأحنف بنصف ذلك.

اعلم أن محبة الولد طبع وحدوثها حتم ولذلك قال بعض الحكماء لرجل نظر إلى ابنه يمشي أمامه فقال: أما إنه إن عاش فتنك وإن مات أحزنك.

وقيل ليحيى بن زكريا عليهما السلام: ما بالك تكره الولد؟ فقال: ومالي وللولد إن عاش كدني وإن مات هدني. وعن محمد بن علي أنه قال: إن الله عز وجل رضي الآباء للأبناء فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم بهم ولم يرض للآباء خلق الأبناء فأوصاهم بهم وإنما لأن ابن الرجل عضده في حياته وخلفه بعد وفاته وسبب/ لبقاء ذكره واتصال عقبه وقرة لعينه وثمرة قلبه[٣٦٣/أ] وغيظ عدوه.

وقد روي أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يتوكى على مخصرة وأنشده:

تركت أباك مرعشة يداه ... وأمك ما تسيغ لها شراباً
إذا غنت حمامة بطن وج ... على بيضاتها ذكرت كلاباً

وقال عمر رضي الله عنه: وما ذاك؟ قال: وجهت ابني إلى الشام مجاهداً. فبكى عمر رضي الله عنه بكاءً شديداً وكتب من ساعته إلى يزيد بن أبي سفيان أن يرحله، فلما قدم عمر قال له: بر وأبويك وكن معهما حتى يموتا وأنشد في الولد:

لولا بنيات كزغب القطاء ... جمعن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع ... في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض

فلما كان إشفاق الوالدين على الولد بهذه الحالة، ونزل بهما بهذه المنزلة، كان يجب عليهما أن يعناه على برهما بالإحسان والتأديب له ليبرهما ويعرف واجب الحق لهما وتدور الألفة بينهما.

وجملة حقوق الولد على والده: أن يتزوج أمه أولاً من موضع لا يسب به. وقال أبو

الأسود الدؤلي لبنيه: قد أحسنت إليكم صغاراً وكباراً وقبل أن تولدوا. قالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد. قال: اخترت لكم من الأمهات ما لا تسبون بها. وأنشد الرقاشي:

وأول إحسـانـي إليـك تخيـري لمـاجـدة الأعـراق بـاد عفـافهـا

ثم يقوم بحقوق أمه على الكمال مع حسن التأديب والصيانة عن الإهمال لئلا تطمع عينها إلى غير من الرجال فيكون ذلك سبباً لفساد فراشه واختلال نسبه.

[٣٦٤/ب] ثم إذا ولد سماه بأحسن /الأسماء وأصدقها فأحسنها أسماء الأنبياء وأصدقها عبد اللّٰه وعبد الرَّحمٰن، وإن كان المولود سقطاً لا يدري ذكراً هو أم أنثى فليسمه باسم يجمع الذكر والأنثى كحمزة وعمرة وأشباه ذلك، ويذبح عنه شاة العقيقة.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يعق عن الولد في اليوم السابع ويماط عنه الأذى»[١] ويقال: يحلق رأسه ويتصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة ويطلى بالزعفران بدلاً من فعل الجاهلية يطلونه بالدم. ثم قال عليه السلام: «فإذا بلغ ست سنين أُدب وإذا بلغ سبع سنين عزل عن فراشه فإذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة»[٢].

وفي حديث آخر: «يؤمر بالصلاة ابن ثمان ويضرب عليهما ابن عشر فإذا بلغ ستة عشر زوج». «ثم يأخذه بيده فيقول له قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك أعوذ بالله من فتنتك».

وبالجملة أن الصبي أمانة عند والديه وقلبه طاهر كأنه جوهرة خال من كل نقش وصورة قابل لكل ما نقش فيه مائل إليه كما قال عليه السلام: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون

---

(١) قال الحافظ العراقي حديث أنس. «الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أدب فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه فإذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة والصوم فإذا بلغ ستة عشر زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال: قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة». وقال رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الضحايا والعقيقة إلاَّ أنه قال: «وأدبوه لسبع وزوجوه لسبع عشرة» ولم يذكر الصوم وفي إسناده من لم يسم ـ قلنا ولكن المؤلف قسم هذا الحديث وأدخل فيه كلامه شارحاً له فقسم الحديث حتى أنه أدخل بين أجزاء الحديث أحاديث أخرى.

(٢) قال الحافظ العراقي حديث أنس. «الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أدب فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه فإذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة والصوم فإذا بلغ ستة عشر زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال: قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة». وقال رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الضحايا والعقيقة إلاَّ أنه قال: «وأدبوه لسبع وزوجوه لسبع عشرة» ولم يذكر الصوم وفي إسناده من لم يسم ـ قلنا ولكن المؤلف قسم هذا الحديث وأدخل فيه كلامه شارحاً له فقسم الحديث حتى أنه أدخل بين أجزاء الحديث أحاديث أخرى.

أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمسحانه فإذا أدب وعود الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه أبويه في ثوابه وكل معلم له وإذا عود الشر أهمل إهمال البهائم ثم شقي وهلك وكان الوزر على أبويه والولي عليه.

وقد قال تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾[1]. وقال عليه السلام: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهل أهل بيته أمر الله». فمهما كان الآن يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه من نار الآخرة أولى وأحق، وذلك بأن يؤدبه ويعلمه مكارم الأخلاق، ووقت ذلك إذا ظهر فيه أوائل الحياة فإذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأحوال وليس ذلك إلا بإشراق نور العقل عليه فرأى / بعض الأشياء قبيحة مخالفة للبعض فيستحي من شيء دون شيء. [٣٦٥/أ]

فينبغي أولاً أن لا يسترضع إلاّ لبن امرأة صالحة تأكل الحلال لأن اللبن الحرام إذا نبت منه البدن انعجنت طينته من الخبث فيميل إلى ما يناسبه من سوء الأخلاق.

ومهما ظهرت فيه مخائل التميز والحياة فلا ينبغي أن يهمل بل يؤدب فيقال: أول ما سبق إليه من الصفات شره الطعام فيؤدبه فيه بأن لا يأكل بشماله ويقول بسم الله عند أخذه إلى غير ذلك من آداب الطعام يطول شرحها.

ويعود أكل الخبز في بعض الأوقات بلا إدام ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبهه صاحبه بالبهائم. ولا يعود التنعم والرفاهية بل يعود القناعة والإثار بالطعام لغيره، وأن يأكل أي طعام وجد، ويلبس أي لبس تيسر، ويعوده الخشونة في الفراش والملبس والمطعم، ويحفظ من قرناء السوء، ومن الصبيان الذين عودوا التنعم ولبس الثياب الفاخرة، وعن مخالطة كل من يفسده، ثم يعلمه القرآن وأحاديث النبي ﷺ، وحكايات الصالحين وأحوالهم لينغرس في قلبه حبهم، ويحفظ من اللغو وقبح الكلام، ومن أشعار العشاق، ويعود التواضع في جلوسه ومشيه وجميع أحواله ويمنع من كثرة الكلام، ويعود الأدب في جميع الأحوال، وتوقير الأكابر والمشايخ.

وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء، وتعليم محاسن الأخلاق، فإن الصبي إذا أهمل في أول نشوءه يخرج في الأكثر رديء الأخلاق كذاباً سروقاً نماماً لجوجاً ذا فضول وشره وخبث وأشر وخيانة ومكر، فإذا حفظ من ذلك كله ونشأ على الأدب ومحاسن الأخلاق خرج أديباً فاضلاً كيساً عاقلاً.

---

(١) سورة التحريم الآية: ٦.

وإن أهمل في أول نشوئه حتى ألف اللعب والفحش والوقاحة والرفاهية والتنعم والتفاخر [٣٦٦/ب] / نبأ عن قبول الحق نبوء الحائط عن التراب اليابس. فأوائل الأمر هي التي ينبغي أن تراعى.

وقد روي عن بعض زهاد قومنا يقال له سهل التستري أنه قال: كنت ابن ثلاث سنين وكنت أقوم بالليل انظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوماً خالي: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك لسانك الله معي الله ناظري الله شاهدي فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته. فقال: قله كل ليلة تسع مرات. فقلت ذلك ثم أعلمته. فقال: قله في كل ليلة إحدى عشرة مرة. فقلت ذلك فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة. قال: احفظ ما علمت ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنتين فوجدت له حلاوة في سري. ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهده كيف يعصيه إياك والمعصية. فكنت أخلو فبعث بي إلى المكتب فقلت: أخشى أن يفترق على همي ولكن شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع، فحفظت القرآن وأنا ابن ست سنين أو سبع وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشر سنة.

قال: فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاثة عشر سنين فسألت أن يبعثوا بي إلى البصرة ففعلوا، فسألت علمائها فلم يشف عني أحد شيئاً فخرجت إلى عبدان إلى رجل يعرف بأبي حمزة بن عبد اللّه العبداني. فسألته عنها فأجابني، فأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه، ثم رجعت إلى تستر فجعلت قوتي اقتصار على أن يشتري لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن فيخبز لي فأفطر عليه عند السحر كل ليلة أوقية واحدة، بحتاً بلا ملح ولا إدام فكان / يكفي [٣٦٧/ب] ذلك الدرهم سنة ثم ثلاث ليال ثم أفطر، ثم خمساً، ثم سبعاً ثم خمس وعشرين ليلة. قال: وكنت على ذلك عشرين سنة ثم خرجت أسيح في الأرض سنتين، ثم رجعت إلى تستر وكنت أقوم الليل كله، والله أعلم.

فهكذا ينبغي أن يروض الإنسان نفسه ويجاهد شهوته ولكن الفضل بيد الله يوتيه من يشاء. ﴿فَمَن يُرِدِ الله أَنْ يَهدِيَهُ يَشرَحْ صَدرَهُ للإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدُ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلُ صَدرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾[1] الآية.

فالدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها وأطعمتها إنما هي أدوية المقصود بها التقوي على

(١) سورة الأنعام الآية: ١٢٥.

عبادة الله والموت منتظر عند كل ساعة والكيس العاقل من تزود من الطاعة حتى تعظم عند الله درجة وتتسع في الجنة نعمته. وبالله التوفيق ونسأل الله الهداية.

الفصل الثالث: في حق المناسبين للإنسان

وهم من عدا الآباء والأمهات من العصبة والقرابة والأرحام والذي يختصون به هو المحبة الباعثة على نصرة الأقارب لئلا يستولي عليهم الأعداء من الأباعد والحمية أدنى رتبة من الألفة لأن الألفة تمنع من التعظم والخمول معاً والحمية تمنع من التعظم فليس لها في كراهية الخمول نصيب، إلاَّ أن يقترن بها ما يبعث على الألفة، لأنها معرضة لحسد الأقارب فإن حرست حمية النسب بالحمية والود تأكد بها أسباب الألفة، ولذلك قيل لبعض قريش أيما أحب إليك أخوك أو صديقك؟ فقال: أخي إذا كان صديقاً.

وإن أهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب وإعتماداً على حمية الأقارب دون مواصلتها بالبر وحياطها / عن أسباب الضير غلب عليها مقت الحسد، ومنازعة التنافس فصارت[٣٦٨/أ] المناسبة عداوة والمقاربة تباعداً.

ولذلك قال الكندي في بعض رسائله: الأب أب والولد كمد والأخ فخ والعم غم والخال وبال والأقارب عقارب. وقال عبد اللّٰه بن المعتز:

لحـومهـم لحمـي وهـم يـأكلـونـه   ومـا داهيـات المـرء إلا أقـاربـه

ولأجل هذا المعنى أمر الله بصلة الأرحام وأثنى على واصلها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخشونَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ﴾[١].

قال المفسرون: هي الرحم التي أمر الله بوصلها ويخشون ربهم في قطعتها، ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا الله ٱلَّذِي تَسَآلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[٢]. أي اتقوا الله بحقه والأرحام بحقها فلا تقطعوها وواجب اللعنة على قطيعتها فقال: ﴿فَهَلْ عَسيتُمْ إِن تَوَلَّيتُمْ أَن تُفسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِعُوا أَرْحَامَكُمْ...﴾[٣] الآية. وحث النبي ﷺ على صلتها فقال: «صلوا أرحامكم ولو بالسلام».

وعن عبد الرحمٰن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل أنا الرحمٰن وهي

---

(١) سورة الرعد الآية: ٢١.
(٢) سورة النساء الآية: ١.
(٣) سورة محمد الآية: ٢٢.

الرحم شققت لها إسماً من أسمي[١] فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته[٢]»[٣].

وعنه ﷺ أنه قال: «صلة الرحم منماة للعدد مثمرات للمال محبة في الأهل منسأة في الأجل»[٤].

وعن عليّ عنه ﷺ أنه قال: «صلة الرحم تزيد في العمر». قال: فقلت: يا رسول الله قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٥]. فقال: «إن الله تعالى يخرج من صلبه ذرية يعملون بطاعته فليحقه عملهم فذلك الزيادة في العمر». وفي الحديث: [٣٦٩/ب] «إذا كان يوم القيامة / جاء الرحم فيتكلم بلسان طلق دلق يقول اللهم صل من وصلني وأقطع من قطعني».

وعن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس اتقوا الله وصلوا أرحامكم فإنه بقاء لكم في الدنيا وخير لكم في الآخرة». وينشد لمحمد بن عبد اللّه الأسدي:

وحسبك من ذل وسوء صنيعة ... مناواة ذي القربى وإن قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه ... لترجعه يوماً على الرواجع

وعن النبي ﷺ أنه قال: «أحب الأعمال إلى الله الإيمان بالله ثم صلة الرحم ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأبغض الأشياء إليه الكفر بالله ثم قطعية الرحم ثم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف».

وعن مالك بن دينار أنه قال: احذروا ثلاثة فإنهن معلقات بالعرش النعمة يا رب كفرت، والأمانة تقول: يا رب أكلت والرحم يقول: يا رب قطعت وعن النبي ﷺ أنه قال: «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم وأسرع الشر عقوبة البغي»[٦].

وفي الحديث عنه ﷺ قال: «من كان قاطعاً لرحمه فلا يصحبنا فخرج رجل من عنده ثم

---

(١) جاءت في الأصل أسمائي والتصويب من الإحياء.
(٢) جاءت في الإحياء بتته.
(٣) قال الحافظ العراقي في المغني الحديث متفق عليه من حديث عائشة.
(٤) ذكره الحافظ العراقي بمعناه في المغني وقال: حديث «من سره أن يسأله في أثره ويوسع له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه» وقال متفق عليه من حديث أنس دون قوله: «فليتق الله وهو بهذه الزيادة عند أحمد والحاكم من حديث علي بإسناد جيد.
(٥) سورة النحل الآية: ٦١.
(٦) ذكر الحافظ العراقي في المغني حديث نحوه وقال: رواه ابن حبان من حديث أبي بكرة، والخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث عبد الرحمٰن بن عوف بسند ضعيف.

رجع» فقال: «ما لك»؟ قال: كنت صارماً لرحم لي فوصلته وأعتبته فسر بذلك عليه السلام وقال عليه السلام في الرحم: «هي شنجة من الله تعالى». قال أبو عبيدة: يعني قرابة مشتبكة.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: وجدت في مقام إبراهيم عليه السلام كتاب مكتوب بالعبرانية أي أنا الله ذوبكة خلقت الرحم فشققت له اسماً من أسمائي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته.

وروي أن رجلاً قال: يا رسول الله إن /لي أقارب أصل ويقطعون وأحسن ويسيئون [٣٧٠/أ] وأعفو فيظلمون أفأكافهم بما يصنعون؟ فقال عليه السلام: «لا»[١].

وفي خبر آخر: «إذاً يرفضكم الله جميعاً ولكن إذا قطعوا فصل وإذا ظلموا فأعف ولن يزال من الله لك عليهم ظهير».

وقال بعض العلماء: صلوا أرحامكم فإنها لا تبلى عليها أصولكم ولا تهتظم عليها فروعكم.

ويقال: من لم يصلح لأهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك. وأنشد لعبد الله بن الزبير:

ولا يستوي في الحكم عبدان واصل   وعبد لإرحام القرابة قاطع

وقال بعض البلغاء: من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن أجار جاره وأعانه أجاره الله وأعانه. ويقال: من مشى إلى قرابته أو ذي محرم منه فسأله عنه أو زاره أعطاه الله أجر مائة شهيد، وإن سأل عنه ووصله بنفسه وماله كان بكل خطوة أربعون ألف حسنة ورفع له بكل خطوة أربعون ألف درجة وكأنما عبد الله مائة سنة، ومن مشى في قطيعة الرحم غضب الله عليه ولعنه وكان عليه من الوزر ما لمن وصل الرحم من الأجر. ويقال سر سنتين في صلة الوالدين وسر سنة في صلة الرحم.

مسألة

وقد أجمع الناس على وجوب صلة الأرقاب والأرحام فقيل القرابة ما دون الشرك وقيل إلى سبعة أباء وقيل خسمة أباء وقيل إلى أربعة أباء.

---

(١) ذكر الحافظ العراقي في المغني حديث بمعناه وقال: رواه الطبراني والبيهقي من حديث عبد الله بن عمرو وهو عند البخاري دون قوله معلقة بالعرش فرواها مسلم من حديث عائشة.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[(١)]. فقيل: جمع عليه السلام إلى أربعة آباء وكذلك الأرحام إلى أربعة آباء. ومن كتاب الضياء: قال أبو محمد: ليس لصلة الرحم حد يعرف ولكن على قدر النية والوصول إلى ذلك متى قدر بنفسه وماله.

[٣٧١/ب] ويجب /على الإنسان أن يصل قرابته وأرحامه الأقرب فالأقرب، ويصل أجداره وهم بمنزلة الأبوين ويصل إخوته.

وقد قال عليه السلام: «حق كبير الأخوة على الصغير كحق الوالد على ولده»[(٢)].

وكذلك الأعمام يصلهم بما قدر عليه وقد قال عليه السلام: «ردوا على أبي». يعني عمه العباس: وقال: «أنا والعصباء للعباس». كل ذلك يدل على تعظيم حق العم.

وجملة حق القرابة: أن يواسيهم الإنسان بنفسه وماله إذا خاف عليهم أن يهلكوا جوعاً. ويقال أفضل الصلة أن يصلهم بالهديا وأضعفها أن يرسل إليهم بالسلام، وعليه أن يحضر لفرحهم وحزنهم وإن نهوه عن ذلك فلا يشتغل بهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وإن منعه خوف من زيارتهم فليصلهم ولو بالسلام في الكتاب ولا يجوز له أن يقطعهم ولو قطعوه.

ويقال: إن عمر رضي الله عنه أمر الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا، وإنما فعل ذلك لأن التزاور يوجب التراحم، والتجاور يوجب التزاحم على الحقوق وربما يؤدي ذلك إلى القطيعة والعقوق.

ولذلك قيل من تباعد عن قرابته دامت بينهم المودة ومن أراد أن يكثر عمله ويكون حليماً فليجالس غير عشيرته. ويقال: من كان ممنوعاً من صلة قرابته فلينظر إلى الجهة التي كانوا فيها فهو صلتهم والله أعلم وأحكم.

وقال بعض الحكماء: العيادة بعد ثلاثة واجبة والتعزية بعد ثلاثة تجديد المصيبة، والتهنئة بعد ثلاثة استخفاف بالمودة وبالله التوفيق.

---

(١) سورة الشعراء الآية: ٢١٤.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة ورواه أبو داود في المراسيل من رواية سعيد بن عمرو بن العاص مرسلاً ووصله صاحب مسند الفردوس فقال عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده سعيد بن العاص وإسناده ضعيف.

الباب الثالث
فـي المصاهــرة

وهي السبب الثالث من أسباب الألفة لأنها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا عن خير واختيار فاجتمع منها أسباب الألفة.

قال الله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً ورَحْمَةً﴾[1]. يعني بالمودة المحبة، وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من أوكد أسباب الألفة.

وقيل: المودة النكاح والرحمة الولد. وقد تعالى: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾. واختلفوا في الحفدة.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه: هم ولد الرجل وولد ولده وقيل عنه: أنهم بنوا امرأة الرجل من غير وسموا حفدة لتحفدهم في الخدمة وسرعتهم في العمل.

ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتآلف الأعداء بالمصاهرة حتى يرجع النافر مؤانساً ويصير العدو مؤالفاً بل يصير الصهر ألفة بين القبيلتين وموالات بين العشيرتين.

وحكي عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه قال: كان أبغض خلق الله إلي آل الزبير بن العوام حتى تزوجت أرملة فصاروا أحب الناس إليّ وفي ذلك يقول:

أحــبّ بنــي العــوام طــرا لحبهــا ... ومن أجلها احببت أخوالها كلبا
وإن تسلمــي نسلــم وإن تتنصــري ... يخُــط رجــال بيــن أعينهــم صلبــا

ولذلك قيل الرجل على دين زوجته لما يحتذب له حبها من الموافقة والمتابعة.

وإذا كانت المصاهرة بالنكاح بهذه المنزلة من الألفة كان ينبغي لنا أن نذكر الوجوه المطلوبة بالنكاح وطرفاً من الحقوق التي يقتضيه على الانشراح وينحصر ذلك في ثلاثة فصول:

الأول: الوجوه المطلوبة بالنكاح.

الثاني: في حقوق الزوجة.

/ **الثالث**: في حقوق الزوج. [٣٧٣/أ]

(١) سورة الروم الآية: ٢١.

الفصل الأول: في الوجوه المطلوبة بعقد النكاح

اعلم أن الإنسان قد يبتغي بعقد النكاح أحد خمسة أوجه: وهي؛ المال، الجمال، والدين، والتعفف والألفة:

وقد روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع خصال لمالها أو لجمالها أو لحسبها أو لدينها فعليك بذات الدين تربت يداك»(١). ويقال: لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يفتنها ويؤذيها ولا لمالها فلعل مالها يطغيها ويورث الفقر ناكحها، ولا لعزها فلعل عزها يورث الذل خاطبها وانكح المرأة لدينها(٢).

فإن كان عقد النكاح لأجل المال فالمال إذاً هو المنكوح فإن وصل إليه فقد تقضي سبب الألفة إذا لا يقترن به غيره من الأسباب ولا سيما إذا غلب عليه حب الطمع وقل منه الوفاء، وإن لم يصل إلى المال أعقبه ذلك استهانة للزوجة فصارت الوصلة فرقة والألفة عداوة.

ولذلك قيل: من ودك لطمعه فيك أبغضك إذا أيس منك. وإن كان العقد رغبة في الجمال فذلك أدوم ألفة من المال لأن المال صفة زائلة والجمال صفته لازمة، ولذلك قيل حسن الصورة أول السعادة. وعن النبي ﷺ أنه قال: «أعظم النساء بركة أحسنهم وجهاً وأرخصهن مهراً»(٣). وإن سلمت الحال من الإذلال المفضي إلى الملل استدامت الألفة، وقد كانوا يكرهون الجمال البارع لما يخاف فيه من بلوى المنازعة.

كما روي أن رجلاً شاور حكيماً في التزويج فقال: افعل وإياك والجمال البارع فإنه مرعى أنيق. قال الرجل: وكيف؟ قال: كما قال / الشاعر: [٣٧٤/ب]

ولن تصادف مرعا ممرعاً أبداً ... إلاّ وجدت به أثار مأكول

وأما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ويتوقاه الحازم من عواقب الفتنة وقد قال بعض

---

(١) قال الحافظ في المغني: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) ذكر الحافظ حديثاً يؤكد هذا المعنى: وقال فيه رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس «من تزوج امرأة لم يزده الله إلاّ ذلاً ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلاّ فقرا ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ومن تزوج امرأة لم بها إلاّ أن يغض بصره ويحض فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه ورواه حب في الضعفاء.

(٣) ذكر الحافظ العراقي نحوه وقال: رواه ابن حبان من حديث ابن عباس «خيرهن أيسرهن صداقاً» وله من حديث عائشة «من يمن المرأة تسهيل أمرها وقلة صداقها» وروى أبو عمر التوقاني في كتاب معاشرة الأهلين «إن أعظم النساء بركة أحبيهن وجوهاً وأقلهن مهراً» وصححه.

الحكماء: إياك ومخالطة النساء فإن لحظ المرأة سهم ولفظها سم.

ورأى بعض الحكماء صياداً يكلم امرأة فقال: يا صياد احذر أن تصاد. ويقال إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع امرأة تقول:

إن النســاء ريــاحيــن خلقــن لكــم   وكلكــم يشتهــي شــم الــريــاحيــن

فقال عمر:

إن النســاء شيــاطيــن خلقــن لنــا   نعــوذ بــالله مــن شــر الشيــاطيــن

وقال لقمان لابنه: يا بني استعذ بالله من شرار النساء وكن من خيارهن على حذر فإنهن لا يسرعن إلى خير وهن إلى الشر أسرع.

وعن إياس بن معاوية أنه قال: ما خلق الله خلقاً أشر من النساء تصارعهن فيصرعن ويغلبن ولا يغلبن، ما مثلهن إلاَّ كالحجر إن وقعت عليه عقرك وإن وقع عليك دمغك والناجي من شرهن قليل.

وقيل لبعض الحكماء: أي السباع أحسن صورة؟ قال: النساء. ورأى بعض الحكماء رأس امرأة معلقاً من على الشجرة فقال: يا ليت كل شجرة تحمل مثل هذه الثمرة. ونظر بعض الحكماء إلى رجل يريد العرس وقد زين داره وكتب على بابه لا يدخل هذا الباب شيء من الشر فقال له: امرأتك من أين تدخل؟

وقال بعض الحكماء: مقاساة سبعين شيطاناً أسهل من امرأة تطلب منك حظ نفسها.

وقال بعض الحكماء: النساء فخ منصوب فليس يقع فيه إلاَّ من اغتر به.

وقال: ولا ضرار أضر من الجهل ولا شر / أشر من النساء قال: ونظر إلى سقيمة وقال: [٣٧٥/أ] الشر بالشر يكفي، قال: ونظر إلى جنازة امرأة والنساء خلفها يعولن ويويلن قال: الشر يتوجع بفقد الشر.

ويقال: النساء شر كلهن وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن. وقال المعري:

دنيــا الفتــى هــذه عــدو   تغــريــك غــدراً بمنصليهــا
غنــاه فيهــا عــن الغــوانــي   أجمــل مــن فقــر إليهــا

وقال بعض الحكماء الكيس: من لم تصده النساء فإنه إن وقع قص جناحاه ولم ينبت أبداً.
وقال من أراد أن يقوى على طلب الحكمة فليكف على تمليك النساء على نفسه. وقال المعري:

تـــوق النســـاء علـــى عفـــة ليحـــزيـــك الـــواحـــد القيـــم
فـــأبكـــارهـــن أبكـــارا البلـــى وأيمهـــن هـــي الليـــم

وعن النبي ﷺ أنه قال: «تعس عبد المرأة». وعن الحسن البصري أنه قال: والله ما أصبح رجل يطيع امرأة فيما تهوى إلاَّ أكبه الله في النار.

ومع هذا كله فإن الأمور لا تصلح إلاَّ بالنساء وهن أحفظ للبيوت وأحصن للفروج وإن كن كانوا سبب التناسل والتكاثر كما قال عليه السلام: «تزوجوا فإني أكاثر بكم الأمم»[(١)].

وقال أيضاً: «النساء حاملات والدات مرضعات رحيمات لولا ما يسئن إلى أزواجهن لدخلا مطيعاتهن الجنة» والله أعلم.

وإن كان العقد رغبة في الدين: متبع له ومن اتبع انقاد له فاستقامت حاله وأمن زلله. ولذلك قال عليه السلام: «فعليك بذات الدين تربت يداك»[(٢)]. ففيه تأويلان:

[٣٧٦/ب] أحدهما: / تربت يداك إن لم تظفر بذات الدين والثاني: أنها كلمة تذكر للمبالغة ولا يراد بها سوء. كقولهم ما أشجعه قاتله الله.

فإذا كانت المرأة متدينة استقامت بها العشرة ودامت لزوجها منها الألفة ولا سيما إن كان الزوج ذا سياسة ودين.

وقال النبي ﷺ: «خير ما أعطى المرء لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة مؤمنة»[(٣)]. وقال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾[(٤)]. قال محمد بن كعب: المرأة الصالحة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[(٥)]. يعني الجنة.

وقال بعض العلماء: المرأة الصالحة ليست من الدنيا في شيء، يعني أنها تعين على الآخرة.

---

(١) ذكره الحافظ العراقي بمعناه في المغني قال: رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث ابن عمر دون قوله «حتى بالسقط» وإسناده ضعيف وذكره بهذه الزيادة البيهقي في المعرفة عن الشافعي أنه بلغه.
(٢) شطر حديث أبي هريرة المتفق عليه.
(٣) ذكر الحافظ العراقي نحوه في المغني وقال: رواه الترمذي وحسنه وفيه انقطاع.
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٠١.
(٥) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ما أعطي المرء بعد إيمان بالله خيراً من امرأة صالحة. والله أعلم.

وإن كان العقد رغبة في الألفة: فهذا يكون على أحد وجهين: إما أن يقصد المكاثرة واجتماع الفريقين والمظافرة بتناصر الفئتين. وإما أن يقصد به تأليف أعداء مسلطين استكفافاً لمعادتهم وتسكيناً لصولتهن.

وهذان الوجهان قد يكونان في الأماثل وأهل المنازل، وداعي الوجه الأول: هو الرغبة. وداعي الوجه الثاني: هو الرهبة.

وهما سببان في غير المتناكحين فإن استدام السبب دامت الألفة وإن زال السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الألفة إلاَّ أن ينظم إليها أحد الأسباب الباعثة عليها والمقوية لها وإن كان العقد رغبة في التعفف فهو الوجه الحقيقي المبتغى به عقد النكاح وما سواه فأسباب متعلقة به ومضافة إليه.

وروي لما نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوجَهَا﴾[١].

قال النبي ﷺ: «خلق الرجل من التراب وهمه في التراب / وخلقت المرأة من الرجل[٣٧٧/أ] وهمها في الرجل».

وقال عليه السلام: «من تزوج فقد أحرز نصف دينه فليتق الله في النصف الباقي»[٢].

وقال: «المتزوجون هم المتطهرون المبرؤون من الخنا».

وقال: «شرار أمتي عزابها».

وكان عبد اللّه بن مسعود يقول فيما بلغنا: لو لم من يبق عمري إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عازباً.

ويقال إن معاذ بن جبل ماتت امرأته في الطاعون فقال: زوجوني فأنا أكره أن ألقى الله وأنا عازب وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لا يتم نسك الناسك إلاَّ بالتزويج.

---

(١) سورة النساء الآية: ١.

(٢) ذكره الحافظ العراقي في المغني بنحوه: وقال فيه رواه ابن الجوزي في العلل من حديث أنس بسند ضعيف وهو عند الطبراني في الأوسط بلفظ «فقد استكمل نصف الإيمان» وفي المستدرك وصحح إسناده بلفظ «من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه».

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: لا يمنع النكاح عجزاً وفجور.

وروي أن شاباً سأل ابن عباس من بعدما خلا مجلسه فقال: إني شاب وليس لي زوجة فربما خشيت العنت فأستمني بيدي فأعرض عنه ابن عباس ثم قال: أف وتف نكاح الأمة خير منه وهو خير من الزنى.

وروي أن ابن عمر ربما كان يفطر على الجماع دفعاً للوسواس. وروي في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[1]. إنه لا يصبر على الجماع ويضعف عن تركه. وقيل في قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[2]. قيل شدة الغلمة. وفي نوادر التفسير في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾[3]. أنه الذكر إذا قام.

وقال بعض السلف: إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلث عقله أو قال ثلثا دينه.

وروي أن النبي ﷺ قال: لعكاف بن وداعة الهلالي: «يا عكاف ألك زوجة؟». قال: لا. قال: «فأنت إذاً من إخوان الشياطين إن في رهبان النصارى فالحق بهم وإن كنت منا فمن سنتنا النكاح». فإن هذا منه حثاً على التعفف عن الفساد وباعثاً على طلب المكاثرة بالأولاد.

[٣٧٨/ب] ويروى أن /بلالاً وصهيباً رحمهما الله أتيا أهل بيت من العرب فخطبا إليهم فقيل لهما من أنتما؟ قال بلال: أنا بلال وهذا أخي صهيب كنا ضالين فهدانا الله وكنا مملوكين فأعتقنا الله وكنا عائلين فأغنانا الله فإن تزوجنا فالحمد لله وإن رددتمونا فسبحان الله. قالوا: بل تزوجون والحمد لله. وقال صهيب لبلال: لو ذكرت مشاهدنا سوابقنا مع رسول الله ﷺ؟ فقال بلال: اسكت فقد صدقت فأنكحك الصدق.

فلما كان التعفف وطلب الولد هما الوجهان اللذان وضع النكاح لأجلهما لزم حينئذٍ في عقد التعفف أن تراعى فيه ثلاثة شروط: أحدها: الدين المفضي إلى الستر والعفاف المؤدي إلى القناعة والكفاف. ولذلك قال أبو هريرة: لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي خلقاً.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «النكاح رق فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته»[4]، وقد روي أن رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد إن لي بنتاً أحبها وقد خطبها إليَّ غير

---

(١) سورة النساء الآية: ٢٨.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٨٦.

(٣) سورة الفلق الآية: ٣.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو عمر التوقاني في معاشرة الأهلين موقوفاً على عائشة وأسماء =

واحد فممن ترى أن أزوجها؟ فقال: زوجها من رجل يتقي الله فإنه إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها.

وقال عليه السلام: «من زوج وليته فاجراً فقد قطع رحمها»[(١)] وروي أن رجلاً خطب إلى ابن عباس يتيمة كانت عنده قال: لا أرضاها لك. قال: ولما وفي دارك نشأت؟ قال: إنها تتشرف. قال: لا أبالي. قال: الآن لا أرضاك لها. ولهذا قال بعض الحكماء: من رضي بصحبة من لا خير فيه لم يرضى بصحبته من فيه خير.

فإذاً الدين مطلوب من كليهما ولا سيما الرجل في حق المرأة عند التزويج لأن المرأة يقدر الرجل على الاستبدال بها بطلاق. والمرأة إذا /زوجت من فاسق أو دني فهي أسيرة لا [٣٧٩/أ] سبيل إلى فكها من رقه إلاّ بالموت والله أعلم.

الشرط الثاني: العقل الباعث على حسن التقدير للأمر بصواب التدبير.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «العقل حيث كان ألوف مألوف».

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالودود والولود ولا تنكحوا الحمقاء فإن صحبتها بلاء وولدها ضياع»[(٢)].

الشرط الثالث: الأكفاء الذين ينتفي بهم العار ويحصل بهم الاستكثار.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «تخيروا لنطفكم ولا تضعوها إلاّ في الأكفاء»[(٣)].

وعنه عليه السلام أنه قال: «انظر أين تضع ولدك فإن العرق دساس»[(٤)] وقال اكتم بن

= ابنتي أبي بكر قال البيهقي وروى ذلك مرفوعاً والموقوف أصح.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أنس ورواه في الثقات من قول الشعبي بإسناد صحيح.

(٢) ذكر نحوه الحافظ العراقي وقال: رواه البيهقي من حديث ابن أبي أدية الصدفي قال البيهقي: وروى بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلاً وقال رواه أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار «تزوجوا الودود والولود» وإسناده صحيح.

(٣) ذكر الحافظ العراقي بمعناه حديثاً وقال: رواه ابن ماجة من حديث عائشة مختصر دون قوله: «فإن العرق». وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس «تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس، وروى أبو موسى المديني في كتاب تضييع العمر والأيام من حديث ابن عمر «وانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس» وكلاهما ضعيف.

(٤) ذكر الحافظ العراقي بمعناه حديثاً وقال: رواه ابن ماجة من حديث عائشة مختصر دون قوله: «فإن العرق». وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس «تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس»، وروى أبو موسى المديني في كتاب تضييع العمر والأيام من حديث ابن عمر «وانظر في =

صيفي لولده: يا بني لا يحملنكم جمال النساء عن طراحه النسب فإن نكاح اللئيمة مُدَرجة للشرف.

وقال عليه السلام: «إياكم وخضر الدمن»[(١)]. يعني المرأة الحسناء في المنبت السوء.

وقد ينضم إلى هذا الشرط من صفات الذات وأحوال النفس وما يلزم التحرز عنه لبعد الخير عنه وقلة الرشد فيه فإن كثيراً من الأخلاق بادية في الصور والأشكال.

كالذي روي عن النبي ﷺ أنه قال لزيد بن حارثة: «تزوجت يا زيد؟». قال: لا. قال: «تزوج تستعفف مع عفتك ولا تتزوج من النساء خمساً». قال: وما هن يا رسول الله؟ قال: «لا تتزوج شهبرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هيدرة ولا لفوت». قال: يا رسول الله لا أعرف مما قلت شيئاً؟ قال: «أما الشهبرة فالزرقاء البدية وأما اللهبرة فالطويلة المهزولة وأما النهبرة فالعجوز المدبرة وأما الهيدرة فالقصيرة الذميمة وأما اللفوت فذات الولد من غيرك».

[٣٨٠/ب] وأوصى بعض العرب ابن له في التزويج فقال: إياك / والحنانة والمنانة والأنانة؛ فالحنانة التي تحن إلى زوج كان لها، والمنانة التي تمن على زوجها بمالها؛ والأنانة التي تنين كسلاً وتمارضاً. وروي أنه قيل: يا رسول الله أي النساء خير؟ قال: «التي إذا نظر إليها زوجها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته»[(٢)].

وقال لقمان لابنه: اعلم يا بني أن المرأة الصالحة كالتاج على رأس الملك والمرأة السوء كالحمل الثقيل على ظهر الشيخ الكبير. وينشد:

أرى صاحب النسوان يحسب أنها ... سواء وبون بينهن بعيد
فمنهن جنات تفيء ظلالها ... ومنهن نيران لهن وقود

وقال: أوفى بن دلهم: النساء أربع فمنهن مقمع لها شينها أجمع، ومنهن تبع ترى ولا تنفع، ومنهم مدق تفرق ولا تجمع، ومنهن غيث وقع ببلده فامرع. وقيل للحسن البصري: من

= أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس» وكلاهما ضعيف.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الدارقطني في الأفراد والرامهر مزي في الأمثال من حديث أبي سعيد الخدري وقال الدارقطني تفرد به الواقدي وهو ضعيف.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه النسائي من حديث أبي هريرة نحوه بسند صحيح وقال: «ولا تخالفه في نفسها ولا مالها». وعند أحمد: «في نفسها وماله» ولأبي داود نحوه من حديث ابن عباس بسند صحيح.

أطيب الناس عيشاً؟ قال: من رزق امرأة قانعة ولحقة حافظة عند حاجته غير مانعة. وأنشد أبو العيناء عن أبي زيد:

إن النساء كأشجار نبتن معاً ... منهن مر وبعض المر مأكول
إن النساء لو صورن من ذهب ... فيهن من هفوات الجهل تخييل
إن النساء متى ينهين عن خلق ... فإنه واجب لا بد مفعول
وما وعدنك من شر وفين به ... وما وعدنك من خير فممطول

ويقال: النساء ثلاثة: هينة لينة عفيفة مسلمة تورد الأمور مواردها وتصدرها مصادرها. وأخرى: وعاء للولد لا خير فيها لغير ذلك. وأخرى: غل يضعه الله في عنق من يشاء. ويقال أصل كل ذنب عصى الله به فسببه من قبل النساء من ذلك آدم عليه السلام بسبب أكله من الشجرة إنما كان من قِبَل حواء امرأته.

وإنما / قتل قابيل أخاه هابيل على أخته حين أراد أن يتزوجها فأبى عليه ذلك. [٣٨١/أ]

ولم يمتحن يوسف عليه السلام بالسجن إلاَّ بكيد امرأة العزيز حين راودته عن نفسها فأبى عليها.

ولم يصب داود الخطيئة إلا على يد امرأة أورياء ولم يصب برصيص الفتنة والبلاء بعد عبادة أربعمائة سنة فما زعموا إلاَّ على امرأة.

وإنما مدح الله يحيى عليه السلام حين جعله حصوراً لا يأتي النساء ثم مع سلامته ولم يسلم من شر النساء وإنما قتل على يد امرأة حين استفتته لما منعها هواها.

وزعموا أن سليمان عليه السلام إنما ذهب ملكه أربعين يوماً بسبب جارية من جواريه.

وقيل غير ذلك وقد أخبر الله عن نوح ولوط عليهما السلام وذكر ما امتحنا به من زوجتيهما حيث يقول: ﴿ضَرَبَ الله مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَروا امرأةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ. .﴾[1] الآية.

فهن أصل كل بلاء وفتنة وقال عليه السلام لأزواجه «انكن صواحبات يوسف»[2]. وهن أمهات المؤمنين فما ظنك بغيرهن وقال عليه السلام: «النساء حبائل الشيطان»[3].

---

(١) سورة التحريم الآية: ١٠.
(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: متفق عليه.
(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهني بإسناد فيه جهاله.

وقال: «باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء وخير شيء للنساء أن لا يرون الرجال ولا يرونهن»[(١)].

وقال عليه السلام: «ما تركت على أمتي أضر عليها من فتنة النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة»[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من شقوتنا جعلنا الله مقدم الشهوات. تريد قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ﴾[(٣)] الآية. ثم قالت: عجباً للرجال كيف يختارون هؤلاء الحيض المناتين وقد زهد الله فيهن ودل على ما هو خير منهن فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِن ذَٰلِكُمْ﴾. إلى قوله: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[(٤)].

[٣٨٢/ب] وقد ضعف الله كيد الشيطان عن كيدهن / فقال ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[(٥)]. وقال في النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[(٦)].

ولكن لا بد منهن لعله الابتلاء بهن لتسكين الشهوة وبقاء النسل.

وقد قال أبو سليمان الدراني: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن والصبر عليهن خير من الصبر على النار والله أعلم[(٧)].

فصـــل

اعلم أن باعث الإنسان على طلب النساء لا يخلو من ثلاثة أحوال:

إحداهما: أن يكون لطلب الولد فالأحمد التماس الحداثة والبكارة لأنها أخص بالولادة وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً وأنتق أرحاماً وأرضى باليسير»[(٨)]. ومعنى قوله أنتق أرحاماً: أي أكثر أولاداً.

---

(١) الحافظ العراقي نحوه وقال: رواه البزار والدارقطني في الإفراد بسند ضعيف.

(٢) ذكره الحافظ بمعناه وقال: متفق عليه من حديث اسامة بن زيد.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٤.

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٥.

(٥) سورة النساء الآية: ٧٦.

(٦) سورة يوسف الآية: ٢٨.

(٧) ما جاء في هذا الباب منقول من كتاب الإمام الغزالي إحياء علوم الدين ـ الجزء الثاني ـ كتاب آداب النكاح. طبعه دار إحياء الكتب العربية.

(٨) ذكره الحافظ العراقي في المغني بمعناه وقال: متفق عليه من حديث جابر.

وعن معاذ بن جبل رحمه الله أنه قال: عليكم بالأبكار فإنهن أكثر حياء وأقل خناء.

وهذه الحال هي أول الأحوال الثلاثة لأن النكاح موضوع لها والشرع وارد بها.

وقد روي أن النبي ﷺ قال: «سوداء» أو قال «سواء ولود خير من حسناء عاقر»(١) والعرب تقول: من لم يلد فلا ولد. وكانوا يحتارون لمثل هذا الحال إنكاح البعداء والأجانب ويرون ذلك أنجب للولد وأبهى لخلقه ويجتنبون نكاح الأهل والأقارب ويرونه مضوياً لخلق الولد بعيداً من نجابته.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اغتربوا ولا تضووا»(٢).

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يا بني السائب قد أضويتم فانكحوا في الغرائب وقد قال الشاعر:

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة ... مخافة أن تضوي على سليلي

وكان حكماء المتقدمين يرون أنجب الأولاد خَلقاً وخُلقاً من كانت سن أمه بين العشرين والثلاثين، وسن أبيه ما بين / الثلاثين والخمسين. والعرب تقول: إن ولد الغيراء لا ينجب وأن [٣٨٣/أ] النساء الفروك لأن الرجل يغلبها على الشبه لزهدها في الرجل.

والحال الثاني: أن يكون المقصور بالنكاح ما تتولاه النساء من تدبير المنازل بها وهذا وإن كان مختصاً بمعانات النساء فإن الأحمد في ذلك التماس ذوي الأسنان والحكمة ممن خبر تدبير المنازل وعرف عادات الرجال فإنه أقوم بهذا الحال:

الحال الثالث: أن يكون المقصود به الاستمتاع وهي أذم الأحوال الثلاثة وأوهنها للمروءة لأنه ينقاد فيه لأخلاقه البهيمية ويتابع شهواته الذميمة. ولذا قال الحارث بن النظر الأسدي: شر النكاح نكاح الغلمة إلا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وتسكين النفس عند المنازعة حتى لا تكمح له عين تريبه ولا تنازعه نفسه إلى فجور فلا يلحقه في ذلك ذم وهو بالحمد أجدر، ثم هي أخطر الأحوال بالمنكوحة لأن بالشهوات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقاً بها فتصير

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه ابن حبان في الضعفاء عن رواية حكيم بن يهز عن أبيه عن جده ولا يصح.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني في معناه: قال ابن الصلاح لم أجد له أصلاً معتمداً. قلت: ـ أي الحافظ ـ إنما يعرف من قول عمر إنه قال لآل السائب قد أضويتم فانكحوا في النوابغ رواه إبراهيم الحربي في غريب الحديث وقال معناه: تزوجوا الغرائب قال ويقال اغربوا ولا تضووا.

الشهوة في الابتداء كراهة في الانتهاء، ولذلك كرهت العرب البنات ووأدتهن إشفاقاً عليهن وحمية لهن من أن يبتدلهن اللئام بمثل هذا الحال وكان من تخوف من قتل البنات لرقة ومحبة كان موتهن أحب إليه وآثر عنده. ويقال خطب إلى عقيل علفه ابنة فقال:

إنـــي وإن سيـــق إلـــي المهـــر ألـــف وعبـــدان ودود عشـــر

أحب أصـهاري إلـى القبـر

قال عبيد اللّه بن طاهر:

لكـل أب بنـت يـراعـي شـؤونهـا ثـلاثـة أصهـار إذا ذكـر الصهـر

[٣٨٤/ب] / فبعـل يـراعيهـا وخـدر يكنهـا وقبـر يـواريهـا وخيـرهـم القبـر

الفصل الثاني: في حقوق الزوجة

اعلم أن عقد النكاح يقتضي حقوقاً بين الأزواج بمراعتها تدوم بينهم الألفة والاجتماع ونحن نبدأ بذكر حقوق الزوجة.

قال الله عز وجل: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[٢]. وقال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾[٣]. إلى[٤] قوله: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾[٥]. قيل: هي الزوجة في قول بعض أهل التفاسير.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان أخذتموهن بأمانة الله واستحلتم فروجهن بكلمة الله ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»[٦].

ويقال إن من الفواحش التي لم يبين ذكرها في القرآن أن يتزوج الرجل امرأة فإذا كبر سنها طلقها. وعن عمر بن الخطاب رضي عنه أنه قال: ليس كل بيت بني على المودة ولكن الناس يتعاشرون بالأخلاق.

---

(١) سورة النساء الآية: ١٩.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٢٩.
(٣) سورة الإسراء الآية: ٢٦.
(٤) لعل قصد المؤلف ـ الآية ٣٦ ـ من سورة النساء وما جاء بالأصل هو المثبت.
(٥) سورة النساء الآية: ٣٦.
(٦) ذكر الحافظ العراقي نحوه وقال: رواه النسائي في الكبر وابن ماجة من حديث أم سلمة ومن حديث جابر الطويل وفيه «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله».

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكمل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً والطفهم بأهله»(١).

وعن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ: أرحم الناس بالعيال والصبيان.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ينبغي للرجل أن يكون من أهله مثل الصبي فإذا التمس ما عنده وجد رجلاً.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: ولسانه يتلجلج: «الله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم»(٢). يعني أسيرات.

وقال تعالى في تعظيم حقهن: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾(٣).

وجملة حقوق الزوجة: أن يحسن إليها الزوج في معاشرتها /كما قال الله تعالى: [٣٨٥/أ] ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٤).

أن يصبر ويحتمل على سوء خلقها.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب عليه السلام على بلائه»(٥).

وروي أن إبراهيم الخليل عليه السلام أراد أن يطلق امرأته سارة رضي الله عنها فأوحى الله إليه أن ألبسها على ما كنت تلبسها عليه ما لم ترى عليها جرحة في دينها فإني خلقتهن من ضلع أعوج فمن رام قوامه انكسر وانكساره الطلاق ومن استمتع به استمتع على عوج. ومنها أن ينبسط في وجهها ما لم ير منها منكراً.

لما روي أن النبي ﷺ: كان من أفكه مع نسائه.

ويقال هلك رجل من العرب فقيل لأهله: صفي بعلك فقالت: والله إن كان ما علمت لضحوك إذا ولج كسوباً إذا خرج آكلاً ما وجد غير سائل عما فقد.

ومنها أن يعدل بين نسائه في الجماع أو غيره من النفقة والكسوة.

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه الترمذي والنسائي واللفظ له والحاكم وقال رواته ثقات على شرط الشيخين.
(٢) ذكر الحافظ العراقي نحوه: وقال رواه النسائي في الكبرى وابن ماجة من حديث أم سلمة.
(٣) سورة النساء الآية: ٢١.
(٤) سورة النساء الآية: ١٩.
(٥) قال الحافظ العراقي في المغني: لم أقف له على أصل.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»[١]. ولا يتوعدها بالضارة، ولا يهددها بالطلاق، ولا يهجر فراشها إلا إن كانت ناشزة فليتدرج في تأديبها بالوعظ والتخويف أولاً، فإن لم ترتدع ولاها ظهره في المضجع وهجرها في البيت إلى ثلاث ليال فإن لم ترتدع ضربها ضرباً غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يدميها ولا يضرب وجهها.

وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾[٢].

وفي الأثر عن طلحة بن عبيد الله أنه قال: جاءت الخولاء إلى عائشة رضي الله عنها وكانت امرأة عطارة وشكت إلى عائشة زوجها عثمان بن مظعون فقالت: إني لأتعطر لزوجي حتى أنزل نفسي / كالعروس تزف إلى زوجها فإذا دخلت معه في لحافه أعرض عني بوجهه ولا [٣٨٦/ب] أراه إلا يبغضني فقالت عائشة رضي الله عنها: امكثي حتى يأتي رسول الله ﷺ فجاء عليه السلام فشم في البيت رائحتها فقال: «إني لأجد ريح الخولاء فهل أتتكم اليوم»؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: نعم يا رسول الله قال: «فهل ابتعتم من عطرها شيئاً»؟ قالت: لا ولكن أتت تشكو زوجها فقال لها: «ما شأنك يا خولاء»؟ فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله إني لأتعطر لزوجي حتى أنزل نفسي كالعروس تزف إلى زوجها فإذا دخلت معه في لحافه أعرض عني بوجهه ولا أراه إلا يبغضني. فقال عليه السلام: «أما إنه لو علم ما عليه في ذلك لما فعل». قالت عائشة رضي الله عنها: وما عليه في ذلك رسول الله؟ فقال عليه السلام: «إن الرجل إذا أراد امرأته كتب عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات ورفعت له في الجنة عشر درجات فإذا أخذ بيدها كتبت له عشرون حسنة ومحيت عنه عشرون سيئة ورفعت له عشرون درجة فإذا عانقها وقبلها كتب له أربعون حسنة ومحيت عنه أربعون سيئة ورفعت له أربعون درجة فإذا غشيها ثم اغتسل كتب له من الحسنات بعد كل شعرة يمر عليها الماء في بدنه ورأسه». قالت عائشة: هذا للرجل فما للمرأة؟ قال عليه السلام: «إن المرأة إذا أخذت في شيء مما يصلح لزوجها ولزينة تريد بذلك رضاه كتب الله لها عشر حسنات ورفعت لها في الجنة عشر درجات فإن دعاها فأطاعته ثم حملت منه كان لها مثل أجر الصائم القائم المجاهد في سبيل الله فإذا

---

(١) قال الحافظ العراقي: رواه أصحاب السنن الأربعة وابن حبان من حديث أبي هريرة قال أبو داود وابن حبان «فمال مع إحداهما». وقال الترمذي: «فلم يعدل بينهما».
(٢) سورة النساء الآية: ٣٤.

أخذها الطلق / والنفاس كان لها بكل طلق مثل أجر من أعتق رقبة مؤمنة فإذا وضعته لم يعلم [٣٨٧/أ] أحد ما لها من الأجر فإذا أرضعت ولدها كان لها بكل مصة يمصها من ثديها كمن أعتق عشر رقبات فإذا استكملت الرضاع وفطمته ناداها ملك من السماء استأنفي العمل لقد غفر الله لك ما مضى». فقالت عائشة رضي الله عنها: رضينا يا رسول الله رضينا.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «النساء عي وعورات فداووا عيهن بالسكوت وعوراتهن بالبيوت».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: اعروا النساء يلزمن البيوت وإنما قال ذلك لأنهم لا يرغبن في الخروج بالهيئة الرثة وقيل لبعض من تركت عند أهلك؟ فقال: الخليفتين الجوع حتى لا يمرحن والعرى حتى لا يبرحن.

ولا ينبغي أن يفرط في الانبساط حتى تذهب هيبته ولا ينقبض عنها حتى يوحشها بل يراعى الاعتدال في جميع الأمور.

وقد قال عمر رضي الله عنه: شاورهن وخالفهن. ويقال: في خلافهن بركة. وقال عليه السلام: «تعس عبد الزوجة ولا انتعش».

وإنما قال ذلك لأنه عكس القضية لأن الله تعالى سمى الزوج سيداً فقال: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿الرّجال قوّامون علىٰ النّساء﴾[٢]. يعني مسلطون على تأديبهن، وجعل الطلاق في حكم الرجال وأمر بالإنفاق عليهن وقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوالَكُمْ﴾. الآية إلى قوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾[٣]. فإذا شاورها وأطاعها عكس القضية.

ويقال: إن نساء العرب يأمرن بناتهن باختبار أزواجهن تقول إحداهن لبنتها اختبري زوجك فتقول لها: كيف أختبره يا أماه؟ فتقول: انزعي زج رمحه فإن سكت فاقطعي اللحم على ترسه فإن سكت فاكسري العظام بسيفه فإن سكت فاعلمي أنه حمارك / احملي عليه أكافك وامتطيه. [٣٨٨/أ]

وعن أنس بن مالك قال ذكر النساء يوماً عند رسول الله ﷺ فضعفن وقال: «يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام»[٤].

---

(١) سورة يوسف الآية: ٢٥.
(٢) سورة النساء الآية: ٣٤.
(٣) سورة النساء الآية: ٥.
(٤) ذكر الحافظ العراقي معناه في شطر حديث قال فيه: رواه مسلم من حديث ابن عمر واتفقا عليه من =

وعن أنس بن مالك أنه قال ذكر النساء عند رسول الله ﷺ فقال: «لا تمكنوهن يدبرون أمر العيال يبكين وهن ظالمات ويشهدون وهن غائبات ويحلفن وهن كاذبات فاستعيذوا بالله من أشرارهن وكونوا من خيارهن على حذر».

فقال حسان بن ثابت وكان حاضراً يا رسول الله خطر على قلبي أبيات فقال: «قل»، فقال:

لا تـــركنـــن إلـــى النســـاء	ولا تثـــق بعهـــودهـــن
فـــرضـــاؤهـــن وسخطهـــن	معلـــق بفـــروجهـــن
يلقيـــن وداً صـــادقـــاً	والغـــدر جـــاش قلـــوبهـــن
وحـــديـــث يـــوســـف اختبـــر	هُ تجـــده أعظـــم كيـــدهـــن
أسلمنـــه سجـــن العـــز	يـــز فكـــان أعظـــم مكـــرهـــن
فمـــن المهيمـــن لعنـــة	تعلـــو النســـاء جميعهـــن
الفـــاجـــرات الفـــاسقـــات	الخـــائنـــات بعـــولهـــن
إلا النســـاء الصـــالحـــات	الحـــافظـــات فـــروجهـــن

وعن حاتم الأصم أنه قال: إني في البيت كالدابة المربوطة إن قدم لي شيئاً أكلت وإلاَّ سكتت.

ويروى أن نبياً من الأنبياء شكى إلى ربه أمر زوجته فأوحى الله إليه أني جعلت لك حظك من العذاب.

ويروى أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو امرأته فسمع امرأة عمر تراجعه بكلام يقرب من العنف فرجع وقد رأى عمر مكانه فبعث في إثره وسأله عن رجوعه بعدما أتى موضعه؟ فقال يا أمير المؤمنين إني أتيتك أشكوا امرأتي / فلما سمعت امرأتك [٣٨٩/ب] تراجعك وأنت لا ترد عليها قلت أين أنا من أمير المؤمنين فرجعت كاظماً غيظي. فقال عمر: نعم اصبر لها لأنها طباخة لمعيشتي غسالة لثيابي ظير لولدي ستر ما بيني وبين النار.

قال عليه السلام: «خياركم خياركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي»[1].

= حديث أبي سعيد ولم يسق مسلم لفظه.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه النسائي والترمذي وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله «أنا خيركم لنسائي» وله من حديث عائشة وصححه «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم».

ويروى أنه قيل يا رسول الله ما حق المرأة على زوجها قال: «يطعمها إذا طعم ويكسوها إذا اكتسى ولا يقبح لها وجهاً ولا يضربها إلا ضرباً غير مبرح»[١]. والله أعلم.

وبالجملة أن لها عليه حسن الصحبة وجميل المعاشرة ولا يضرها في نفسها ولا في شيء من مالها وليطعمها مما يأكل وليلبسها مما يلبس ولا يلطم لها خداً ولا يشوهه لها وجهاً وله أن يغضب عليها ويهاجرها في أمر الدين من ثلاث إلى عشر وإن لم ترتدع هجرها من عشر إلى شهر ولا يفشي سرها في النكاح»[٢].

ويقال: من يحدث بما يخلو به من أمر امرأته فهو كمن فعل ذلك حراماً ولا ينبغي أن يكون سريع الطلاق بغير عذر.

وقد جاء في الحديث: «ما أحل الله حلالاً أحب إليه من النكاح ولا أبغض إليه من الطلاق بغير عذر».

ويقال: كان أهل الكتاب يتزوج الرجل المرأة وما يثبت على ثديها خيط يدركهما الهرم جميعاً ولا يرغب أحدهما عن صاحبه؛ ويقال أن ذلك من الفواحش التي لم تذكر في الكتاب.

وإن كان له عذر في الطلاق فلا بأس وقد قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنكُنَّ﴾[٣]. ولكن إن طلقها فليعطها شيئاً يمتعها به ليطيب نفسها لما فجعها من ألم الفراق ولا يفشي سرها في ذلك.

وقد روي عن بعض السلف أراد أن يطلق زوجته فقيل له: ما الذي يربك منها؟ فقال: لا ينبغي للعاقل أن يهتك ستر امرأته فلما طلقها قيل له / لماذا طلقتها؟ فقال: ما لي ولامرأة غيري. [٣٩٠/أ]

ومن حق المرأة على زوجها أن يعلمها ما عليها من أمر دينها ووضوئها وصلاتها وقرأتها وما يلزمها من حيضها والغسل من جنابتها لأنه أميرها وراعيها وكل راعي مسؤول عن رعيته فالرجل راعي على أهل بيته مسؤول عنهم. وقال تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾[٤].

---

(١) ذكر الحافظ العراقي حديثاً نحوه وقال: رواه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجة من رواية معاوية بن حيدة بسند جيد.

(٢) جاء حديث في معنى هذا الأمر في الإحياء وقال الحافظ العراقي رواه مسلم من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «إن أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم يفشي سرها».

(٣) سورة التحريم الآية: ٥.

(٤) سورة التحريم الآية: ٦.

أي علموهم وأدبوهم والله أعلم وأحكم[١].

الفصل الثالث: في حقوق الزوج

قال الله تعالى مخبراً عن النساء. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[٢]. فأخبر أن حق الرجال عليهن أعظم ثم ذكر علة ذلك فقال في آية أخرى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها أن فتاة قالت: يا رسول الله ﷺ إني أخطب وأنا أكره التزويج فما حق الزوج على المرأة؟ فقال: «لو كان من قرنه إلى قدميه صديداً فلحسته فما أدت شكره». قالت: فلا أتزوج قال: «بلى تزوجي فإنه خير»[٤].

ويروى أن امرأة كانت من خثعم سألته عليه السلام عن حق الزوج فقال: «إن من حقه عليها إذا أرادها [فراودها][٥] على نفسها وهي على ظهر بعير فلا تمنعه من نفسها ومن حقه أن لا تعطي شيئاً من ماله إلاّ بإذنه فإن فعلت كان الأجر له والوزر عليها، ولا تصوم تطوعاً إلاّ بإذنه فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يقبل منها، ولا تخرج من بيته إلاّ بإذنه فإن فعلت لعنتها الملائكة حتى ترجع وتتوب»[٦].

وعنه عليه السلام أنه قال: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»[٧].

[٣٩١/ب] وعنه عليه السلام أنه قال: «المرأة عشر عورات فإذا / تزوجت ستر الزوج عورة واحدة فإذا ماتت ستر القبر العشر عورات»[٨].

---

(١) ما جاء في هذا الباب ذكر نحوه الإمام الغزالي في كتاب الإحياء في الجزء الثاني كتاب أدب النكاح طبعة دار إحياء الكتب العربية.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٢٨.

(٣) سورة النساء الآية: ٣٤.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الحاكم وصحح إسناده من حديث أبي هريرة دون قوله: «بلى فتزوجي فإنه خير» ولم أره حديث عائشة.

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وأثبتناه من الإحياء.

(٦) ذكره الإمام الغزالي في الإحياء ولكن المؤلف نقله بمعناه وترك لفظه وأدخل عليه كلامه هو. غير أنه ما ترك المعنى وغلب عليه لفظ ما جاء في الإحياء. وقال الحافظ العراقي في المغني: رواه البيهقي مقتصراً على شطر الحديث ورواه بتمامه من حديث ابن عمر وفيه ضعيف.

(٧) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الترمذي وقال حسن صحيح وابن حبان من حديث ابن مسعود.

(٨) قال الحافظ العراقي: رواه الحافظ أبو بكر محمد بن عمر الجعابي في تاريخ الطالبين من حديث علي بسند ضعيف والطبراني في الصغير من حديث ابن عباس «للمرأة ستران» قيل وما هما الزوج والقبر.

ويروى أن رجلاً دخل على أصحاب رسول الله ﷺ فقال: يا أصحاب رسول الله إن لي امرأة سليطة اللسان مؤذية الجيران فقال أبو بكر من يبلغها قول النبي ﷺ؟ فقال حذيفة رضي الله عنه: أنا أمضي إليها برسالتكم فقال أبو بكر قل لها إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما امرأة دعاها زوجها إلى فراشها فأبت عليه فهي في سخط الله حتى تتوب وترجع». وسمعته يقول: «أيما امرأة تقول لزوجها ما لي منك خير وما رأيت منك خيراً إلاَّ أحبط الله عملها سبعين سنة ولو كانت تصوم النهار وتقوم الليل إلاَّ أن تتوب وترجع». وسمعته يقول: «أيما امرأة خاصمت زوجها وهي ظالمة إلاّ . حشرت يوم القيامة مع هامان وقارون في الدرك الأسفل من النار إلا أن تتوب وترجع». وسمعته يقول: «أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها إلاَّ لعنها كل ما طلعت عليه الشمس إلاّ أن تتوب وترجع». وسمعته يقول: «أيما امرأة خانت زوجها في فراشه فعليها نصف عذاب هذه الأمة إلاّ أن تتوب وترجع». وسمعته يقول: «أيما امرأة أغضبت زوجها لعنها الله والملائكة والناس أجمعين إلاَّ أن تتوب وترجع». وسمعته يقول: «أيما امرأة منت على زوجها بمالها فقالت: إنما أنت تأكل مالي فلو أنها تصدقت به في سبيل الله لم يقبل منها إلاَّ أن تتوب وترجع». وسمعته يقول: «أيما امرأة قالت لزوجها لعنك الله إلا لعنها الله وكل شيء خلقه الله حتى الجن والإنس إلا أن تتوب وترجع». وسمعته يقول: «أيما امرأة كلت في وجه زوجها تدخل به عليه غماً إلاَّ كانت في سخط الله /إلاَّ أن تتوب وترجع ولو أن امرأة [٣٩٢/أ] عبدت الله تعالى عبادة مريم ولم يرضى عنها زوجها لم يقبل الله منها وأدخلها النار مع الداخلين إلاَّ أن تتوب وترجع وأيما امرأة كلفت زوجها من النفقة ما لا يطيق لم يقبل الله منها صرفاً ولا عدلاً إلاَّ أن تتوب وترجع ولو أن امرأة قدمت بين يدي زوجها ثديها شواء أو طبيخاً لم تبلغ حق زوجها».

ويروى أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله أنا رسول النساء المؤمنات إليك أعلمك شأنهن وليس منهن امرأة إلاَّ على مثل مقالتي إنكم معشر الرجال فضلكم الله بالجماعة والجهاد والحج في العام بعد العام وحمل الجنازة وعيادة المرضى وغير ذلك، ونحن معشر النساء قاضيات شهواتكم وحاملات أثقالكم ومربيات أولادكم وحافظات بيوتكم ومؤتمنات على جميع أموركم فإذا خرج الرجل منكم إلى الحج أو إلى الجهاد أو إلى الرباط أو غير ذلك من الأسفار صرنا قواعد بيوتكم نحرس عليكم نفوسنا وبيوتكم ونربي أولادكم أفنشاركم في أجوركم؟ فنظر إليها رسول الله ﷺ وإلى أصحابه فقال: «هل رأيتم أو سمعتم مثل عقل هذه المرأة ومعرفتها وسؤالها عما يعنيها من أمر دينها»؟!

قالوا: بلى يا رسول الله ما ظننا أنه يبلغ عقل امرأة إلى مبلغ عقل هذه المرأة! فقال لها عليه السلام: «اذهبي فبلغي عني النساء المؤمنات أنه ما منكن امرأة تخشى ابتغاء مرضات الله وتخشى علام إتباع مرضات زوجها وسرته إلا كان لها من الأجر يعدل ما ذكرت وإذا هي حملت من زوجها وولدت كان لها بكل مصة ترضعه أجر من أعتق رقبة / من ولد إسماعيل [٣٩٣/ب] فأنصرفك المرأة ضاحكة مستبشرة فاعلمت النساء بذلك فما مر عليهن يوم أكمل سروراً من ذلك اليوم.

ثم قال لها أيضاً: «أيما امرأة أعانت زوجها على الحج والجهاد فهي شريكته في الأجر». وحقوق الزوج كثيرة وقد قال بعض المشايخ لابنته أزوجك اليوم ممن له عليك سبعون حقاً فقالت يا أبت أزدها إلى ثلاثة؛ إن دعاني أجبته وإن أمرني ائتمرت وإن نهاني انتهيت.

والقول الجامع لها من غير تطويل أن تراعي أمرين أحدهما الصيانة والستر، والثاني ترك المطالبة، بما وراء الحاجة والتعفف عن كسبه إذا كان حراماً، ولا تكفر إحسان زوجها.

وقد قال عليه السلام. «رأيت النار فرأيت أكثر أهلها النساء والأغنياء». قيل يا رسول الله لأي شيء كان ذلك؟ قال: «بكفرهن». قيل أيكفرن بالله قال: «لا، يكفرن بالعشير ويكفرن بالإحسان ولو أحسنت إليهن الدهر كله ثم أسأت إليهن في الدهر مرة واحدة فيكفرن بالإحسان أجمع».

وفي حديث آخر: «إلا ترى إلى أحدهن تكون مع زوجها طول دهرها وهو يحسن إليها فإذا رأت منه ما يسؤها قالت: ما رأيت منك خير قط». وما فعلت لي وما صنعت لي. ولتكن راضية بزوجها قانعة في يسره وعسره. وتريه البشاشة في جميع أحوالها، ولتكن قاعدة في قعر بيتها لازمة لمغزلها ولا تزور إلا من تطلب الثواب في زيارته من أهلها أو غيرهم إلا بإذن زوجها. وقد روي أن رجلاً على عهد رسول الله ﷺ سافر عن زوجته وقد أمرها أن لا يتخرج من بيتها وهي ساكنة في العلو من الدار وأبوها في أسفلها فمرض أبوها فاستاذنت النبي ﷺ في عيادة أبيها فقال: لها: «أطيعي الله وأطيعي زوجك». توفي أبوها فاستاذنته أيضاً في حضور جنازته فقال: «أطيعي الله وأطيعي زوجك». فأوحى الله إلى نبيه، عليه السلام أنه قد غفر الله لأبيها لطاعتها لزوجها[1]. والله أعلم.

وعليها أن تحسن تربية أولادها ولا تنام إلا على فراشه ولتحفظه في نفسه وماله وحشمه

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف.

وعياله، ولا تنفق ماله بالتبذير، ولتراعي في ذلك حسن التقدير ولا تعطي من ماله شيئاً بغير إذنه فمتى غاب عنها زوجها في حج أو رباط فحفظت نفسها بعده كان لها من الأجر مثل أجره ولا ينقص من أجره شيء ولتشتغل ببره جهدها فإن أول ما تسأل عنه المرأة من حدود دينها عن حق زوجها ويجب على المرأة إذا بلغت حد الحيض أو قاربته أن تستتر في ممشاها ولا ترفع صوتها حيث يسمع له من لا يحل له ذلك منها. ولا يحل لها أن تتزين إلاّ لزوجها في بيتها حيث لا يراها أحد من الرجال الذين [. . .][1] يحل لهم نكاحها ولا يحل لها أن تدخل بيت زوجها رجلاً غيره ولا غلاماً قد بلغ الحلم أو راهقه إلاّ بإذن زوجها إلاّ أن يكون من ذوي محارمها، ولا يحل لها أن تملي عينيها من غير زوجها ولا تبدي له زينتها، ولا تكتحل، ولا تستاك ولا تأكل معه، ولا تشرب ثم تنازله، ولا تضحك عنده ولا تخضع بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، ولا تتعرى في بيت غيرها.

فإذا فعلت ما ذكرنا فقد أخذت بحظها من العذاب، وإن هي أحصنت فرجها، وصلت خمسها وأدت زكاة مالها إن كان ذلك يلزمها، وأطاعت زوجها، وحفظت لسانها، وغضت بصرها إلاّ على زوجها، ولم تضرب برجلها ليعلم ما تخفي من زينتها دخلت الجنة.

وروي عن تميم الداري أنه قال حق الرجل على المرأة أن لا تحنث له قسماً، ولا تهجر له مضجعاً، ولا تكفر /له نعمة ولا تخرج من بيته إلاّ بإذنه، ولا تأذن لأحد في رحله بشيء [٣٩٥/ب] يكرهه.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من صبر من النساء على سوء خلق زوجها أعطاها الله من الأجر مثل ما أعطى آسية بنت مزاحم امرأة فرعون» وعن الأصمعي قال: دخلت البادية فإذا بامرأة مختضبة بالحناء وعليها قميص أحمر وبيدها سبحة فقلت ما أبعد هذا من هذا فقالت:

فلله مني جانب لا أضيعه ... وللهو مني والبطالة جانب

قال فعلمت أنها امرأة صالحة وأن لها زوجاً تتزين له.

قال الأصمعي أيضاً دخلت البادية فإذا بامرأة من أحسن الناس وجهاً تحت رجل من أقبح الناس وجهاً فقلت: يا هذه أترضين لنفسك أن تكوين تحت مثل هذا؟ فقالت لي: يا هذا أسأت في قولك لعله أحسن فيما بينه وبين الله فجعلني ثوابه، ولعلي أسأت فيما بيني وبين خالقي فجعله عقوبتي أفلا أرضى بما رضي الله لي؟!! قال: فأفحمتني والله أعلم.

---

(١) جاء بالأصل بين المعقوفين لفظ «لا» ولا يستقيم المعنى بوجودها.

الباب الرابع
في حق الجوار

اعلم أن الله تعالى خلق بني آدم محتاجين، وفطرهم عاجزين، ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز، يمنعانهم من طغيان الغنى وبغي القدرة لأن الطغيان مركوز في طبائعهم إذا استغنوا، والبغي مستول عليهم إذا قدروا.

وقد أخبرنا الله تعالى بذلك فقال: ﴿كَلاَّ إِنَّ ٱلإنسان لَيَطْغَىٰ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰ﴾. ثم ليكون ذلك أقوى الأمور شاهداً على نقصانهم وأوضحها دليلاً على عجزهم. وأنشد لابن الرومي:

[٣٩٦/أ] / عيرتني بالنقص والنقص شامل ... ومن ذا الذي يعطي الكمال فيكمل
وأشهد أني ناقص غير أنني ... إذا قيس بي قوم كثير تقلل
تفاضل هذا الخلق بالدين والحجى ... ففي أيما هذين أنت مفضل
ولو منح الله الكمال ابن آدم ... لخلده والله ما شاء يفعل

ثم جعل الله الإنسان أكثر حاجة من جميع الحيوان حتى افتقر إلى الاجتماع مع جنسه لبقاء نسله ثم لا يكفيه ذلك ما لم يجتمع مع طائفة يتكفل كل واحد منهم بصناعة، ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذوا بالحر والبرد واللصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ينفرد فيها كل واحد منهم بأهله وآلات صناعته فاضطروا إلى المواساة، والتعاون بالقوى والآلات والتناصر على الأعداء ودفع أصناف الأذى، فاقتضى الجوار بينهم حقوقاً من المواساة، فضلاً عن كف الأذى والمضرات، إذ لو لم يتواسوا ويتعاونوا لصاروا بمنزلة أصحاب القبور وبمثابة الوحوش والطيور، ولذلك أكد الشرع حق الجوار فضلاً عن حق الإسلام والنسب.

فصل

قال الله تعالى: ﴿وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾. إلى قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾[١].

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الجيران ثلاثة؛ جار له حق واحد وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق فهو[٢] الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق القرابة، وأما الجار الذي له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق / الإسلام وأما الجار الذي [٣٩٧/أ]

---

(١) سورة النساء الآية: ٣٦.
(٢) جاءت بالأصل هكذا وجاءت في الإحياء «فهو».

له حق واحد فهو الجار المشرك له حق الجوار»[١].

وعنه ﷺ أنه قال: «ما زال حبيبي[٢] جبريل عليه السلام يوصيني الجار حتى ظننت أنه سيورثه كالولد من والده»[٣].

وعنه عليه السلام أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»[٤].

وعنه عليه السلام أنه قال: «لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه»[٥].

وعنه عليه السلام أنه قال: «أول خصمين يوم القيامة جاران»[٦].

وعنه ﷺ أنه قال: «إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيته»[٧].

ويروى أن رجلاً أتى إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له: إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق عليَّ. فقال له: اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه.

ويقال: إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة ويقول: يا رب سل هذا لم منعني معروفه وسد بابه دوني.

وعنه عليه السلام أنه قال: «الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق».

وعنه ﷺ أنه قال: «ما من إمرء بات شبعاناً وجاره طاو، وعلم به ولم يطعمه إلاَّ كان الله بريئاً منه وأنا بريء منه».

وعنه عليه السلام أنه قال: «ليس المؤمن من بات شبعاناً وجاره جائعاً». .

وعنه عليه السلام أنه قال: «حرمة الجار على جاره كحرمة على أمه». وروي أنه قيل: يا رسول الله ﷺ إنَّ فلانة تصوم النهار، وتقوم الليل وتؤذي جيرانها؟ فقال: «هي في النار»[٨].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الحسن بن سفيان والبزار في مسنديهما وأبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية من حديث جابر وابن عدي من حديث عباد الله بن عمر وكلاهما ضعيف.

(٢) لم ترد في الإحياء وكذا بالأصل.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: متفق عليه من حديث عائشة وابن عمر ـ قلت لم ترد به «كالولد من والده».

(٤) قال الحافظ العراقي: متفق عليه من حديث أبي شريح.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه البخاري من حديث أبي شريح.

(٦) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف.

(٧) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً.

(٨) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الإسناد.

[٣٩٨/ب] ونهى ﷺ: أن يبول الرجل / في أصل جدار جاره.

ويقال: غزى رسول الله ﷺ غزوة فلّما بلغ موضع المنزل نادى: «ألا من كان مؤذي لجيرانه فلا يصحبنا». فقال رجل: ما أذيت رجلاً قط غير أني أبول في أصل جداره فرده نبي الله وقال «لا تصحبنا».

ونهى عليه السلام: أن يصدق الرجل ابنه على جاره أو امرأته. وقيل أن رجلاً قال لجابر بن فريد رضي الله عنه: يا أبا الشعثاء إن لي جار يؤذيني. فقال له جابر: إنما تؤذيك نفسك أصلح الذي بينك وبين الله تعالى حتى يعطف الله قلب جارك عليك.

وعن أبي هريرة أنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فشكا إليه جاره فقال له عليه السلام: «اصبر له». ثلاث مرات. ثم قال له في الرابعة: «اطرح متاعك في الطريق». قال: ففعل؟ فجعل الناس يمرون عليه فيقولون فيقول: ما لك؟ فيقول: أذاه جاره. فيقولون: لعنه الله. فجاء جاره فقال له: رد متاعك لا والله لا أوذيك أبداً[١]. وفي الحديث: «من صبر على أذى جاره ملكه الله داره».

ويقال: ركوب البحر خير من مجاورة الجار السوء. وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا إستاذن أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره فلا يمنعه»[٢]. فنكسوا فقال: ما لي أراكم عنها معرضين لألقينها بين أكتافكم. وينشد لأبي العتاهية:

والجـار لا تتـرك كـرامـة بيتـه ... وأغصب لكلب الجار إن هو أغضبا

وارزع أمـانتـه وكـن ركنـاً لـه ... حصنـا وغمـا سـاءه متجنبـاً

كـن لينـا للجـار تحمـي عـرضـه ... كـرمـاً ولا تـك للجـار عقـربـاً

[٣٩٩/ب] وعن الحسن أنه قال: / يجيء الرجل يوم القيامة متعلقاً بجاره فيقول: يا رب إنَّ هذا خانني فيقول وعزتك وجلالك ما ختته في أهل ولا مال. قال يا رب: صدق ولكن رأني في معصية ولم ينهني عنها فيؤجر.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم.

(٢) ذكر بمعناه الحافظ العراقي في المعنى وقال: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق هكذا ـ وهو متفق عليه بلفظ: «لا يمنعن أحدكم جارة أن يغز خشبة في حائطه» ورواه ابن ماجة بإسناد ضعيف واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة.

ويروى أن رجلاً شكا إلى النبي ﷺ جاره فأمر عليه السلام من ينادي على باب المسجد: «ألا أن أربعين داراً جار»[1].

مسألة في حق الجار

وعن النبي ﷺ أنه قال: «أتدرون ما حق الجار؟ إن إستعان بك فأعنه وإن استقرضك فأقرضه وإن افتقر جدت عليه وإن مرض عدته وإن مات اتبعت جنازته فإن أصابه خير هنأته وإن أصابته مصيبة عزيته ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه وإذا اشتريت فاكهة فاهد له فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده. ولا تؤذيه بقتار قدرك إلاَّ أن تغترف له منها، أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلاَّ من رحمه الله»[2].

ومن حقوق الجار أيضاً، أن يبدأه بالسلام ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح على عوراته ولا يضايقه في رفع الجذع على جداره، ولا في مصب الماء من ميزابه ولا يطرح التراب في فنائه، ولا يضيق الطريق إلى داره، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى بيته، وليستر ما ينكشف له من عوراته، ولينعشه من ضرعاته، وليحسن إليه في جميع أموره، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا /يستمع عليه [٤٠٠/أ] كلامه، ويغض بصره عن حرمته ولا يدوم النظر إلى خادمه، وليتلطف لولده في كلمته وليرشده إلي ما يجعله من أمر دينه ودنياه، ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، على قدر طاقته، فإن لم يتركه فلا يجب أن يرتحل من داره لأجل ذلك والله أعلم.

مسألة

واختلفوا في حد الجار فقيل إلى أربعين بيتاً من أربع جهات كل بيت كان أقرب كان حقه أوجب. وقيل: مقدار ما يحميه الكلب، وقيل: إلى عشر بيوت من جانب وقيل: سبعة، وقيل: ثلاثة، وقيل: مقدار ما تبلغه رائحة القدور والله أعلم.

ويجب حق الجار على الإنسان إذا كان على هذا المعنى ما لم يقطع جواره طريق جائز أو واد جائر أو سوق جامع والله أعلم وبه العون والتوفيق.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو داود في المراسيل ووصله الطبراني من رواية الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة قال: «أربعون ذراعاً» وكلاهما ضعيف.

(٢) ذكر الحافظ العراقي نحوه وقال: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن عدى في الكامل وهو ضعيف.

الباب الخامس
في حق ملك اليمين

قال الله سبحانه: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾. إلى قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾(١).

ويروى أنه من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أنه قال: «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم فأمسكوا وما أكرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم»(٢).

وعنه عليه السلام أنه قال: «العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين»(٣).

وعنه عليه السلام أنه قال: «للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق»(٤).

وعنه عليه السلام أنه قال: «لا يدخل الجنة خبٌّ ولا ماكر ولا خائن ولا سيء المملكة»(٥).

[٤٠١/ب] ويقال: /إن عمر رضي الله عنه كان يذهب كل يوم سبت إلى العوالي فإذا وجد عبداً في عمل لا طاقة له به وضع عنه منه.

وعن عبد الله بن عمر قال: جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم نعفو عن

---

(١) سورة النساء الآية: ٣٦.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: هذا مفرق في عدة أحاديث فروى أبو داود من حديث عليّ كان آخر كلام رسول الله ﷺ «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» وفي الصحيحين من حديث أنس كان آخر وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم» ولهما من حديث أبي ذر «اطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينهم» لفظ رواية مسلم وفي رواية لأبي داود «من لايمكم من مملوكيكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ومن لا يلايمكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى» وإسناده صحيح.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أحمد مجموعاً والترمذي مفرقاً وابن ماجة مقتصراً على سيء المملكة من حديث أبي بكر وليس عند أحد منهم منكر وزاد أحمد والترمذي، البخيل والمنان وهو ضعيف وحسن الترمذي أحد طريقيه.

الخادم فصمت عنه ﷺ ثم قال: «أعف عنه كل يوم سبعين مرة»[١].

ويروى أن أبا هريرة رأى رجلاً على دابة وغلامه يسعى خلفه فقال: يا عبد الله أحمله فإنه هو أخوك روحه مثل روحك فحمله، ثم قال: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشى خلفه.

ويروى أن جارية قالت لأبي الدرداء إني سممتك منذ سنة وما فعل فيك شيئاً. قال: لم فعلت ذلك؟ قالت: أردت الراحة منك. فقال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى.

وعن الزهري أنه قال: متى قلت للمملوك أخزاك الله فهو حر.

وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم. قيل له: فما بلغ حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته خادم له بسفود عليه شواء فسقط السفود على ابن له من يدها فعقره فمات فدهشت الخادم. فقال: ليس يسكن روع هذه الجارية إلاّ العتق، فقال لها: أنت حرة لا بأس عليك.

ويروى أن ضيفاً ضاف ميمون بن مهران فاستعجل على جاريته بالعشاء، فجاءت مسرعة ومعها مائدة مملوءة، فغثرت فاهزقتها على رأس سيدها ميمون فقال: يا جارية قد أحرقتني. قالت: يا معلم الخير ومؤدب الناس إرجع إليّ ما قاله الله. قال: وما قال؟ قالت: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾. قال: كظمت غيظي. قالت: ﴿وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. قال: قد عفوت عنك. قالت: ﴿والله يُحبُّ المُحْسِنِينَ﴾[٢]. قال: أنت حرة / لوجه الله. [٤٠٢/أ]

وعن النبي ﷺ أنه قال: «لا تضربوا إماءكم على كسر إنائكم فإن لها آجالاً كآجالكم».

وعنه عليه السلام أنه قال: «إذا كفى أحدكم مملوكاً فليكن أول ما يطعمه الحلو فإنه أطيب لنفسه»[٣].

وعنه أيضاً أنه قال: إذا اشترى أحدكم مملوكاً صنعة طعامه فكفاه حره ومؤنته وقرّبه إليه فليجلسه وليأكل معه أو ليأخذ لقمة فيضعها في يده وليقل كل هذه»[٤].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو داود والترمذي وقال حسن غريب.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٣٤.
(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الطبراني في الأوسط والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف.
(٤) قال الحافظ في حديث نحوه: متفق عليه مع اختلاف لفظ وهو في مكارم الأخلاق للخرائطي باللفظين اللذين ذكرهما المصنف غير أنه لم يذكر علاجه وهذه اللفظة عند البخاري.

وعن الأحنف أنه قال: العبد الصالح له كفلان من الأجر وعليه نصف الوزر. وقيل: إن بعض المماليك سأل المبيع فقيل له: ما سببك فقال: مولاي يصلي جالساً ويضربني قائماً ويعرب إذا سبني ويلحن إذا قرأ.

وعن أبي مسعود الأنصاري أنه قال: انتهى إليَّ رسول الله ﷺ وأنا أضرب غلاماً فقال: «يا أبا مسعود إن الله عز وجل الآن يراك وهو أقدر عليك منك على هذا الغلام»(١). قال فأعتقته لله تعالى.

ويقال: إن أبا الدرداء قال لغلام له وقد غفل عن علف ناقة له وتوانا، فقال: ما حملك على ما فعلت؟ قال: أردت أن أغضبك.

قال أبو الدرداء: لأجمعن مع الغضب أجراً اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

ويروى أن بعض أصحاب النبي عليه السلام ضرب عبداً له فجعل العبد يقول. أسألك بوجه الله فسمع رسول الله ﷺ صياح العبد فانطلق إليه فلما رأى رسول الله ﷺ أمسك يده فقال عليه السلام: «سألك بوجه الله ولم تعفه فلما رأيتني أمسكت بيدك» قال: فإنه حر لوجه الله يا رسول الله. قال له: «لو لم تفعل لسفعت وجهك النار»(٢).

[٤٠٣/ب] / ويقال: إن رجلاً كان له مملوك فكان السيد يسمع حس المملوك بالليل فاطلع عليه السيد ذات ليلة من حيث لا يراه العبد فسمعه وهو يقول يا مولاي ومولاي مولاي لولا خدمة مولاي لخدمتك أيام حياتي فلما سمعه سيده قال له: بل أنت مولاي ومولاك مولاي فأنت حر لوجه الله، والله أعلم. والآثار في هذا كثيرة.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «كل راع مسؤول عن رعيّته يوم القيامة»(٣) ويقال: المملوك أخوك لأبيك وأمك ابتليت به وابتلى بك فله أجران وعليك فيما فرطت الحساب.

وقال عليه السلام: «إذا دعى الرجل مملوكه فقال: لبيك فقال له: لا لبيك ولا سعد بك تقول له الملائكة بل أنت لا لبيك ولا سعد بك».

---

(١) قال الحافظ العراقي في معناه. رواه مسلم.
(٢) قال الحافظ العراقي: رواه ابن المبارك في الزهد مرسلاً وفي رواية لمسلم في حديث أبي مسعود.
(٣) قال الحافظ العراقي في حديث ابن عمر «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» متفق عليه من حديث ابن عمر.

وعنه عليه السلام أنه قال: «للمملوك على مولاه ثلاث خصال لا يعجله عن صلاته ولا يقيمه عن طعامه ويبتعه إذا استباعه».

وجملة حقوق المملوك: أن يشبع بطنه ويدفي ظهره ولا يكلفه فوق طاقته ولا يستخدمه بعد العشاء إن استقصى خدمته بالنهار، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء وأن يعفو عن زلاته، ويتفكر في غضبه عليه بهفوته وجنايته في هفوته هو وجنايته على حق الله وتقصيره في طاعته، مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته والله أعلم.

فصل: في حق السيد على عبده

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «عرض عليّ أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار / فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة فالشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة الله ونصح لسيده وفقير[1] متعفف ذو عيال وأما[2] أول ثلاثة النار فأمير متسلط، وذو ثروة لا يعطي حق الله وفقير فخور»[3]. [٤٠٤/أ]

وبالجملة إن حق السيد على عبده أن ينصحه في ضيعته، ويحفظ له ما أئتمنه عليه، ويحسن خدمته، ولا يعصيه في جميع أحواله إلاّ إن أمره بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا يصلي نافلة إلا بإذنه ولا يصوم تطوعاً إلاّ بإذنه، لأن ذلك يضعفه عن الخدمة لأنه مسؤول عن القيام بحق سيده كما أن سيده مسؤول عن حقه.

قال أبو الحسن: قال رسول الله ﷺ: «كل راع مسؤول عن رعيته فالرجل راعي أهل بيته ومسؤول عنهم والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة عنه وعبد الرجل راع على ملك سيده وهو مسؤول عنه فكلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته»[4].

وقد جاء في حديث آخر: «أن الراعي مسؤول يوم القيامة عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته، والرعية تسأل عن إمامها، والزوجة تسأل عن القيام بحق زوجها وعن ما ضعت والرجل يسأل عن حق زوجته، والعبد يسأل عن القيام بحق مولاه، وما ضيع من حقه، والمولى يسأل

---

(١) جاءت هكذا في الأصل وجاءت في الإحياء «عفيف».

(٢) لم ترد في الإحياء ووردت في الأصل هكذا.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الترمذي وقال حسن وابن حبان من حديث أبي هريرة.

(٤) قال الحافظ العراقي رواه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس. وذكر فيه «يوم من والٍ عادل أفضل من عبادة سبعين سنة» ومتفق عليه من حديث ابن عمر «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

عما ضيّع من حق عبده، والجار يسأل عن حق جاره، والولد يُسأل عن حق والده، والوالد يسأل عن حق ولده».

وكذلك قال الحكم العدل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(١)]. وبالله التوفيق.

الباب السادس
في الإخاء

[٤٠٥/ب] / وليعلم أن المؤاخاة في الله والمودة من أسباب الألفة؛ لأنها تكسب بصادق الميل إخلاصاً ومصفاةً وتحدث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماتا، وهذا أعلى مراتب الألفة لأن أصل الألفة الصفاء ونتيجتها الوفاء ولذلك آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه لتزيد ألفتهم ويقوى تطافرهم وحث على المؤاخاة فقال عليه السلام: «عليكم بإخوان الصدق فإنهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء».

وعنه عليه السلام أنه قال: «ما أحدث العبد أخاً في الله إلاَّ أحدث الله له درجة في الجنة»[(٢)].

وعنه عليه السلام أنه قال: «المرء كثير بأخيه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما يرى لنفسه».

وعنه عليه السلام أنه قال: «المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه ولا يغشاه ولا يخونه ولا يخذله»[(٣)].

وعنه عليه السلام أنه قال: «مثل المسلمين كاليدين تغسل إحداهما الأخرى»[(٤)].

---

(١) سورة الحجر الآية: ٩٢.

(٢) ذكره الحافظ العراقي بلفظ «من آخى أخاً» وقال ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان من حديث أنس «ما أحدث عبد أخاً في الله». وقال إسناده ضعيف.

(٣) ذكره الحافظ العراقي في حديث وقال فيه: رواه مسلم من حديث أبي هريرة وقال أوله متفق عليه وهذا آخره.

(٤) ذكره الحافظ العراقي بلفظ «مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى... الحديث». وقال: رواه السلمي في آداب الصحبة وأبو منصور الديلمي في مسند الفارسي من حديث أنس وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي ـ كذاب ـ وهو من قول سلمان الفارسي في الأول من الحزبيات.

وعنه عليه السلام أنه قال: «المسلمون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً»[١].

وقال عليه السلام: «مثل المسلمين في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد إن إشتكى بعضه تداعى سائره بالحمى والسهر»[٢]

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: عليكم بالإخوان فإنهم عدة في الدنيا والآخرة ألا تسمعوا إلى أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[٣].

وعن عمر رضي الله عنه قال: لقاء الإخوان جلاء الأحزان.

وعن خالد بن صفوان أنه قال: أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان، وإن أعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم.

وقال علي بن أبي طالب لابنه الحسن يا بني الغريب من ليس له حبيب.

وقيل لبعض الحكماء ما العيش؟ فقال: إقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الإخوان. وقال ابن المعتز: من إتخذ إخواناً كانوا له أعواناً. /وقال بعض الأدباء: أفضل الذخائر أخ وفيٌّ.[٤٠٦/أ] وقيل: حلية المرء كثرة إخوانه.

وقال بعض البلغاء: صديق مساعد عضد وساعد وقال بعض الشعراء:

همـوم رجـال فـي أمـور كثيـرة ... وهمي في الدنيا صديق مساعد
نكـون كـروح بيـن جسميـن قسمـا ... فجسمهما جسمان والروح واحد

ويروى أن بعض العلماء زاره بعض إخوانه فلم يجده في منزله ففتحوا الباب فدخلوا فإذا بسفرة فيها خبز وجبن فتناولوا منه فأتاهم فوجدهم يأكلون فبكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرتموني إخوان السلف وعاملتموني بأخلاق الصالحين ولست منهم.

ويقال: إنما سمي الصديق صديقاً لصدقه، والعدو عدواً لعدوه عليك.

وعن ثعلب أنه قال: إنما سمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلى القلب، ولا تدع فيه خللاً إلاَّ ملائته وينشد قول بشار:

قـد تخللـت مسلـك الـروح مني ... وبـه سمـي الخليـل خليـلاً

---

(١) ذكر الحافظ العراقي نحوه وقال متفق عليه من حديث ابن موسى «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

(٢) ذكر الحافظ العراقي بلفظ غيره «مثل المؤمنين... الحديث» وقال: حديث النعمان بن بشير متفق عليه.

(٣) سورة الشعراء الآيتان: ١٠٠، ١٠١.

فصل

اعلم أن المؤاخاة في الناس قد تكون من وجهين:

أحدهما: أخوة مكتسبة بالاتفاق الذي يجري مجرى الاضطرار.

والثاني: أخوة مكتسبة بالقصد والاختيار.

فأما المكتسبة بالاتفاق فهي أوكد حالاً؛ لأنها تنعقد على أسباب يقودها إليها الطبع ثم في غاية أحواله إلى سبع مراتب:

فأول أسباب الإخاء التجانس في حالة يجتمعان فيها ويتألفان بها.

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أن النبي ﷺ قال: «الأرواح أجناد مجندة ما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها / اختلف»[1]. [٤٠٧/ب]

فإن قوي التجانس قوي الائتلاف وإن ضعف كان به ضعيفاً ما لم يحدث عقداً دينياً. فإذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه.

وقد قيل في منثور الحكم الأضداد لا تتفق والأشكال لا تفترق. وينشد:

وقائل لم تفرقتما فقلت قولا فيه إنصاف
لم يكن من شكلي ففارقته والناس أشكال وآلاف

فثبت في التجانس وإن تنوع أصل الإخاء وقاعدة للائتلاف وهذا واضح. وينشد:

فلا تحقرن وأنت خليلها وكل إمرء يصبو إلى من يجانس

وقال آخر:

فقلت أخي فقالوا أخ من قرابته فقلت لهم إن الشكول أقاربي
نسيبي في رأيي وعزمي وهمتي وإن فرقتنا في الأصول المناسب

ويقال: لا تجالس إلاَّ من تجانس، ولا تواكل إلاَّ من تشاكل، ولا تماشي إلاَّ من تواتي.

ثم قد يحدث التجانس المواصلة بين المتجانسين وهي الرتبة الثانية من رتب الإخاء وسبب المواصلة بينهما وجود الاتفاق؛ لأن عدم الاتفاق منفر ولذلك قيل كما لا تثبت المكاتبة على الماء كذلك لا تثبت المحبة في قلب من خالفته. وينشد:

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغنى: رواه مسلم من حديث أبي هريرة والبخاري من حديث عائشة.

النـــاس إن وافقتهـــم عـــذبـــوا أولاً فـــإن جفـــاهـــم مـــر
كـــم مـــن ريـــاض لا أنيـــس بهـــا تـــركـــت لأن طـــريقهـــا وعـــر

ثم تحدث عن المواصلة رتبة ثالثة: وهي المؤانسة، وسببها الانبساط، ثم تحدث عن المؤانسة رتبة رابعة: وهي المصافاة وسببها خلوص النية، ثم تحدث عن المصافاة رتبة خامسة: / وهي المودة وسببها الثقة، وهذه الرتبة هي أدنى الكمال في أحوال الإخاء وما قبلها أسباب [٤٠٨/أ] تقود إليها، فإن اقترن بها المعاضدة فهي المصداقة، ثم تحدث عن المودة رتبة سادسة: وهي المحبة وسببها الاستحسان، وإن كان الاستحسان لفضائل النفس حدثت منه رتبة سابعة: وهي الإعظام وإن كان الاستحسان للصورة والحركة حدثت منه رتبة ثامنة: وهي العشق وسببها الطمع. قال المأمون:

أول العشـــق مـــزاح ولـــع ثـــم يـــزداد إذا زاد الطمـــع
كـــل مـــن يهـــو وإن عـــالـــت بـــه رتبـــة الملـــك لمـــن يهـــوى تبـــع

وهذه الرتبة هي آخر الرتب المحمودة وليس لمن جاوزها رتبة مقدرة، ولا حال محدود، لأنها قد تؤول إلى ممزاجة النفوس وإن تميزت ذواتها، وتفضي إلى مخالطة الأرواح وإن تفرقت أجسادها، وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ولا الوقوف على نهايتها.

وقد قال الكندي: الصديق إنسان هو أنت إلاَّ أنه غيرك. ومثل هذا القول يحكى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك أنه لما ولى أقطع طلحة بن عبد اللّه أرضاً، وكتب له كتباً وأشهد فيه ناساً: من عمر فأتى طلحة بكتابه إلى عمر ليختمه فامتنع عليه، فرجع طلحة مغضباً إلى أبي بكر فقال: والله لا أدري الخليفة أنت أم عمر؟ فقال: بل عمر لكنه أنا.

وأما الأخوة المكتسبة بالقصد فلا بد من داعٍ يدعو إليها وباعث يبعث عليها، وذلك من وجهين: رغبة وفاقة.

أما الرغبة: فهي أن تظهر من الإنسان فضائل تبعث على إخائه ويتوسم بجميل يدعو إلى إصطفائه، وهذه الحالة أقوى من التي بعدها / لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها، [٤٠٩/أ] وإنما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع فليس كل من أظهر الخير كان من أهله، ولا كل من يخلق بالحسن كان من طبعه والتكلف للشيء مناف له، إلاَّ أن يدوم عليه مستحسناً له في العقل، ومتديناً به في الشرع، فيصير الطبع له فيه طباعاً، والتكلف له هوى مطاعاً.

وأما أن تكون جميع أخلاق الفاضل كاملة بالطبع فلا، وإنما الأغلب أن تكون بعض فضائله بالطبع، وبعضها بالتطبع الجاري بالعادة، حتى يصير ما تطبع به في العادة أغلب عليه مما كان مطبوعاً عليه، إذا خالف العادة ولذلك قيل العادة طبع ثان.

وقد تقدم قول الحكماء: ليس في الطبع أن يكون ما ليس في الطبع وينشد لابن الرومي:

واعلم بأن الناس من طينة يصدق في القلب لها الثالب
لولا علاج الناس أخلاقهم إذا لفاح الحمأة اللازب

وأما الفاقة: فهو أن يفتقر الإنسان لوحشة إنفراده، ومهانة وحدته إلى إصطفاء من يأنس بمؤاخاته، ويثق بنصرته وموالاته.

وقد قال الحكماء: من لم يرغب في ثلاث بُلِيَ بست من لم يرغب في الإخوان بُلِي بالعداوة والخذلان ومن لم يرغب في السلامة بُلِي بالشدائد والامتهان، ومن لم يرغب في المعروف بُلِي بالندامة والخسران.

ولعمري إن إخوان الصدق من أنفس الذخائر وأفضل العدد؛ لأنهم سماء النفوس وأولياء النوائب.

وقد قال الحكماء: رُبَّ صديق أود من شقيق. وقيل لمعاوية: أي الناس أحب إليك؟ قال: صديق يحيني إلى الناس. وقد قال الشاعر:

[٤١٠/ب] / لمودة ممن يحبك مخلصاً خير من الرحم القريب الكاشح

فصل

فإذا عزم الإنسان على إصطفاء الإخوان فليكشف عن أخلاقهم قبل إصطفائهم ولا تبعثه الوحدة على الإقدام قبل الخبرة وليس فيمن يكون النقاق والملق بعض سجاياه خير يجري ولا صلاح يأمل.

ولأجل ذلك قالت الحكماء: اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه لا من لسانه. قال حماد بن عجرد:

كم من أخ لك ليس تنكره ما دمت من دنياه في يسر
متصنع لك في مودته يلقاك بالترحيب والبشرى
وإذا عدا والدهر ذو غير عدى عليك إذاً مع الدهر

على أن الإنسان موسوم بمن قارب، ومنسوب إليه أفاعيل من صاحب. وفي الحديث: «المرء مع من أحب».

وقال ابن مسعود رحمه الله: ما شيء أدل على شيء ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب. وقال: يظن بالمرء ما يظن على قرينه. وينشد:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمَقارِن يقتدى

فلزم من هذا الوجه أيضاً أن يحترز عن أخلاء السوء ومصاحبة أهل الريب.

وقد قال بعض البلغاء: صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار. وينشد:

مجالسة السفيه سفاه رأي ... ومن عقل مجالسة الحليم

فإنك والقرين معاً سواء ... كما قدّ الأديم من الأديم

/ فلما لزم سبر الإخوان قبل إخائهم وخبرة أخلاقهم قبل إصطفائهم فالخصال المعتبرة[٤١١/أ] في إخائهم بعد المجانسة التي هي أصل الاتفاق أربع خصال: أحدها: عقل موفور يهدي إلى مراشد الأمور فإن الأحمق لا ثبت معه مودة ولا تدوم لصاحبه استقامة.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «البذاء لؤم وصحبة الأحمق شؤم»[(١)].

وقال بعض الحكماء: عداوة العاقل أقل ضرراً من مؤاخاة الأحمق؛ لأن الأحمق ربما ضر ويظن أنه ينفع والعاقل لا يتجاوز الحد في مضرته. وينشد:

إذا ما كنت متخذاً خليلاً ... فلا تثق بكل أخ إخاء

وإن خيرت فألصق ... بأهل العقل منهم والحياء

فإن العقل ليس له إذا ما ... تفاضلت الفضائل من كفاء

والخصلة الثانية: الدين الواقف بصاحبه على الخيرات، فإن تارك الدين عدو نفسه فكيف ترجى منه مودة غيره.

وقال بعض الحكماء: استصف من الإخوان ذا الدين والحسب والرأي والأدب فإنهم رداء لك عند حاجتك ويد عند نائبتك وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك. وينشد لحسان بن ثابت.

---

(١) ذكر الحافظ العراقي سطره الأول في حديث أبي أمامة بسند ضعيف وقال رواه الترمذي وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين.

أخــلاء الــرخــاء هــم كثيــر ولكــن فــي البــلاء هــم قليــل
فــلا تغــررك قلــة مــن تــؤاخــى فمــا لــك عنــد نــائبــة خليــل
وكــل أخ يقــول أنــا وفــيّ ولكــن ليــس يفعــل مــا يقــول
ســوى خــل لــه حســب وديــن وذاك لمــا يقــول هــو الفعــول

[٤١٢/ب] والخصلة الثالثة:/ أن يكون محمود الأخلاق مرضى الأفعال مؤثر للخير آمراً به تاركاً للشر ناهياً عنه، فإن مودة الشرير تكسب الأعداء وتفسد الأخلاق ولا خير في مودة تجلب عداوة وثورة ندامة وملامة وقال ابن المعتز: إخوان السوء كشجرة النار يحرق بعضها بعضا.

والخصلة الرابعة: أن يكون لكل واحد منهم ميل إلى صاحبه ورغبة في مؤاخاته فإن ذلك أوكد في حال المؤاخاة، وأشد لأسباب المصافاة، لأنه ليس كل مطلوب إليه طالباً ولا كل مرغوب فيه راغباً، ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب في زاهد فيه كان معنى خائباً كما قال البحتري:

طلبــت منــك مــودة لــم أعطهــا إن معنــى طــالــب لا يظفــر

وقال العباس بن الأحنف:

فــإن كنــت لا بــدنيك إلا شفــاعــة فــلا خيــر فــي ود يكــون بشــافــع
وأقسم ما تركي عتابك عن قلى ولكــن لعلــي أنــه غيــر نــافــع
فــإني إذا لــم ألــزم الصبــر طــائعــاً فــلا بــد منــه مكــروهــاً غيــر طــائــع

فإذا استكملت هذه الخصال في الإنسان وجب إخاءه وتعين اصطفائه ويحسب وفورها فيه يجب أن يكون الميل إليه والثقة به، فإن الإخوان على طبقات مختلفة لكل واحد منهم حال يختص بها في المشاركة وثلمة يسدها في الوازرة وليس تتفق أحوال جميعهم على حالة واحدة.

وقال بعض الحكماء: الرجال كالشجر شرابه واحد وثمرته مختلفة.

وقال المأمون: الإخوان ثلاث طبقات؛ طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه وطبقة كالدواء [٤١٣/ب] يحتاج اليها أحياناً / وطبقة كالداء لا يحتاج إليها أبدا.

ولعمري إن الناس كلهم على ما وصف وليس من كان منهم كالداء من الإخوان المعدودين، بل هم من الأعداء المحذورين، وإنما يداجون بالمودة إستكفافاً من شرهم وتحذراً

من مكاشفتهم، وقد قال بعض الحكماء: مثل العدو الضاحك إليه كالحنظلة الخضرة أوراقها، القاتل مذاقها. وينشد لزيد بن الحكم الثقفي:

تكاشرني كرهاً كأنك ضاحك وعين تبدي أن صدرك لي دوي
لسانك معسول ونفسك علقم وشرك مبسوط وخيرك منطوي
فليت كفافاً كان خيرك كله وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوي

وقال بعض الصحابة: إنا نصافح أيدينا نرى قطعها.

وقال أبو ذكر أو غيره إنا لنضحك في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم. وقد قال بعض الشعراء:

رب من انضجت غيظاً صدره قد تمنى لي موتاً لم يطع
ويراني كالشجاء في حلقه عسراً مخرجه ما ينتزع
ويحيي إذا لاقيته وإذا يخلو له لحمي رتع

فإذا خرج من كان كالداء من عدد الإخوان فالإخوان هم الصنفان الآخران من كان منهم كالغذاء وكالدواء؛ لأن الغذاء قوام النفس وحياتها والدواء علاجها وصلاحها، فأفضلهم من كان كالغذاء، لأن الحاجة إليه أعم فينبغي لمن أوجده الزمان مثله وقَلَّ أن يكون له مثل؛ لأنه أعز من الكبريت الأحمر وأغلى من نفيس الجوهر فالواجد لهذا ينبغي له أن يعض عليه بنواجذه، ويكون به أشد شحاً من ذخائر أمواله، لأن نفع الإخوان أعم نفع المال. / وينشد [٤١٤/أ] للفرزدق:

يمضي أخوك فلا تلقى له خلفا والمال بعد ذهاب المال يكتسب

ثم لا ينبغي أن يزهد فيه لخلق أو خلقين يكرههما منه إذا رضى سائر أخلاقه، فإن الكمال معوز. وقال الكندي: كيف تريد من صديق خلقاً واحد وهو ذو طباع أربع، مع أن نفس الإنسان لا تجيب إلى طاعته أحياناً فكيف بنفس غيره، وحسبك. أن يكون لك من أخيك أكثر. وقد قال أبو الدرداء: معاتبة الأخ خير من فقده. وينشد لأبي تمام الطائي:

ما غبن المغبون مثل عقله من لك بأخيك كله

وقد قال بعض الحكماء: طلب الإنصاف من قلة الإنصاف. قال الشاعر:

ومن الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وروي عن جعفر بن محمد أنه قال لابنه: من غضب من إخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوءاً فاتخذه لنفسك خِلاً.

وعن الحسن بن وهب أنه قال: من حق المودة أخذ عفو الإخوان في الإغضاء عن تقصير إن كان.

وعن علي من قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾(1). قال: الرضا بغير عتاب.
وهكذا أن لا يسيء الظن به ما لم يتيقن تغيره. ينشد لابن الرومي:

هم الناس والدنيا ولا بد من قذى ... يلم بعين أو يكدر مشربا
ومن قلة الإنصاف أنك تبتغي ... المهذب في الدنيا ولست المهذبا

وأما الملوك من الإخوان فهو سريع التغير وشيك التنكير فوداده خطر، وإخاءه غرر.
وهم نوعان:

[٤١٥/ب] منهم من يكون ملله استراحة /.ثم يعود إلى المعهود من إخائه فهذا أسلم المللين وأقرب الرجلين يسامح في وقت استراحته ليرجع إلى الحسنى من مودته وإن تقدم المثل بما نظمه الشاعر حين يقول:

وقالوا: يعود الماء من النهر بعد ما ... عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت: إلى أن يرجع الماء عائداً ... وتشعب شطاه تموت ضفادعه

ولكن من هذا ملله لا ينبغي أن يطرح حقه بالتوهم وتسقط حرمته بالظنون.

ومنهم من يكون ملله تركاً وأطرحاً ولا يرجع إخاء ولا ود ولا يتذكر حفاظاً ولا عهدا وهذا أذم الرجلين حالاً، لأن مودته من وساس الخطرات وعوارض الشهوات فينبغي أن يقلع عنه قبل الخلطة بحسن المتارك ومثل هذا كما قال هرمة.

فإنك وأطراحك وصل سلمى ... لأخرى في مودتها نكوب
كثاقبة لحمى مستعار ... بإذنيها فشانتها الثقوب
فأدت حلى جارتها إليها ... وقد بقيت بإذنيها ندوب

فصل: في حق الأخوة والصحبة

اعلم أن الأخوة نوعان:

---

(1) سورة الحجر، الآية: ٨٥.

أحدهما: أخوة الدين.

والثاني: أخوة الدنيا.

فأخوة الدين أثبت في الدنيا والآخرة وأحمد عاقبة وأكثر منفعة وأرجى يوم القيامة شافعة ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أخ يذكرك أمر آخرتك خير لك من أخ يعطيك كل يوم دينار».

وعن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: دعوة الأخ لأخ في الله/ تستجاب. وروي أنه قيل [٤١٦/أ] يا رسول الله أي الأصحاب خير؟ قال: «الذي إذا ذكرت أعانك وإذا نسيت ذكرك»[2].

وقد تقدم من حقوق الأخوة في الله ما يكفي، وقد قال أبو بلال مرداس رحمه الله:

من كان من أهل هذا الدين كان له ... ودي وشاركته في تالد المال
الله يعلم أني لأحبهم ... إلا لوجهك دون العم والخال

وأما أخوة الدنيا فإنما يحتاج إليها الإنسان للاستعانة بها في المهمات وجر المنافع ودفع النوائب والملمات ولكن ينبغي للإنسان أن يختار لنفسه من صفته كما قال الشاعر:

اصحب من الإخوان من وده ... أصفى من الياقوت والجوهر
ومن إذا سرك أودعته ... لم يذكر السر إلى المحشر
ومن إذا أذنبت ذنباً أتى ... معتذراً عنك ولم يهجر
ومن إذا ما غبت من عينه ... أقلقه الشوق ولم يصبر

وقد قال بعض الحكماء: أخلص الناس مودة من لم تكن مودته عن رغبة ولا رهبة وهذا قليل من الوجود، لأن الكمال معدوم غير موجود، ثم إذا صفت عند الإنسان أخلاق من اختبره وأتخذه أخاً يرجو أنفعه وخيره لزمته حقوقه ووجبت عليه حرمته.

وقد قال بعض السلف: العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرق.

وقال بعض الحكماء: من جادلك بمودة فقد جعلك عديل نفسه فأول حقوقه اعتقاد مودته، ثم إيناسه بالانبساط إليه في غير محرم، ثم نصحه في السر والعلانية.

---

(١) سورة الزخرف الآية: ٦٩.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو داود وهو غريب بهذا اللفظ والمعروف أن ذلك في الأمير، وابن الأثير في الكامل ولأبي عبد الرحمٰن السلمي في آداب الصحبة من حديث علي «من سعادة المرء أن إخوانه صالحين».

[٤١٧/ب] وقد قال /عليه السلام: «ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعة في نهاره إلاَّ يسأل عن صحبته يوم القيامة هل أدى فيها حق الله أو ضيعه».

وقال أيضاً: «ما اصطحب اثنان إلاَّ كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه»[١].

وعن الزيدي أنه قال: أتيت الخليل بن أحمد فوجدته قاعد على طنفسة فوسع لي فكرهت التضييق عليه وقال إنه لا يضيق سم الخياط على متحابين ولا تسع الدنيا على متباغضين.

قد قال ﷺ: «لا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما لا يرى لنفسه».

ومنها تخفيف الأثقال عنه ثم معاونته فما ينوبه من حادثة أو يناله نكبة فإن مراقبته في الظاهر دون السر نقاق وتركه في الشدة لوم وذلك من طباع إخوان العلانية أعدأ السريرة.

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «خير أصحابكم المعين لك على دهرك وشرهم من سعى لك بسوء في يومك».

وعن علي أنه قال: خير إخوانك من واساك وخير منهم من كفاك. وينشد:

وكل أخ عند الهوينا ملاطف ولكنها الإخوان عند الشدائد

وقيل لبعض السلف: ما الذي يجب على الإخوان إذا اجتمعوا؟ قال التواصي بالحق والتواصي بالصبر. قال الله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوا بِٱلصَّبرِ﴾[٢].

ومن حق الصاحب على الصاحب:ـ أن يحفظه من جميع ما يسوءه أو أراد ظلمه إذا قدر على ذلك ويواسيه بنفسه وماله. ويروى أن رجلاً جاء إلى أبي هريرة وقال: إني أريد أن أواخيك. فقال: أتدري ما حق الإخاء؟ قال: لا. قال: لا تكن أحق بدينارك ودرهمك وثوبك [٤١٨/ب] /مني. قال: إن لم أبلغ هذه المنزلة؟ قال: فاذهب إذاً.

وكان يقول: لأن أعطي أخاً في الله درهماً أحب إليَّ من أن أتصدق بعشرين ولأن أعطي أخاً في الله عشرين أحب إلي من أن أتصدق بمائة، وهدية أهديها أخي في الله أحب إلي من أن أعتق رقبة وينشد لصالح بن عبد القدوس.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الحاكم وابن حبان من حديث أنس وقال صحيح الإسناد.
(٢) سورة العصر الآية: ٣.

شر الإخاء من كانت مودته مع الزمان إذا ما خاف أو رغب
إذا وثرت أمرءاً فاحذر عداوته من يزرع الشوق لا يحصد به عنبا
إن العدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوماً فرصة وثبا

وينبغي أن يتوقى الإفراط في محبته فإن الإفراط داع إلى التقصير لأن تكون الحال بينهم باقية أولى من أن تكون متناهية.

وقد روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»[1].

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفاً. وينشد لأبي الأسود الدؤلي:

وكن معدنا للخير واصفح عن الأذى فإنك راءٍ ما عملت وسامع
وأحبب إذا أحببت حباً مقارباً فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت غير مبائن فإنك لا تدري متى أنت راجع

وإنما يلزم من حق الإخاء بذل المجهود في النصح والتناهي في رعاية ما بينهما من الحق وتستوي حالتها في المغيب والمشهد.

وهكذا يقصد التوسط في زيارته فإن تقليل/ الزيارة داعي إلى الهجران وكثرتها سبب [٤١٩/أ] الملل.

وقد قال عليه السلام: «يا أبا هريرة زر غبّاً تزدد حبّاً». وقال للبيد:

توقف عن زيارته كل يوم إذا أكثرت ملك من تزور

وقال آخر:

إذا شئت أن تغلى فزر متواتراً وإذا شئت أن تزداد حباً فزر غباً

وبحسب ذلك فليكن عتابه لأخيه فإن كثرة العتاب سبب القطيعة، وإطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق وقد قال بعض الحكماء: لا تكثرن معاتبة إخوانك فيهون عليهم سخطك.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال غريب ـ قلت ـ أي الحافظ العراقي ـ رجاله ثقات رجال مسلم ولكن الراوي تردد في رفعه.

ومن حق الإخوان أيضاً أن يغفر هفواتهم ويستر زلاتهم؛ لأن من رام بريئاً من الهفوات سليماً من الزلات رام أمراً معوزاً وطلب وصفاً معجزاً.

وقد قالت الحكماء: أي عالم لا يهفو، وصارم لا ينبو، وجواد لا يكبو. وقال بعض العلماء: لا تصحب من يحب أن لا يراك إلا معصوماً.

وقالوا: من حاول صديقاً يأمن من زلته كان كضال الطريق الذي لا يزداد لنفسه أتعاباً إلاَّ إزداد عن غايته بعداً. وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أحب إليك؟ قال: من غفر زلتي، وقطع عللي، ويلغني أملي. وينشد لبشار بن برد:

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم يبق الذي لا تعاتبه
وإن أنت لم تشرب مراراً على القذا ظمأت وأي الناس يصفو مشاربه
فعش واحد وصل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه

[٤٢٠/ب] وحكى الأصمعي عن بعض الأعراب أنه قال: تناس/ مساوىء الإخوان يدم لك وهم. وأوصى بعض الأدباء أخاً له فقال: كن للود حافظاً وإن لم تجد محافظاً وللخل واصلاً وإن لم تجد مواصلاً.

وعن أكثم بن ضيفي أنه قال: من تشدد نفر، ومن تراخى تألف، والشرف في التغافل.

وعن شبيب بن شيبة أنه قال: الأديب العاقل هو الفطن المتغافل.

وقال بعض الحكماء: وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجاوز إلاَّ بالتغافل. وينشد:

ليس الغنى يسيد في قومه ولكن سيده قومه المتعالى

ومن حقوق الأخ أيضاً عليه؛ أن ينصحه في أمر دينه ودنياه، ويعلمه ما جهل من العلم الواجب عليه ويواسيه بنفسه وماله ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، وإن رأى له زلة فليزجره عنها وليستتبه منها وليسترها عليه. وليحب له ما يحب لنفسه ومهما أساءه إليه أخوه فأعتذر إليه فليقبل عذره.

وقد قال عليه السلام: «من إعتذر إليه أخوه فلم يقبل كان عليه مثل وزر صاحب مكس»[1]. وينشد لأبي العتاهية:

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه ابن ماجة وأبو داود في المراسيل من حديث جوادن واختلف في صحبته وجهله أبو حاتم وباقي رجاله ثقات ورواه الطبراني في الأوسط من حديث =

إن فـي صحـة الإخـاء مـن النـاس وفـي خلـة الـوفـاء لعلـة
فـالبس النـاس مـا استطعـت علـى النقـص وإلاَّ لـم تستقـم لـك خلـة
عـش وحيـداً إن كنـت لا تقبـل العـذر وإن كنـت لا تجـاوز زلـة
مـن أب وحـد وأم خلقنـا غيـر أنـا فـي المـال أولاد علـة

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: خيركم من وصل وأعان ونفع.

وعن الحسن أنه قال: كان أحدهم يشق لأخيه إزاره باثنين.

وسُئل أبي عمر ما حق المسلم على المسلم فقال: أن لا تشبع ويجوع وتلبس ولا يلبس. وينبغي أن لا يبحث عن حفى أحوال الناس / فضلاً عن أخيه وقد قال: [٤٢١/أ]

مـا كـدت أفحـص عـن أخـى ثقـة إلاَّ زممـت عـواقـب الفحـص

فصل

وينبعي للعاقل أن يتألف العداء بإظهار التودد والمدارة وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حسنا﴾[١].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس وأمرت بمدارة الناس كما أمرت بالفرائض».

وقد قال بعض البلغاء: من استصلح عدوه زاد في عدده ومن استفسد صديقه نقص من عدده. والتودد والمدارة من سمات الفضل وشروط السؤدد فإنه ليس أحد يعدم عدواً ولا يفقد حاسداً، وبحسب وفور النعمة تكثر الأعداء والحسدة، فمن أغفل تألف الأعداء مع وفور النعمة وظهور الحسد توالى عليه من مكر حليمهم وبارده سفيههم ما تصير به النعمة غراماً عليه.

وقال بعض الأدباء: العجب ممن يطرح عاقلاً كافياً لما يظهر من عداوته ويصطنع عاجزاً جاهلاً لما يظهره من محبته وهو يقدر على استصلاح من يعاديه بحسن صنائعه وأياديه. وينشد للتنوخي:

الـق العـدو بـوجـه لا قطـوب بـه يكـاد يقطـر مـن مـاء البشـاشـات
فـأحـزم النـاس مـن يلقـى أعـاديـه في جسم حاقد وثوبٍ من مودات

= جابر بسند ضعيف.

(١) سورة البقرة: الآية ٨٣.

الرفق يمن وخير القول أصدقه   وكثرة المزح مفتاح العداوات

وللشافعي فيما قيل:

لما عفوت ولم أقدر على أحد   أرحت نفسي من هم العداوات

[٤٢٢/ب] /إني أحيي عدوي عند رؤيته   لادفع الشر عني بالتحيات

وأظهر الشر للإنسان أبغضه   كأنما قد حشا قلبي مودات

الناس داء وداء الناس قربهم   وفي اعتزالهم قطع المودات

وقال بعض الحكماء: من علامات الإقبال إصطناع الرجل.

وروي أن حكيماً سمع رجلاً يذم الزمان وأهله وأنه فسد الزمان ولم يبق أحد يصحب فقال له: يا هذا أنت طلبت صاحباً تؤذيه فلا ينتصر وتنال منه ولا ينتصف وتأكل رحله ولا يزوؤك بشيء وتجفو عليه ويحلم فلم تنصف في الطلب، فمن ذلك لم تجد حاجتك، ولكن أردت صاحباً يؤذيك فلا تنتصر، ويحفوك ولا تنتقم، ويأكل رحلك فلا تنال منه شيئاً وجدت أصحاباً وإخواناً وخلانا وأنا أول من يصحبك.

وهذا كما قال بعض المشايخ: إن أردت أن تصطحب مع أهل زمانك فاجعل قبيحهم إحساناً واعوجاجهم استقامة وإن ظلموك فتب لهم كما قيل:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكموا   وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

وهذا من أخلاق الصديقين وأنبياء الله المرسلين والذي يعامل هذه المعاملة هو الذي جعله المأمون من داء الإخوان لا من أدوائهم، ومن سمهم لا من غذائهم.

وقد قال بعض الحكماء: أشر ما في الكريم أن يمنعك خيره وخير ما في اللئيم أن يكف عنك شره، غير أن فساد الزمان وتغير أهله يوجب شكر من كان شره مقطوعاً وإن كان خيره ممنوعاً كما قال المتنبي:

إنا لفي زمن ترك القبيح به   من أكثر الناس إحساناً وإجمال

وقد روي عن المغيرة بن شعبة أنه قال: التارك للإخوان متروك. ومن كان كذلك فهو كالصورة الممثلة يروعك حسنها ويخونك /نفعها. [٤٢٣/ب]

وفي مثله قال بعض الحكماء: إذا كان لك أخ لا تنتفع به فصور مثاله في الحائط وأظن أنه قال: فهو زين في العين وأخف في الحائط. وينشد لابن الرومي:

غذرنا النخل في إبداء شوكه ترد به الأنامل عن جنا
فما للعوسج المذموم أبدى لنا شوكاً بلا ثمر تراها

وأما الفرق بين المداراة والمداهنة.

فالمداراة: مأمور بها لدفع شر الأشرار، وتألفهم لجر المنافع وكفاية العار وطلب الثأر.

كما قيل عن أبي عبيدة مسلماً رحمه الله: لا تكرهوا غوغاكم فإنها مسدة لمياهكم ومطفية لنيراكم.

وعن عمرو بن العاص أنه قال: أكرموا سفهاءكم فانهم يكفونكم العار والنار.

وقيل لا يستقيم هذا الدين إلاّ بالفقهاء والسفهاء والسيوف. فالمداراة معناها مخالفة الناس على أخلاقهم على وجه يسلم لك دينك.

وقد روي عن بعض الأنبياء عليهم السلام أنه قال: يا رب دلني على عمل يحبني به الناس وأسلم فيما بيني وبينك. قال: خالق الناس على أخلاقهم فأهل الدنيا بأخلاق الدنيا وأهل الآخرة بأخلاق الآخرة. فإذا سقمت المداراة صارت مداهنة والمداهنة معناها مداراة الناس على وجه يذهب فيه دينك كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدهنُ فَيُدهِنُونَ﴾[1].

ويقال سبب نزول هذه الآية أن قريشاً قالوا: يا محمد أعبد آلهتنا سنة نؤمن بك فأبى، فقالوا: فشهراً فأبى، فقالوا: فيوما، فأبى فقالوا: فساعة فأبى، قالوا فاستلمها بيدك نؤمن بك فتوقف عليه السلام وطمع إن فعل أن يؤمنوا فنزلت الآية وقيل له: ﴿لَوْلا أن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْت تَرْكَنَ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾[2]. الخ الآية / وهذا اختلط على أكثر الناس فداهنوا وهم يحسبون أنهم[٤٢٤/أ] يدارون. وقال الإمام الخضري:

لم يرض أولنا قدما مداهنة وفي دينهم وكذا لم يرضى آخرنا

فليس الإنسان وإن كان مأمور بتآلف الأعداء ومداراتهم فلا ينبغي أن يكون إليهم راكناً، ولا بهم واثقاً، بل يكون منهم على حذر، ومن مكرهم على تحرز، فإن العداوة إذا إستحكمت في الطباع صارت طبعاً لا تستحيل ولا تزول، فإنما يستدفع بالتآلف إظهارها، كالنار يستدفع بالماء إحراقها ويستفاد به إنضاجها وإن كانت محرقة بطبع لا يزول ولا يتغير وقد قال بعض الشعراء:

---

(١) سورة القلم: الآية ٩.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٤.

وإذا عجزت عن العدو فداره ... وامزح له إن المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها ... تعطى النضاج وطبعها الإحراق

غيره:

إذا بسط العدو إليك كفا ... ولم تستطع لها دفعاً ومنعاً
فقبلها وعد لها الليالي ... فإن أمكنتها يوماً مُقطعاً

اعلم أن الأخ الصديق الناصح الشفيق هو الذي يعينك على التقوى ويميط عنك الأذى، ويواسيك في الشدة والرخاء، ويهدي لك عيوبك ويقومك عند اعوجاجك ويحفظك حياً وميتاً، وينتصر لك في مغيبك شفقة لك وحمية كما وصفه الشافعي فيما قيل:

أحب من الإخوان كل مواتي ... وكل غضيض الطرف عن عثرات
يوفقني في كل أمر أريده ... ويحفظني حيا وبعد ممات
فمن لي بهذا البيت أني أصبته ... أقاسمه ما لي من الحسنات
تصفحت إخواني فكان أقلهم ... على كثرة الإخوان أهل ثقات

[٤٢٥/ب] / وحقوق الإخوان أكثر من يأتي عليها كتابي هذا وفيما ذكرنا كفاية والله المستعان.

الباب السابع
في حق المروءة والبر وإسداء المعروف والخير

وهو من أسباب الألفة واجتماع القلوب على المحبة ولذلك ندب الله عز وجل إليه وقرنه بالتقوى، وقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾[(١)].

لأن في التقوى رضى الله، وفي البر والمواساة رضى الناس فمن جمع بين رضى الله ورضى الناس فقد كملت سعادته.

ونعني بالمروءة والبر: صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة، لأن بذلك يكسب العبد الإخوان والأصدقاء ويلتحق بزمرة الأسخياء الذين هم سادات الناس في الدنيا فلا يوصف بالجود إلاَّ من يصنع المعروف ويسلك سبيل المروءة.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢.

وقد روي عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «جبلت هذه القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها».

وحكي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أن ذكر عبادي إحساني إليهم فإن عبادي لا يحبون إلا من أحسن إليهم.

وفي الحديث: «الناس كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله». ونظمه بعضهم فقال:

الناس كلهم عيال الله تحت ظلاله فأحبهم طراً إليه أنفعهم لعياله

وهذا الباب ينحصر في فصلين:

أحدهما: في المروءة والبر.

والثاني: في إسداء المعروف وحق الضيف وابن السبيل وإغاثة / الملهوف. [٤٢٦/أ]

الفصل الأول: في واجب المروءة والبر

اعلم أن الواجب بالمروءة هو المسامحة وترك المضايقة في المحقرات والاستقصاء في المعاملات. وقد سئل رسول الله ﷺ فقيل له: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «السماحة والصبر»(١).

وعنه ﷺ أنه قال: «المؤمن سمح إذا باع سمح إذا اشترى».

وعنه ﷺ أنه قال: «كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان»(٢).

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء بلفظ «سئل عن الإيمان». وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه في الجمهور ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عنبسة بلفظ «ما الإيمان قال الصبر والسماحة» وفيه شهر بن حوسب ورواه البيهقي في الزهد بلفظ «أي الأعمال أفضل قال الصبر والسماحة وحسن الخلق» وإسناده صحيح.

(٢) هذا الحديث نص حديثين وردا في المغني وقال فيهم الحافظ العراقي في الشطر الأول: رواه ابن عدي والدارقطني ـ في المستجاد ـ والخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالي وثقة ابن معين وضعه الجمهور والجملة الأولى منه عند البخاري من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة. أما الشطر الثاني. قال فيه: رواه الدارقطني في المستجاد ـ من رواية الحجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقا ـ وقد جاء متفرقاً فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره والجملة: الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضاً وفيها زياد النميري ضعيف.

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين»[١].

وروي أن معاوية سأل الحسن بن علي عن المروءة والنجدة والكرم؟ فقال: أما المروءة: فحفظ الرجل دينه، وحرزه نفسه وحسن قيامه بصنيعه، وحسن المنازعة والإقدام في الكراهية. وأما النجدة: فالذب عن الجار والصبر في المواطن، وأما الكرم: فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والإنعام في الجدب والرأفة بالسائل مع بذل النائل. قال بعض الشعراء:

وفتـى خـلا مـن مـالـه ... مـن المـروءة غيـر خـال
أعطـاك قبـل سـؤالـه ... وكفـاك مكـروه السـؤال

[٤٢٧/ب] / ويقال المروءة ست خصال: ثلاثة في السفر وهي، بذل الزاد، وحسن الخلق، ومداعبة الرفيق.

وثلاثة في الحضر: وهي؛ تلاوة القرآن، ولزوم المساجد، وعفاف الفرج.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: رب فاجر في دينه أخرق في معيشته يدخل الجنة بسماحته.

وقال بعض علماء السلف: البخل هو إمساك المال عن العرض الذي هو أهم من حفظ المال، وصيانة الدين أهم من حفظ المال، فمانع الزكاة والنفقة بخيل قال: وصيانة المروءة أهم من حفظ المال قال: المضايق في الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه، هاتك ستر المروءة هو أيضاً بخيل والله أعلم.

وأما البر وإسداء المعروف: فيبعث عليهما سماحة النفس وسخاءها للمألوف وهي في ذلك قسمان:

أحدهما: صلة بالحقوق الواجبة في أموال المثرين من الزكاة، والكفارات، وأصناف النفقات، وغير ذلك من حقوق المساكين وابن السبيل وغيرهم، من تنجية المضطرين بالجوع والعطش والدفع عن المظلومين.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الدارقطني في المستجاد وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس وفيه محمد بن عبد العزيز المبارك الدينوري أورد ابن عدي له مناكير. وفي الميزان أنه ضعيف منكر الحديث، ورواه الخرائطي في مكارم من حديث أبي سعيد نحوه وفيه صالح المري متكلم فيه.

والقسم الثاني: إسداء المعروف وهو أيضاً يتنوع نوعين: قولاً، وعملاً.

فأما القول: فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول، وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقه الطبع، وينبغي أن يكون محمود فإنه إن أسرف فيه كان مقلداً مذموماً، وإن اقتصد فيه كان معروفاً وبراً محموداً.

وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ﴾[1]. الآية. إنها الكلام الطيب.

وعن سعيد بن جبير: أنها الصلوات الخمس. ويقال: أدب الله رسوله بخمس؛ لين الجانب مع الأجانب، وحسن / الخلق مع الخلق، والمشاورة عند المحاورة، والاستغفار [٤٢٨/أ] لذوي الاستكثار والعفو في العمد والسهو وجمعهن في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنتَ لَهُم وَلَو كُنتَ فَظّاً غلِيظ ٱلقَلْبِ لانفَضُّوا من حَولِكَ فَٱعفُ عَنهُمُ وأَستَغفِر لَهُم وَشَاوِرهُم في الأَمْرِ﴾[2].

وقال بعض الشعراء:

بنـــى إن الخيـــر شـــيء هيـــن وجـــه طليـــق وكـــلام ليـــن

وقيل للعتابي إنك تلقى العامة ببشر وتقريب فقال: دفع ضغينة بأيسر مؤنة وإكتساب إخوان بأهون مبذول.

وقيل في منثور الحكم: من قل حياؤه قل أحباؤه. وأنشد لعضهم:

المـــرء لا يعـــرف مقـــداره مـــا لـــم يبـــن للنـــاس أفعـــالـــه
وكـــل مـــن يمنعنـــي بشـــرة فقـــل مـــا ينعفنـــي مـــالـــه

وأما العمل: فهو بذل الجاه والإسعاد بالنفس والمعونة في النائبات وهذا يبعث عليه حب الخير للناس، وإيثار الصلاح لهم، وليس في هذه الأمور سرف لأنها وإن كثرت فهي أفعال خير تعود بنفعين:

نفع على فاعلها: من إكتساب الأجر وجميل الذكر، ونفع على المعان بها في التخفيف عنه والمساعدة له.

---

(١) سورة الكهف الآية: ٤٦.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كل معروف صدقة».

وعنه أيضاً أنه قال: «المعروف كاسمه وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله».

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: كل معروف عملته في غني أو فقير فهو صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة الملهوف.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: استشكروا من شيء لا تأكله النار قيل: وما هو؟ قال المعروف.

[٤٢٩/ب] وعنه عليه السلام / أنه قال: «أصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من هو ليس بأهله فإن أصبت أهله وإلاّ فأنت أهله»[١].

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الله عز وجل جعل للمعروف وجوهاً من خلقه حبب إليهم المعروف وفعاله، ووجه طلاب المعروف إليهم، ويسر عليهم إعطائه كما يسير الغيث إلى البلدة الجدبة فيحيها ويحي بها أهلها»[٢] والله أعلم.

الباب الثامن
في الإفضال الواجب في الأموال

قال الله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ وَٱلْيَوم الآخِرِ﴾[٣]. إلى قوله: ﴿وَآتَى ٱلمالَ عَلَىٰ حُبِّهِ، ذَوِي القُرْبَىٰ واليَتَامىٰ والمسَاكينَ وَٱبنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلينَ وَفي الرِّقَابِ﴾ الآية[٤].

وأما ذوي القربى: فقد تقدم الكلام فيهم.

وأما اليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلون، فسنشير إلى لمع من حقوقهم إن شاء الله.

---

(١) ذكره بمعناه الحافظ العراقي في المغني وقال: رواه الدارقطني في المستجاد من جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلاً.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعنى: رواه الدارقطني في ـ المستجاد ـ من رواية أبي هرون العبد عنه وأبو هرون ضعيف ورواه الحاكم من حديث علي وصححه.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٧٧.

(٤) سورة البقرة الآية: ١٧٧.

وأما اليتامى: فهم ضعفاء الله في أرضه وقد أمر الله العباد بالإحسان إليهم وأوجب لهم حقوقاً وأنفذ الوعيد الشديد في أكله أموالهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾[١]. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ربى يتيماً من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة»[٢].

وعنه أيضاً أنه قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بالسبابة والوسطى»[٣].

وقال: «من وضع يده على رأس يتيم ترحماً كانت له بكل شعرة تمرّ عليها يده حسنة»[٤].

وقال عليه السلام: «خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم / يساء إليه»[٥]. [٤٣٠/أ]

فصـــل

وحقوق اليتامى واجبة على كافة المسلمين في جميع مصالحهم إن لم يكن لهم الأولياء والأوصياء، فعلى حاكم المسلمين القيام بهم، وإن لم يكن فجماعة المسلمين، وليستخلفوا لهم أميناً ثقة يقوم بصالحهم، كما يقوم به لنفسه، وإن قام بهم أحد من غير أن يكون لهم خليفة فقد أجزأ عن الناس. سجد أيضاً، وكذلك الغياب وجب أيضاً على الناس حفظ أموالهم بالخلائف يعملون فيها كل ما يصلح لهم حتى يقدموا عليها أو يموتوا فتصلح لورثتهم.

وقد رخص الله تعالى للأوصياء في مخالفة اليتامى فقال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞ﴾[٦] الآية. وإن لم يكن لليتيم مال ولا يقدر على الاكتساب فعلى المسلمين القيام به من أموالهم، ولا يترك للضيعة، وكذا الفقير والمسكين والمنبوذ، وإن تركوهم حتى

(١) سورة النساء الآية: ١٠.
(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أحمد والطبراني من حديث مالك بن عمر وفيه علي بن زيد بن جدعان متكلم فيه.
(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه البخاري من حديث سهل بن سعد وسلم من حديث أبي هريرة ـ ولم يقولا بالسبابة والوسطى ـ وقالا باصبعيه.
(٤) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أحمد والطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف دون قوله «ترحماً» ولابن حبان في الضعفاء من حديث ابن أبي أوفى «من مسح يده على رأس يتم رحمة له».
(٥) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه ابن ماجة من حديث أبي هريرة وفيه ضعف.
(٦) سورة البقرة الآية: ٢٢٠.

ماتوا جوعاً وهم يقدرون على تنجيتهم فقد هلكوا والله أعلم وأما الساكين فقد أوجب الله لهم الحقوق أيضاً وقال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، وَالْمِسْكِينَ. .﴾[١]. وذم من لم يحض على طعام المسكين ولا يكرم اليتيم فقال: ﴿بَل لا تُكرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسكِينِ﴾[٢]. ثم أخبر عن أهل النار حين سئلوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. . .﴾[٣] الآية.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهمّ أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً احشرني في زمرة المساكين»[٤].

[٤٣١/ب] وكان سليمان عليه السلام،/ / مع ما آتاه الله من الملك إذا دخل المسجد فنظر إلى مسكين فجلس إليه فقال: مسكين جلس إلى مسكين.

وقيل: ما من كلمة كانت تقال لعيسى عليه السلام أحب إليه من أن يقال له: يا مسكين.

وعن كعب الأحبار أنه قال: ما في القرآن من يا أيها الذين آمنوا فهو في التوراة: يا أيها المسكين. وعن الفضيل أنه قال: بلغني أن نبياً من الأنبياء قال: يا رب كيف لي أن أعلم علامة رضاك عني؟ قال: علامة ذلك أن تنظر كيف رضي المساكين عنك. وينشد:

لا تعد عيناك مسكينا تلاقيه ... فإنما هي أقسام وأرزاق

وكم محب له يرجو شفاعته ... وللمساكين يوم الحشر أسواق

وجملة حقوق المساكين: أن لا يتكبر الإنسان عليهم من أجل فقرهم، وأن يعطيهم الحقوق التى أوجبها القرآن لهم من الزكاة والكفارات، وخمس الغنيمة، وواجب الصدقات وأن يعطف عليهم، وينظر إليهم بعين الرحمة، وأن لا يتركهم يموتوا جوعاً أو عطشاً وهو قادر على إنجائهم، من ذلك ويوفيهم جميع حقوق أهل القبلة، وإن كانوا أهل ولاية فلهم أهلها من المودة والاستغفار والله أعلم.

وأما ابن السبيل: فله أيضاً حق على من إجتاز إليه وهذا إذا أخرج عن الأميال، وأنقطع عن أهله وماله، ولم يجد من يسلف له ولا يبيع له. وأما من يتردد في البلدان متفرجاً من كرب

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٢٦.
(٢) سورة الفجر الآيتان ١٧، ١٨.
(٣) سورة المدثر الآية: ٤٣.
(٤) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الترمذي من حديث أنس وابن ماجة والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد.

البطالة وليست له حاجة هو قاصد إليها فلا حق له في الضيافة.

وأما حق الضيف: فهو واجب على من نزل به لقول النبي عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»(١).

جائزته يوماً / وليلة. والضيافة ثلاثة أيام وما وراء ذلك صدقة ولا يحل له أن يثوي عنده [٤٣٢/أ] حتى يخرجه. وقال: «لا خير فيمن لا يضيف»(٢).

ويقال: الأضياف ثلاثة، ضيف يسير في طلب العلم، وضيف يسير زيارة من ينبغي له أن يزوره من أخ في الله أو رحم، وضيف صاحب حاجة أدركه الليل قبل الوصول إليها، فهؤلاء واشباههم أضياف تجب على الناس ضيافتهم كافة إذا لم يكن طعام والله أعلم.

وقد ذكرت جملة من حقوق الضيف وغيره في كتابنا المسمى بقواعد الإسلام فلا نطيل الكلام بإعادتها هنا والله أعلم.

فصـــل

وأما السائلون فقد أوجب الله تعالى حقهم فقال: ﴿وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾. إلى قوله: ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾(٣).

وذلك إذا دعتهم الضرورة إلى السؤال وإلا فعز المؤمن تجعله في فاقته واستغناء بربه عن خلقه، وقد أثنى الله على قوم فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾(٤). إلى قوله: ﴿إِلْحَافاً﴾.

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «عز المؤمن استغناءه عن الناس».

وقال: «إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال»(٥). وقال أيضاً: «سلوا الله من فضله وأفضل العبادة انتظار الفرج فإن الله يحب أن يسئل من فضله».

ويقال: كثرة طلب الحوائج إلى الناس تميت القلب وتورث الذل وتذهب بنور الوجه.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: متفق عليه من حديث أبي سريح.
(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه أحمد من حديث عقبة ابن عامر وفيه ابن لهيعة.
(٣) سورة البقرة الآية: ١٧٧.
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٧٣.
(٥) قال الحافظ العراق في المغني: رواه ابن ماجة من حديث عمران بن حصين بسند ضعيف.

وعن عبد اللّٰه بن سلام أنه قال: قلت لكعب الأحبار ما الذي يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوه وعقلوه؟ قال: الطمع وشره النفس وطلب الحوائج. فقيل للفضيل: فسر لي قولة /كعب، قال: يطمع الرجل في الشيء فيطلبه فيذهب عليه دينه، والشره تشره النفس [٤٣٣/ب] في هذا وفي هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء، فتكون لك إلى هذا حاجة، وإلى هذا حاجة، فإذا قضاها لك خزم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له، فمن حبك للدنيا سلمت عليه إذا مررت به وعدته إذا مرض، لم تسلم عليه لله، ولم تعده لله فلو لم يكن لك إليه حاجة لكان خيراً لك ثم قال له: هذا خير لك من مائة حديث عن فلان وفلان.

وعن علي بن أبي طالب أو غيره أنه قال: استغن عمن شئت فأنت نظيره فاحتج إلى من شئت فأنت أسيره فأحسن إلى من شئت فأنت أميره. ويقال: اترك الطمع يتركك الفقر واحمل نفسك على مالك يحملك وانزع الطمع من قلبك يحل القيد من رجلك.

ويقال: من طمع في مال غيره نزعت البركة من ماله.

ويقال: من طمع في سؤال الناس عز عليهم.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى».

وعنه عليه السلام أنه قال: «لا تلحوا في المسألة فإنه لا يسألني إنسان فيخرج له في السؤال شيء وأنا كاره إلاَّ لم يبارك له فيه».

وعنه عليه السلام أنه قال: «لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيأتي به رأس جبل فيحتطب ثم يحمله فيبيعه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو لم يعطوا».

وروي عنه عليه السلام: أن رجلاً أتاه فقال له: إن بني فلان أغاروا عليَّ فذهبوا بإبلي وابني فقال عليه السلام: «إن آل محمد لكذا وكذا أهل بيت ما عندهم مد». /أو قال: «صاع [٤٣٤/ب] من طعام فاسأل الله». فرجع الرجل إلى امرأته، فقالت: ما قال لك؟ فأخبرها فقالت له: نِعْمَ ما ردك إليه، فما لبث أن رد الله عليه إبله وابنه فأتى النبي ﷺ فأخبره فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه فأمر الناس بمسألة الله والرغبة إليه وقرأ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾[1].

وعن أبي سعيد الخدري أنه قال: أصبحت يوماً وليس عندنا طعام وقد عصبت على

---

(١) سورة الطلاق الآيتان: ٢، ٣.

بطني حجراً من الجوع فقالت لي امرأتي: لو أتيت النبي ﷺ فتسأله فقد سأله فلان فأعطاه فأتيته كي ألتمس شيئاً فذهبت أطلب فأنتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب ويقول في خطبته: «من يتسعفف يعففه الله ومن يستغن يغنه الله ومن سألنا فوجدناه أعطيناه وواسيناه ومن استغنى عنا واستعفف فهو أحب إلينا ممن يسألنا». قال فرجعت وما سألته شيئاً فرزقنا الله حتى لا أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالاً منا.

فيما يروى عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بني إذا افتقرت فافزع إلى ربك وحده فادعه وتضرع إليه واسأله من فضله وخزائنه فإنه لا يملكها غيره فلا تسأل الناس فتهون عليهم ولا يسدوا إليك شيئاً. وينشد لمحمود الوراق:

شاد الملوك قصورهم وتحصنوا ... من كل طالب حاجة أو راغب
فإذا تلطف في الدخول إليهم ... عاف تلقوه بوعد كاذب
اطلب إلى ملك الملوك ولا تكن ... يا ذا الضراعة طالبا من طالب

وروي عن عطاء السلمي أنه قال: قال لي طاوس / اليماني يا عطاء لا تنزلن حاجتك بمن [٤٣٥/أ] غلق دونك بابه، وجعل عليه حجابه، ولكن أنزلها إلى من بابه مفتوح إلى يوم القيامة أمر عباده بالدعاء وضمن لهم الإجابة. وينشد:

لا تضرعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك وهن منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه ... فإنما الرزق بين الكاف والنون

ويقال: لو علم السائل ما عليه لجعل الحجر في فمه، حتى لا يسئل، وروي أن أعرابياً سأل النبي ﷺ فألح عليه يقول: يا رسول الله أطعمني فقام رسول الله ﷺ فدخل المنزل فأخذ بعضادتي الحجرة فأقبل على الناس بوجهه فقال: «والذي نفسي بيده لو تعلمون من المسألة ما أعلم ما سأل رجل رجلاً وهو يجد ليلة تبيته». ثم أمر له بطعام: ويقال المسألة على ثلاثة أوجه؛ مسألة محرمة، ومسألة مباحة، ومسألة مكروهة.

فأما المسألة المحرمة: فهي مسألة من أظهر على نفسه الفقر وليس بفقير، وأظهر على نفسه معنى معلوماً، وهو لم يرده مثل الحج والنكاح، أو انتسب إلى قوم وليس منهم، وما أشبه ذلك، لأن هذا من باب أكل أموال الناس بالخداع والاحتيال وقد قال عليه السلام: «المكر والخديعة في النار».

وأما المسألة المباحة: فهو مسألة من لا يجد عنا يغنيه وذلك غداءه وعشاءه وفي

الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جهنم» قالوا يا رسول الله وما يغنيه؟ قال: «ما يغديه ويعشيه».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من سأل ومعه أوقية فقد سأل الناس إلحافا» والأوقية: أربعون درهماً.

وعنه عليه السلام أنه قال: «لا تحل المسألة إلا لثلاث غرم مفضع أو فقر مدقع أو دم موجع».

وروى قبيصة بن مخارق أنه قال: تحملت بحمالة فأتيت النبي ﷺ أسأله فيها فقال: «نؤديها عنك إذا جاءت إبل الصدقة يا قبيصة إن المسألة حرمت علي إلا في ثلاث رجل تحمل بحمالة فالمسألة حلال حتى يؤديها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة حتى جاحت ماله يسئل حتى يصيب قوام العيش ثم يمسك ورجل أصابته حاجة أو فاقة حتى شهد له ثلاثة من أهل الحجا من قومه ويسألهم حتى يصيب قواماً من عيش ثم يمسك، وما سوى ذلك فهو سحت».

وأما المكروهة: فهي مسألة من له أوقية كما تقدم. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من سأل على ظهر غني جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحاً في وجهه». قيل وما حد الغنا؟ قال: «خمسون درهماً أو عدلها فضة». أو قال: «ذهباً» ويقال: «لن تزال المسألة بالعبد حتى يوم القيامة وليس في وجهه مدغة لحم».

فصـــل

والذي ينبغي للمسلم والأليق به التعفف عن السؤال وصيانة النفس والتجمل يحسن الحال ويكون كما قال الشاعر حيث يقول:

وقـد يكتسـي المـرء حـر الثيـاب ومـــن دونهـــا حـــالـــة مُضنئـــه
كمـــا يكتســـي وجهـــه حمـــرة وعلتهـــا ورم فـــي الـــرئـــة

[٤٣٧/أ] / ويقال من فتح على نفسه باب مسألة فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر ولا ينبغي أن يتدنس بمطالب الشوم ومطالع اللوم ويتضرع للأرذال ويتذلل للأنذال.

وقد يقال في التوراة من تضعضع لغني لينال ما في يده أحبط الله ثلثي دينه، وأما إذا كان السؤال لضرورة نازلة وفاقة حالة فلا حرج عليه في السؤال ولا لوم، وقد قال بعض الحكماء: الضرورة توقع الصورة وينشد للكميت:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب فلا أرى للمضطر إلا ركوبها

ويحكى عن بعض الماضيين أنه قال: خرجنا حجاجاً فلما ضربنا ببعض المناهل غشينا فقراء البادية من كل جانب وجعلت جارية منهم تتخطى الرقاب وتسأل بلسان أعذب من الماء وأرق من الهون قال: فقمت إليها فنظرت إلى وجه بملأ العيون حسناً فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم. فلما وقفت على رحلنا قلت لها: يا جارية أيحل لك أظهار هذا الوجه في مثل هذا الموقف؟ فلطمت وجهها لطماً رفيقاً وقالت:

قد صنته وحجبته حتى إذا لم يبق لي طمع ومات الهيثم

أبرزته من خدره مقهورة والله يشهد لي بذاك ويعلم

كشف الزمان قناعه في بلدة قل الصديق بها وعز الدرهم

ويعز ذاك عليّ إلا أنه زمن يجور كما تراه ويظلم

قال: فقلت لها: من أنت؟ قالت: بنت الهيثم الشيباني توفي وبقيت في حال الله به عليم. قاله: فأعطيتها بعض ما كان عندي من النفقة. ويقال: لو علم المسؤول ما عليه لأعطى حتى لا يمسك شيئاً.

وينبغي للسائل المضطر أن يتخير/ من المسؤولين من يرجو عنده نجح حاجته وإدراك[٤٣٨/ب] بغيته، وفي الحديث: «اطلبو الحوائج إلى حسان الوجوه».

وقيل للحسن وهو من نقلة هذ الحديث يعني صباح الوجوه فقال: إنما يعني البشر والتهلل في الوجوه عند قضاء الحوائج.

ويروى أن سائلاً سأل مالك بن دينار فقال: يا أبا يحيى تصدق بشيء عليّ فدخل مالك بيته فلم يجد إلا شيئاً من التمر فناوله إيّاه. فقال: يا أبا يحيى رضي الله عنك وأعتقك من النار. فقال: إليّ تقول؟ فقال: أنتم. فدخل بيته فلم يجد إلا قطيفة كان يلبسها في الشتاء ويفترشها في الصيف فناوله إياها. فقال له: يا أبا يحيى رضي عنك وأعتقك من النار. فقال: إلي تقول هذا؟ فقال: نعم. فنزع عمامته من على رأسه فناوله إياها فقال السائل: يا أبا يحيى رضي الله عنك وأعتقك من النار. فقال: يا هذا لم يبق معي شيء فخذ بيدي وأدخلني السوق فبعني بأي ثمن شئت. فانصرف السائل عنه. وعن عيسى عليه السلام أنه قال: من رد سائلاً لم تغش الملائكة بيته سبعة أيام.

وروي أن رسول الله ﷺ يناول المسكين بيده. ويقال: «إن لله وجوهاً في خلقه

أختصمهم بالنعم لمنافع العباد فإذا منعوها حولها إلى غيرهم»[١]. فينبغي لمن وقف عليه السائل أن يعطيه من خير ما عنده.

وذكر أن رجلاً بالبصرة رأسه في حجر امرأته تطعمه التمر والزبد إذ وقف عليه سائل بالباب: فقال: السلام عليكم يا أهل الدار أطعموني مما تأكلون. قال: فقامت المرأة لتعطيه التمر والزبد فانتهرها. فقال لها: أعطه كسرة يابسة ففعلت فلما أن / مضى السائل شَرِق زوجها [١/٤٣٩] بالتمر والزبد فمات فأقامت المرأة ما شاء الله فتزوجت فبينما هي مع زوجها تطعمه التمر الزبد كفعلها مع زوجها الأول إذ وقف سائل بالباب. فقال: السلام عليكم يا أهل الدار أطعموني مما تأكلون. فقامت المرأة لتعطيه كسرة. فقال: أعطه تمراً وزبداً. فضحكت المرأة. فقال لها: ما يضحكك؟ فقالت له: ترى هذا المال الذي تنعمت فيه أنت؟ قال: نعم. قالت: كان صاحبه زوجي كما كنت وأخبرته الخبر. فقال: ذلك زوجك؟ قالت: نعم. قال: أنا والله ذلك السائل الحمد لله الذي أورثني ماله وأسكنني داره وأوطأني زوجته، ثم قام مبادراً إلى السائل فقال: أدخل يا هذا فوالله لأشاطرنك ما أنعم الله به علي. فقال له السائل: لست من سؤال الدنيا وأنا ملك من الملائكة بعثني الله إليك ليختبر شكرك الحمد لله الذي جعلك لنعمته شاكراً ولفضله ذاكر ثم غاب عنه.

وينبغي للسائل أن لا يصرح بالسؤال ما وجد عنه مندوحة، لأن في التعريض صيانة من ذل الطلب، كالذي حكي أن رجلاًساير بعض الولاة فقال: ما أهزل بردوتك فقال: يده مع أيدينا فوصفه اكتفاء بهذا التعريض الذي بلغ ما لا يبلغه صريح السؤال.

وفي كتاب الأدب قال: وحكي أن عبيد الله بن سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب إليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يقول:

أيا دهرنا أسعفنا في نفوسنا ... وأسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له نعماك فيهم أتمها ... ودع أمرنا إن المهم المقدم

[١/٤٠٠] / فقال عبيد الله: ما أحسن ما شكى أمره بين أضعاف مرحه وقضى حاجته.

ويروى أن أعرابياً قدم على عليٍّ بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين لي إليك حاجة

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني في معنى هذا من حديث ابن عمر: رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتي وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن أبي عثمان عبد الله بن زيد الحمصي ضعفه الأزدي.

الحياء يمنعني أن أذكرها لك؟ فقال: يا أعرابي خطها في الأرض. وخطها، فيها أني فقير. فقال علي لغلامه: قنبر يا قنبر أكسه حلتي فكساه الحلة فأنشأ الأعرابي يقول:

كسوتني حلة تبلى محاسنها ... فسوف اكسوك من حسن الثناء حللاً
إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة ... ولست تبغي بما قد نلته بدلاً
إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه ... كالغيث يحيى نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بذلت به ... كل أمرىء سوف يجزى بالذي فعلا

فقال عليّ: يا قنبر زده مائة دينار، فأعطاه إياها فلما ولى الأعرابي قال له قنبر: يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لأصلحت به من شأنهم. قال: مه يا قنبر لا تفعل؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اشكروا من أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

ويقال: الملائكة تنزل من السماء فيطوفون على الأبواب لينظروا كيف صنع الناس فيما أعطاهم الله وأكثر ما يأتوهم بعد صلاة المغرب.

ولذلك قيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ردوا السائل بوقار ولين / وحسن كلمة أو [٤٤١/ب] برد جميل فإنه قد يأتيكم من ليس بإنس ولا جان لينظر كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله.

وفي الحديث: «ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس طائر».

في الحديث: «لولا أن السائلون يكذبون ما أفلح من ردهم».

وفي الأثر أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ بعنقود عنب فسأله مسكين فأعطاه إياه فانصرف ذلك المسكين ليبيعه، فأدركه الرجل فاشتراه منه، فأعطاه لرسول الله ﷺ ثانية فسأله ذلك المسكين فأعطاه له ففعل ذلك ثلاث مرات فقال له عليه السلام: «يا هذ أردت أن تكون تاجراً». فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[1].

وفي بعض الكتب: أن إبليس اللعين قال لموسى عليه السلام: أوصيك بثلاث؛ لا ترد سائلاً، ولا تخل بامرأة لا تحل لك، ولا تقبل أمانة، فانصرف اللعين وهو يضرب وجهه ويقول: أخبرته بهن يحذر الناس منهن.

فالواجب على من وقف عليه السائل أن لا يخيبه إن قدر على ذلك أي سائل كان لقوله

(١) سورة الضحى الآية: ١٠.

عليه السلام: «أعط السائل وإن جاء على فرس ولا سيما سائل المسجد لأنه ضيف الله أوى بيت الله».

وذكر في بعض الكتب أن رجلاً سأل أهل مسجد بليل ليطعموه فتفرقوا عنه فلم يشتغلوا به فلما أصبحوا وجدوه ميتاً فأخذوا في جهازد فدفنوه فرجعوا إلى المسجد فوجدوا الكفن في المحراب مكتوب فيه كفنكم مردود عليكم، والرب ساخط عليكم، والله أعلم وأحكم.

[٤٤٢/أ] / فصـــل: في التحذير عن مخالطة الناس والحث على العزلة

قال الله سبحانه وتعالى حكاية عن خليله عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُم وَمَا يَعبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إِسحٰقَ وَيَعقُوبَ﴾[١]. الآية.

وقال مخبراً عن أصحاب الكهف: ﴿وَإِذا ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعبُـدُونَ إِلاَّ الله فَأْوُوا، إِلَى الكَهْفِ﴾[٢]. الآية.

وعن رسول الله ﷺ: «إن أعجب الناس أتى منزلة رجل يؤمن بالله ورسله ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعمر ماله ويحفظ دينه ويعتزل الناس».

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «المجالس ثلاثة فأجملها وأشرفها مجلس بين المسلمين وبين عدوهم والثاني في بيت من بيوت الله يذكرون الله تعالى والثالث ببيت الرجل حيث لا يَرى ولا يُرى».

وعن عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص أنه قال: قال لي عليه السلام: «يا عبد الله بن عمرو كيف إذا بقيت في حثالة من الناس وقد مرجت عهودهم وأمانتهم وكانوا هكذا؟». وشبك عليه أصابعه. قلت: يا رسول الله ما تأمرني به؟ قال: «آمرك أن تتقي الله وأن تأخذ بما تعرف وتدع ما تنكر وعليك بخويصة نفسك وإياك والعامة»[٣].

وروي عن أبي الدرداء أنه قال: احذروا الناس؛ فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلاَّ أدبروه ولا ظهر جواد إلاَّ عقروه ولا قلب مؤمن إلاَّ حرّفوه.

وفي خبر آخر عنه عليه السلام في حديث عبد اللّٰه قال: «ذلك أيام الهرج». فقيل وما

---

(١) سورة مريم الآية: ٤٩.
(٢) سورة الكهف الآية: ١٦.
(٣) قال الحافظ: العراقي في المغني في نحو: رواه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن.

أيام الهرج؟ قال: / «حين لا يأمن الرجل جليسه»[١]. [٤٤٣/ب]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال للحارث بن عمير أنه إن يدفع عن عمرك فسيأتي عليك زمان كثير خطباءه قليل علماء كثير سؤاله قليل معطوه، الهوى فيه قائد العلم قال: ومتى ذلك؟ قال: إذا ميتت الصلاة وقُبِلَتْ الرشا ويُبَاع الدين بعرض يسير من الدنيا بالنجاة ويحك ثم النجاة.

وعن سفيان الثوري أنه كان يقول: ما رأيت للإنسان خيراً من أن يدخل في حجره، وكان يقول: هذا زمان السكوت ولزوم البيوت، وكان يقول أنكر المعرفة عند من يعرفك ولا تتعرف إلى من لا يعرفك.

وروي عن الحسن بن جني أنه فقد شاباً كان يجالسه فخرج إلى منزله فضرب عليه الباب فخرج إليه الشاب فقال له الحسن: ما لي لم أرك؟ فقال: إنما هذه دار ليست بدار لقاء وإنما هي دار عمل واللقاء هناك. ثم انصرف فما رآه الحسن بعد ذلك حتى مات. وينشد:

دعــوه لا تلــومــوه دعــوه ... فقــد علــم الــذي لــم تعلمــوه
واعلــم بــالْهُــدَى فسمــى إليــه ... وطــالــب مطلبــا لــم تطلبــوه
أجــاب دعــاءه لمــا دعــاه ... وقــام بحقِّــه وأضعتمــوه
بنفســي ذاك مــن فطــن لبيــب ... تــذَّوق مطعمــاً لــم تطعمــوه

وعن وهيب بن الورد أنه قال: كانوا يقولون العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشر في اعتزال الناس. قال وهيب: ولقد عالجت الصمت ولم أجد نفسي تقبل منه على ما أحب فرأيت أن أيسر هذه الأجزاء عاشرها والتزمته.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في العزلة: راحة من خلطاء السوء.

وروي عن الحسن البصري أنه كان ربما جلس في بيته واعتزل الناس أياماً، وأن رجلاً من أصحابه دخل عليه يوماً فقال له: يا أبا سعيد أما استوحشت في وحدتك؟ فقال: يا ابن أخي لا يستوحش مع الله إلاَّ أحمق. وينشد:

ووحــده المــرء بــلا أنيــس ... خيــر لــه مــن ســيء الجليــس

---

(١) ذكر الحافظ العراقي بنحوه في المغني: وقال رواه أبو داود مختصراً والخطابي في العزلة بتمامه وفي إسناده عند الخطابي انقطاع ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته.

وقال بعض العلماء: إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة أنسه بالوحدة وأغناه بالقنوع ويصره عيب نفسه فمن أعطي ذلك فقد أعطي خير الدنيا والآخرة.

ويقال: مكتوب في الإنجيل من اعتزل الناس نجا، وروي عن ذي النون المصري أنه قال: وصف لي عابد في الجبل فدخلت فيه أطلبه لأعرف مكانه الذي يأوى إليه فبينما أنا في بعض الليل إذ سمعت صوتاً ينادي: يا من بيده ملكوت كل شيء يا من هو بالنفوس عليم قد طال شوقي إلى لقائك. فاتبعت الصوت فإذا أنا به في وسط شجر ملتف فلما بصر بي فزع مني فقال لي: يا هذا من أنت؟ فقد أفزعتني. فقلت: من هرب إلى الله لا يفزعه / آدمي. فقال: لم [٤٤٥/أ] أفزع منك لأنك آدمي ولكن كل من جهز جهازاً خاف على جهازه. قلت: وما جهزت فتخاف عليه؟ قال: جهزت بدني أطلب به ربحاً من سيدي وكان خوفي منك من فتنك. قال وقلت: وما رأيت من فتني؟ قال: لأن بني آدم لصوص القلوب إلاَّ من عصمه الله. قلت: إنما أتيتك أستهديك الطريق قال: بالعقل تدرك ما تريد. قلت: وما العقل؟ قال: الصدق والحلم والمبادرة.

وروي عن عروة بن الزبير أنه خرج من المدينة ونزل العقيق، فقالوا له في ذلك فقال لهم: فررت منكم. قالوا: ولم؟ قال: رأيت مساجدكم لاغية وأسواقكم لاهية والفواحش في حواشيكم بادية خوفت أن ينزل بلاء بكم فيصيبي معكم.

وروي عن إبراهيم بن عبد اللّه أنه قال: قيل للحسن البصري يا أبا سعيد هاهنا رجل لم نره قط إلاّ جالساً وحده خلف سارية. فقال الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني به. فنظر إليه ذات يوم فقالوا للحسن: هذا الذي أخبرناك به وأشاروا إليه فمضى إليه الحسن. فقال: يا عبد اللّه قد حبيت إليك العزلة فما منعك من مخالطة الناس؟ فقال: أمر شغلني عن الناس. قال: فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه؟ قال: أمر شغلني عن الناس وعن الحسن. قال له الحسن: وما ذلك الشغل يرحمك الله؟ قال: إني أصبح وأمسي بين ذنب ونعمة فرأيت أن أشغل نفسي عن الناس بالاستغفار عن الذنب وأشكر الله على النعمة. قال له الحسن: يا عبد اللّه أنت عندي أفقه من الحسن فالزم ما أنت / فيه. وينشد في العزلة: [٤٤٦/أ]

إذا ما كنت في زمن عبوس ... وفي ناس من البشر الخسيس
لزمت البيت مصطبراً كأني ... أخوة قبر دفنت بلا أنيس

وينبغي لمن طلب السلامة أن يعتزل الناس وينفرد عنهم وذلك لأمرين.

أحدهما: أنهم يشغلونه عن عبادة ربه عز وجل، بل يمنعونه منها، بل يوقعونه في الشر والهلاك. على ما روي عن حاتم الأصم أنه قال: طلبت من هذا الخلاق خمسة أشياء فلم أجدها؛ طلبت منهم الطاعة والزهدة فلم يفعلوا، فقلت: أعينوني عليها إن لم تفعلوا فلم يفعلوا، فقلت: ارضوا عني إن فعلت فلم يفعلوا فقلت: لا تمنعوني عنها إذاً فمنعوني، فقلت لا تدعوني إلى ما لا يرضى الله ولا تعادوني عليها إن لم أتابعكم ففعلوا فتركتهم وأشتغلت بخاصتي. وقد ذكر عن سفيان الثوري أنه كان يقول: والله الذي لا إله إلاّ هو لقد حلت العزلة في هذا الزمان.

ففي كتاب الغزالي قال: ولئن حلت في زمانه ففي زماننا هذا وجبت وافترضت وفي مثل زماننا هذا يقول الشاعر:

هَـذَا الـزمـان الـذي كُنـا نُحَـاذِرَه ... في قول كَعْبٍ وفي قول ابن مسعودِ
قِـدمـاً نُحـدَّثُ مـن أكـوانِـه عجبـاً ... حتـى وَقِفْنَـا علـى تلـك المـواعيـدِ
دهـرٌ بِـه الخيـرُ مفقُـودٌ بِـأَجْمَعِـهِ ... والشـرُ والجُـور فِيـهِ غَيـرُ مَفْقُـودِ
/ إن دام هذا ولم يحدث له غير ... لَـمْ نَبْـكِ مَيِتـاً ولـم نَفْـرحْ بِمَـوْلُـودِ [٤٤٧/ب]

والأمر الثاني: الذي يطلب من أجله التفرد عن الناس: أن الناس يفسدون عليك ما يحصل من العبادة إن لم يعصمك الله تعالى، بسبب ما يعرض من قبلهم من دواعي الرياء والتزين. ولقد صدق يحيى بن معاذ حيث قال: رؤية الناس بساط الرياء.

وهؤلاء الزهاد قد خافوا على أنفسهم من هذا المعنى حتى تركوا الملاقاة والتزاور.

وقد ذكر عن هرم بن حيان أنه قال لأويس القرني رضي الله عنه: يا أويس صلنا بالزيارة واللقاء. قال أويس: قد وصلتك بما هو أنفعك لك منها بدعاء على ظهر الغيب.

وعن داود الطائي أنه قال: صم عن الدنيا وأجعل فطرك الموت، وفر من الناس فرارك من الأسد. ولقد حكى عن بعض العلماء أنه جلس مع بعض العارفين فتذاكرا ملياً ثم دعوا في آخر حديثهما. فقال العالم للعارف: ما أظن أني جلست مجلساً أنا أرجى له من مجلسي هذا فقال له العارف: لكني أنا جلست مجلساً أخوف منه من مجلسي هذا ألست تعمد إلي أحسن حديثك علومك فتنشرها وتظهرها بين يدي وأنا كذلك؟ فقد وقع الرياء. قال: فبكى العالم حتى غشى عليه وكان بعد ذلك يتمثل بهذين البيتين:

يـا ويلتـي مـن مـوقـف مـا بـه ... أخـوف مـن أن يعـدل الحـاكـم

[٤٤٨/أ] /يا رب عفواً منك عن مذنب أسرف إلا أنه نادم

فهذه أهل الزهد والرياضة في ملاقاتهم، فكيف حال أهل الرغبة والبطالة؟ بل حال أهل النشرة والجهالة واعلم أن الزمان قد أصبح في فساد عظيم، وأصبح أهله في ضرر كبير وضلال جسيم، فاحترز منهم جهدك، فأنهم يشغلونك عن طاعة الله حتى لا يكاد يحصل لك منها شيء، ثم يفسدون عليك ما حصل حتى لا يكاد يسلم لك منها شيء فلزمتك العزلة عنهم والاستعاذة بالله من شر هذا الزمان وأهله.

وقد ورد في الحديث: «يأتي على الناس زمان يكون الناس فيه ذئاباً فمن كان ذئباً أكل مع الذئاب ومن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب».

وفي الحديث أيضاً عنه عليه السلام أنه قال: «يأتي على الناس زمان لا يسلم فيه لذي دين دينه إلاَّ من يعز بدينه من قرية إلى قرية ومن جحر إلى حجر يفر ويروغ كما يروغ الثعلب».

قيل: يا رسول الله متى ذلك؟ قال: «إذا لم تنل المعيشة إلاَّ بمعصية الله عز وجل فإذا كان ذلك الزمان فقد حلت فيه العزوبة والعزلة الغربة».

قيل: وكيف وقد أمرتنا بالتزويج؟ قال: «إذا كان ذلك الزمان يكون فيه هلاك الرجل على يد أبويه فإن لم يكونا فعلى يد قرابته فإن لم تكن فعلى يد زوجته».

قيل: فكيف ذلك؟ قال: «يعيرونه بضيق ذات اليد فيتكلف من الأمور ما لا يطيقه فيورده ذلك موارد الهلاك»[1].

[٤٤٩/أ] وفي الحديث أيضاً: «يأتي على الناس زمان يخرج الرجل من بيته / ومعه دينه ويرجع وليس معه شيء». والله أعلم. فإن قيل ما حكم العزلة والحد الذي يجب منها؟ قيل له: قد ذكر في أثر بعض العلماء أنه قال: الناس في ذلك رجلان رجل لا حاجة بالخلق إليه في علم وبيان حكم، فالأولى لهذا الرجل التفرد عن الناس فلا يخالطهم إلاَّ في جمعة أو جماعة أو عيد أو حج أو زيارة أو إقامة حق ميت أو مجلس علم بالسنة أو حاجة في معيشة لا بد له من ذلك، وإلاَّ فيوارى شخصه ويلزم بيته لا يعرف ولا يعرف، وأما إن أحب هذا الرجل أن ينقطع عن الناس ولا يخالطهم في أمر من الأمور البتة من دين ودنيا وجماعة وجمعة وغيرها، لما رأى في ذلك من مصلحته فإنه لا يسعه ذلك إلاَّ بأحد أمرين:

---

(١) ذكرها الحافظ العراقي في المغني وقال: رواه الخطابي في العزلة من حديثه وحديث ابن مسعود نحوه والبيهقي في الزهد نحوه من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف وذكره الحافظ العراقي في النكاح والعزلة.

الأمر الأول: إما أن يصير إلى موضع لا تلزمه هناك هذه الفروض كرؤوس الجبل وبطون الأودية ونحوها، ولعل من أحد الوجوه التي دلت العباد على تلك المواضع البعيدة عن الناس.

والأمر الثاني: أن يتيقن بالحقيقة أن الضرر الذي لحقه في مخالطة الناس بسبب هذه الفروض أعظم من تركها محينئذٍ ربما يكون له عذراً. قال ولقد رأيت أنا بمكة ـ حرسها الله ـ بعض الشيوخ المتفردين من أهل العلم وهؤلاء يحضر الجماعة في المسجد الحرام مع قربه منه وسلامة حاله فحاورته في ذلك فذكر من عذره ما أشرنا إليه وهو أن ما يجده من الثواب لا يفيء بما يلحقه من الآثام والتباعات في الخروج إلى المسجد ولقاء الناس.

قال: وجملة الأمر: فلا عتب على المعذور والله تعالى أولى بالعذر وهو عليم بذات / الصدور. ولكن الطريق العدل هو الأول بأن يشارك الناس في الجمعة والجماعة وصنوف [٤٥٠/ب] الخيرات، ويبانهم فيما سوى ذلك، فإن أحب الطريق الثاني بأن ينقطع عن الناس بمرة فسبيله الخروج إلى مواضع لا تتوجه إليه هذه الفروض هنالك، لأن كونه مع الناس في مصر واحد لا يحضر جمعة ولا جماعة لعذر يداه في ذلك من وزر أو تباعة فإنه يحتاج إلى نظر دقيق وعلم غامض حتى لا يسقط عنه ذلك فيه خطر الغلط والأولان أسلم وأحفظ والله ولي الهداية بمنه.

وأما الرجل الثاني: فرجل يكون قدوة في العلم بحيث يحتاج الناس إليه في أمر دينهم لبيان حق، أو رد على مبتدع أودعوة إلى خير بفعل أو قول أو نحو ذلك فلا يسع هذا الرجل الاعتزال عن الناس بل ينصب نفسه بينهم ناصحاً لخلق الله تعالى، ذاباً على دين الله مبيتاً لأحكام الله.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا ظهرت البدع في أمتي فعلى العالم أن ينشر علمه فإن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾. وإلى قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[1].

هذا إذا كان بينهم وإذا خرج بينهم فلا يجوز له أيضاً. وذكر أن بعض العلماء قصد أن ينفرد عن الخلق لعبادة الله تعالى فبينما هو في الجبال إذا سمع صوتاً ينادي: يا فلان إذا صرت من حجج الله على خلقه تركت عبادة الله فرجع فكان هذا سبب صحبته الخلق. قال: واعلم أن

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٥٩.

[٤٥١/أ] مثل هذا الرجل المحتاج إليه في باب الدين يحتاج في صحبته / الخلق إلى أمرين شديدين:

أحدهما: صبر طويل وحلم عظيم ونظر لطيف واستعاذة دائمة.

والثاني: أن يكون في هذا منفرداً عنهم وإن كان بالشخص معهم، فإن كلموه كلمهم وإن زاوره عظمهم على قدرهم وشكرهم، وإن سكتوا عنه وأعرضوا استغنم ذلك منهم، وإن كانوا في حق وفي خير ساعدهم، وإن صاروا إلى لغوٍ وشرٍ خالفهم وهاجرهم بل رد عليهم وزجرهم، إن رجا قبولهم ثم يقوم بجميع حقوقهم من الزيارة والعيادات وقضاء الحاجات التي ترفع إليه ما أمكنه، ولا يطالبهم بالمكافأت ولا يرجو ذلك منهم ولا يريهم من نفسه استيحاشاً لذلك ويباسطهم بالقول إن قدر وينقبض عنهم في الأخذ إن أعطى، ويتحمل منهم الأذى ويظهر لهم البشر ويتجمل بظاهره لهم ويكتم حاجته عنهم ويقاسيها في سره وباطنه، ثم يحتاج مع ذلك أن ينظر لنفسه خاصة ويجعل لها حظاً من العبادات الخالصة، كما قال عمر بن الخطاب: إن نمت الليل لأضيعن نفسي وإن نمت النهار لأضيعن الرعية فكيف لي بالنوم مع هاتين.

قال: وفي مثل هذا المعنى عرضت لي أبيات من الشعر وهي:

فإن كنت في هدى الأئمة راغباً فوطن على أن ترتكبك الوقائع
بنفس وقور عند كل كريهة وقلب صبور وهو في الصدور مانع
لسانك مخزوم وطرفك ملجم وسرك مكتوم لدى الرب ذائع
[٤٥٢/أ] / وذكرك معمور وبابك مغلق وثغرك بسام وبطنك جائع
وقلبك مجروج وسوقك كاسد وفضلك مدفون وظنُّك شائع
وفي كلِ يوم أنت جارع غصة من الدهر والإخوان والقلب طائع
فدونك هذا العلم خذه ذريعة ليوم عبوس عز فيه الذرائع

نعم فالنفس معهم والقلب ما أبعده عنهم وذلك لعمري أمر شديد وعيش نكيد وفيه يقول بعض العلماء في وصيته: يا بني عش مع أهل زمانك ولا تقتدِ بهم ثم قال: ما أشد هذا العيش مع الأحياء والاقتداء بالأموات.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: خالط الناس وزائلهم ودينك لا تكلمنه، وقال أيضاً: كن كابن لبون لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب فهذه نكتة مقنعة، قال ثم أقول: إذا هاج الفتن بعضها في بعض، وتراجع الأمر، فتولى الناس عن أمر الدين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ولا يطلبون عالماً، ولا يعنهم أمر دينهم البتة، وترى الفتنة تعم الناس، وتدب بين

الخاصة، فللعالم العزلة وله العذر فيها، ويتفرد عن الناس بدينه ويدفن العلم ويعبد الله بكتمان علمه، وأخاف أن يكون هذا الذي ذكرناه هو حال زماننا الذكر الصعب الذي عمت فيه الفتنة وأطبق الكتمان وعظم البلاء ومات الدين وتنكرت الدنيا والله المستعان وعليه التكلان.

وأما الجاهل لأمر دينه فعليه بملازمة أحد رجلين، عالم يرشده إلى طريق الآخرة، وخدن ينتفع به فيما لا بد له من أمر دنياه وما سوى هذين فليعزله وإن قيض له رجلاً جامعاً له ما يحتاج إليه من / أمر دينه ودنياه ويدع ما سواه والله أعلم. [٤٥٣/ب]

وأما مدارس علماء الآخرة أهل الاجتهاد في العلم والعبادة المتعاونين على البر والتقوى، فهم أجل إخوان في الله وأعوان على طاعة الله، فلا تشغل الإنسان عنهم عزلة؛ لأنهم جمعوا فائدتين:

إحداهما: العزلة عن العوام ومخالطته أمورهم.

والثانية: اكتساب الثواب الجزيل في مشاركتهم في الجمعة والجماعة ومجالس الذكر وتكثير شعار الإسلام مع ما للناس فيهم من الهداية والبركات والنصيحة فصار الكون معهم أعدل طريقين وأحسن حالاً، وهذا إذا كانت المدارس ثابته على رسم المتقين وسير السلف الصالحين.

وأما الآن فقد تغيرت الأمور وعظمت البلية واندرس الدين والسير المورثة عن المشايخ فلا سلامة يجدها الإنسان إلاَّ من رزقه الله العمل والتوفيق فليزم بيته ويكف لسانه، ويشارك الناس في أصناف الخيرات من المجالس والخيرات. ويجانبهم في سائر أحوالهم وأمورهم وما هم فيه من الآفات إن وجد إلى ذلك سبيلاً وإلاَّ فليزم. العزلة والغربة والله المستعان وعليه التكلان. وأما الذي يهون عليك العزلة فثلاثة:

أحدهم: استغراق وقتك في العبادة، وقد قال عليه السلام «إن في العبادة لشغلاً». واعلم أن الاستئناس بالناس من علامة الإفلاس فإذا أعطيت العبادة حقها وجدت حلاوة المناجاة فاستأنست كتاب الله فحينئذٍ تستوحش من الخلق وتشتغل عن صحبتهم وكلامهم.

الثاني: قطع الطمع عنهم / بمرة واحدة فيهون عليك أمرهم؛ لأن من ترجوا نفعه ولا [٤٥٤/ب] تخاف ضره فوجوده وعدمه سواء.

والثالث: تذكر ما في مخالطتهم من الآفات وتكرر ذلك على قلبك. فإن هذه الأمور الثلاثة إذا لزمتها اطردتك عن صحبة الخلق إلى باب الله تعالى والتفرد لعبادته والله ولي التوفيق والعصمة.

القنطرة العاشرة
قنطرة الشيطان

بسم الله الرحمٰن الرحيم، وبه [نستعين][1] وصلّى الله على سيّدنا محمّد النبي الأمي وعلى آله وسلّم.

فاعلم يا أخي أرشدنا الله وإياك لطاعته أن الشيطان للإنسان عدو مضل مبين قد تجرد لمعاداتنا في كل وقت وحين، فليزمنا أن نستعيذ بالله ذي القوة المتين أن يعيذنا من مكائد هذا الكلب[2] اللعين، وقد حكى عن مجاهد أنه قال: إن لأبليس خمسة أمراء عن أولاده، عقد لكل واحد منهم على شيء من أمره، ثم سماهم. تبوراً، والأعور، ومسوطاً وداسماً، وزنبوراً. قال:

فأما ثبوراً: فصاحب المصيبات الذي يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية.

والأعور: صاحب الزنا الذي يزينه للناس ويأمر به.

ومسوط: صاحب الكذب الذي يشيعه يلقى الرجل فيخبره الخبر فيذهب ذلك الرجل فيقول: لقد رأيت رجلاً ما أعرف وجهه ولا أسمه أخبرني كذا وكذا وما / هو إلاّ مسوط. [٤٥٥/أ]

وداسم: وهو الذي يدخل مع الرجل إلى أهله فيغضبه عليهم.

وزنبور:[3] صاحب السوق الذي يركز رأيته ولواءه في السوق.

---

(١) ما بين المعقوفين يقتضيه السياق واحسبه سقط من الناسخ.

(٢) ما كان ينبغي أن يذكر مثل هذه الكلمة لما فيها من الاسفاف ثم أن الكلب ليس بلعين كما هو حال إبليس عليه اللعنة والذي أظنه والله أعلم أنه سبق قلم من المؤلف رحمنا الله وإياه، لفرط غيظه منه جنبنا الله وإياكم شر وساوسه. آمين.

(٣) ذكر الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين (٣/٣٧) أسماء أولاد إبليس اللعين على هذا النحو: ثبر، والأعور، ومبسوط وداسم، وزلنبور.

فإذا كان اللعين قد اجتهد كل الاجتهاد في إهلاكك فليس لك منه ملجأ ولا منجى إلاّ التضرع، والاستعاذة منه بخالقك وقد أمر أكرم الخلق بذلك، فقال: ﴿قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾[١].

فالواجب على العبد التشمر لمحاربته لأنه عدو مطمع فيه في مصالحته بل لا يقنعه إلاّ إهلاك الإنسان وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوه عَدُوّاً﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾[٣].

وقد ذكر في بعض الكتب عن إبليس اللعين أنه قال: فضلنا على الناس بثلاث؛ نَرى ولا نُرى، ونخرج من تحت الثرى، ويعود كهلنا فتى.

وقد ذكر في كتاب النقاش أن بعض العلماء قال: إن الشياطين يتوالدون ولا يموتون، وأما غيرهم من الجن فإنهم يتوالدون ويموتون والله أعلم.

وقال تعالى لنبيه عليه السلام مع عصمته: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ﴾. إلى قوله: ﴿يُوَسوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ﴾[٤].

وذكر بعض العلماء أنه قال: إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، وأحسب أن بعضهم قال رأسه كرأس الحية فإذا ذكر الله تعالى خنس وإذا غفل وسوس.

وذكر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم من اللحم فيضيقوا مجاريه بالجوع والعطش»[٥].

وذكر بعض العلماء أن الله تعالى جعل قلب ابن /آدم مثل الزجاجة فلا يعمل شيئاً من [٤٥٦/ب] الشر إلاّ رمى له ملك موكل عليه نهياً من الله تعالى وزجراً ينكر ذلك عليه ويلقي الأمر بالطاعة

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ٩٧.
(٢) سورة فاطر الآية: ٦.
(٣) سورة الأعراف الآية: ٢٧.
(٤) سورة الناس الآيات: ١، ٥.
(٥) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٣/ ٦٤)، (٤/ ١٠٠، ١٥٠)، (٨/ ٦٠) (٩/ ٨٧)، مسلم في الصحيح (الدم ٢٤)، أبو داود في السنن (الصيام ب ٧٨، والأدب ب ٨٨)، والترمذي في الجامع الصحيح (١١٧٢)، ابن ماجة في السنن (١٧٨٠)، أحمد في المسند (٣/ ١٥٦، ٢٨٥)، الدارمي في السنن (٢/ ٣٢٠)، الطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٢٩).

إليه فذلك منه نور يتلألأ وذلك فجورها وتقواها قال: ويلقى إليه الملك الخبر فينور ويتلألأ فيستدل إبليس أنه الأمر من الله تعالى بالخير والطاعة فيلقي إليه الوسوسة بالمعصية فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ﴾(١). يعني من ذرية إبليس الذين هم الجن وأبوهم الجان وهو إبليس اللعين.

وذكر بعض العلماء: أن الشياطين توسوس إلى الجن من غير الشياطين كما توسوس إلى الناس والله أعلم.

وذكر أن بعض الصحابة قالوا: يا رسول الله يتعرض لقلوبنا أشياء لأن يقع أحد من السماء إلى الأرض فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق أحب إليه من أن يتكلم به قال عليه السلام «أوجدتموه»؟ قالوا: نعم. قال: «ذلك صريح الإيمان»(٢).

قال الغزالي: هذا يحمل على الكراهية الصارفة للوسوسة لأن الوسوسة صريح الإيمان، والله أعلم.

ويروى أن يحيى بن زكريا عليهما السلام سأل إبليس عن أحوال بني آدم عندهم فقال: هم ثلاثة أصناف صنف معصوم منا وهم أمثالك، وصنف كالكرة في أيدي الصبيان؛ وصنف ثالث هم أشد علينا يعني أهل الوقوع في الخطايا المستغفرين منها يجتهد فيهم حتى يوقعهم في المعاصي فيستغفرون منها، ثم يوقعهم ثانية، ثم يفزعون إلى التوبة، فيفسدون عليه اجتهاده فيهم(٣)، والله أعلم.

/ فصـــل [٤٥٧/أ]

اعلم أن الشيطان منصوب لمحاربتك مستعداً لعداوتك، فهو آناء الليل وأطراف النهار يرميك بسهامه ولا يرضى حتى يهلك الإنسان رأساً، وهذا حاله مع عوام الناس أهل الرغبة والبطالة، فكيف بمن تجور لطاعة الله ودعوة الخلق إلى عبادة الله، فله إذاً مع سائر الناس عداوة عامة، ومع أهل الاجتهاد عداوة خاصّة وإن أمرهم له أهم، ومعه عليهم أعوان، أشدها على

---

(١) سورة الناس الآيتان: ٥، ٦.

(٢) رواه مسلم من حديث ابن مسعود مختصراً: سُئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، فقال: «ذلك محض الإيمان» والنسائي في اليوم والليلة، وابن حبان في صحيحه، ورواه النسائي فيه من حديث عائشة، قاله العراقي في المغني (٣/ ٣٠٥).

(٣) ذكر الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين (٣/ ٣٨) نحو هذه القصة.

الإنسان: نفسه، وهواه، وله أسباب ومداخل وهو عنها غافل.

ولقد صدق يحيى بن معاذ حيث قال الشيطان فارغ وأنت مشغول، والشيطان يراك وأنت لا تراه وأنت تنساه وهو لا ينساك، فإذاً لا بد من محاربته وقهره. وقد حذر الله منه جميع الناس فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الْجَنَّةِ﴾[١]. ولم يسلما منه في الجنة دار الأمن والسرور بعد أن نبههما على عداوة الشيطان فقال: ﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾[٢]. مع أنه لم ينههما إلاّ عن شجرة واحدة وأطلق لهما ما وراء ذلك، فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة من كيد الشيطان، فكيف يجوز لغيره أن يأمن في الدنيا وهي منبع الفتن والمحن ومعدن البلاء والشهوات المنهى عنها؟

وقد قال موسى عليه السلام ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾[٣]. وقال لنبيه عليه السلام: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...﴾[٤] الآية.

فصـــل: في مجاهدة الشيطان

فإن قال قائل أراك قد عظمت مكر الشيطان ومكائده فكيف الطريق إلى مجاهدته فأعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك. فقال بعضهم: ينبغي للإنسان أن يشتغل بعبادة الله تعالى ولا يلتفت إلى الشيطان بل يجعل بدل التحرز منه طاعة الله تعالى. وقال آخرون: التحرز من الشيطان، وأخذ الحذر منه مقام التوكل على الله عز وجل والاعتماد عليه، إذ لا قدرة للشيطان على إضلال ولا إغواء إلاّ بمشيئة الرحمٰن.

وهاتان الطائفتان غالطتان مخالفتان لنصوص القرآن واتفاق أهل الإسلام على وجوب التحرز من الكفار، وإعداد ما استطاعوا لهم من قوة، وكراع، وسلاح وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[٥]. فكيف يكون أمر الله شغلاً أو توكلاً على غيره.

وقد دخل رسول الله ﷺ سيد المتوكلين مكة وعلى رأسه المغفرة وظاهر يوم أُحد بين بدر عين، فإذا أمرنا بعدوٍ يرانا ونراه، فكيف بعد ويرانا ولا نراه؟ ويجري منا مجرى الدم، وقد

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٢٧.
(٢) سورة طه الآية: ١١٧.
(٣) سورة القصص الآية: ١٥.
(٤) سورة الحج الآية: ٥٢.
(٥) سورة النساء الآية: ٧١.

أمر الله تعالى رسول الله ﷺ بالاستعاذة من جميع الشياطين بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[١]. أي في شيء من أحوالي كلها، والتحرز من الشياطين أولى من التحرز من الكافرين، لأن الشيطان إذا أنكبك بشيء من مكره كنت من العاصين الخاسرين والكفار إذا انكبوك بشيء من مكرهم / كان ذلك مكفراً لسيئاتك فالصواب [٤٥٩/أ] أخذ الحذر منه كما أمر رب العالمين، هكذا في مختصر كتاب الرعاية وقال بعضهم: التدبير في دفع الشيطان الاستعاذة بالله منه لا غير فإن الشيطان كلب سلطه الله عليك فإن اشتغلت بمحاربته وتعبت وضاع عليك وقتك وربما يظفر بك فيعقرك، فإن الرجوع إلى رب الكلب. ليصرفه عنك أولى. وقال آخرون: الطريق المجاهدة، والقيام عليه بالدفع والردّ والمخالفة.

والصواب في ذلك أن يجمع بين الطريقين وهو أن يستعيذ بالله تعالى أولاً من شره كما أمرنا وهو الكافي من شره، ثم إنه إذا نازغنا وغلب علينا علمنا أن ذلك إبتلاء من الله ليرى صد مجاهدتنا وقوتنا في أمر الله تعالى وصبرنا كما أنه يسلط علينا الكفار مع قدرته أن يكفينا أمرهم وشرهم ليكون لنا حظ من الجهاد والصبر والتمحيص والشهادة قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ...[٢]﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ...[٣]﴾. الآية، فكذلك الشياطين.

وهذا التسليط تسليط تخلية لا تسليط أمر وقهر كما قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٤]. وأراد إرسال تخلية أي خلى بينهم وبين الكافرين والله أعلم.

واختلف القائلون بمجاهدة الشيطان في كيفية مجاهدته والتحرز منه. فقالت طائفة منهم: ينبغي أن يؤخذ الحذر منه في أغلب الأحوال توقياً لخطرة يخطرها. وقال آخرون: يؤخذ الحذر منه عند كل طاعة تعرض مخافة أن يدخل فيها ما يفسدها.

وقال بعض العلماء: مجاهدته في ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعلم الإنسان مكائده وحيله فلا يتخالس[٥] على الإنسان حينئذٍ كاللص إذا علم أن صاحب / الدار قد أحسّ فرّ وهرب. [٤٦٠/أ]

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ٩٨.

(٢) سورة محمد الآية: ٤.

(٣) سورة محمد الآية: ٣١.

(٤) سورة مريم الآية: ٨٣.

(٥) في الأصل: يتجالس. وهو تصحيف - والسياق يرجح ما أثبت.

الثاني: أن يستخف دعوته فلا يُعلق قلبه به ويتبعه فإنه بمنزلة الكلب النابح إن أقبلت عليه ولع بك ولح وإن أعرضت عنه[١] سكت.

والثالث: أن تديم ذكر الله تعالى بلسانك وقلبك.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن ذكر الله في جنب الشيطان كالأكلة في جنب ابن آدم». فإن قال قائل كيف تعلم مكائده؟ وكيف الطريق إلى معرفة ذلك؟ فاعلم أن له وساوس بمنزلة السهام التي ترميها وذلك إنما يتبين بمعرفة الخواطر وأقسامها، وله أيضاً حيل بمنزلة الشبكات التي تنصبها، وذلك يتبين بمعرفة المكائد وأوضاعها ومجاريها.

فأما أصل الخواطر فاعلم أن الله تعالى وكلّ بقلب ابن آدم ملكاً يدعوه إلى الخير يقال له الملهم، ولدعوته إلهام، وقرن به أيضاً شيطاناً في مقابلة الملك يدعو إلى الشر يقال له: الموسوس ولدعوته وسوسة، فالملهم لا يدعو إلاّ إلى الخير، والموسوس لا يدعو إلاّ إلى الشر في قول أكثر العلماء.

وقد حكي عن بعضهم أن الشيطان ربما يدعو إلى الخير وقصده في ذلك الشر، بأن يدعوه إلى المفضول من الخير ليحرمه درجة الفاضل، ويدعوه إلى الخير ليجره بذلك إلى ذنب عظيم لا يوفي خيره بذلك الشر من عجب أو غيره، فهذان داعيان قائمان على قلبه يدعوانه وهو يسمع وقلبه يحس بذلك على ما روي في الأخبار: أنه إذا ولد لابن آدم مولود قرن الله سبحانه ملكاً، وقرن الشيطان به شيطاناً، فالشيطان جاثم على أذن قلب ابن آدم اليسرى، والملك جاثم على أذن قلبه / اليمنى فهما يدعوانه. [٤٦١/ب]

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة». يعني نزلة بالدعوة من قولهم لم بالمكان وألم به إذا نزل، ثم ركب الله في بنية الإنسان طبيعة مائلة إلى الشهوات ونيل اللذات كيف ما كانت من حسن أو قبيح فتلك هي[٢] النفس الصارفة إلى الآفات فهذه ثلاث دعات.

ثم اعلم بعد هذه المقدمة أن الخواطر هي آثار تحدث في قلب العبد تبعثه على الأفعال والترك وتدعوه إليها وسميت خواطر لأضطرابها مأخوذ من خطرات الريح ونحوها وحدوثها جميعاً في قلب العبد من الله بالحقيقة لكنها أربعة أقسام:

---

(١) في الأصل. عليه. وهو تحريف. وسياق يوضح التحريف.

(٢) في الأصل: فذلك هو. وهو تحريف ظاهر. أحسبه سهو من الناسخ، والله أعلم.

منها ما يحدث الله تعالى في القلب ابتداءً فيقال له: الخاطر فقط.

وقسم يحدثه موافقاً لطبع الإنسان فيقال له: الهوى وينسب إليه.

وقسم يحدثه عقب دعوة الملهم فينسب إليه فيقال له: إلهام.

وقسم يحدثه عقب دعوة الشيطان فينسب إليه ويقال له: الوسوسة وتنسب إليه بإنها خواطر من الشيطان، وأنما هي في الحقيقة حادثة عن دعوته، فهو كالسبب في ذلك ولكنه ينسب إليه، فهذه أربعة أقسام من الخواطر.

ثم اعلم بعد هذا التقسيم أن الخاطر الذي من قبل الله إبتداء قد يكون بخير إكراماً وإلزاماً للحجة، وقد يكون بشر امتحاناً وتغليظاً للمحنة، والخاطر الذي يكون من قِبَلِ الملهم لا يكون إلاّ بخير إذ هو أنصح مرشد لم يرسل إلاّ لذلك.

والخاطر الذي يكون من قبل الشيطان لا يكون إلاّ بشر اغواءً واستزلالاً، وربما يكون بالخير مكراً وإستدراجاً، والذي يكون من قبل النفس يكون بالشر وبما لا خير فيه تمنعاً وتعسفاً.

ولقد روي عن بعض السلف / أيضاً: أن هوى النفس قد يدعو إلى خير والمقصود منه شَرَك الشيطان فهذه أنواعها. [٤٦٢/أ]

ثم بعد هذه إنك محتاج إلى معرفة ثلاثة فصول لا بد لك منها البتة وفيها المقصود:

أحدها: الفرق بين خاطر الخير وخاطر الشر في الجملة.

والثاني: الفرق بين خاطر شر ابتدائي، أو شيطاني، أو هوائي إذا تفرق بينهما فإن لكل واحد منهما دفعاً من نوع آخر.

والثالث: الفرق بين خاطر خير إبتدائي والهامي أو شيطاني ليتبع ما يكون من الله تعالى أو من الملهم ويتجنب ما يكون من الشيطان وكذلك الهوائي على قول من يقول به.

أما الفصل الأول: فقد قالت العلماء إذا أردت أن تعلم خاطر الخير من خاطر الشر وفرق بينهما فزنه بأحد الموازين الأربعة بين لك حالة:

فالأول: أن تعرض الأمر الذي خطر ببالك على الشرع: فإن وافق جنسه فهو خير وإن كان بالضد بشبهة أو رخصة فهو شر. فإن لم يبن لك بهذا الميزان.

[الثاني][1]: فاعرضه على الإقتداء فإن كان فعله اقتداءً بالصالحين فهو خير، وإن كان

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة تصنيفية لإيضاح مراد المؤلف وتقيسماته للموازين الأربعة في الفصل.

بالضد إتباعاً للطالحين فهو شر. فإن لم يستبن لك بهذا الميزان.

[الثالث]، و[الرابع][1]: فاعرضه على النفس، والهوى: وانظر إن كان مما تميل إليه النفس ميل طبع لا نفرة خشية وترهيب فاعلم أنه خير وإن كان مما تميل إليه النفس ميل طبع وجبلة لا ميل رجاء إلى الله تعالى وترغيب فهو شر إذا النفس أمارة بالسوء لا تميل بأصلها إلى خير فبأحد هذه الموازين إذا أمعنت النظر يستبين لك خاطر الخير من خاطر الشر والله تعالى / ولى الهداية بفضله إنه جواد كريم. [٤٦٣/ب]

وأما الفصل الثاني: إذا أردت أن تفرق بين خاطر شر يكون من قبل الشيطان وبين خاطر شر يكون من هوى النفس أو من الله تعالى ابتداءً فانظر فيه من ثلاثة أوجه:

أحدها: إن وجدته مصمماً راتباً على حالة واحدة فهو من الله تعالى أو من هوى النفس وإن وجدته متردداً مضطرباً فاعلم أنه من الشيطان.

قال وكان بعض العارفين يقول مثل هوى النفس مثل النمر إذا حارب لا ينصرف إلاّ بمقمع بالغ وقهر ظاهر، ومثل الشيطان الذئب إذا اطردته من جانب دخل من جانب.

وثانيها: إن وجدته عقب ذنب أحدثته فهو من الله تعالى إهانة وعقوبة لشؤم ذلك الذنب قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

والثالث: إن وجدته لا يضعف ولا يقل بذكر الله تعالى، ولا يزول فهو من الهوى، فإن وجدته يضعف ويقل بذكر الله تعالى فهو من الشيطان كما ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾[3]. إنه الشيطان جاثم على قلب ابن آدم إذا ذكر الله تعالى خنس وإذا غفل وسوس[4].

وأما الفصل الثالث: وإذا أردت أن تفرق بين خاطر خير يكون من الله تعالى أو من الملك فانظر في ذلك من ثلاثة أوجه:

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة تصنيفية لإيضاح مراد المؤلف وتقسيماته للموازين الأربعة في الفصل.

(٢) سورة المطففين الآية: ١٤.

(٣) سورة الناس الآية: ٤.

(٤) حديث: «وإذا ذكر الله خنس» ـ رواه ـ ابن أبي الدنيا، وابن عدى من حديث أنس في أثناء حديث: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم»... الحديث، قاله العراقي في المغني (٣/ ٤٢).

[الأول][١]: فإن كان قوياً مصمماً فهو من الله تعالى، وإن كان متردداً فهو من الملك إذ هو بمنزلة الناصح يدخل معك في كل وجه ويعرض عليك كل نصح رجاء إجابتك ورغبتك في الخير.

والثاني: إن كان ذلك عقب إجتهاد منك وطاعة فهو من الله تعالى قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدًى﴾[٣].

وإن كان مبتدأ فهو من الملك في الأغلب.

والثالث: إن كان من الأعمال الباطنة فهو من الله تعالى وإن كان من الفروع والأعمال الظاهرة فهو من الملك في الأكثر إذ الملك لا سبيل له إلى معرفة باطن العبد في قول أكثرهم. وأما خاطر الخير الذي يكون من قِبَل الشيطان إستدراجاً إلى شر يزيد على ذلك الخير، فلقد قال بعض العلماء: انظر إن وجدت نفسك في ذلك الفعل الذي خطر بقلبك مع نشاط لا مع خشية، ومع عجلة لا مع تأنٍ، ومع أمن لا مع خوف، ومع عمى العاقبة لا مع بصيرة، فاعلم أنه من الشيطان فاجتنبه. وإن وجدت نفسك على ضد ذلك مع خشية لا مع نشاط، ومع تأن لا مع عجلة، ومع خوف لا مع أمن، ومع بصيرة وعلم بالعاقبة لا مع عمى وجهالة، فاعلم أنه من الله تعالى أو من الملك.

[٤٦٥/ب] قال الغزالي: قلت أنا: وكان / النشاط خفة في الإنسان للفعل من غير بصيرة وذكر ثواب لينشطه فلا خير فيه وإن كان بضد ذلك فهو خير. وأما الثاني فمحمود إلا في مواضع معدودة ذكر في الخبر أن النبي ﷺ قال: «العجلة من الشيطان إلاّ في خمسة تزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب، وتجهيز الميت إذا مات، واقراء الضيف إذا نزل، والتوبة من الذنب إذا أذنب»[٤].

وأما الخوف فيحتمل أن يكون في إتمامه وآدائه على وجهه وحقه وقبول الله تعالى إياه. وأما بصارة العاقبة أن يبصر ويتيقن أنه رشد وخير، ويحتمل أن يكون لرؤية الثواب في العقبى ورجائه فاعلم ذلك موقناً.

---

(١) ما بين المعقوفين زيادته توضيحيه.
(٢) سورة العنكبوت الآية: ٦٩.
(٣) سورة محمد الآية: ١٧.
(٤) أطراف الحديث عند: البيهقي في السنن الكبرى (١/١٠٤)، (١٠/١٠٤)، الزبيدي في الإتحاف (٥/٢٥١، ٢٥٢)، المنذري في الترغيب والترهيب (١/٤٣٧)، العجلوني في كشف الخفا (٢/٧٦٢).

فهذه الفصول الثلاثة التي لزمتك معرفتها في فصل الخواطر فارعها وامعن النظر فيها ما استطعت فإنها من العلوم اللطيفة والأسرار الشريفة في هذا الباب والله الموفق للصواب بفضله.

أما فصل الحيل والمخادعة من الشيطان: فمجرى ذلك ومثاله أن مكائد الشيطان مع ابن آدم في الطاعة من سبعة أوجه:

أَحَدُهَا: أن ينهاه عنها فإن عصمه الله ورده بأن يقال أني محتاج إلى ذلك جداً، أنه لا بد لي من التزويد من هذه الدنيا الفانية إلى الآخرة التي لا إنقضاء لها، ثم يأمره بالتسويف، فإن عصمه الله ورده بأن يقول: أجلي ليس بيدي وعليّ أني إن سوفت عمل اليوم إلى غد فعمل غد متى أعمله، فإن لكل يوم عملاً، ثم يأمره بالعجلة فيقول له عجل عجل لتفرغ لكذا وكذا، فإن عصمه الله تعالى ورده بأن يقول له: قليل العمل مع التمام خير من كثير مع النقصان. ثم يأمره بإتمام العمل مراءة للناس، فإن عصمه الله تعالى ورده بأن يقول: /ما أصنع بمراءة الناس أفلا [يكفيني رؤية الله تعالى. ثم يريد أن يوقعه في العجب، فيقول: ما أعملك وما أيقظك، فإن عصمه الله ورده بإن يقول المنة لله تعالى في ذلك دوني وهو الذي خصني بتوفيقه وجعل لعملي قيمة بفضله ولو فضله فماذا كان قيمة هذا العمل في جنب نعمة الله تعالى عليّ وجنب معصيتي له. ثم يأتيه من وجه سادس وهو أعظمها ولا يقف عليه إلاّ متيقظ وهو أن يقول: اجتهد أنت في السر فإن الله تعالى سيظهره عليك ويلبس كل عامل رداء عمله، وأراد بذلك ضرباً من الرياء، فإن عصمه الله تعالى ورده بأن يقول: يا ملعون إلى الآن كنت تأتيني من وجه إفساد عملي، والآن تأتيني من وجه إخلاصه لتفسده عليّ، إنما أنا عبد اللّٰه تعالى وهو سيدي إن شاء أظهر، وإن شاء أخفى، وإن شاء جعلني خطيراً، وإن شاء جعلني حقيراً، وذلك إليه ولا أبالي أظهر ذلك للناس أو أخفاه عنهم فليس بأيديهم شيء. ثم يأتيه من وجه سابع ويقول لا حاجة لك إلى هذا العمل لأنك إن خلقت سعيداً لم يضرك العمل، وإن كنت شقياً لم ينفعك عملك، فإن عصمه الله تعالى. ورده بأن يقول: إنما أنا عبد وعلى العبد امتثال الأمر لعبوديته، والرب أعلم بربوبيته يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد، ولأنه ينفعني العمل كيف ما كنت لأني إذا كنت سعيداً احتجت إلى العمل زيادة للثواب، وإن كنت شقياً فأنا محتاج إليه كي لا ألوم نفسي على أن الله تعالى لا يعاقبني على الطاعة بكل حال ولا يضرني وعلى أني إن دخلت النار وأنا مطيع أحبّ إليّ من أن أدخلها وأنا عاصٍ، فكيف ووعده وقوله صدق وقد وعد على الطاعة بالثواب فمن لقي الله تعالى على الإيمان والطاعة /لن يدخل النار البتة ودخل الجنة لأنه [٤٦٧/أ] يستحقها بعمله ولكن لوعد الله الصادق، ولهذا المعنى أخبر الله تعالى عن السعداء إذا قالوا:

﴿ٱلْحَمْدُ لله ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[1]. فعلى العبد أن يحترز من الشيطان والهوى كل الاحتراز، وأن يستعين على مجاهدته ورد خطراته بذكر الله تعالى بالقلب واللسان، ويكثر الاشتغال بالطاعة والقربان، وكثرة الذكر، والاستغفار، وتلاوة القرآن، ولا تضره الوسوسة بالمعصية ما لم يعزم عليها، وكذلك الغفلة عن الشيطان في أكثر الأوقات، ما لم يترك فرضاً أو يرتكب محرماً بالقلب أو باللسان أو بالجوارح، ألا ترى أن من اهتم بشيء ثم رقد أن اهتمامه يوجب انتباهه لأجله، وإذا كان الاهتمام موجبا انتباه النائم فإيجابه لتذكر الغافل أولى، فليأخذ العبد حذراً من شياطين الأنس والجن أجمعين، وليستعين بالله على ذلك فهو نعم المستعان ونعم المعين.

فتيقظ: يا أخي رحمك الله فإن الأمر كما ترى وتسمع، وقس على ما ذكرنا سائر الأفعال والأحوال، وأستعن بالله وأستعذ به، فإن الأمر بيده ومنه التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

تم الجزء الثاني ويتلوه الجزء الثالث
وأوله القنطرة الحادية عشرة قنطرة النفس

---

(١) سورة الزمر الآية: ٧٤.

فهرس المحتويات

قنطرة الدنيا

قنطرة الخلق